نظرات اقتصادية
في تفسير الآي القرآنية

الجزء الأول : التفسير التحليلي

الدكتور سامر مظهر قنطقجي

المجلد الثاني

نظرات اقتصادية في تفسير الآي القرآنية

الجزء الأول : التفسير التحليلي
المجلد الثاني

وكتبه الفقير إلى الله تعالى

سامر بن مظهر قنطقجي

١٤٣٩ هـ / ٢٠١٨ م

..الْيَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ وَأَتْمَمْتُ
عَلَيْكُمْ نِعْمَتِي وَرَضِيتُ لَكُمُ الْإِسْلَامَ دِينًا.. ﴿٣﴾

سورة المائدة

جامعة كاي

جامعة أونلاين مرخصة من التعليم العالي

متخصصة في الاقتصاد الإسلامي وعلومه

https://kie.university

الفهرس

الفهرس	٥٣٧
تفسير سورة الرعد	٥٤١
تفسير سورة إبراهيم	٥٥١
تفسير سورة الحِجر	٥٥٧
تفسير سورة النحل	٥٦٩
تفسير سورة الإسراء	٥٩٣
تفسير سورة الكهف	٦١٤
تفسير سورة مريم	٦٤٤
تفسير سورة طه	٦٥٣
تفسير سورة الأنبياء	٦٦٧
تفسير سورة الحج	٦٧٦
تفسير سورة المؤمنون	٦٩٩
تفسير سورة النور	٧١٧
تفسير سورة الفرقان	٧٣٧
تفسير سورة الشعراء	٧٥٤
تفسير سورة النمل	٧٦٦
تفسير سورة القصص	٧٨٩
تفسير سورة العنكبوت	٨١١
تفسير سورة الروم	٨٢٦

تفسير سورة لقمان ٨٤١
تفسير سورة السجدة ٨٤٨
تفسير سورة الأحزاب ٨٥١
تفسير سورة سبأ ٨٥٤
تفسير سورة فاطر ٨٦٥
تفسير سورة يس ٨٧٥
تفسير سورة الصافات ٨٨١
تفسير سورة ص ٨٨٣
تفسير سورة الزمر ٨٨٨
تفسير سورة غافر ٩٠١
تفسير سورة فصلت ٩٠٦
تفسير سورة الشورى ٩١٤
تفسير سورة الزخرف ٩٢٤
تفسير سورة الدخان ٩٣٠
تفسير سورة الجاثية ٩٣١
تفسير سورة الأحقاف ٩٣٥
تفسير سورة محمد ٩٣٨
تفسير سورة الفتح ٩٤١
تفسير سورة الحجرات ٩٤٢
تفسير سورة ق ٩٤٣
تفسير سورة الذاريات ٩٤٦
تفسير سورة الطور ٩٥٠

تفسير سورة النجم ٩٥٢
تفسير سورة القمر ٩٥٤
تفسير سورة الرحمن ٩٥٦
تفسير سورة الواقعة ٩٦٥
تفسير سورة الحديد ٩٧٠
تفسير سورة المجادلة ٩٧٧
تفسير سورة الحشر ٩٨١
تفسير سورة الممتحنة ١٠٠٥
تفسير سورة الصف ١٠٠٩
تفسير سورة الجمعة ١٠١١
تفسير سورة المنافقون ١٠١٦
تفسير سورة التغابن ١٠٢٠
تفسير سورة الطلاق ١٠٢٥
تفسير سورة التحريم ١٠٢٩
تفسير سورة الملك ١٠٣١
تفسير سورة القلم ١٠٣٤
تفسير سورة المعارج ١٠٣٨
تفسير سورة نوح ١٠٣٩
تفسير سورة الجن ١٠٤١
تفسير سورة المزمل ١٠٤٤
تفسير سورة المدثر ١٠٤٦
تفسير سورة الإنسان ١٠٤٧

تفسير سورة المرسلات	١٠٤٩
تفسير سورة النبأ	١٠٥٠
تفسير سورة النازعات	١٠٥٢
تفسير سورة عبس	١٠٥٣
تفسير سورة المطففين	١٠٥٤
تفسير سورة الأعلى	١٠٥٦
تفسير سورة الغاشية	١٠٥٧
تفسير سورة الفجر	١٠٥٨
تفسير سورة البلد	١٠٦٠
تفسير سورة الليل	١٠٦٣
تفسير سورة الضحى	١٠٦٥
تفسير سورة التين	١٠٦٧
تفسير سورة العلق	١٠٦٨
تفسير سورة البينة	١٠٦٩
تفسير سورة الزلزلة	١٠٧٠
تفسير سورة الهمزة	١٠٧١
تفسير سورة قريش	١٠٧٢
تفسير سورة الماعون	١٠٧٣
تفسير سورة المسد	١٠٧٤
الخاتمة	١٠٧٥
صدر للمؤلف	١٠٨٥

تفسير سورة الرعد

رقم السورة: ١٣ وهي مدنية وعدد آياتها: ١٤٣.

ذكر الطنطاوي: أقامت السورة الأدلة المتنوعة على كمال قدرة الله تعالى وعظيم حكمته.

تارة عن طريق التأمل في هذا الكون وما فيه من سماوات مرتفعة بغير عمد، وأرض صالحة للاستقرار عليها، وشمس وقمر وكواكب مسخرة لمنافع الناس، وجبال لتثبيت الأرض، وأنهار لسقي الزرع، وتارة عن طريق علمه المحيط بكل شيء، فهو العليم بما تُنقصه الأرحام، وما تزداده في الخلقة وفي المدة وفي غير ذلك، وهو العليم بأحوال عباده سواء أكانوا ظاهرين بالنهار أم مستخفين بالليل.

وتارة عن طريق الظواهر الكونية التي يرسلها سبحانه لعباده خوفاً وطمعاً.

وتارة عن طريق العطاء والمنع لمن يشاء من عباده.

وتارة عن طريق المصائب والقوارع التي يُنزلها سبحانه بالكافرين.

وَهُوَ الَّذِي مَدَّ الْأَرْضَ وَجَعَلَ فِيهَا رَوَاسِيَ وَأَنْهَارًا ۖ وَمِن كُلِّ الثَّمَرَاتِ جَعَلَ فِيهَا زَوْجَيْنِ اثْنَيْنِ ۖ يُغْشِي اللَّيْلَ النَّهَارَ ۚ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَاتٍ لِّقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ ﴿٣﴾

جهز الله تعالى الأرض ليستعمرها الإِنسان فمدها لتصلح لسكنى الناس، وجعل فيها الجبال الرواسي لتثبيتها، ولتكون مورداً للحجر والشجر وما شابه، وجعل فيها الأنهار لتزرع، ولتُسقى بالماء؛ فيحصل الناس على الثمر بشتى أنواعه، وتتكاثر المخلوقات لأن الله خلقها أزوجاً؛ ليحصل التزاوج والتكاثر، أما الليل فتغشاه الظلمة ليكون سَكَناً لجميع المخلوقات.

كل ذلك: آيات لمن له عقلٌ يتفكر به.

وَفِي الْأَرْضِ قِطَعٌ مُتَجَاوِرَاتٌ وَجَنَّاتٌ مِنْ أَعْنَابٍ وَزَرْعٌ وَنَخِيلٌ صِنْوَانٌ وَغَيْرُ صِنْوَانٍ يُسْقَى بِمَاءٍ وَاحِدٍ وَنُفَضِّلُ بَعْضَهَا عَلَى بَعْضٍ فِي الْأُكُلِ ۚ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَاتٍ لِقَوْمٍ يَعْقِلُونَ (٤)

جعل الله في هذه الأرض قطعاً منها متجاورة متلاصقة فيها أنواع عديدة من الأشجار، منها كالنخيل المتجمع بعضه على بعض في أصل واحد، ومنها كل شجرة على حدة، تُسقى كلها من ماء واحد، ثم يأتي ثمر الشجر والزرع بألوان متباينة، وطعم ولذة مختلفة. أليس في ذلك آيات لأصحاب العقول؟

ذكر الطبري: لله بلاغة القرآن في تغيير الأسلوب عند الانتقال إلى ذكر النعم الدالة على قدرة الله تعالى فيما ألهم الناس من العمل في الأرض

بفلحها وزرعها وغرسها والقيام عليها، فجاء ذلك معطوفاً على الأشياء التي أسند جَعْلها إلى الله تعالى، ولكنه لم يسند إلى الله حتى بلغ إلى قوله: ﴿ونفضل بعضها على بعض في الأكل﴾، لأن ذلك بأسرار أودعها الله تعالى فيها هي موجب تفاضلها.

ذكر القرطبي: قوله تعالى: ﴿متجاورات﴾؛ أي قرى متدانيات، ترابها واحد، وماؤها واحد، وفيها زروع وجنات، ثم تتفاوت في الثمار والتمر؛ فيكون البعض حلواً، والبعض حامضاً؛ والغصن الواحد من الشجرة قد يختلف الثمر فيه من الصغر والكبر واللون والمطعم، وإن انبسط الشمس والقمر على الجميع على نسق واحد؛ وفي هذا أدلُ دليل على وحدانيته وعظم صمديته، والإرشاد لمن ضل عن معرفته؛ فإنه نبه سبحانه بقوله: ﴿يُسقى بماء واحد﴾ على أن ذلك كله ليس إلا بمشيئته وإرادته، وأنه مقدور بقدرته؛ وهذا أدل دليل على بطلان القول بالطبع؛ إذ لو كان ذلك بالماء والتراب والفاعل له الطبيعة لما وقع الاختلاف. وقيل: وجه الاحتجاج أنه أثبت التفاوت بين البقاع؛ فمن تربة عذبة، ومن تربة سبخة مع تجاورهما؛ وهذا أيضا من دلالات كمال قدرته؛ تعالى الله عما يقول الظالمون والجاحدون علواً كبيراً.

اللَّهُ يَعْلَمُ مَا تَحْمِلُ كُلُّ أُنثَى وَمَا تَغِيضُ الْأَرْحَامُ وَمَا تَزْدَادُ وَكُلُّ شَيْءٍ عِندَهُ بِمِقْدَارٍ ﴿٨﴾

إن علم الله واسع، فهو يعلم ما تحمله كل أنثى، وما تغيض الأرحام من نقص وزيادة أو ما يموت فيها، فلا شيء عبثي أو عشوائي بل كل شيء ضمن قَدْرٍ قَدَره الله تعالى بمقدار صحيح؛ فقد اكتشف العلماء أن الرياح التي تمر عبر منخفض (بودلي) في (تشاد)، تقوم بذلك لتأخذ معها رمالاً غنية بالحديد والفوسفور المهمان لنمو النبات في (الأمازون)[١]، وهذا مثال فحسب، وغيره كثير مما يعلمه الناس ومما لا يعلمونه.

وهذا الاهتمام إنما للدلالة على قدرة الله تعالى وعلى ضبطه لكل شيء، فهذه الأرحام هي معامل ومصانع معقدة ما زال الإنسان يجهل كثيرها، وهي المنوط به تنشئة ما قَدّر الله له أن يُولد؛ ليكون إنساناً يَصلح لعمارة الأرض واستعمارها، وهو ما يندرج تحت مسمى الموارد البشرية – اقتصادياً – .

سَوَاءٌ مِّنكُم مَّنْ أَسَرَّ الْقَوْلَ وَمَن جَهَرَ بِهِ وَمَنْ هُوَ مُسْتَخْفٍ بِاللَّيْلِ وَسَارِبٌ بِالنَّهَارِ ﴿١٠﴾ لَهُ مُعَقِّبَاتٌ مِّن بَيْنِ يَدَيْهِ وَمِنْ خَلْفِهِ

[١] المصدر: رابط

﴿يَحْفَظُونَهُ مِنْ أَمْرِ اللَّهِ ۗ إِنَّ اللَّهَ لَا يُغَيِّرُ مَا بِقَوْمٍ حَتَّىٰ يُغَيِّرُوا مَا بِأَنفُسِهِمْ ۗ وَإِذَا أَرَادَ اللَّهُ بِقَوْمٍ سُوءًا فَلَا مَرَدَّ لَهُ ۚ وَمَا لَهُم مِّن دُونِهِ مِن وَالٍ ﴿١١﴾﴾

هذا الإِنسان بسره وعلانيته بالليل أو بالنهار هو تحت رقابة الله تعالى، فقد جعل له من يحفظه ويتابعه؛ فهو لا يعيش دونما رقابة، فهو لا يعدو عن كونه عبداً، أمره لربه.

ثم ترسي هذه الآية سنة من سنن الله تعالى في الأرض، فالتغيير سنة من سنن الله، لكن الله تعالى لا يُغير ما بقوم حتى يغيروا ما بأنفسهم، لذلك فالتغيير يبدأ من داخل كل إنسان، وله الحرية في التغيير نحو الأحسن أو نحو الأسوأ، فهذه حرية كفلها الله له، وسيحاسبه على عمله ونتائج عمله.

وليعلم ذلك الإِنسان أن لو أراد الله أن يُصيبه بسوء فلا يمكن لأحد أن يصدَّ عنه شيئاً، وليس لأحد من دون الله تعالى من وليّ.

﴿هُوَ الَّذِي يُرِيكُمُ الْبَرْقَ خَوْفًا وَطَمَعًا وَيُنشِئُ السَّحَابَ الثِّقَالَ ﴿١٢﴾﴾

هذا الإله هو من يُري خلقه البرق، فيخافون البرق ويطمعون بأنه سيأتيهم بما أنشأه الله تعالى من سُحب مثقلة بالماء، مما يجعلهم يستبشرون بمطر يخلفه زرعٌ يخلفه رزقٌ ومالٌ وفيرٌ لهم.

وَيُسَبِّحُ الرَّعْدُ بِحَمْدِهِ وَالْمَلَائِكَةُ مِنْ خِيفَتِهِ وَيُرْسِلُ الصَّوَاعِقَ فَيُصِيبُ بِهَا مَنْ يَشَاءُ وَهُمْ يُجَادِلُونَ فِي اللَّهِ وَهُوَ شَدِيدُ الْمِحَالِ ﴿١٣﴾

كذلك هو حال الرعد الذي يُسبح ربّه كما الملائكة الكرام يُسبحون الله خوفاً منه لعلمهم بقدراته العظيمة. إنه الله هو الذي يُرسل الصواعق فتُصيب من يشاء أن تُصيبه؛ فالأمر كله بأمره سبحانه وتعالى، وهم – أي الخلق – ما زالوا يجادلون بالله وهو الشديد القوي ذو الحول!

أَنْزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَسَالَتْ أَوْدِيَةٌ بِقَدَرِهَا فَاحْتَمَلَ السَّيْلُ زَبَدًا رَابِيًا وَمِمَّا يُوقِدُونَ عَلَيْهِ فِي النَّارِ ابْتِغَاءَ حِلْيَةٍ أَوْ مَتَاعٍ زَبَدٌ مِثْلُهُ كَذَلِكَ يَضْرِبُ اللَّهُ الْحَقَّ وَالْبَاطِلَ فَأَمَّا الزَّبَدُ فَيَذْهَبُ جُفَاءً وَأَمَّا مَا يَنْفَعُ النَّاسَ فَيَمْكُثُ فِي الْأَرْضِ كَذَلِكَ يَضْرِبُ اللَّهُ الْأَمْثَالَ ﴿١٧﴾

ذلك الخالق المالك؛ يُنزِّل الماء من السماء إلى الأرض التي مَدَّها؛ فما يُفعل بالماء الذي ينزل إليها من السماء بكميات كبيرة من السحاب الثقال؟

ذلك الخالق البارئ؛ قد هيّأ مخازن لذلك الماء وهي بمثابة أوعية على ظهر الأرض تستوعبه، فيكون سيلاً يحمل ما يحمله من زبد وخبث وحجارة وغيرها يجرفه معه.

توقدون النار على الزبد والحجارة لتستخرجوا منها الحليّ والمتاع، وهذا حال الجواهر والألماس وفلزات المعادن؛ تجدها مخلوطة بشوائب لا يميزها سوى الصهر بالنار ليميز خبيثها من طيبها. وهذه موارد مادية ذات منافع كثيرة للناس.

كذلك يضرب الله الحق والباطل؛ فالزبد يذهب جفاء بلا فائدة، وما ينفع الناس باقٍ في الأرض، وهذه سنة من سنن الله في أرضه. يختلط الحق بالباطل؛ فيتصارعان وينتهي الحق منتصراً والباطل يذهب جُفاء بلا أثر.

لقد أوضحت هذه الآية الكريمة كيف هيأ الله تعالى الأرض: مدها وشق فيها الأودية ليتسارع الماء على ظهرها؛ فيكون سَيلاً جارفاً يحمل في طياته الخبيث والطيب.

وأشارت الآية إلى صناعة الاستخراج باستخدام النار التي تُحمى على الفلزات خبيثها وطيبها، وتسمى مادتها في تلك الصناعة بالخَبَث، ليخرج منها ما ينتفع به الناس ويُترك ما سواه.

ذكر الطنطاوي: قال الإمام الشوكاني: هذان مثلان ضربهما الله تعالى في هذه الآية للحق وللباطل، يقول: إن الباطل وإن ظهر على الحق في بعض الأحوال وعلاه، فإن الله تعالى سيمحقه ويُبطله ويجعل العاقبة للحق وأهله؛ كالزبد الذي يعلو الماء فيُلقيه الماء، وكخبث هذه الأجسام، فإنه وإن علا عليها فإن الكير يقذفه ويدفعه، فهذا مثل الباطل. وأما الماء الذي ينفع الناس ويُنبت المراعي فيمكث في الأرض، وكذلك الصافي من هذه الأجسام فإنه يبقى خالصاً لا شوب فيه، وهو مثل الحق.

﴿الَّذِينَ يُوفُونَ بِعَهْدِ اللَّهِ وَلَا يَنقُضُونَ الْمِيثَاقَ (٢٠) وَالَّذِينَ يَصِلُونَ مَا أَمَرَ اللَّهُ بِهِ أَن يُوصَلَ وَيَخْشَوْنَ رَبَّهُمْ وَيَخَافُونَ سُوءَ الْحِسَابِ (٢١) وَالَّذِينَ صَبَرُوا ابْتِغَاءَ وَجْهِ رَبِّهِمْ وَأَقَامُوا الصَّلَاةَ وَأَنفَقُوا مِمَّا رَزَقْنَاهُمْ سِرًّا وَعَلَانِيَةً وَيَدْرَءُونَ بِالْحَسَنَةِ السَّيِّئَةَ أُولَٰئِكَ لَهُمْ عُقْبَى الدَّارِ (٢٢)﴾

صفات المؤمنين الذين لهم عُقبى الدار أنهم:

- يوفون بالعهد ولا ينقضونه.
- يَصِلون ما أمر الله به أن يوصل.
- يخشون ربهم.

- يخافون سوء العذاب.
- يصبرون ابتغاء وجه الله.
- يقيمون الصلاة.
- ينفقون مما رزقناهم سراً وعلانية.
- يدرؤون بالحسنة السيئة.

وهكذا فإن الإنفاق حاضرٌ دوماً لكونه أس الاقتصاد ومحركه.

﴿اللَّهُ يَبْسُطُ الرِّزْقَ لِمَنْ يَشَاءُ وَيَقْدِرُ وَفَرِحُوا بِالْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَمَا الْحَيَاةُ الدُّنْيَا فِي الْآخِرَةِ إِلَّا مَتَاعٌ ﴿٢٦﴾﴾

الله الرازق يبسط الرزق لمن يشاء بقدرٍ يُقدِّره؛ ففرحوا بالحياة الدنيا – المقصود هنا كفار مكة – بعد أن رُزقوه، لكن ليعلموا أن هذه الحياة نسبة للحياة الآخرة أشبه بالمتاع، والمتاع يتمتع به الإنسان لفترة بسيطة ثم يدعه ويتركه لغيره.

ذكر الطبري: يقول تعالى ذكره: الله يوسّع على من يَشاء من خلقه في رزقه، فيبسط له منه لأن منهم من لا يُصْلحه إلا ذلك ﴿ويقدر﴾، يقول: ويقتِّر على من يشاء منهم في رزقه وعيشه، فيُضيّقه عليه، لأنه لا يصلحه إلا الإقتار ﴿وفرحوا بالحياة الدنيا﴾.

يقول تعالى ذكره: وفرح هؤلاء الذين بُسِط لهم في الدنيا من الرزق على كفرهم بالله ومعصيتهم إياه بما بُسِط لهم فيها، وجهلوا ما عند الله لأهل طاعته والإيمان به في الآخرة من الكرامة والنعيم.

ذكر القرطبي: بَسْطُ الرزق على الكافر لا يدلُّ على كرامته، والتقتير على بعض المؤمنين لا يدلُّ على إهانتهم. ويَقدِر أي يُضيّق؛ ومنه ﴿ومن قدر عليه رزقه﴾؛ أي ضُيِّق. وقيل: يُقدِّر: يعطي بقدر الكفاية.

تفسير سورة إبراهيم

رقم السورة: ١٤ وهي مكية وعدد آياتها: ٥٢ .

ذكر الطنطاوي: اهتمت السورة بأمور من أبرزها ما يلي:

(أ) تذكير الناس بنعم خالقهم عليهم، وتحريضهم على شكر هذه النعم وتحذيرهم من جحودها وكفرها .

(ب) تسلية الرسول صلى الله عليه وسلم عما لقيه من مشركي قريش، تارة عن طريق ما لقيه الأنبياء السابقون من أقوامهم، وتارة عن طريق بيان أن العاقبة للمتقين .

(ج) اشتمال السورة الكريمة على أساليب متعددة للترغيب في الإيمان، وللتحذير من الكفر، تارة عن طريق ضرب الأمثال، وتارة عن طريق بيان حسن عاقبة المؤمنين، وسوء عاقبة المكذبين، وتارة عن طريق حكاية ما يقوله الشيطان لأتباعه يوم القيامة، وما يقوله الضعفاء للذين استكبروا وما يقوله الظالمون يوم يرون العذاب .

قُل لِّعِبَادِيَ الَّذِينَ آمَنُوا يُقِيمُوا الصَّلَاةَ وَيُنفِقُوا مِمَّا رَزَقْنَاهُمْ سِرًّا وَعَلَانِيَةً مِّن قَبْلِ أَن يَأْتِيَ يَوْمٌ لَّا بَيْعٌ فِيهِ وَلَا خِلَالٌ (٣١)

يقول الله تعالى لمن آمن به: أقيموا الصلاة، وأنفقوا مما رزقتكم سراً وعلانيةً، وهذا الأمر واجب، قبل أن يأتي يوم يتوقف فيه البيع، ويختفي الأصدقاء.

يُستدل من هذا النص أن البيع والشراء قائم دوماً ما أقام الإنسان في هذه الأرض، وسيتوقف هذا البيع مع نهاية الدنيا.

واختار الله البيع ليكون شاهداً على حياة هذا الإنسان لأنه عمل لا يُفارقه، وبه تقوم حياته الاقتصادية التي فيها قوامه وقيامه ما أطاع الله فيه.

ذكر الطنطاوي: عبر سبحانه بـ﴿ مَن ﴾ المفيدة للتبعيض في قوله: ﴿ مِمَّا رَزَقْناهُمْ ﴾ للاشعار بأنهم قوم عقلاء يبتعدون في إنفاقهم عن الإسراف والتبذير، عملا بقوله تعالى: ﴿ وَالَّذِينَ إِذا أَنْفَقُوا لَمْ يُسْرِفُوا وَلَمْ يَقْتُرُوا وَكانَ بَيْنَ ذلِكَ قَواماً ﴾.

وهذا التعبير أيضاً يُشعر بأن هذا المال الذي بين أيدي عباده سبحانه ما هو إلا رزقٌ رزقهم الله إياه، ونعمة أنعم بها عليهم، فعليهم أن يقابلوا هذه النعمة بالشكر، بأن يُنفقوا جزءاً منها في وجوه الخير.

وقوله: ﴿ سِرًّا وَعَلانِيَةً ﴾ منصوبان على الحال؛ أي: مُسرّين ومعلنين، أو على المصدر؛ أي: إنفاق سرٍّ وإنفاق علانيةٍ. وقدم سبحانه إنفاق السرِّ على

العلانية للتنبيه على أنه أولى الأمرين في معظم الأحوال لبُعده عن خواطر الرياء، ولأنه أستر للمُتصدَق عليه.

اللَّهُ الَّذِي خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ وَأَنزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَأَخْرَجَ بِهِ مِنَ الثَّمَرَاتِ رِزْقًا لَّكُمْ ۖ وَسَخَّرَ لَكُمُ الْفُلْكَ لِتَجْرِيَ فِي الْبَحْرِ بِأَمْرِهِ ۖ وَسَخَّرَ لَكُمُ الْأَنْهَارَ ﴿٣٢﴾ وَسَخَّرَ لَكُمُ الشَّمْسَ وَالْقَمَرَ دَائِبَيْنِ ۖ وَسَخَّرَ لَكُمُ اللَّيْلَ وَالنَّهَارَ ﴿٣٣﴾ وَآتَاكُم مِّن كُلِّ مَا سَأَلْتُمُوهُ ۚ وَإِن تَعُدُّوا نِعْمَتَ اللَّهِ لَا تُحْصُوهَا ۗ إِنَّ الْإِنسَانَ لَظَلُومٌ كَفَّارٌ ﴿٣٤﴾

لقد خلق الله هذا الكون بمكنوناته خدمة لهذا الإنسان وإكراماً له، خلق السماوات والأرض؛ فأنزل من السماء الماء، وأخرج به الثمرات ليكون رزقاً للإنسان، كما سخّر له السفن لتمخر البحار بأمره، وسخر له الأنهار رُكوباً وسُقياً وصَيداً.

كما سخر له الشمس والقمر متحركين باستمرار بلا توقف كما سخر الليل والنهار، وآتى الله الإنسان من كل ما سأله.

إن نِعم الله لا تُعدُّ ولا تُحصى. أما الإنسان فمنه ظالم ومنه منكر ومنه غير ذلك.

والعدّ يكون بِعدِّ الشخص أشياء أمامه واحداً تلو الآخر وهذه يُعبَّر عنها بالبيانات الأولية، أما الإحصاء فهو إخضاع ما تم عدّه إلى قوانين الإحصاء فتكون معلومات ذات نفع وتعبير أكثر من البيانات المعدودة.

ذكر الطبري: معنى ﴿إن تعدوا﴾ إن تحاولوا العدَّ وتأخذوا فيه ... والإحصاء: ضبط العدد، وهو مشتق من الحَصَا اسماً للعدد، وهو منقول من الحصى، وهو صغار الحجارة لأنهم كانوا يعدون الأعداد الكثيرة بالحصى تجنباً للغلط.

وَإِذْ قَالَ إِبْرَاهِيمُ رَبِّ اجْعَلْ هَذَا الْبَلَدَ آمِناً وَاجْنُبْنِي وَبَنِيَّ أَنْ نَعْبُدَ الْأَصْنَامَ (٣٥)

إن الأمن الذي دعا له إبراهيم عليه السلام لِمكة هو للبدء بالحياة فيها عموماً، وبالحياة الاقتصادية ومظاهرها خصوصاً، فبدون الأمن لا يمكن أن يُفكر أحد بإقامة حياة فيها مشاريع وأعمال.

رَبَّنَا إِنِّي أَسْكَنْتُ مِنْ ذُرِّيَّتِي بِوَادٍ غَيْرِ ذِي زَرْعٍ عِنْدَ بَيْتِكَ الْمُحَرَّمِ رَبَّنَا لِيُقِيمُوا الصَّلَاةَ فَاجْعَلْ أَفْئِدَةً مِنَ النَّاسِ تَهْوِي إِلَيْهِمْ وَارْزُقْهُمْ مِنَ الثَّمَرَاتِ لَعَلَّهُمْ يَشْكُرُونَ (٣٧)

يخاطب إبراهيم عليه السلام ربه بأنه أسكن أهله في وادٍ ليس فيه زرع عند البيت الحرام؛ ليقيموا الصلاة، ويعبدوه سبحانه وتعالى.

طلب من ربه أن يجعل بعض الناس تهوي إليهم؛ فكان الحج والعمرة حيث يأتي الناس من كل حدب وصوب إلى مكة المكرمة.

وطلب من الله تعالى أن يرزق أهله من الثمرات؛ لأنها قوام القيام في هذه الحياة، فرزقهم الله من باطن الأرض وظاهرها وأغدق عليها بالثمرات.

إن شدة إيمان نبي الله إبراهيم جعلته مؤمناً به مُسلّماً له، ففعل ما يعجز غيره عن التسليم به لأنه شيء لا يطيقه عقل إذا لم يصحبه إيمان حقيقي بالله تعالى.

ذكر الطبري: لا يجوز لأحد أن يتعلق بهذا في طرح ولده وعياله بأرض مُضيِّعة اتكالا على العزيز الرحيم، واقتداء بفعل إبراهيم الخليل، كما تقول غُلاة الصوفية في حقيقة التوكل، فإن إبراهيم فعل ذلك بأمر الله لقوله في الحديث: آللَّه أمرك بهذا؟ قال: نعم.

وَسَكَنتُمْ فِي مَسَاكِنِ الَّذِينَ ظَلَمُوا أَنفُسَهُمْ وَتَبَيَّنَ لَكُمْ كَيْفَ فَعَلْنَا بِهِمْ وَضَرَبْنَا لَكُمُ الْأَمْثَالَ (٤٥)

يتوارث الناس سُكناهم فيما بينهم، وبعض الناس تسكن في مساكن أقوام ظلموا أنفسهم ووقع العذاب عليهم ليكونوا مَثَلاً وعبرة لمن بعدهم كعاد وثمود وفرعون وغيرهم، فيامن سكنتم بمساكنهم اعتبروا بذلك!.

ذكر الطنطاوي: المراد بالسكنى: الحلول في أماكن الظالمين لوقت يكفي للاتعاظ والاعتبار، وكفار قريش كانوا يمرون بديار قوم ثمود في رحلتهم إلى الشام، وكانوا يحطون رحالهم هناك، كما كانوا يمرون على ديار قوم عاد في رحلتهم إلى اليمن.

تفسير سورة الحِجر

رقم السورة: ١٥ وهي مكية وعدد آياتها: ٩٩.

ذكر الطنطاوي: سميت بسورة الحجر، لورود هذا اللفظ فيها دون أن يرد في غيرها وأصحاب الحجر هم قوم صالح عليه السلام، إذ كانوا يُنزلون الحِجْر – بكسر الحاء وسكون الجيم – وهو المكان المحجور؛ أي الممنوع أن يسكنه أحد غيرهم لاختصاصهم به.

ويجوز أن يكون لفظ الحِجْر، مأخوذ من الحجارة، لأن قوم صالح عليه السلام كانوا ينحتون بيوتهم من أحجار الجبال وصخورها، ويبنون بناء محكماً جميلاً.

اهتمت السورة اهتماماً واضحاً بتثبيت المؤمنين وتهديد الكافرين، تارة عن طريق الترغيب والترهيب، وتارة عن طريق قصص السابقين، وتارة عن طريق التأمل في هذا الكون وما اشتمل عليه من مخلوقات تدلُّ على وحدانية الله وعظيم قدرته وسابغ رحمته.

رُبَمَا يَوَدُّ الَّذِينَ كَفَرُوا لَوْ كَانُوا مُسْلِمِينَ ﴿٢﴾ ذَرْهُمْ يَأْكُلُوا
وَيَتَمَتَّعُوا وَيُلْهِهِمُ الْأَمَلُ فَسَوْفَ يَعْلَمُونَ ﴿٣﴾ وَمَا أَهْلَكْنَا مِن

قَرْيَةٍ إِلَّا وَلَهَا كِتَابٌ مَعْلُومٌ ﴿٤﴾ مَا تَسْبِقُ مِنْ أُمَّةٍ أَجَلَهَا وَمَا يَسْتَأْخِرُونَ ﴿٥﴾

إن المكذبين يأكلون من أنعام هذه الدنيا كما تأكل الأنعام؛ فقد خلق الله لهم حاجات لابد من إشباعها كالأكل والشرب واللباس والنوم وما إلى ذلك من مستلزمات الحياة، لكنهم انقطعوا إلى إشباع تلك الحاجات دون طاعة الله وذكره وشكره؛ فكانوا أشبه بالأنعام، لأنهم لم يُخلقوا لأجل هذا وحسب.

لقد أشغلهم طول الأمل عن إتباع الإيمان بالله تعالى والعمل الصالح، لكنهم سيعلمون نتيجة ما فعلوه بعد انقطاعهم عن هذه الدنيا وزوالها عنهم، فهي التي ألهتهم، وسيكون ذلك كله في يوم الحساب.

هذا على مستوى الأفراد؛ أما على مستوى الجماعات؛ فإن الهلاك لا ينزل على قرية ظالمة إلا في وقت محدد في كتاب معلوم؛ لذلك فإن تأخر وقوع العذاب ليس لأنهم منسيون أو أنهم على حق بأفعالهم؛ بل لا تُهلك أمة في غير وقتها؛ فلا يغترَّ أصحاب الأمل الخداع بعدم هلاكهم فور عصيانهم لأوامر الله تعالى.

ذكر القرطبي: في مسند البزار عن أنس قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: أربعة من الشقاء: جمود العين، وقساوة القلب، وطول الأمل،

والحرص على الدنيا. وطول الأمل داء عضال ومرض مزمن، ومتى تمكن من القلب فسد مزاجه واشتد علاجه، ولم يفارقه داء ولا نجح فيه دواء، بل أعيا الأطباء ويئس من برئه الحكماء والعلماء.

وحقيقة الأمل: الحرص على الدنيا والانكباب عليها، والحب لها والإعراض عن الآخرة. وروي عن رسول الله صلى الله عليه وسلم أنه قال: نجا أول هذه الأمة باليقين والزهد، ويُهلك آخرها بالبخل والأمل.

ويروى عن أبي الدرداء رضي الله عنه أنه قام على درج مسجد دمشق فقال: يا أهل دمشق، ألا تسمعون من أخ لكم ناصح، إن من كان قبلكم كانوا يجمعون كثيراً، ويبنون مشيّداً ويأملون بعيداً، فأصبح جمعهم بوراً وبنيانهم قبوراً وأملهم غروراً. هذه عادٌ قد ملأت البلاد أهلاً ومالاً وخيلاً ورجالاً، فمن يشتري مني اليوم تركتهم بدرهمين؟

وقال الحسن: (ما أطال عبد الأمل إلا أساء العمل)، وصدق رضي الله عنه؛ فالأمل يُكسل عن العمل ويُورث التراخي والتواني، ويعقب التشاغل والتقاعس، ويخلد إلى الأرض ويميل إلى الهوى. وهذا أمر قد شوهد بالعيان فلا يحتاج إلى بيان ولا يُطْلب صاحبه ببرهان؛ كما أن قِصَر الأمل يبعث على العمل، ويحيل على المبادرة، ويحث على المسابقة.

وَلَقَدْ جَعَلْنَا فِي السَّمَاءِ بُرُوجًا وَزَيَّنَّاهَا لِلنَّاظِرِينَ ﴿١٦﴾ وَحَفِظْنَاهَا
مِنْ كُلِّ شَيْطَانٍ رَجِيمٍ ﴿١٧﴾ إِلَّا مَنِ اسْتَرَقَ السَّمْعَ فَأَتْبَعَهُ شِهَابٌ مُبِينٌ
﴿١٨﴾ وَالْأَرْضَ مَدَدْنَاهَا وَأَلْقَيْنَا فِيهَا رَوَاسِيَ وَأَنْبَتْنَا فِيهَا مِنْ كُلِّ شَيْءٍ
مَوْزُونٍ ﴿١٩﴾ وَجَعَلْنَا لَكُمْ فِيهَا مَعَايِشَ وَمَنْ لَسْتُمْ لَهُ بِرَازِقِينَ ﴿٢٠﴾
وَإِنْ مِنْ شَيْءٍ إِلَّا عِنْدَنَا خَزَائِنُهُ وَمَا نُنَزِّلُهُ إِلَّا بِقَدَرٍ مَعْلُومٍ ﴿٢١﴾
وَأَرْسَلْنَا الرِّيَاحَ لَوَاقِحَ فَأَنْزَلْنَا مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَأَسْقَيْنَاكُمُوهُ وَمَا
أَنْتُمْ لَهُ بِخَازِنِينَ ﴿٢٢﴾ وَإِنَّا لَنَحْنُ نُحْيِي وَنُمِيتُ وَنَحْنُ الْوَارِثُونَ
﴿٢٣﴾ وَلَقَدْ عَلِمْنَا الْمُسْتَقْدِمِينَ مِنْكُمْ وَلَقَدْ عَلِمْنَا
الْمُسْتَأْخِرِينَ ﴿٢٤﴾ وَإِنَّ رَبَّكَ هُوَ يَحْشُرُهُمْ إِنَّهُ حَكِيمٌ عَلِيمٌ ﴿٢٥﴾
وَلَقَدْ خَلَقْنَا الْإِنْسَانَ مِنْ صَلْصَالٍ مِنْ حَمَإٍ مَسْنُونٍ ﴿٢٦﴾ وَالْجَانَّ
خَلَقْنَاهُ مِنْ قَبْلُ مِنْ نَارِ السَّمُومِ ﴿٢٧﴾ وَإِذْ قَالَ رَبُّكَ لِلْمَلَائِكَةِ إِنِّي
خَالِقٌ بَشَرًا مِنْ صَلْصَالٍ مِنْ حَمَإٍ مَسْنُونٍ ﴿٢٨﴾ فَإِذَا سَوَّيْتُهُ وَنَفَخْتُ فِيهِ
مِنْ رُوحِي فَقَعُوا لَهُ سَاجِدِينَ ﴿٢٩﴾ فَسَجَدَ الْمَلَائِكَةُ كُلُّهُمْ أَجْمَعُونَ
﴿٣٠﴾ إِلَّا إِبْلِيسَ أَبَى أَنْ يَكُونَ مَعَ السَّاجِدِينَ ﴿٣١﴾

تعرضت الآية الكريمة إلى ذكر الموارد الاقتصادية في الكون، التي أتيحت للإنسان ليحيا فيه.

تقسم الموارد إلى أصول مادية وأصول بشرية.

أولاً - الأصول المادية:

١- **السماء**: مهمتها حفظ الحياة على الأرض، وبروجها نجوم تزينها فتُسر الناظرين إليها، وبذلك يكون هذا الأصل مفيداً مادياً ومعنوياً للإنسان، وحُفظت من الشياطين، وهم شركاء الإنس على هذه الأرض؛ حتى لا يُفسدوا عليهم معيشتهم بسوء أعمالهم، ويُعاقب الشيطان الذي يسترق السمع من الملأ الأعلى بشهاب واضح بيّن.

٢- **الأرض**: بُسطت لتكون صالحة لحياة الناس واستقرارهم عليها، وبما يجعلهم يتمكنون من عمارتها وإشادة بنيانهم فيها. وتدور الأرض حول نفسها وحول الشمس كما تدور مع مجرتها حول مجرات أخرى. كما يدور القمر حول الأرض، وبدوران هذه الأفلاك تكون الجاذبية التي تحفظ الأرض بما عليها ويكون اختلاف الليل والنهار، ويكون التوقيت الذي يحتسبه الناس كالسنوات والأشهر والأيام والساعات وأجزائها.

٣- **الجبال**: جُعلت الجبال أشبه بالرواسي التي تمسك السفن في البحر حتى لا تجرفها الأمواج، فالجبال غُرزت أوتادها في الأرض لتمسك قشرتها

وتحقق توازنها أثناء دورانها حول نفسها، وحول الشمس للقيام بالمهام التي خلقت لأجلها.

٤- **النباتات**: خلق النبات على هذه الأرض ليكون غذاءً للناس وغيرهم، وتشمل أنواع النباتات أعداداً لا حصر لها لكل منها دور ومهمة في هذا الكوكب المُهيأ للعيش، وتختلف ألوانها وأشكالها وطرق عيشها، فمنها ما خُلق ليكون تحت ماء البحر أو تحت ماء النهر، ومنها ما خُلق ليكون فوق الأرض، ومنها ما خُلق لينطمر في باطنها، ومنها ما يكون في الثلج أو في الصحراء أو في الجبال أو في الأنهار مما يصعب حصر نوعه وعدده وفائدته، فالإنسان لم يكتشف من عالم النبات إلا النذر اليسير.

وكل ذلك التنوع النباتي هو تنوع موزون لا شائبة فيه ولا خلل.

ذكر القرطبي: قال قتادة: موزون يعني مقسوم. وقال مجاهد: موزون معدود؛ ويُقال: هذا كلام موزون؛ أي منظوم غير منتثر؛ فعلى هذا أي أنبتنا في الأرض ما يُوزن من الجواهر والحيوانات والمعادن. وقد قال الله عز وجل في الحيوان: وأنبتها نباتاً حسناً. والمقصود من الإنبات الإنشاء والإيجاد. وقيل: أنبتنا فيها؛ أي في الجبال من كل شيء موزون من الذهب والفضة والنحاس والرصاص والقصدير، حتى الزرنيخ والكحل، كل ذلك يوزن وزناً. رُوي معناه عن الحسن وابن زيد. وقيل: أنبتنا في

الأرض الثمار مما يُكال ويُوزن. وقيل: ما يُوزن فيه الأثمان لأنه أَجلُّ قدراً وأعم نفعاً مما لا ثمن له.

يُستفاد من هذه الأصول المادية وخاصة النباتات أنها محور عيش الإنسان على هذه الأرض، ومنها يكون تعايشه مع غيره بوصفها موارد اقتصادية ذات قيمة معتبرة فمنافعها تلبي احتياجاته. كما أن هذه النباتات هي محور عيش غير الإنسان ممن خلقه الله تعالى كالحيوانات وغيرها مما يدبُّ على هذه الأرض.

وتعتبر النباتات والحيوانات المنتشرة فوق الجبال وتحت الماء وفوق اليابسة مصدر غذاء للإنسان وغيره كما أشرنا.

والموارد المادية هي موارد متجددة، لا نهاية لها، مخزوناتها محفوظة في خزائن الخالق ولا يغيب عنه منها شيء، أما المنصرف من هذه المخازن فهو مقدرٌ بقدرٍ معلوم يشاؤه الله تعالى دون زيادة حتى لا يَفسد أو يُفسد معيشة الناس، كما لو زادت كمية الماء على هذه البسيطة أو قلّت، فكل شيء موزون حسب حاجة المخلوقات المحتاجة لما يُبقيها على قيد الحياة.

٥- **الرياح**: الريح مصدر من مصادر الطاقة في هذا الكون، لها مهام عديدة فهي أداة تلقيح النبات - فكل المخلوقات إما ذكر أو أنثى - ولا يحصل التزاوج والانجاب إلا بالتلقيح فكان الريح مُلقّحاً للزرع. كما أن

الريح أداة نقل الغمام من مكان لآخر حسب تقدير الله تعالى وبه يكون نزول المطر؛ فالله جعل من الماء كل شيء حيّ، لذلك تتركز الحضارات تاريخياً حول مصادر المياه؛ بينما تندر الحياة في غيرها.

ذكر القرطبي: معنى لواقح حوامل، لأنها تحمل الماء والتراب والسحاب والخير والنفع. قال الأزهري: وجعل الريح لاقحاً لأنها تحمل السحاب؛ أي تُقلّه وتُصرّفه ثم تمُريه فتستدره، أي تُنزله ماءً.

٥- **الماء**: يُستخدم الماء لسُقيا الناس وسُقيا النبات وسُقيا الحيوان، فهو مصدر الحياة، وهو يُخزن في جيوب الأرض؛ لتكون مخازناً له يستخدمه الإنسان في حياته، ولولا تلك الآبار لفُقدت المياه من الأرض؛ لأن الإنسان عاجز عن خزنه صالحاً للشرب وللسقي.

ذكر القرطبي: الخزائن جمع الخزانة، وهو الموضع الذي يستر فيه الإنسان ماله والخزانة أيضا مصدر خزن يخزن. وما كان في خزانة الإنسان كان مُعداً له؛ فكذلك ما يقدر عليه الربُّ فكأنه معد عنده.

وبذلك أشارت الآية الكريمة إلى صناعة تخزين المياه وما يلحق بها من شق أنهار وسواقي وآبار وتخزين وتعبئة بما يبقيها مياهاً صالحة للشرب.

ثانياً - الأصول البشرية:

الإنسان محور الحياة وما فيها، والله تعالى هو محيي كل شيء ومميته، وهو الوارث لكل شيء. هو يعلم كل الناس الذين جاؤوا لهذه الدنيا، ويعلم من سيأتيها منهم، وهو حاشرهم لأنه حكيم في تدبيره عليم لا يخفى عليه شيء.

خلق الله الإنسان من الصلصال من حمإٍ مسنون أي من طين يابس، وخلق الجان قبل خلق الإنسان من نار السموم أي من نار شديدة الحرارة، وقال لملائكته الكرام بأنه سيخلق بشراً من حمإٍ مسنون، فإذا سوّيته ونفخت فيه من روحي، فامتثلوا لأمري وأظهروا له الاحترام بالسجود له، ففعلوا طاعة لله تعالى خالق كل شيء وربُّه؛ أما إبليس الذي كان معهم – وهو ليس منهم –؛ فرفض أن يسجد لآدم أبو البشر وامتنع عن ذلك؛ فعصى أمر الله تعالى.

ثم بعد أن بيّن إبليس أفضلية خلقه على خلق الإنسان؛ فهو من نار والإنسان من طين، تكبّر ظانّاً أن أصله يعطيه أفضلية وميزة، ناسياً أن أصله وأصل الإنسان إنما من الموارد المادية التي شرّفها الله تعالى بخلقها، وبعدما أيقن أنه رجيم مطرود من رحمة الله تعالى استأذن ربّه أن يُنظِره إلى يوم الوقت المعلوم أي يوم القيامة؛ حيث يقوم كل شيء إلى الحساب،

مُتوعداً آدم وذريته بتزيين ما في الأرض التي هيأها الله لهم كمكان للعيش لإغوائهم؛ ليكونوا عصاةً لله كما كان هو عاصياً، قال الله تعالى على لسان إبليس:

﴿قَالَ رَبِّ بِمَا أَغْوَيْتَنِي لَأُزَيِّنَنَّ لَهُمْ فِي الْأَرْضِ وَلَأُغْوِيَنَّهُمْ أَجْمَعِينَ ٣٩﴾

ثم أنبأ الله تعالى عن ضيف إبراهيم وما فعلوه بقوم لوط الذين استبدلوا سنة الله في الخلق، فالتوالد والتكاثر بين المخلوقات يكون بين الذكر والأنثى بما أمر الله تعالى، لكن قوم لوط أَبَوا سُنة الله وأجروا بِدعة تخصهم بأن جعلوا تلك العلاقة بين الذكران دون الإناث أو بين الإناث دون الذكران؛ فعُوقبوا بأشد العقوبات، وأُبيدوا عن بُكرة أبيهم لأنهم أجمعوا على فعلتهم، وهذا مما تعهد به إبليس بإغواء فئة من الناس ممن يتبعونه.

ثم أنبأ الله عن قوم شعيب – وهم قوم الأيكة ذوي القرى التي امتازت بالشجر الملتف – عن كفرهم بالله وتكذيبهم لرسوله شعيب عليه السلام.

ولقد تُركت آثار قوم لوط وقوم شعيب باقية تدلّ عليهم؛ ليتذكر الناس فِعلهم الشنيع؛ ليتعظوا فلا يَهلكوا كهلاكهم.

ثم أنبأ الله عن قوم ثمود – وهم قوم الحِجْر وهو مكان يقع بين الحجاز والشام – الذين كذبوا نبيهم صالح عليه السلام وكذبوا بجميع الرسل، منكرين كل الحجج التي جاءهم بها صالح. ومن صفات هؤلاء القوم أنهم كانوا يقطعون الجبال؛ ليصنعوا منها بيوتاً لهم يسكنون بها فتكون لهم مانعة من المخاطر ويكونوا فيها آمنين مما يخافون. وفي هذا إشارة إلى صناعة الحجر وصناعة العمارة الحجرية وصناعة البيوت من الخشب أيضاً. لكن تلك البيوت المحصنة لم تمنعهم من عذاب الله؛ فأُخذوا بالصيحة ودُمِّروا بتكذيبهم وظلمهم؛ كما لم يدفع عنهم ما كانوا يكسبونه من أموال.

ويُنبئ الله تعالى رسوله الكريم، أن خلق السموات الأرض وما بينهما لحكمة، والفصل سيكون ساعة الفصل بين العباد، وطلب منه تعالى أن يُعرِض عن المكذبين به صلى الله عليه وسلم، وأن يعفوَ ويصفحَ عنهم. فهو الخالق سبحانه، ولذلك فهو المدبّر والفاعل الحقيقي.

ذكر القرطبي: تزيينه هنا – أي الشيطان – يكون بوجهين: إما بفعل المعاصي، وإما بشغلهم بزينة الدنيا عن فعل الطاعة، ولأغوينهم أجمعين أي لأضلنهم عن طريق الهدى.

روى ابن لهيعة عبد الله عن دراج أبي السمح عن أبي الهيثم عن أبي سعيد الخدري قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: إن إبليس قال: يا

رب وعـزتـك وجـلالـك لا أزال أغـوي بـني آدم مـا دامـت أرواحـهـم فـي أجسامهم؛ فقال الرب: وعزتي وجلالي لا أزال أغفر لهم ما استغفروني.

تفسير سورة النحل

رقم السورة: ١٦ وهي مكية وعدد آياتها: ١٢٨.

ذكر الطنطاوي: أهم المقاصد التي اشتملت عليها السورة الكريمة:

– عنايتها الفائقة بإقامة الأدلة على وحدانية الله تعالى وعلى صدق رسوله محمد صلى الله عليه وسلم في دعوته، وعلى أن يوم القيامة حق، وعلى أن القرآن من عند الله عز وجل.

– تفصيلها القول في بيان آلاء الله تعالى على خلقه، وقد سَبَحت السورة في هذا الجانب سبحاً عظيماً، فذكّرت الإنسان بنعمة خلقه، وبنعمة تسخير الأنعام والشمس، والقمر، والنجوم، والماء، والجبال، والأشجار.. كل ذلك وغيره لمنفعته ومصلحته.

– اهتمامها بضرب الأمثال للمؤمن والكافر، والشاكر والجاحد، والإله الحق والآلهة الباطلة. وذلك لأن في ضرب الأمثال تقريباً للبعيد، وتوضيحاً للخفي، بأسلوب من شأنه أن يكون أوقع في القلوب، وأثبت في النفوس، وأدعى إلى التدبر والتفكر.

– حرصها على إيراد أقوال المشركين وشُبَهِهم، ثم الرد عليها بطريقة تُقنع العقول، وتُرضي العواطف؛ بأن الإسلام هو الدين الحق؛ وبذلك يزداد المؤمنون إيماناً على إيمانهم.

– عنايتها بتوجيه المؤمنين إلى مكارم الأخلاق، وأمهات الفضائل، كالعدل، والإحسان، وإيتاء ذي القربى، والوفاء، والصبر، والشكر ... وبنهيهم عن الرذائل كالغدر والجحود، ونقض العهود، والاستكبار، والظلم.

وإن المتأمل في هذه السورة أيضا يراها حافلة بأسلوب الترغيب والترهيب، والتبشير والإنذار، والوعد والوعيد. الوعيد للكافرين بسوء المصير إذا ما لجّوا في ضلالهم وطغيانهم.

﴿وَالْأَنْعَامَ خَلَقَهَا لَكُمْ فِيهَا دِفْءٌ وَمَنَافِعُ وَمِنْهَا تَأْكُلُونَ (٥)
وَلَكُمْ فِيهَا جَمَالٌ حِينَ تُرِيحُونَ وَحِينَ تَسْرَحُونَ (٦) وَتَحْمِلُ
أَثْقَالَكُمْ إِلَىٰ بَلَدٍ لَّمْ تَكُونُوا بَالِغِيهِ إِلَّا بِشِقِّ الْأَنفُسِ إِنَّ رَبَّكُمْ
لَرَءُوفٌ رَّحِيمٌ (٧) وَالْخَيْلَ وَالْبِغَالَ وَالْحَمِيرَ لِتَرْكَبُوهَا وَزِينَةً
وَيَخْلُقُ مَا لَا تَعْلَمُونَ (٨)﴾

خلق الله الأنعام والحيوانات للناس؛ فجعل منها:

- الدفء؛ فيستفاد من وبرها وجلدها وصوفها.
- المنافع؛ فيستفاد منها في تربيتها وبيعها وشرائها.
- الطعام؛ فلحمها بأغلب أجزائه يؤكل ولبنها يشرب.
- الجمال؛ سواء في الراحة أو في السفر؛ فهي جميلة المنظر ولها صفات في المودة والوفاء وما شابه، يستخدمها البعض في السباقات، والبعض في المنافسات، والبعض يعتبرها زينة.
- وسيلة نقل؛ فيستفاد منها بالركوب وحمل الأشياء عليها، ليصل الناس لبلاد كان يصعب ذلك عليهم دونها.

وها هي الخيل والبغال والحمير تركبونها وتجعلونها زينة، وهذه نماذج؛ فالله يخلق ما لا تعلمون.

يُعتد بما سبق بيانه: المنافع الحاصلة من تلك المخلوقات التي سخرها الله تعالى للناس بإخضاعها لهم. والمنافع المذكورة جميعها هي منافع اقتصادية ذات قيمة معتبرة بين الناس، فمن ربّى تلك الأنعام حَصَل على منافعها مباشرة واستفاد منها، وإن شاء باع تلك المنافع وحصّل مقابلها نقوداً وأثماناً.

لذلك تمثل هذه المنافع موارد اقتصادية لمالك تلك الأنعام.

ذكر القرطبي: قال الجوهري: والنِعم واحد الأنعام وهي المال الراعية.

هُوَ الَّذِي أَنزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً لَّكُم مِّنْهُ شَرَابٌ وَمِنْهُ شَجَرٌ فِيهِ
تُسِيمُونَ ﴿١٠﴾ يُنبِتُ لَكُم بِهِ الزَّرْعَ وَالزَّيْتُونَ وَالنَّخِيلَ
وَالْأَعْنَابَ وَمِن كُلِّ الثَّمَرَاتِ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَةً لِّقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ ﴿١١﴾

إن الماء الذي أنزله الله من السماء ذو منافع عديدة؛ فهو ماءٌ:

- يشربه الناس.
- يُسقى به الشجر.
- يُسقى به الأنعام.
- به ينبت الزرع بمختلف أشكاله وألوانه الذي منه تتأتى كل الثمرات.

وهذه مصادر اقتصادية مهمة لا يمكن تصور قيام الإنسان دونها، فبدون الأكل والشرب تنعدم الحياة، وبهذه المنتجات تقوم أسواق كثيرة وتشتهر.

ذكر الطبري: مطراً لكم من ذلك الماء، شراب تشربونه، ومنه شراب أشجاركم، وحياة غروسكم ونباتها؛ ﴿فِيهِ تُسِيمُونَ﴾، يقول: في الشجر الذي يَنبت من الماء الذي أُنزل من السماء تُسيمون، ترعون، يقال منه: أسام فلان إبِلَه يُسِيمُها إسَامة، إذا أرعاها، وسومها أيضا يسومها، وسامت هي: إذ رعت، فهي تسوم، وهي إبل سائمة ومن ذلك قيل للمواشي المطلقة في الفلاة وغيرها للرعي، سائمة.

وقد وجَّه بعضهم معنى السوم في البيع إلى أنه من هذا، وأنه ذهاب كلّ واحد من المتبايعين فيما ينبغي له من زيادة ثمن ونقصانه، كما تذهب سوائم المواشي حيث شاءت من مراعيها.

ذكر القرطبي: والسوام والسائم بمعنى، وهو المال الراعي.

﴿وَمَا ذَرَأَ لَكُمْ فِي الْأَرْضِ مُخْتَلِفًا أَلْوَانُهُ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَةً لِّقَوْمٍ يَذَّكَّرُونَ ﴿١٣﴾﴾

وكل ما نشره الله لعباده على وجه الأرض، من حيوان وأشجار ونبات، وغير ذلك، مما تختلف ألوانه، وتختلف منافعه، آية تدل على كمال قدرة الله، وعلى الناس أن يستحضروا ويتأملوا كل ذلك ليتذكروا قدرة الله تعالى.

﴿وَهُوَ الَّذِي سَخَّرَ الْبَحْرَ لِتَأْكُلُوا مِنْهُ لَحْمًا طَرِيًّا وَتَسْتَخْرِجُوا مِنْهُ حِلْيَةً تَلْبَسُونَهَا وَتَرَى الْفُلْكَ مَوَاخِرَ فِيهِ وَلِتَبْتَغُوا مِن فَضْلِهِ وَلَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ ﴿١٤﴾﴾

سخر الله تعالى البحر للناس، وجعل لهم فيه:

- الطعام اللذيذ والطري.

- الحليّ والجواهر التي يتزين بها الناس.
- حمل بواخرهم وسفنهم الصغيرة منها والعملاقة، التي تنقل الناس وبضائعهم من مكان لآخر.
- مصدر رزق للناس من صيد واستخراج للحلي والعمل بالصيد وبالنقل البحري وخدماته.

وهذه مصادر اقتصادية مهمة، وبتلك المنتجات والخدمات تقوم أسواق كثيرة وتشتهر. فالحضارات في العالم وعبر التاريخ ترافق وجودها مع شواطئ البحار.

وقد ذهب الفقهاء في الاجتهاد للتمييز بين لحوم البر والبحر والجو وفيما بينها؛ لمنع أي تبادل مفضٍ إلى الربا.

كما تزين عليه الصلاة والسلام بخاتم من فضة ونقش عليه (محمد رسول الله)، وكان ذلك بمثابة أسلوب إحكام الرقابة على الوثائق التي تصدر عنه صلى الله عليه وسلم بوصفه قائد الأمة، وقد منع غيره من تقليده كيلا يتم تزوير خاتمه صلى الله عليه وسلم.

ذكر القرطبي: لتأكلوا منه لحماً طرياً سماه هنا لحماً واللحوم عند مالك ثلاثة أجناس: فلحم ذوات الأربع: جنس، ولحم ذوات الريش: جنس، ولحم ذوات الماء: جنس؛ فلا يجوز بيع الجنس من جنسه متفاضلاً، ويجوز

بيع لحم البقر والوحش بلحم الطير والسمك متفاضلاً، وكذلك لحم الطير بلحم البقر والوحش والسمك يجوز متفاضلاً. وقال أبو حنيفة: اللحم كلها أصناف مختلفة كأصولها؛ فلحم البقر صنف، ولحم الغنم صنف، ولحم الإبل صنف، وكذلك الوحش مختلف، كذلك الطير، وكذلك السمك، وهو أحد قولي الشافعي. والقول الآخر أن الكل من النعم والصيد والطير والسمك جنس واحد لا يجوز التفاضل فيه. والقول الأول هو المشهور من مذهبه عند أصحابه. ودليلنا هو أن الله تعالى فرَّق بين أسماء الأنعام في حياتها فقال: ثمانية أزواج من الضأن اثنين ومن المعز اثنين؛ ثم قال: ومن الإبل اثنين ومن البقر اثنين؛ فلما أن أمَّ بالجميع إلى اللحم، قال: أحلت لكم بهيمة الأنعام؛ فجمعها بلحم واحد لتقارب منافعها كتقارب لحم الضأن والمعز. وقال في موضع آخر: ولحم طير مما يشتهون وهذا جَمع طائر الذي هو الواحد، لقوله تعالى: ولا طائر يطير بجناحيه فجَمع لحم الطير كله باسم واحد. وقال هنا: ﴿لحماً طرياً﴾ فجمع أصناف السمك بذكر واحد، فكان صغاره ككباره في الجمع بينهما. وقد روي عن ابن عمر أنه سئل عن لحم المعز بلحم الكباش أشيء واحد؟ فقال: لا؛ ولا مخالف له فصار كالإجماع، والله أعلم.

ولا حجة للمخالف في نهيه صلى الله عليه وسلم عن بيع الطعام إلا مِثلاً بمثل؛ فإن الطعام في الإطلاق يتناول الحنطة وغيرها من المأكولات ولا يتناول اللحم؛ ألا ترى أن القائل إذا قال: أكلت اليوم طعاماً لم يسبق الفهم منه إلى أكل اللحم، وأيضا فإنه معارض بقوله صلى الله عليه وسلم: إذا اختلف الجنسان فبيعوا كيف شئتم وهذان جنسان، وأيضا فقد اتفقنا على جواز بيع اللحم بلحم الطير متفاضلاً لا لعلة أنه بيع طعام لا زكاة له بيع بلحم ليس فيه الزكاة، وكذلك بيع السمك بلحم الطير متفاضلاً.

وذكر أيضاً: روى البخاري عن أنس بن مالك أن رسول الله صلى الله عليه وسلم اتخذ خاتماً من فضة ونقش فيه: "محمد رسول الله"، وقال: إني اتخذت خاتماً من وَرِق، ونقشت فيه (محمد رسول الله) فلا ينقشنَّ أحد على نقشه. قال علماؤنا: فهذا دليل على جواز نقش اسم صاحب الخاتم على خاتمه. قال مالك: ومن شأن الخلفاء والقضاة نقش أسمائهم على خواتيمهم، ونهيه عليه السلام: لا ينقشن أحد على نقش خاتمه، من أجل أن ذلك اسمه وصفته برسالة الله له إلى خلقه. وروى أهل الشام أنه لا يجوز الخاتم لغير ذي سلطان ...

وقد بلغ عمر بن عبد العزيز أن ابنه اشترى خاتما بألف درهم فكتب إليه: إنه بلغني أنك اشتريت خاتما بألف درهم، فبعه وأطعم منه ألف جائع،

واشتر خاتما من حديد بدرهم، واكتب عليه : "رحم الله امرأ عرف قدر نفسه" .

﴿وَعَلَامَاتٍ ۚ وَبِالنَّجْمِ هُمْ يَهْتَدُونَ﴾ (١٦)

يستفيد الناس من النجوم بوصفها علامات ثابتة نسبياً نسبة للأرض، يستعين بها الناس للدلالة على اتجاهات تنقلاتهم وحركاتهم حتى لو اختفت الأدوات الحديثة من بوصلة وما شابه .

﴿قَدْ مَكَرَ الَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ فَأَتَى اللَّهُ بُنْيَانَهُم مِّنَ الْقَوَاعِدِ فَخَرَّ عَلَيْهِمُ السَّقْفُ مِن فَوْقِهِمْ وَأَتَاهُمُ الْعَذَابُ مِنْ حَيْثُ لَا يَشْعُرُونَ﴾ (٢٦)

تشير هذه الآية الكريمة إلى صناعة البناء، فالأبنية المراد استبدالها يتم تثبيت المتفجرات حول قواعدها وأساساتها، فيخرّ السقف والجدران من أعلى إلى أسفل ونحو الداخل، بدل تفكيكها حَجَراً حَجَراً .

ذكر القرطبي : والقواعد : أصول البناء، وإذا اختلت القواعد سقط البناء .

﴿وَيَجْعَلُونَ لِمَا لَا يَعْلَمُونَ نَصِيبًا مِّمَّا رَزَقْنَاهُمْ ۗ تَاللَّهِ لَتُسْأَلُنَّ عَمَّا كُنتُمْ تَفْتَرُونَ﴾ (٥٦)

يأمر الله عباده بالإنفاق لوجهه سبحانه وتعالى، وإذ المشركون ينفقون من رزقهم الذي رزقهم الله تعالى إياه على من يعتقدونه إلهاً من دون الله، وسوف يُسأل أولئك عن افترائهم وكذبهم هذا.

ذكر الطبري: يقول تعالى ذكره: ويجعل هؤلاء المشركون من عَبَدة الأوثان، لما لا يعلمون منه ضراً ولا نفعاً نصيباً. يقول: حظاً وجزاء مما رزقناهم من الأموال، إشراكاً منهم له الذي يعلمون أنه خلقهم، وهو الذي ينفعهم ويضرّهم دون غيره.

وَاللَّهُ أَنزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَأَحْيَا بِهِ الْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا ۚ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَةً لِّقَوْمٍ يَسْمَعُونَ ﴿٦٥﴾

لقد أنزل الله تعالى الماء من السماء فأحيا به الأرض بعدما جفت وماتت، فنبت الزرع والشجر فيها وأعطى الثمار المختلف شكلاً ولوناً وطعماً.

وَإِنَّ لَكُمْ فِي الْأَنْعَامِ لَعِبْرَةً ۖ نُّسْقِيكُم مِّمَّا فِي بُطُونِهِ مِن بَيْنِ فَرْثٍ وَدَمٍ لَّبَنًا خَالِصًا سَائِغًا لِّلشَّارِبِينَ ﴿٦٦﴾

يُسقيكم الله من الأنعام التي خلقها؛ مما في بطونها لبناً خالصاً سائغاً للشاربين يخرج من بين أحشائها دون أن يتلوث بدمها أو بغيره.

وتعتبر صناعة الألبان صناعة رائجة في أنحاء العالم سواء أصُنعت يدوياً أم آلياً، وهي غذاء أساسي للناس، كما أنها تدخل في صناعات غذائية كثيرة جداً.

ذكر الطنطاوي: هذه الآية الكريمة من أكبر الأدلة على وحدانية الله تعالى ونفاذ قدرته، وعجيب صنعته، حيث استخرج سبحانه من بين فرث ودم في بطون الأنعام، لبناً خالصاً سائغاً للشاربين.

وَمِن ثَمَرَاتِ النَّخِيلِ وَالْأَعْنَابِ تَتَّخِذُونَ مِنْهُ سَكَرًا وَرِزْقًا حَسَنًا ۗ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَةً لِّقَوْمٍ يَعْقِلُونَ ﴿٦٧﴾

كما تصنعون من ثمر النخيل والعنب السُكَّر والشراب وأرزاقاً أخرى. وهذه إشارات لصناعات عديدة، تقوم عليها تجارات كثيرة عبر العالم.

وَأَوْحَىٰ رَبُّكَ إِلَى النَّحْلِ أَنِ اتَّخِذِي مِنَ الْجِبَالِ بُيُوتًا وَمِنَ الشَّجَرِ وَمِمَّا يَعْرِشُونَ ﴿٦٨﴾ ثُمَّ كُلِي مِن كُلِّ الثَّمَرَاتِ فَاسْلُكِي سُبُلَ رَبِّكِ ذُلُلًا ۚ يَخْرُجُ مِن بُطُونِهَا شَرَابٌ مُّخْتَلِفٌ أَلْوَانُهُ فِيهِ شِفَاءٌ لِّلنَّاسِ ۗ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَةً لِّقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ ﴿٦٩﴾

وأوحى الله إلى النحل، وهو ذلك الكائن الصغير، أن تتخذ بيوتاً لها من الجبال ومن الشجر ومما يعرشون؛ أي من بعض النباتات التي لا تزحف على الأرض ولا تخرج كالشجر بل هي بين ذلك.

والإيحاء يفيد بأن الأمر ليس فطرياً أو طبيعياً؛ بل هو أمر من الله وتعليم منه لهذا الكائن الذي كلّه منافع وفوائد.

ثم أمرها الله تعالى أن تتغذى من كل الثمرات ويسّر لها المراعي لأجل ذلك، وإذ بها تُخرج من بطونها شراب مختلف عن أي شراب آخر في الدنيا بألوان وطعم مختلف، جعل الله فيه الشفاء للناس.

وتعتبر صناعة العسل ومشتقاته صناعة منتشرة في أنحاء العالم بتكلفة لا تذكر أمام منافعه؛ فالنحل من خلق الله، وطعامه من خلق الله، وما على الإنسان المربي للنحل إلا أن يُهيئ لها أعشاشاً أو أن يستخرج من أعشاشها التي بنتها العسل ومشتقاته.

ذكر القرطبي: قوله تعالى: مختلف ألوانه يريد أنواعه من الأحمر والأبيض والأصفر والجامد والسائل، والأم واحدة والأولاد مختلفون دليل على أن القدرة نوّعته بحسب تنويع الغذاء، كما يختلف طعمه بحسب اختلاف المراعي.

﴿وَاللَّهُ فَضَّلَ بَعْضَكُمْ عَلَىٰ بَعْضٍ فِي الرِّزْقِ ۚ فَمَا الَّذِينَ فُضِّلُوا بِرَادِّي رِزْقِهِمْ عَلَىٰ مَا مَلَكَتْ أَيْمَانُهُمْ فَهُمْ فِيهِ سَوَاءٌ ۚ أَفَبِنِعْمَةِ اللَّهِ يَجْحَدُونَ ﴿٧١﴾

إن الإله الخالق قدّر رزق العباد، وقسمه بينهم بحكمة منه تعالى، ففضَّل بعض الناس على بعض، وحتى الذين فُضلوا بالرزق ليس بمقدورهم رده عنهم.

ذكر ابن كثير: عن الحسن البصري قال: كتب عمر بن الخطاب رضي الله عنه هذه الرسالة إلى أبي موسى الأشعري: واقنع برزقك من الدنيا، فإن الرحمن فضَّل بعض عباده على بعض في الرزق، بل يبتلي به كلا، فيبتلي من بسط له كيف شُكره لله وأداؤه الحق الذي افترض عليه فيما رزقه وخوله.

﴿وَاللَّهُ جَعَلَ لَكُم مِّنْ أَنفُسِكُمْ أَزْوَاجًا وَجَعَلَ لَكُم مِّنْ أَزْوَاجِكُم بَنِينَ وَحَفَدَةً وَرَزَقَكُم مِّنَ الطَّيِّبَاتِ ۚ أَفَبِالْبَاطِلِ يُؤْمِنُونَ وَبِنِعْمَتِ اللَّهِ هُمْ يَكْفُرُونَ ﴿٧٢﴾

الإله الخالق جعل الناس أزواجاً، وجعل لهم من أزواجهم بنين وحفدة، ورزقهم من الطيبات، فكيف يؤمنون بالباطل ويكفرون بنعمة الله.

تشير هذه الآية الكريمة إلى خلق البشر، وهم الموارد البشرية قوام الاقتصاد.

﴿وَيَعْبُدُونَ مِن دُونِ اللَّهِ مَا لَا يَمْلِكُ لَهُمْ رِزْقًا مِّنَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ شَيْئًا وَلَا يَسْتَطِيعُونَ﴾ ﴿٧٣﴾

ثم تجد الكفار يعبدون غير الله ممن لا يملك لهم الرزق من السماوات والأرض شيئاً؛ بل حتى أنهم لا يستطيعون ذلك.

ذكر ابن عاشور: هذه الجملة المعطوفة أفادت التّوبيخ على شكر ما لا يستحقّ الشكر، فإن العبادة شكر، فهم عبدوا ما لا يستحقّ العبادة ولا بيده نعمة، وهو الأصنام، لأنها لا تملك ما يأتيهم من الرزق لاحتياجها، ولا تستطيع رزقهم لعجزها.

﴿ضَرَبَ اللَّهُ مَثَلًا عَبْدًا مَّمْلُوكًا لَّا يَقْدِرُ عَلَىٰ شَيْءٍ وَمَن رَّزَقْنَاهُ مِنَّا رِزْقًا حَسَنًا فَهُوَ يُنفِقُ مِنْهُ سِرًّا وَجَهْرًا هَلْ يَسْتَوُونَ الْحَمْدُ لِلَّهِ بَلْ أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْلَمُونَ﴾ ﴿٧٥﴾

ضرب الله تعالى مثلين له ولمن يُعبد من دونه، وجُعل الرزق فيهما الفاصل:

أحدهما: عبد مملوك لا يملك نفسه، ولا يملك من المال والدنيا شيئاً.

والثاني: حرٌّ غنيٌّ رزقه الله رزقاً حَسَناً من جميع أنواع المال، يُنفق منه سراً وجهراً.

فهل يستويان؟ الجواب: طبعاً لا يستويان؛ على الرغم من كونهما مخلوقين.

إذاً كيف يستوي عبد مخلوق ليس له ملك وهو فقير، مع ربٍّ خالق مالك لكل شيء؟

ذكر ابن عاشور: شبّه حال أصنامهم في العجز عن رزقهم بحال مملوك لا يقدر على تصرّف في نفسه ولا يملك مالاً، وشبّه شأن الله تعالى في رزقه إيّاهم بحال الغنيّ المالك أمر نفسه بما شاء من إنفاقٍ وغيره، ومعرفة الحالين المشبّهتين يدلّ عليها المقام، والمقصود نفي المماثلة بين الحالتينْ، فكيف يزعمون مماثلة أصنامهم لله تعالى في الإلهية، ولذلك أعقب بجملة: هل يستوون؟.

﴿أَلَمْ يَرَوْا إِلَى الطَّيْرِ مُسَخَّرَاتٍ فِي جَوِّ السَّمَاءِ مَا يُمْسِكُهُنَّ إِلَّا اللَّهُ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَاتٍ لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ ﴿٧٩﴾﴾

لقد خلق الله تعالى الطيور لينتفع بها الإنسان، تلك الطيور تتحرك في السماء بقدرة الله تعالى.

وهي ثروة حيوانية تضاف لما خلقه الله تعالى من أنعام تدب على الأرض، وغيرها مما يسبح في البحر والنهر.

ذكر السعدي: وجه الآية فيها أن الله تعالى خلقها بخلقة تصلح للطيران، ثم سخر لها هذا الهواء اللطيف ثم أودع فيها من قوة الحركة وما قدرت به على ذلك.

وَاللَّهُ جَعَلَ لَكُم مِّن بُيُوتِكُمْ سَكَنًا وَجَعَلَ لَكُم مِّن جُلُودِ الْأَنْعَامِ بُيُوتًا تَسْتَخِفُّونَهَا يَوْمَ ظَعْنِكُمْ وَيَوْمَ إِقَامَتِكُمْ ۙ وَمِنْ أَصْوَافِهَا وَأَوْبَارِهَا وَأَشْعَارِهَا أَثَاثًا وَمَتَاعًا إِلَىٰ حِينٍ ﴿٨٠﴾

جعل الله تعالى البيوت سَكَناً وأمناً وراحة للناس، يَعمُرونها بما في الأرض من صخور وحجارة وطين وجلود الأنعام كالخيم، خفيفة في حملها في السفر وفي الأماكن التي يرتحلون إليها، تقيهم الحرّ والبرد والمطر.

ويتخذون من أصواف الأنعام وجلودها وأوبارها وأشعارها متاعاً إلى حين، وذكرت الآية الكريمة الفترة الزمنية ﴿إلى حين﴾ لأن لها عمراً افتراضياً بعدها تتلف، فهي ليست مستديمة الاستخدام إلى ما لا نهاية.

تشير هذه الآية الكريمة إلى صناعة العمارة وصناعة الخيم وما يتبعها، وصناعة الفرش والألبسة وغير ذلك.

ذكر القرطبي: الأثاث جميع أنواع المال ولا واحد له من لفظه.

وَاللَّهُ جَعَلَ لَكُم مِّمَّا خَلَقَ ظِلَالاً وَجَعَلَ لَكُم مِّنَ الْجِبَالِ أَكْنَاناً وَجَعَلَ لَكُمْ سَرَابِيلَ تَقِيكُمُ الْحَرَّ وَسَرَابِيلَ تَقِيكُم بَأْسَكُمْ كَذَلِكَ يُتِمُّ نِعْمَتَهُ عَلَيْكُمْ لَعَلَّكُمْ تُسْلِمُونَ (٨١)

وجعل الله مما خلق ظلالاً كظل الشجر والجبل وغيرها، وجعل المغارات لتحميكم وتقيكم من الحرّ والبرد والمطر وكذلك تحميكم من خطر العدو. وجعل لكم ثياباً ولباساً تقيكم الحرّ، وقد ذكر في بداية السورة اللباس الذي فيه الدفء، لذلك هو يقي من البرد، وجعل لكم ألبسة الحرب من دروع وسلاح وغيرها.

كل هذا من نعم الله عليكم، وفي الآية الكريمة إشارات لتصنيع ما ذكر من المنتجات المفيدة.

وَلَا تَكُونُوا كَالَّتِي نَقَضَتْ غَزْلَهَا مِن بَعْدِ قُوَّةٍ أَنكَاثاً تَتَّخِذُونَ أَيْمَانَكُمْ دَخَلاً بَيْنَكُمْ أَن تَكُونَ أُمَّةٌ هِيَ أَرْبَى مِنْ أُمَّةٍ إِنَّمَا يَبْلُوكُمُ اللَّهُ بِهِ وَلَيُبَيِّنَنَّ لَكُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ مَا كُنتُمْ فِيهِ تَخْتَلِفُونَ (٩٢)

شبهت هذه الآية الكريمة من ينقضون العهود، كالتي تغزل غزلاً قوياً فإذا نقضته جعلته خيوطاً؛ فتراها تعبت على الغزل وعلى نقضه، وبذلك لن تجني من فعلها سوى العناء وسفاهة العقل، وهذا حال من نقض ما عاهد عليه من ظلم وجهل وسفه.

وفي هذا إشارة لصناعة الغزل وإعادة صنعه أي صناعة التدوير.

ذكر الطنطاوي: الآية الكريمة تدعو إلى وجوب الوفاء بالعهود في جميع الأحوال، وتنهى عن اللجوء إلى الذرائع الباطلة، من أجل نقض العهود، إذ الإسلام لا يُقرُّ هذه الذرائع وتلك المبررات، بدعوى أن هناك جماعة أقوى من جماعة، أو دولة أعز من دولة، وإنما الذي يُقرِّه الإسلام هو مراعاة الوفاء بالعهود، وعدم اتخاذ الأيمان وسيلة للغش والخداع.

﴿وَلَا تَشْتَرُوا بِعَهْدِ اللَّهِ ثَمَنًا قَلِيلًا ۚ إِنَّمَا عِندَ اللَّهِ هُوَ خَيْرٌ لَّكُمْ إِن كُنتُمْ تَعْلَمُونَ ﴿٩٥﴾﴾

هذا نهيٌ من الله عن المتاجرة بعهده فمن يشتري بعهده ثمناً قليلاً؛ فقد ترك خيراً كثيراً. وهذه الاستعارة مستمرة لما للشراء والبيع والتجارة في حياة الناس من مكانة.

مَا عِندَكُمْ يَنفَدُ وَمَا عِندَ اللَّهِ بَاقٍ وَلَنَجْزِيَنَّ الَّذِينَ صَبَرُوا أَجْرَهُم بِأَحْسَنِ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ ﴿٩٦﴾

إن الفارق بين ما في أيدي الناس وما عند الله أن ما في أيدي الناس قابل للنفاد والانتهاء؛ لذلك يخشى الناس ما يسمونه: المشكلة الاقتصادية؛ فحاجاتهم غير منتهية ومواردهم محدودة.

أما ما عند الله فلا نهاية له لأنه خالق يخلق من العدم؛ فالناس في حاجة لما في خزائن الله؛ لتمدهم إذا نفدت خزائنهم، وهذا لا يكون إلا بطاعته تعالى وبذلك جاءت الآيات تترى.

ذكر ابن عاشور: جملة: ما عندكم ينفد وما عند الله باق؛ تذييل وتعليل لمضمون جملة: إنما عند الله هو خير لكم؛ بأن ما عند الله لهم خير متجدّد لا نفاد له، وأن ما يعطيهم المشركون محدود نافد لأن خزائن الناس صائرة إلى النفاد بالإعطاء وخزائن الله باقية.

مَنْ عَمِلَ صَالِحًا مِّن ذَكَرٍ أَوْ أُنثَىٰ وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَلَنُحْيِيَنَّهُ حَيَاةً طَيِّبَةً وَلَنَجْزِيَنَّهُمْ أَجْرَهُم بِأَحْسَنِ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ ﴿٩٧﴾

مَن أراد حياة سعيدة من ذكر أو أنثى؛ فعليه أن يعمل الصالحات؛ ليجزيهم الله أجورهم بأحسن مما عملوا. وهذا حال الأمم أيضاً إن عملت

الصلاح وابتعدت عن الشرور فستحيا حياة طيبة ولن يصيبها عذاب الله وقد مرّ معنا مثال قوم يونس عليه السلام. وهذا مثال، وفي الآية (١١٢) التالية، مثال عن أمة كفرت بأنعم الله فاستحقت مصير العذاب والبؤس الذي وكأنه فشل اقتصادي.

ذكر ابن كثير: الحياة الطيبة تشمل كل ما جاء في الحديث الذي رواه الإمام أحمد: عن عبد الله بن عمرو أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال: "قد أفلح من أسلم ورزق كفافاً، وقنَّعه الله بما آتاه".

ذكر ابن عاشور: لما كان الوعد المتقدم – في الآية السابقة – بقوله تعالى: ولنجزين الذين صبروا أجرهم بأحسن ما كانوا يعملون؛ خاصاً بأولئك الذين نُهوا عن أن يشتروا بعهد الله ثمناً قليلاً؛ عُقب بتعميمه لكل من ساواهم في الثبات على الإسلام والعمل الصالح مع التبيين للأجر؛ فكانت هذه الجملة بمنزلة التذييل للتي قبلها.

ثُمَّ إِنَّ رَبَّكَ لِلَّذِينَ هَاجَرُوا مِن بَعْدِ مَا فُتِنُوا ثُمَّ جَاهَدُوا وَصَبَرُوا إِنَّ رَبَّكَ مِن بَعْدِهَا لَغَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿١١٠﴾

تشير الآية الكريمة إلى اقتصاد الهجرة أي ترك الوطن إلى غيره.

ذكر السعدي: إن ربك الذي ربى عباده المخلصين بلطفه وإحسانه لغفور رحيم لمن هاجر في سبيله، وخلى دياره وأمواله طلباً لمرضاة الله، وفُتن على دينه ليرجع إلى الكفر، فثبت على الإيمان، وتخلص ما معه من اليقين، ثم جاهد أعداء الله ليدخلهم في دين الله بلسانه ويده، وصبر على هذه العبادات الشاقة على أكثر الناس.

وَضَرَبَ اللَّهُ مَثَلاً قَرْيَةً كَانَتْ آمِنَةً مُّطْمَئِنَّةً يَأْتِيهَا رِزْقُهَا رَغَداً مِّن كُلِّ مَكَانٍ فَكَفَرَتْ بِأَنْعُمِ اللَّهِ فَأَذَاقَهَا اللَّهُ لِبَاسَ الْجُوعِ وَالْخَوْفِ بِمَا كَانُوا يَصْنَعُونَ ﴿١١٢﴾

هذه الآية ضربت للناس أُنموذجاً يُستدل به: ضرب الله مثلاً قرية كانت في رغد العيش، يأتيها رزقها من كل مكان، لكنها لما كفرت بأنعمه، أذاقها الله الجوع والخوف بما صنعوه من كُفر به وبأنعمه.

وهذا الوجه الآخر للآية الكريمة السابقة لمن أراد أن يحيا حياة طيبة، فلابد له من شكر الله وعبادته، لأن الكفران مؤداه حياة صعبة كلها شقاء لا رغد فيها.

ذكر ابن عاشور: حصل في الآية استعارتان: الأولى: استعارة الإذاقة وهي تبعية مصرحة، والثانية: اللباس وهي أصليّة مصرّحة.

ومن بديع النظم أن جُعلت الثانية متفرّعة على الأولى ومركّبة عليها بجعل لفظها مفعولاً للفظ الأولى، وحصل بذلك أن الجوع والخوف محيطان بأهل القرية في سائر أحوالهم وملازمان لهم وأنهم بالغان منهم مبلغاً أليماً.

فَكُلُوا مِمَّا رَزَقَكُمُ اللَّهُ حَلَالًا طَيِّبًا وَاشْكُرُوا نِعْمَتَ اللَّهِ إِن كُنتُمْ إِيَّاهُ تَعْبُدُونَ ﴿١١٤﴾

يأمر الله عباده بأكل الحلال الطيب، ثم شُكره على نعمه. وهذا بيت القصيد؛ فالعباد يرزقهم ربهم ويرعاهم ويحفظهم ويطلب منهم عبادته والشكر عبادة.

ذكر الطنطاوي: الفاء في قوله: ﴿فَكُلُوا﴾ للتفريع على ما تقدم من التمثيل بالقرية التي كفرت بأنعم الله، والتي أصابها ما أصابها بسبب ذلك.

أي: لقد ظهر لكم حال الذين بدلوا نعمة الله كفراً، ورأيتم كيف أذاقهم الله لباس الجوع والخوف، فاحذروا أن تسيروا على شاكلتهم، وكلوا من الحلال الطيب الذي رزقكم الله تعالى إياه. واشكروا نعمة الله التي أنعم بها عليكم، بأن تستعملوها فيما خُلقت له، وبأن تقابلوها بأسمى ألوان

الطاعة لمسديها عز وجل؛ ﴿إِنْ كُنْتُمْ إِيَّاهُ﴾ سبحانه تعبدونه حق العبادة، وتطيعونه حق الطاعة.

﴿إِنَّمَا حَرَّمَ عَلَيْكُمُ الْمَيْتَةَ وَالدَّمَ وَلَحْمَ الْخِنزِيرِ وَمَا أُهِلَّ لِغَيْرِ اللَّهِ بِهِ فَمَنِ اضْطُرَّ غَيْرَ بَاغٍ وَلَا عَادٍ فَإِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿١١٥﴾﴾

يأمر الله عباده بعدم أكل المحرمات كالميتة والدم ولحم الخنزير وما أريد به غير الله إلا اضطراراً أي دون قصد العدوان.

﴿وَلَا تَقُولُوا لِمَا تَصِفُ أَلْسِنَتُكُمُ الْكَذِبَ هَذَا حَلَالٌ وَهَذَا حَرَامٌ لِّتَفْتَرُوا عَلَى اللَّهِ الْكَذِبَ إِنَّ الَّذِينَ يَفْتَرُونَ عَلَى اللَّهِ الْكَذِبَ لَا يُفْلِحُونَ ﴿١١٦﴾﴾

إن وصف ما هو حلال وما هو حرام ليس مفوضاً للخلق، بل هو خاص بالله الخالق البارئ العليم الحكيم، ومن يفعل ذلك إنما يفتري الكذب على الله.

ذكر القرطبي: أسند الدارمي أبو محمد في مسنده أخبرنا هارون عن حفص عن الأعمش قال: ما سمعت إبراهيم قط يقول حلال ولا حرام، ولكن كان يقول: كانوا يكرهون وكانوا يستحبون. وقال ابن وهب قال

مالك: لم يكن من فتيا الناس أن يقولوا هذا حلال وهذا حرام، ولكن يقولوا إياكم كذا وكذا، ولم أكن لأصنع هذا.

ومعنى هذا: أن التحليل والتحريم إنما هو لله عز وجل، وليس لأحد أن يقول أو يُصرح بهذا في عين من الأعيان، إلا أن يكون البارئ تعالى يُخبر بذلك عنه. وما يؤدي إليه الاجتهاد في أنه حرام يقول: إني أكره كذا. وكذلك كان مالك يفعل اقتداء بمن تقدم من أهل الفتوى.

تفسير سورة الإسراء

رقم السورة: ١٧ وهي مكية وعدد آياتها: ١١١.

ذكر الطنطاوي: ساقت السورة في هذا المجال أنواعا متعددة من البراهين على وحدانية الله تعالى وعلمه وقدرته، ووجوب إخلاص العبادة له، وعلى تنزيهه سبحانه عن الشريك.

كذلك على رأس الموضوعات التي فصلت السورة الحديث عنها، شخصية الرسول صلى الله عليه وسلم فقد ابتدأت بإِسراء الله تعالى به من المسجد الحرام إلى المسجد الأقصى، حيث أراه سبحانه من آياته ما أراه، ثم تحدثت عن طبيعة رسالته، وعن مزاياها، وعن موقف المشركين منه، وعن المطالب المتعنتة التي طلبوها منه، وعن تثبيت الله تعالى له، وعن تبشيره بحسن العاقبة.

من الواضح أيضاً أن سورة الإسراء اعتنت بالحديث عن القرآن الكريم، من حيث هدايته، وإعجازه، ومنع الذين لا يؤمنون به عن فقهه، واشتماله على ما يشفي الصدور، وتكراره للبينات والعبر بأساليب مختلفة، ونزوله مفرقاً ليقرأه الناس على مكث.

اهتمت السورة الكريمة اهتماماً بيِّناً، بالحديث عن التكاليف الشرعية، المتضمنة لقواعد السلوك الفردي والجماعي.

وقد ذكرت السورة أكثر من عشرين تكليفا، في آيات متتالية، ومن تلك التكاليف قوله تعالى:

- لا تَجْعَلْ مَعَ اللَّهِ إِلهاً آخَرَ.
- وَقَضى رَبُّكَ أَلَّا تَعْبُدُوا إِلَّا إِيَّاهُ وَبِالْوالِدَيْنِ إِحْساناً.
- وَآتِ ذَا الْقُرْبى حَقَّهُ وَالْمِسْكِينَ وَابْنَ السَّبِيلِ وَلا تُبَذِّرْ تَبْذِيراً.
- وَلا تَقْتُلُوا أَوْلادَكُمْ خَشْيَةَ إِمْلاقٍ نَحْنُ نَرْزُقُهُمْ وَإِيَّاكُمْ.
- وَلا تَقْرَبُوا الزِّنى إِنَّهُ كانَ فاحِشَةً وَساءَ سَبِيلاً.
- وَلا تَقْتُلُوا النَّفْسَ الَّتِي حَرَّمَ اللَّهُ إِلَّا بِالْحَقِّ.
- وَلا تَقْرَبُوا مالَ الْيَتِيمِ إِلَّا بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ.
- وَأَوْفُوا الْكَيْلَ إِذا كِلْتُمْ وَزِنُوا بِالْقِسْطاسِ الْمُسْتَقِيمِ.
- وَلا تَقْفُ ما لَيْسَ لَكَ بِهِ عِلْمٌ.
- وَلا تَمْشِ فِي الْأَرْضِ مَرَحاً.

وبجانب حديثها المستفيض عن التكاليف الشرعية، تحدثت أيضاً عن طبيعة الإنسان في حالتي العسر واليسر، وعن بخله الشديد بما يملكه.

ومن الجوانب التي حرصت السورة الكريمة على تجليتها والكشف عنها: بيان سنن الله التي لا تتخلف في الهداية والإضلال، وفي الثواب والعقاب، وفي النصر والخذلان، وفي الرحمة والإهلاك.

ثُمَّ رَدَدْنَا لَكُمُ الْكَرَّةَ عَلَيْهِمْ وَأَمْدَدْنَاكُمْ بِأَمْوَالٍ وَبَنِينَ وَجَعَلْنَاكُمْ أَكْثَرَ نَفِيراً (٦)

دائماً المال ثم البنون هما الزينة التي يعتبرها الناس.

ذكر القرطبي: ثم رددنا لكم الكرة عليهم أي الدولة والرجعة، وذلك لما تبتم وأطعتم، ثم قيل: ذلك بقتل داود جالوت أو بقتل غيره، على الخلاف في من قتلهم. وأمددناكم بأموال وبنين حتى عاد أمركم كما كان. وجعلناكم أكثر نفيراً أي أكثر عدداً ورجالاً من عدوكم ... والمعنى: أنهم صاروا بعد هذه الوقعة الأولى أكثر انضماماً وأصلح أحوالاً؛ جزاءً من الله تعالى لهم على عودهم إلى الطاعة.

ذكر الطنطاوي: أن الأمم المغلوبة على أمرها، تستطيع أن تسترد مجدها، متى أصلحت من شأن أنفسها، ومتى استقامت على أمر الله تعالى.

﴿وَجَعَلْنَا اللَّيْلَ وَالنَّهَارَ آيَتَيْنِ ۖ فَمَحَوْنَا آيَةَ اللَّيْلِ وَجَعَلْنَا آيَةَ النَّهَارِ مُبْصِرَةً لِّتَبْتَغُوا فَضْلًا مِّن رَّبِّكُمْ وَلِتَعْلَمُوا عَدَدَ السِّنِينَ وَالْحِسَابَ ۚ وَكُلَّ شَيْءٍ فَصَّلْنَاهُ تَفْصِيلًا ﴿١٢﴾﴾

تعاقب الليل والنهار من آيات الله، جعل الله النهار نيّراً مُبصراً ليكون ابتغاء الرزق والعمل فيه، ويستفاد منهما ومن تعاقبهما معرفة السنين التي تمر على الإنسان فيحسب فيها عمره وتجاراته وديونه وزكواته وكثيراً مما يلزمه في هذه الحياة.

ذكر ابن كثير: يمتن تعالى على خلقه بآياته العظام، فمنها مخالفته بين الليل والنهار، ليسكنوا في الليل وينتشروا في النهار للمعايش والصناعات والأعمال والأسفار، وليعلموا عدد الأيام والجمع والشهور والأعوام، ويعرفوا مُضي الآجال المضروبة للديون والعبادات والمعاملات والإجارات وغير ذلك؛ ولهذا قال: ﴿لتبتغوا فضلا من ربكم﴾ أي: في معايشكم وأسفاركم ونحو ذلك ﴿ولتعلموا عدد السنين والحساب﴾؛ فإنه لو كان الزمان كله نسقاً واحداً وأسلوباً متساوياً؛ لما عُرف شيء من ذلك.

وَإِذَا أَرَدْنَا أَن نُّهْلِكَ قَرْيَةً أَمَرْنَا مُتْرَفِيهَا فَفَسَقُوا فِيهَا فَحَقَّ عَلَيْهَا الْقَوْلُ فَدَمَّرْنَاهَا تَدْمِيرًا ﴿١٦﴾ وَكَمْ أَهْلَكْنَا مِنَ الْقُرُونِ مِن بَعْدِ نُوحٍ ۗ وَكَفَىٰ بِرَبِّكَ بِذُنُوبِ عِبَادِهِ خَبِيرًا بَصِيرًا ﴿١٧﴾

هلاك البلاد منوط بأهلها المترفين، فإن عَصوا الله ولم يَشكروا الله؛ فسيكون ذلك سبيلاً وحجة لدمار البلاد، وهذه سنة من سنن الله في الأرض، وعلى الناس أن تعتبر بمن سبقهم.

ذكر الطنطاوي: إذا قرب وقت إرادتنا إهلاك أهل قرية، أمرنا مترفيها، وأهل الغنى والسلطان فيها بالإيمان والعمل الصالح، والمداومة على طاعتنا وشكرنا، فلم يستجيبوا لأمرنا، بل فسقوا فيها، وعاثوا في الأرض فساداً.

وهذا الأمر إنما هو على لسان الرسول المبعوث إلى أهل تلك القرية، وعلى ألسنة المصلحين المتّبعين لهذا الرسول والآمرين بالمعروف والناهين عن المنكر.

مع أن الهلاك لأهلها، للإشارة إلى أن هذا الهلاك لن يصيب أهلها فقط، بل سيصيبهم ويصيب معهم مساكنهم وأموالهم وكل ما احتوته تلك القرية، بحيث تصير هي وسكانها أثراً بعد عين. وخَص مترفيها بالذكر مع أن الأمر بالطاعة للجميع، لأن هؤلاء المترفين هم الأئمة والقادة، فإذا ما استجابوا للأمر استجاب غيرهم تبعاً لهم في معظم الأحيان، ولأنهم في

أعم الأحوال هم الأسرع إلى ارتكاب ما نهى الله عنه، وإلى الانغماس في المتع والشهوات. والحكمة من هذا الأمر، هو الإعذار والإنذار، والتخويف والوعيد ...

إن هذه القرية المدمرة بسبب فسوق أهلها، وعصيانهم لأمرنا، ليست هي القرية الوحيدة التي نزل بها عذابنا، بل إننا قد أهلكنا كثيراً من القرى من بعد زمن نوح عليه السلام كقوم عاد وثمود وغيرهم ممن استحبوا العمى على الهدى، وآثروا الكفر على الإيمان والغيّ على الرشد. وخص نوح عليه السلام بالذكر، لأنه أول رسول كذبه قومه وآذوه وسخروا منه؛ فأهلكهم الله تعالى بالطوفان.

كُلًّا نُّمِدُّ هَٰؤُلَاءِ وَهَٰؤُلَاءِ مِنْ عَطَاءِ رَبِّكَ ۚ وَمَا كَانَ عَطَاءُ رَبِّكَ مَحْظُورًا ﴿٢٠﴾

يرزق الله الناس في هذه الدنيا جميع الناس مؤمنهم وكافرهم ولا يحظر عطاءه على أحد، فهذه الدنيا دار ابتلاء للجميع.

ذكر الطبري: يقول تعالى ذكره: يُمدّ ربك يا محمد كلا الفريقين من مريدي العاجلة، ومريدي الآخرة، الساعي لها سعيها وهو مؤمن في هذه الدنيا من عطائه، فيرزقهما جميعاً من رزقه إلى بلوغهما الأمد،

واستيفائهما الأجل ما كتب لهما، ثم تختلف بهما الأحوال بعد الممات، وتفترق بهما بعد الورود المصادر، ففريق مريدي العاجلة إلى جهنم مصدَرهم، وفريق مريدي الآخرة إلى الجنة مآبهم.

﴿وَمَا كَانَ عَطَاءُ رَبِّكَ مَحْظُوراً﴾؛ يقول: وما كان عطاء ربك الذي يؤتيه من يشاء من خلقه في الدنيا ممنوعاً عمن بسطه عليه لا يقدر أحد من خلقه منعه من ذلك، وقد آتاه الله إياه.

وَآتِ ذَا الْقُرْبَى حَقَّهُ وَالْمِسْكِينَ وَابْنَ السَّبِيلِ وَلَا تُبَذِّرْ تَبْذِيراً ﴿٢٦﴾ إِنَّ الْمُبَذِّرِينَ كَانُوا إِخْوَانَ الشَّيَاطِينِ وَكَانَ الشَّيْطَانُ لِرَبِّهِ كَفُوراً ﴿٢٧﴾

يجب على المكلّف المستطيع إيتاء حقوق الله من الصدقات لأقربائه والمساكين وابن السبيل، فلا يبذر في أمواله يُمنة ويُسرة بلا تقدير وبدون وجه حق. أولئك المبذرين إنما هم في درجة الشياطين التي لُعنت إلى يوم الدين لأنها كفرت بربها، والمبذر كفر بنعمة ربه التي آتاها له ولم يؤتِ حقها.

ذكر الطبري: إنها بمعنى وصية الله عباده بصلة قرابات أنفسهم وأرحامهم من قِبَل آبائهم وأمهاتهم، وذلك أن الله عزّ وجلّ عَقَّب ذلك عقيب حَضّه

عباده على برّ الآباء والأمَّهات، فالواجب أن يكون ذلك حَضًّا على صلة أنسابهم دون أنساب غيرهم التي لم يجر لها ذكر، وإذا كان ذلك كذلك، فتأويل الكلام: وأعط يا محمد ذا قرابتك حقه من صلتك إياه، وبرّك به، والعطف عليه، وخرج ذلك مَخْرج الخطاب لنبيّ الله صلى الله عليه وسلم، والمراد بحكمه جميع من لزمته فرائض الله، يدلّ على ذلك ابتداؤه الوصية بقوله جلّ ثناؤه: ﴿وَقَضَى رَبُّكَ أَلا تَعْبُدُوا إِلا إِيَّاهُ وَبِالْوَالِدَيْنِ إِحْسَانًا إِمَّا يَبْلُغَنَّ عِنْدَكَ الْكِبَرَ أَحَدُهُمَا﴾؛ فوجَّه الخطاب بقوله: ﴿وَقَضَى رَبُّكَ﴾ إلى نبيّ الله صلى الله عليه وسلم، ثم قال: ﴿أَلا تَعْبُدُوا إِلا إِيَّاهُ﴾؛ فرجع بالخطاب به إلى الجميع، ثم صرف الخطاب بقوله: ﴿إِمَّا يَبْلُغَنَّ عِنْدَكَ﴾ إلى إفراده به. والمعنيّ بكل ذلك جميع من لزمته فرائض الله عزّ وجلّ، أُفرد بالخطاب رسول الله صلى الله عليه وسلم وحده، أو عمّ به هو وجميع أمته.

ذكر القرطبي: قال الشافعي رضي الله عنه: والتبذير إنفاق المال في غير حقه، ولا تبذير في عمل الخير. وهذا قول الجمهور.

وذكر أيضاً: من أنفق ماله في الشهوات زائداً على قدر الحاجات وعرضه بذلك للنفاد فهو مبذر. ومن أنفق ربح ماله في شهواته وحفظ الأصل أو الرقبة فليس بمبذر. ومن أنفق درهماً في حرام فهو مبذر، ويُحجر عليه في

نفقته الدرهم في الحرام، ولا يُحجر عليه إن بذله في الشهوات إلا إذا خيف عليه النفاد.

ذكر البغوي: قال مجاهد: لو أنفق الإنسان ماله كله في الحق ما كان تبذيراً ولو أنفق مداً في باطل كان تبذيراً.

وسئل ابن مسعود عن التبذير فقال: إنفاق المال في غير حقه.

قال شعبة: كنت أمشي مع أبي إسحاق في طريق الكوفة فأتى على باب دار بُني بجَص وآجر فقال: هذا التبذير.

وفي قول عبد الله: إنفاق المال في غير حقه.

ذكر الطنطاوي: قال صاحب الكشاف: التبذير تفريق المال فيما لا ينبغي، وإنفاقه على وجه الإسراف، وكانت الجاهلية تنحر إبلها وتتياسر عليها، وتبذر أموالها في الفخر والسمعة، وتذكر ذلك في أشعارها، فأمر الله تعالى بالنفقة في وجوهها، مما يقرب منه ويزلف.

وَلَا تَجْعَلْ يَدَكَ مَغْلُولَةً إِلَىٰ عُنُقِكَ وَلَا تَبْسُطْهَا كُلَّ الْبَسْطِ فَتَقْعُدَ مَلُومًا مَّحْسُورًا ﴿٢٩﴾

يكون الاقتصاد بالاعتدال؛ فالبخل مُحرّم، والتبذير والإسراف مُحرّمان، فمن فعل فسيلوم نفسه ويتحسر عليها؛ فهو لم يُرضِ الله تعالى، ولن

يرضى عن نفسهِ؛ فمن جعل يده مغلولة حَرَم نفسه من زينة الحياة التي أباحها الله تعالى لعباده، ومن أسرف وبذّر أوقع نفسه في الغُرم والدَّين ومن ثم الحرمان، ومن اعتدل بين الحالين فقد حقق المراد وتوازن عيشه.

ذكر الطبري: لا تمسك يا محمد – والكلام لأمته صلى الله عليه وسلم – يدك بُخلاً عن النفقة في حقوق الله، فلا تُنفق فيها شيئاً إمساك المغلولة يده إلى عنقه، الذي لا يستطيع بسطها ﴿وَلا تَبْسُطْهَا كُلَّ الْبَسْطِ﴾؛ يقول: ولا تبسطها بالعطية كلّ البسط، فتَبقى لا شيء عندك، ولا تجد إذا سُئلت شيئاً تعطيه سائلك ﴿فَتَقْعُدَ مَلُومًا مَحْسُورًا﴾؛ يقول: فتقعد يلومك سائلوك إذا لم تعطهم حين سألوك، وتلومك نفسك على الإسراع في مالك وذهابه.

ذكر القرطبي: قيل: إن هذا الخطاب للنبي صلى الله عليه وسلم في خاصة نفسه، عَلَّمه فيه كيفية الإنفاق، وأمره بالاقتصاد.

ذكر الطنطاوي: قال الآلوسي ما ملخصه: فالآية الكريمة تحض على التوسط، وذلك هو الجود الممدوح، فخير الأمور أوساطها.

وأخرجه أحمد وغيره عن ابن عباس قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: «ما عال من اقتصد».

وأخرجه البيهقي عن ابن عمر قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: «الاقتصاد في النفقة نصف المعيشة».

وفي رواية عن أنس مرفوعاً: «التدبير نصف المعيشة، والتودد نصف العقل، والهم نصف الهرم، وقلة العيال أحد اليسارين»، وكما يُقال: حُسن التدبير مع الكفاف، خير من الغنى مع الإسراف.

إِنَّ رَبَّكَ يَبْسُطُ الرِّزْقَ لِمَن يَشَاءُ وَيَقْدِرُ إِنَّهُ كَانَ بِعِبَادِهِ خَبِيراً بَصِيراً ٣٠

إن الرزق مقدر من الله تعالى، يبسطه لمن يشاء، ويقدره على من يشاء، فهو الأكثر خبرة بالناس وهو البصير بحاجتهم وبما هم عليه.

ويستفاد من هذه الآية الكريمة أن كل راعٍ يجب أن يكون خبيراً برعيته وبصيراً بما يحتاجونه ويفعلونه فيراقبهم ويحقق لهم ما يحتاجونه.

ذكر الطبري: يقول تعالى ذكره لنبيه محمد صلى الله عليه وسلم: إن ربك يا محمد يبسط رزقه لمن يشاء من عباده، فيوسع عليه، ويقدر على من يشاء، يقول: ويُقَتِّر على من يشاء منهم، فيضيِّق عليه ﴿إِنَّهُ كَانَ بِعِبَادِهِ خَبِيرًا﴾: يقول: إن ربك ذو خبرة بعباده، ومن الذي تُصلحه السعة في الرزق وتفسده؛ ومن الذي يصلحه الإقتار والضيق ويُهلكه

﴿بصيراً﴾: يقول: هو ذو بصر بتدبيرهم وسياستهم، يقول: فانته يا محمد إلى أمرنا فيما أمرناك ونهيناك من بسط يدك فيما تبسطها فيه، وفيمن تبسطها له، ومن كفها عمن تكفها عنه، وتكفها فيه، فنحن أعلم بمصالح العباد منك، ومن جميع الخلق وأبصر بتدبيرهم.

وَلَا تَقْتُلُوا أَوْلَادَكُمْ خَشْيَةَ إِمْلَاقٍ نَحْنُ نَرْزُقُهُمْ وَإِيَّاكُمْ إِنَّ قَتْلَهُمْ كَانَ خِطْئًا كَبِيرًا ﴿٣١﴾

لا يجوز قتل الأولاد سواء بعدم الزواج أو بعدم الإنجاب أو بوأدهم وقتلهم، خشية الفقر، لقد تعهد الله برزقهم وبرزق أهليهم، فالقتل خطيئة.

والنهي مرده استمرار نسل البشر لبقائهم، فهم مورد بشري والحياة لا تقوم بعدمهم.

ذكر الطنطاوي: والحق أن المجتمع الذي يبيح قتل الأولاد، خوفاً من الفقر أو العار، لا يمكن أن يَصلح شأنه، لأنه مجتمع نفعي تسوده الأثرة والأنانية والتشاؤم والأوهام، لأن أفراده يظنون أن الله يخلق خلقاً لا يدبر لهم رزقهم، ويعتدون على روح بريئة طاهرة، تخوفاً من فقر أو عار مترقب، وذلك هو الضلال المبين.

ورحم الله الإمام الرازي؛ فقد قال عند تفسيره لهذه الآية ما ملخصه: إن قتل الأولاد إن كان لخوف الفقر، فهو سوء ظن بالله. وإن كان لأجل الغيرة على البنات فهو سعيٌ في تخريب العالم. فالأول: ضد التعظيم لأمر الله تعالى، والثاني: ضد الشفقة على خلقه، وكلاهما مذموم.

وَلَا تَقْرَبُوا الزِّنَا إِنَّهُ كَانَ فَاحِشَةً وَسَاءَ سَبِيلًا ﴿٣٢﴾

لابد من حفظ نسل البشر وعدم خلطه؛ فصفاء النسل راحة للناس ووازع لغيرتهم على بعضهم بالتآلف فيما بينهم لتكون حياتهم سعيدة؛ ثم إن خلط الأنساب مؤداه زعزعة نظام المواريث.

ذكر الطنطاوي: بعد أن نهى سبحانه عن قتل الأولاد المؤدي إلى إفناء النسل، أتبع ذلك بالنهي عن فاحشة الزنا المؤدية إلى اختلاط الأنساب.

وَلَا تَقْتُلُوا النَّفْسَ الَّتِي حَرَّمَ اللَّهُ إِلَّا بِالْحَقِّ وَمَنْ قُتِلَ مَظْلُومًا فَقَدْ جَعَلْنَا لِوَلِيِّهِ سُلْطَانًا فَلَا يُسْرِفْ فِي الْقَتْلِ إِنَّهُ كَانَ مَنْصُورًا ﴿٣٣﴾

كما أن قتل النفس بغير حق إزهاق لها وتضييع لحياة البشر؛ فهو يقضي على وجودها كما أراد الله تعالى خالقهم.

ذكر ابن كثير: يقول تعالى ناهياً عن قتل النفس بغير حق شرعي كما ثبت في الصحيحين: أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال: لا يحل دم

امرئ مسلم يشهد أن لا إله إلا الله وأن محمداً رسول الله إلا بإحدى ثلاث: النفس بالنفس، والزاني المحصن، والتارك لدينه المفارق للجماعة.

وفي السنن: لزوال الدنيا أهون عند الله من قتل مسلم.

ذكر الطنطاوي: ثم نهى سبحانه عن قتل النفس المعصومة الدم، بعد نهيه عن قتل الأولاد، وعن الاقتراب من فاحشة الزنا.

وَلَا تَقْرَبُوا مَالَ الْيَتِيمِ إِلَّا بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ حَتَّى يَبْلُغَ أَشُدَّهُ وَأَوْفُوا بِالْعَهْدِ إِنَّ الْعَهْدَ كَانَ مَسْئُولاً ﴿٣٤﴾

يجب عدم تضييع مال من مات أبوه أو أمه أو كلاهما، لأنه ضياع لجزء من موارد الأمة، فمن شاء أن يرعى مالهم فعليه أن يفعل بما هو أحسن لمصلحتهم وهذا تعظيم للمصلحة وكأنه مسألة رياضية (تدعى السمبلكس)؛ تهدف لتعظيم الثروة حتى يبلغ اليتيم رشده بأن يقوى على إدارة أمور حياته، ولابد من حفظ العهد لأنه مسؤول عنه أمام الله تعالى.

ذكر ابن عاشور: هذا من أهم الوصايا التي أوصى الله بها في هذه الآيات، لأن العرب في الجاهلية كانوا يستحلون أموال اليتامى لضعفهم عن التفطن لمن يأكل أموالهم وقلة نصيرهم لإيصال حقوقهم، فحذر الله

المسلمين من ذلك لإزالة ما عسى أن يبقى في نفوسهم من أثر من تلك الجاهلية.

ذكر الطنطاوي: بعد أن نهى سبحانه عن إتلاف النفوس عن طريق القتل والزنا، أتبع ذلك بالنهي عن إتلاف الأموال التي هي قوام الحياة، وبدأ سبحانه بالنهي عن الاقتراب من مال اليتيم إلا بالتي هي أحسن، ثم ثنّى بالأمر بإيفاء الكيل والميزان عند التعامل.

وَأَوْفُوا الْكَيْلَ إِذَا كِلْتُمْ وَزِنُوا بِالْقِسْطَاسِ الْمُسْتَقِيمِ ذَلِكَ خَيْرٌ وَأَحْسَنُ تَأْوِيلاً (٣٥)

يجب على الناس أن تسعى للعدل بإيفاء الكيل حقه، والوزن بالقسط، سواء للأشياء أو للمحاسبة فيما بينهم.

ذكر الطنطاوي: ذلك الذي أمرناكم به من وجوب إتمام المكيال والميزان عند التعامل، خير لكم في الدنيا، لأنه يُرغّب الناس في التعامل معكم، أما في الآخرة فهو أحسن عاقبة ومآلا، لما يترتب عليه من الثواب الجزيل لكم من الله عز وجل.

قُلْ لَوْ كَانَ مَعَهُ آلِهَةٌ كَمَا يَقُولُونَ إِذاً لَابْتَغَوْا إِلَى ذِي الْعَرْشِ سَبِيلاً (٤٢)

إن أبسط قواعد الإدارة وهياكلها التنظيمية أن يكون لها مدبر واحد لا أكثر وإلا فسد الأمر وتضاربت القرارات وتعاكست وكان ذلك سبب خرابها.

ذكر ابن عاشور: المراد بالسبيل سبيل السعي إلى الغلبة والقهر، أي لطلبوا مغالبة ذي العرش وهو الله تعالى ... ووجه الملازمة التي بني عليها الدليل أن من شأن أهل السلطان في العُرف والعادة أن يتطلبوا توسعة سلطانهم ويسعى بعضهم إلى بعض بالغزو، ويتألّبُوا على السلطان الأعظم ليسلبوه ملكه أو بَعضه.

وَاسْتَفْزِزْ مَنِ اسْتَطَعْتَ مِنْهُم بِصَوْتِكَ وَأَجْلِبْ عَلَيْهِم بِخَيْلِكَ وَرَجِلِكَ وَشَارِكْهُمْ فِي الْأَمْوَالِ وَالْأَوْلَادِ وَعِدْهُمْ ۚ وَمَا يَعِدُهُمُ الشَّيْطَانُ إِلَّا غُرُورًا ﴿٦٤﴾

تعهد الشيطان أن يشارك الناس أموالهم وأولادهم ليغرر بهم لعصيان الله كما فعل هو، وهذا لعلمه بأن المال والبنين زينة الناس وفيهما مدخله للوسوسة ومن ثم دعوتهم للعصيان ليكونا في الحزب نفسه.

ذكر القرطبي: وشاركهم في الأموال والأولاد أي اجعل لنفسك شركة في ذلك؛ فشركته في الأموال إنفاقها في معصية الله.

ذكر السعدي: وذلك شامل لكل معصية تعلقت بأموالهم وأولادهم من منع الزكاة والكفارات والحقوق الواجبة، وعدم تأديب الأولاد وتربيتهم على الخير وترك الشر وأخذ الأموال بغير حقها أو وضعها بغير حقها أو استعمال المكاسب الردية.

بل ذكر كثير من المفسرين أنه يدخل في مشاركة الشيطان في الأموال والأولاد ترك التسمية عند الطعام والشراب والجماع، وأنه إذا لم يُسمِّ الله في ذلك شارك فيه الشيطان.

رَّبُّكُمُ الَّذِي يُزْجِي لَكُمُ الْفُلْكَ فِي الْبَحْرِ لِتَبْتَغُوا مِن فَضْلِهِ ۚ إِنَّهُ كَانَ بِكُمْ رَحِيماً ﴿٦٦﴾

لقد سخر الله لعباده السفن لتسير في البحار ليبتغي الناس الفضل فيكون فيها رزقهم نقلا للناس ولبضائعهم ووسيلة للصيد واستخراج المنافع من البحار.

ذكر الطبري: يقول تعالى ذكره للمشركين به: ربكم أيها القوم هو الذي يُسيّر لكم السفن في البحر، فيحملكم فيها ... لتصلوا بالركوب فيها إلى أماكن تجاراتكم ومطالبكم ومعايشكم، وتلتمسون من رزقه ... إن الله كان بكم رحيماً حين أجرى لكم الفلك في البحر، تسهيلا منه؛ بذلك

عليكم التصرّف في طلب فضله في البلاد النائية التي لولا تسهيله ذلك لكم لصعب عليكم الوصول إليها .

ذكر القرطبي : وإزجاء الفلك : سوقه بالريح اللينة .

ذكر الطنطاوي : الْفُلْكَ ما عظم من السفن .

وَلَقَدْ كَرَّمْنَا بَنِي آدَمَ وَحَمَلْنَاهُمْ فِي الْبَرِّ وَالْبَحْرِ وَرَزَقْنَاهُم مِّنَ الطَّيِّبَاتِ وَفَضَّلْنَاهُمْ عَلَى كَثِيرٍ مِّمَّنْ خَلَقْنَا تَفْضِيلاً (٧٠)

لقد كرّم الله تعالى الناس؛ فهيأ لهم ما يحملهم في البرّ والبحر، ورزقهم من الطيبات من مأكل ومشرب . لقد فضلهم على كثير ممن خلق .

ذكر الطبري : يقول تعالى ذكره : ﴿ وَلَقَدْ كَرَّمْنَا بَنِي آدَمَ ﴾ بتسليطنا إياهم على غيرهم من الخلق، وتسخيرنا سائر الخلق لهم؛ ﴿ وَحَمَلْنَاهُمْ فِي الْبَرِّ ﴾ على ظهور الدوابّ والمراكب، وفي ﴿ البَحْرِ ﴾ في الفلك التي سخرناها لهم؛ ﴿ وَرَزَقْنَاهُمْ مِنَ الطَّيِّبَاتِ ﴾؛ يقول : من طيبات المطاعم والمشارب، وهي حلالها ولذيذاتها ﴿ وَفَضَّلْنَاهُمْ عَلَى كَثِيرٍ مِّمَّنْ خَلَقْنَا تَفْضِيلا ﴾؛ ذكر لنا أن ذلك تمكنُّهم من العمل بأيديهم، وأخذ الأطعمة والأشربة بها ورفعها بها إلى أفواههم، وذلك غير متيسر لغيرهم من الخلق .

ذكر ابن كثير: يخبر تعالى عن تشريفه لبني آدم وتكريمه إياهم في خلقه لهم على أحسن الهيئات وأكملها؛ كما قال: ﴿لقد خلقنا الإنسان في أحسن تقويم﴾ التين: ٤؛ أي يمشي قائماً منتصباً على رجليه، ويأكل بيديه وغيره من الحيوانات يمشي على أربع ويأكل بفمه، وجعل له سمعاً وبصراً وفؤاداً؛ يفقه بذلك كله، وينتفع به، ويفرق بين الأشياء، ويعرف منافعها، وخواصها، ومضارها في الأمور الدنيوية والدينية.

وَقَالُوا لَن نُّؤْمِنَ لَكَ حَتَّى تَفْجُرَ لَنَا مِنَ الْأَرْضِ يَنبُوعاً (٩٠)

لقد سأل الناس نبي الله أن يُفجر لهم من الأرض ينبوعاً من الماء العذب لمعرفتهم بأهمية الماء، فالينابيع هي بوابة مخازن المياه الجوفية التي جعلها الله في الأرض لحفظ الماء الصالح للشرب، وهذا من فضل الله على الناس؛ فلو أراد الناس في كل مرة أن يستصلحوا ماء لشربه لكانت تكلفته مرتفعة جداً ولعجز كثير من الناس عن تناوله، والله جعل في الماء كل شيء حي، ثم أوجده بوفرة ليكون متاحاً للناس وشبه مجاني في أغلب بقاع الأرض؛ فكان الماء والهواء الأكثر لزوماً؛ الأكثر وفرة مشاعاً للجميع دون ثمن.

وَتَكُونَ لَكَ جَنَّةٌ مِّن نَّخِيلٍ وَعِنَبٍ فَتُفَجِّرَ الْأَنْهَارَ خِلَالَهَا تَفْجِيراً ﴿٩١﴾

كما سألوا نبي الله أن يكون له جنة من نخيل وعنب لأهمية تلك المنتجات الغذائية وما يتلوها من سلسلة صناعات لاحقة، فإن كان ذلك؛ فليفجر خلالها أنهاراً، وهذه إشارة لتفجير الأنهار من الأرض للحصول عليها من المياه الجوفية.

قُل لَّوْ أَنتُمْ تَمْلِكُونَ خَزَائِنَ رَحْمَةِ رَبِّي إِذاً لَّأَمْسَكْتُمْ خَشْيَةَ الْإِنفَاقِ ۚ وَكَانَ الْإِنسَانُ قَتُوراً ﴿١٠٠﴾

إن لله خزائن السماوات والأرض، وللإنسان مخازن تخصه، وقد ذكرت آيات سابقة أن الأُولى لا تنفد، والثانية تنفد؛ فلو تصورنا أن الإنسان مسلط على خزائن الله التي لا تنفد، فإن هذا الإنسان سيكون مغلول اليد غير مُنفق؛ لأن طبعه التقتير والخوف، مع أن الخزائن المفترض تسلطه عليها لا تنفد، وهذا سببه ضعف الإنسان وخوفه وبالتالي تقتيره.

ذكر الطنطاوي: قل أيها الرسول الكريم لهؤلاء الظالمين الذين أعرضوا عن دعوتك، وطالبوك بما ليس في وسعك من تفجير الأرض بالأنهار، ومن غير ذلك من مقترحاتهم الفاسدة، قل لهم على سبيل التقريع والتبكيت: لو

أنكم تملكون أيها الناس التصرف في خزائن الأرزاق التي وزعها الله على خلقه، إذا لبخلتم وأمسكتم في توزيعها عليهم، مخافة أن يصيبكم الفقر لو أنكم توسعتم في العطاء، مع أن خزائن الله لا تنفد أبداً، ولكن لأن البخل من طبيعتكم فعلتم ذلك.

﴿وَقُلْنَا مِن بَعْدِهِ لِبَنِي إِسْرَائِيلَ اسْكُنُوا الْأَرْضَ فَإِذَا جَاءَ وَعْدُ الْآخِرَةِ جِئْنَا بِكُمْ لَفِيفًا ﴿١٠٤﴾﴾

لقد أسكن الله الإنسان في الأرض لفترة محدودة، يولد ويموت فيها، ثم إن الناس لمجموعون في الآخرة ليحاسبهم بما فعلوه في تلك الحياة الأرضية.

ذكر الطنطاوي: الآية الكريمة تحكي سنة من سنن الله تعالى في إهلاك الظالمين، وفي توريث المستضعفين الصابرين أرضهم وديارهم.

تفسير سورة الكهف

رقم السورة: ١٨ وهي مكية وعدد آياتها: ١١٠.

ذكر الطنطاوي: سورة الكهف قد ساقت بأسلوبها البليغ الذي يغلب عليه طابع القصة ألواناً من التوجيهات السامية، التي من شأنها أنها تهدي إلى العقيدة الصحيحة، وإلى السلوك القويم. وإلى الخلق الكريم، وإلى التفكير السليم الذي يهدى إلى الرشد، وإلى كل ما يُوصل إلى السعادة في الدنيا والآخرة.

إِنَّا جَعَلْنَا مَا عَلَى الْأَرْضِ زِينَةً لَّهَا لِنَبْلُوَهُمْ أَيُّهُمْ أَحْسَنُ عَمَلاً ﴿٧﴾ وَإِنَّا لَجَاعِلُونَ مَا عَلَيْهَا صَعِيداً جُرُزاً ﴿٨﴾

إن كل ما في هذه الأرض من زينة إنما هو ابتلاء لساكنيها من البشر، لينظر الله تعالى إلى أعمالهم، مَن منهم الأحسن عملاً. وسيعيدها الله أرضاً مندرسة الآثار دون لذاتها؛ لذلك فلا يغتر بها أحد من الخلق، ولا يسعى إليها الساعي دون أن يُراعي حق خالقه وخالقها.

ذكر الطبري: لنختبر عبادنا أيهم أترك لها وأتبع لأمرنا ونهينا وأعمل فيها بطاعتنا ... وإنا لمخرّبوها بعد عمارتنا لها بما جعلنا عليها من الزينة، فمصيِّروها صعيداً جرزاً لا نبات عليها ولا زرع ولا غرس.

﴿فَضَرَبْنَا عَلَى آذَانِهِمْ فِي الْكَهْفِ سِنِينَ عَدَدًا (١١) ثُمَّ بَعَثْنَاهُمْ لِنَعْلَمَ أَيُّ الْحِزْبَيْنِ أَحْصَى لِمَا لَبِثُوا أَمَدًا (١٢)﴾

ضرب الله على آذان أهل الكهف سنين معدودة، ويبدو أن إيقاف السمع عند الفتية له دور فيما حصل لهم، ثم بعثهم ليعلم أي الحزبين – أي حزب الايمان وحزب الكفر – أحصى لما لبثوا في الكهف أمداً، والعد مرحلة أولية؛ أما الإحصاء فهو دراسة المعدود بإحصائه وإحصاء مكوّناته ليستخرج الدارس معلومات أكثر نفعاً من البيانات المعدودة.

ذكر الطبري: ثم بعثنا هؤلاء الفتية الذين أووْا إلى الكهف بعد ما ضربنا على آذانهم فيه سنين عدداً من رقدتهم، لينظر عبادي فيعلموا بالبحث، أيُّ الطائفتين اللتين اختلفتا في قدر مبلغ مكث الفتية في كهفهم رقوداً.

ذكر القرطبي: هذا كقول العرب ضرب الأمير على يد الرعية إذا منعهم الفساد، وضرب السيد على يد عبده المأذون له في التجارة إذا منعه من التصرف.

﴿وَكَذَلِكَ بَعَثْنَاهُمْ لِيَتَسَاءَلُوا بَيْنَهُمْ قَالَ قَائِلٌ مِنْهُمْ كَمْ لَبِثْتُمْ قَالُوا لَبِثْنَا يَوْمًا أَوْ بَعْضَ يَوْمٍ قَالُوا رَبُّكُمْ أَعْلَمُ بِمَا لَبِثْتُمْ فَابْعَثُوا أَحَدَكُمْ

بِوَرِقِكُمْ هَٰذِهِ إِلَى الْمَدِينَةِ فَلْيَنظُرْ أَيُّهَا أَزْكَىٰ طَعَامًا فَلْيَأْتِكُم بِرِزْقٍ مِّنْهُ وَلْيَتَلَطَّفْ وَلَا يُشْعِرَنَّ بِكُمْ أَحَدًا ﴿١٩﴾

في هذه الآية الكريمة إعجاز نقدي، فالورِق أي الفضة مما خلق الله فيه الثمنية خِلقة، ولو كان معهم نقد غير المعدن الثمين لتلف خلال فترة مكوثهم في الكهف لأكثر من ثلاثمائة سنة، ولبطل النقد المحتفظ به وفسد، لكنه الورِق أي الفضة معدن ثمين يحتفظ بالقيمة عبر الأزمان، ولا تهلكه ظروف المكان.

لذلك تشير الآية الكريمة إلى مسألة رياضية معقدة[1] يتوجب على من ذهب للشراء أن يحقق طرفيها بأقصى ما يمكنه.

فاسم الإشارة ﴿هَٰذِهِ﴾؛ يفيد بأن الدراهم معدودة محدودة، وهذا ما يمثل قيد الموازنة الاقتصادية.

ويفيد تحديد الجهة ﴿الْمَدِينَةِ﴾؛ بالتوجه نحو السوق الأكبر والأفضل، حيث الخيارات أوسع والتشكيلة أكثر، وهذا يساعد من سيذهب في تحقيق الأفضلية في اختياراته.

أما الأمر ﴿فَلْيَنظُرْ﴾؛ فيفيد بحسن التدبير والتصرف بعقلانية.

وتفيد العبارة ﴿أَيُّهَا أَزْكَىٰ﴾ بطلب تحقيق الأمثلية أو الأفضلية، وبالتالي فالحالة هنا حالة تعظيم. وهذا طلب قيل لمن سيذهب ليأتيهم بالطعام؛

[1] للمزيد، العودة لكتابنا فقه المعاملات الرياضي، أنموذج التفضيل في كتاب الله تعالى.

ليحرص على أن يأتيهم بأزكى الطعام؛ فيكون رزقاً يأكلونه؛ فيُشبعون حاجة الجوع، ويمكن تفسير أزكى على أنها: أفضل الطعام، أو أكثره، أو أطيبه، أو أحسنه، أو أجوده، أو أنفعه، أو أدسمه[1]... الخ. ، وهذا ما يمثل قيداً فنياً.

يمكن النظر للمسألة الموصوفة في هذه الآية على أنها مسألة برمجة خطية (سمبلكس): حالة تعظيم، قيدها الاقتصادي محدودية ما يملكونه من دراهم، وقيدها الفني متمثل بشراء الأزكى أو الأفضل أو الأكثر أو الأنفع. ويمكن تمثيل معادلة التعظيم التي سينفذها من سيذهب للإتيان بالرزق كالتالي:

[دراهم معدودة] = [طعام١، طعام٢، طعام٣، طعام ن] MAX

ذكر الطنطاوي: متى وصل إلى المدينة؛ فليتفقد أسواقها، وليتخيّر أيُّ أطعمتها أحلّ وأطهر وأجود وأكثر بركة.

﴿فَلْيَأْتِكُمْ بِرِزْقٍ مِنْهُ وَلْيَتَلَطَّفْ﴾؛ أي: فليأتكم بما يسد جوعكم من ذلك الأزكى طعاماً، فيكون الضمير في «منه» للطعام الأزكى. ويصح أن يكون للدراهم المضروبة المعبر عنها «بورِقكم»؛ أي: فليأتكم بدلاً منها بطعام تأكلونه.

[1] ورد في لسان العرب: في الحديث: أَبْرِقُوا فإنَّ دمَ عَفْراء أَزكى عند الله من دم سَوْداوين، أَي ضَحُّوا بالبرقاء، وهي الشاة التي في خِلال صوفها الأَبيض طاقات سود، وقيل: معناه اطلُبوا الدَّسَمَ والسِّمَن، من بَرَقْت له إِذا دسَّمْتَ طعامه بالسمْن.

﴿وَلَا تَقُولَنَّ لِشَيْءٍ إِنِّي فَاعِلٌ ذَلِكَ غَدًا ۝٢٣ إِلَّا أَن يَشَاءَ اللَّهُ وَاذْكُر رَّبَّكَ إِذَا نَسِيتَ وَقُلْ عَسَى أَن يَهْدِيَنِ رَبِّي لِأَقْرَبَ مِنْ هَذَا رَشَدًا ۝٢٤﴾

إذا عزم الإنسان الصالح على شيء مستقبلي بذل الجهد اللازم للقيام به؛ ثم ليستعن بالله تعالى، وبذلك هو يعلم أن أمره بيد الله، ويعلم بأن الله لو قَدَرَ عليه ألا يكون ذلك الشيء؛ فلن يكون ذلك سبيلاً لعجزه أو انتحاره. فإذا نسي الإنسان أن يقول إلا أن يشاء الله فليقل عسى أن يهدين ربي لأقرب من هذا رشداً، فالحول والقوة بحقيقتها بيد الله وتقديره.

وهذا لا يجعل الناس تعيش حياة قَدَرية كما يحلو للبعض أن يُسميها؛ فالأصل أنه إذا عزم الإنسان – أي بذل الجهد اللازم –؛ فيتوكل على الله، وهذا ما يُميز المسلم عن غيره.

ذكر الطنطاوي: ليس المقصود من الآية الكريمة نهي الإنسان عن التفكير في أمر مستقبله، وإنما المقصود نهيه عن الجزم بما سيقع في المستقبل، لأن ما سيقع، علمه عند الله تعالى وحده.

والعاقل من الناس هو الذي يُباشر الأسباب التي شرعها الله تعالى سواء أكانت هذه الأسباب تتعلق بالماضي أم بالحاضر أم بالمستقبل، ثم يقرن كل

ذلك بمشيئة الله تعالى وإرادته؛ ... وأن يوقن بأن إرادة الله فوق إرادته، وتدبيره سبحانه فوق كل تدبير.

وكم من أمور أعد الإنسان لها أسبابها التي تؤدي إلى قضائها؛ ثم جاءت إرادة الله تعالى؛ فغيرت ما أعده ذلك الإنسان، لأنه لم يستشعر عند إعداده للأسباب أن إرادة الله تعالى فوق إرادته، وأنه سبحانه القادر على خرق هذه الأسباب، وخرق ما تؤدي إليه، ولأنه لم يقل عندما يريد فعله في المستقبل، إن شاء الله.

وَاضْرِبْ لَهُم مَّثَلًا رَّجُلَيْنِ جَعَلْنَا لِأَحَدِهِمَا جَنَّتَيْنِ مِنْ أَعْنَابٍ وَحَفَفْنَاهُمَا بِنَخْلٍ وَجَعَلْنَا بَيْنَهُمَا زَرْعًا ﴿٣٢﴾

البساتين والجِنان من نِعم الله تعالى، واستفاد كثير من المزارعين من هذه الآية لزراعة النخيل حول عرائش العنب، وزراعة ما بين العرائش وبينها وبين النخيل المحيط بها.

إنه التعليم المستمر في آيات الله تعالى.

هذه الآية الكريمة تقدم صورة رياضية للاستغلال الأفضل للمساحات المحدودة، لزيادة الإنتاجية وزيادة الربحية، بما يحقق أفضل النفع وهذه أيضا من مسائل تعظيم الربح التي يُسميها الرياضيون بـ (السيمبكلس).

كِلْتَا الْجَنَّتَيْنِ آتَتْ أُكُلَهَا وَلَمْ تَظْلِم مِّنْهُ شَيْئاً وَفَجَّرْنَا خِلَالَهُمَا نَهَراً ﴿٣٣﴾

تؤت الجنان والبساتين نتاجها ليستفيد منها الإنسان ويحقق المنافع المتعددة منها دون الاعتبار لكفره وإيمانه، ويعتبر وفرة الماء بين البساتين أمراً يضيف الجمال والراحة فضلا عن مياه السقي والاستفادة مما فيها من خيرات كالسمك وغيره.

ذكر الطنطاوي: إن كل واحدة من الجنتين ﴿آتَتْ أُكُلَها﴾؛ أي: أعطت ثمارهما التي يأكلها الناس من العنب والتمر وغيرهما من صنوف الزرع، ﴿وَلَمْ تَظْلِمْ مِنْهُ شَيْئاً﴾؛ أي ولم تُنقص من هذا المأكول شيئاً في سائر السنين، بل كان أكل كل واحدة منهما وافياً كثيراً في كل سنة، على خلاف ما جرت به عادة البساتين، فإنها في الغالب تكثر ثمارها في أحد الأعوام وتقل في عام آخر.

وَكَانَ لَهُ ثَمَرٌ فَقَالَ لِصَاحِبِهِ وَهُوَ يُحَاوِرُهُ أَنَا أَكْثَرُ مِنكَ مَالاً وَأَعَزُّ نَفَراً ﴿٣٤﴾

لا يصح أن يغترّ صاحب مال فيتكبر على غيره؛ فهذا اغترّ ببستانه وما فيه من ثمر فقايس جاره أو أخاه بأنه أكثر منه مالاً وأعز نفراً، والتفضيل بالمال

والولد ذُكر مراراً في كتاب الله تعالى بنفس الترتيب، وحقيقة الأمر أن هذا رزق الله وليس لمرزوق أن يردّ رزقه إن كتبه الله له، ويجب عليه شكر رازقه الذي أنعم عليه وفضله عن غيره من العالمين.

ذكر الطبري: القول في تأويل قوله تعالى: ﴿وَكَانَ لَهُ ثَمَرٌ﴾ اختلفت القرّاء في قراءة ذلك، فقرأته عامة قرّاء الحجاز والعراق: ﴿وَكَانَ لَهُ ثُمُرٌ﴾ بضم الثاء والميم. واختلف قارئو ذلك كذلك، فقال بعضهم: كان له ذهب وفضة، وقالوا: ذلك هو الثمر، لأنها أموال مثمرة، يعني مكثرة.

ذكر الطنطاوي: قال الآلوسي ما ملخصه: ﴿وَكَانَ لَهُ﴾؛ أي: للأحد المذكور وهو صاحب الجنتين «ثمر» أي أنواع أخرى من المال. وقرأ ابن عامر وحمزة والكسائي «ثُمُر» بضم الثاء والميم، وهو جمع ثِمار بكسر الثاء؛ أي: أموال كثيرة من الذهب والفضة والحيوان وغير ذلك، وبذلك فسره ابن عباس وقتادة وغيرهما..».

وَدَخَلَ جَنَّتَهُ وَهُوَ ظَالِمٌ لِّنَفْسِهِ قَالَ مَا أَظُنُّ أَن تَبِيدَ هَذِهِ أَبَداً ﴿٣٥﴾ وَمَا أَظُنُّ السَّاعَةَ قَائِمَةً وَلَئِن رُّدِدتُّ إِلَى رَبِّي لَأَجِدَنَّ خَيْراً مِّنْهَا مُنقَلَباً ﴿٣٦﴾ قَالَ لَهُ صَاحِبُهُ وَهُوَ يُحَاوِرُهُ أَكَفَرْتَ بِالَّذِي خَلَقَكَ مِن تُرَابٍ ثُمَّ

مِن نُّطْفَةٍ ثُمَّ سَوَّاكَ رَجُلاً (٣٧) لَّكِنَّا هُوَ اللَّهُ رَبِّي وَلَا أُشْرِكُ بِرَبِّي أَحَداً (٣٨)

ذاك المتكبر الظالم لنفسه يعتقد أن هذه النعم التي هو متمكن منها لن تزول؛ فقد صار مُلكه عتيداً وهو متمكن منه، بل تجاوز في اعتقاده حتى أغفل قيام الساعة، فذكّره صاحبه بعدم التكبر والكفر بأنعم الله.

إن هذا الحوار بين من آتاهما الله تعالى من فضله وآتى أحدهما أكثر من الآخر يبيّن أن على المتملك أن يعتقد أن هذا فضل من الله تعالى بوصفه الرازق المنعم، فيشكره، ويكون ذلك عبادة يستحق عليها الأجر من الله تعالى إضافة لما رزقه الله إياه. وإن أبى الإقرار بأن الله هو المنعم عليه، وأن ما عنده تدبير من نفسه وحسب، ولم يشكر خالقه، فقد عصى الله وسقط في الامتحان وحق عليه العقاب من الله تعالى.

ذكر الطنطاوي: والمتدبر لحال صاحب الجنتين:

يراه أولا: قد زعم أن مدار التفاضل هو الثروة والعشيرة،

ويراه ثانياً: قد بنى حياته على الغرور والبطر، واعتقاد الخلود لزينة الحياة الدنيا،

ويراه ثالثاً: قد أنكر البعث والحساب، والثواب والعقاب.

﴿وَلَوْلَا إِذْ دَخَلْتَ جَنَّتَكَ قُلْتَ مَا شَاءَ اللَّهُ لَا قُوَّةَ إِلَّا بِاللَّهِ ۚ إِن تَرَنِ أَنَا أَقَلَّ مِنكَ مَالًا وَوَلَدًا ﴿٣٩﴾﴾

علمه كيف يشكر الله تعالى؛ بأنه إذا دخل جنته قال: ما شاء الله لا قوة إلا بالله؛ فالمشيئة لله والقوة بالله، وليس للإنسان إلا ما هو ضمن مشيئة الله تعالى؛

وهذا ليس معناه أن يَترك الناس كل شيء لقدره، فيكونون قدريون، ولا يتركوا الأمر حسب طبيعته، فيكونون طبيعيين،

بل الأمر مردود لصاحب الأمر وهو الله تعالى، فلابد من العزم والتوكل كما جاءت به غير آية؛ فحتى لو تمكن الإنسان من الأشياء فإن تمكنه مؤقت محدود، الفضل فيه لله تعالى لا لتدبيره، وشكر الله عامل لرد الفضل لأهله وسبب لدوام النعم، قال الله تعالى: ﴿وَإِذْ تَأَذَّنَ رَبُّكُمْ لَئِن شَكَرْتُمْ لَأَزِيدَنَّكُمْ ۖ وَلَئِن كَفَرْتُمْ إِنَّ عَذَابِي لَشَدِيدٌ﴾ إبراهيم: ٧.

ويُذكّر الصاحب صاحبه بأنه شاكر لربه منيب إليه رغم أنه أقل مالاً وولداً، لكن قلة النعم التي هو فيها لم تجعله يطغى وينسى الله تعالى.

ذكر ابن كثير: أي: هلا إذا أعجبتك حين دخلتها ونظرت إليها حمدت الله على ما أنعم به عليك، وأعطاك من المال والولد ما لم يعطه غيرك.

ذكر القرطبي: لا قوة إلا بالله أي ما اجتمع لك من المال فهو بقدرة الله تعالى وقوته لا بقدرتك وقوتك، ولو شاء لنزع البركة منه فلم يجتمع.

﴿وَأُحِيطَ بِثَمَرِهِ فَأَصْبَحَ يُقَلِّبُ كَفَّيْهِ عَلَى مَا أَنفَقَ فِيهَا وَهِيَ خَاوِيَةٌ عَلَى عُرُوشِهَا وَيَقُولُ يَا لَيْتَنِي لَمْ أُشْرِكْ بِرَبِّي أَحَداً ﴿٤٢﴾﴾

أحاط بثمره مطرٌ عظيم أدى لاقتلاع شجر الجنة وتلف ثمارها وغرق زرعها؛ فزال نفعها كلياً.

عندئذ تذكر صاحب الجنة التي أصابها الضرر أن الله هو القادر الواحد، فبدأ بلوم نفسه بعدما انتهى الأمر.

والآية الكريمة تشير لمفهوم محاسبي مهم وهو الإنفاق؛ تمييزاً عن غيره من المصطلحات، ويُفرق المحاسبون بين النفقات والمصاريف، فالمصاريف تصرف لاستمرارية عمل المنشأة وتطال المنتَج بشكل مباشر أو غير مباشر، أما النفقة فتكون باقتناء أصول ثابتة أو استثمارية تضاف لأصول المنشأة؛ أي يتم التضحية بالموارد الاقتصادية أو المالية حيث النقص في الأصول أو الزيادة في الخصوم على أمل تحقيق منافع اقتصادية مستقبلية.

والعمل الزراعي الذي أشارت له الآية الكريمة عمل يحتاج إنفاقاً لأنه مستمر لأكثر من دورة مالية؛ فالشجر أصل قد يغلب على تصنيفه الأصول الثابتة؛ وبذلك فإن الخسارة الحاصلة كبيرة.

ذكر الطبري: أحاط الهلاك والجوائح بثمره، وهي صنوف ثمار جنته التي كان يقول لها: ﴿مَا أَظُنُّ أَنْ تَبِيدَ هَذِهِ أَبَدًا﴾؛ فأصبح هذا الكافر صاحب هاتين الجنتين، يقلب كفيه ظهراً لبطن، تلهفا وأسفاً على ذهاب نفقته التي أنفق في جنته، ﴿وَهِيَ خَاوِيَةٌ عَلَى عُرُوشِهَا﴾ يقول: وهي خالية على نباتها وبيوتها.

ذكر القرطبي: يُقلب ملكه فلا يرى فيه عِوض ما أنفق؛ ... يُقال: أنفقت في هذه الدار كذا وأنفقت عليها.

وَاضْرِبْ لَهُمْ مَثَلَ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا كَمَاءٍ أَنْزَلْنَاهُ مِنَ السَّمَاءِ فَاخْتَلَطَ بِهِ نَبَاتُ الْأَرْضِ فَأَصْبَحَ هَشِيمًا تَذْرُوهُ الرِّيَاحُ وَكَانَ اللَّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ مُقْتَدِرًا ﴿٤٥﴾

إن هذه الحياة كماء نزل على الأرض، اختلط بنباتها ليُنبت من كل زوج بهيج، ثم تراه متهشماً متكسراً ترميه الرياح، وهذا هو مَثل الحياة الدنيا.

ذكر الطبري: فلا يفخر ذو الأموال بكثرة أمواله، ولا يستكبر على غيره بها، ولا يغترنّ أهل الدنيا بدنياهم، فإنما مَثَلُها مثل هذا النبات الذي حَسُن استواؤه بالمطر، فلم يكن إلا رَيْثَ أن انقطع عنه الماء، فتناهى نهايته، عاد يابساً تذروه الرياح، فاسداً، تنبو عنه أعين الناظرين، ولكن ليعمل للباقي الذي لا يفنى، والدائم الذي لا يبيد ولا يتغير.

ذكر القرطبي: إن النبات اختلط بعضه ببعض حين نزل عليه الماء؛ لأن النبات إنما يختلط ويكثر بالمطر ... قالت الحكماء: إنما شبه تعالى الدنيا بالماء لأن الماء لا يستقر في موضع، كذلك الدنيا لا تبقى على حال واحد، ولأن الماء لا يستقيم على حالة واحدة كذلك الدنيا، ولأن الماء لا يبقى ويذهب كذلك الدنيا تفنى، ولأن الماء لا يقدر أحد أن يدخله ولا يبتل كذلك الدنيا لا يسلم أحد دخلها من فتنتها وآفتها، ولأن الماء إذا كان بقدر كان نافعاً مُنبتاً، وإذا جاوز المقدار كان ضاراً مُهلكاً، وكذلك الدنيا الكفاف منها ينفع وفضولها يضر. وفي صحيح مسلم عن النبي صلى الله عليه وسلم: قد أفلح من أسلم ورزق كفافاً وقنعه الله بما آتاه.

الْمَالُ وَالْبَنُونَ زِينَةُ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا ۖ وَالْبَاقِيَاتُ الصَّالِحَاتُ خَيْرٌ عِندَ رَبِّكَ ثَوَابًا وَخَيْرٌ أَمَلًا ﴿٤٦﴾

إن زينة الحياة الدنيا كما يميل الناس هي: المال والبنون، لكن ذكر الله أبقى وأصلح عند الله وفيه الأمل لحياة الخلود. وفي هذا تنبيه للناس، حيث يمكنهم الاستمتاع بهذه المتع إن أحسنوا التصرف بها، فالمال حق الله فيه إيتاء زكاته، والبنون حق الله على والديهم حسن تربيتهم وإرشادهم لخالقهم ليؤمنوا به حق الإيمان.

جاء في الحديث الذي رواه أبو هريرة رضي الله عنه قوله عن رسول الله صلى الله عليه وسلم: إذا مات الإنسانُ انقطع عنه عملُه إلا من ثلاثةٍ: إلا من صدقةٍ جاريةٍ، أو علمٍ ينتفعُ به، أو ولدٍ صالحٍ يدعو له.

وتكون الصدقة الجارية في المال المنفق حيث أمر الله تعالى، وتكون في الولد الصالح، أو في العلم الصحيح الذي يتركه صاحبه لمن بعده من الخلق ليستفيدوا منه.

ذكر القرطبي: ما كان من زينة الحياة الدنيا فهو غرور يمرُّ ولا يبقى، كالهشيم حين ذرّته الريح.

ذكر الطنطاوي: المال والبنون زينة يتزين ويتفاخر بها كثير من الناس في هذه الحياة الدنيا، وإذا كان الأمر كذلك في عرف كثير منهم؛ فإن الأقوال الطيبة، والأعمال الحسنة، هي الباقيات الصالحات، التي تبقى ثمارها للإنسان، وتكون عند الله تعالى خَيْرٌ من الأموال والأولاد، ثواباً وجزاء

وأجراً ﴿ وَخَيْرٌ أَمَلاً ﴾؛ حيث ينال بها صاحبها في الآخرة ما كان يؤمله ويرجوه في الدنيا من فوز بنعيم الجنة، أما المال والبنون فكثيراً ما يكونان فتنة.

وَوُضِعَ الْكِتَابُ فَتَرَى الْمُجْرِمِينَ مُشْفِقِينَ مِمَّا فِيهِ وَيَقُولُونَ يَا وَيْلَتَنَا مَالِ هَذَا الْكِتَابِ لَا يُغَادِرُ صَغِيرَةً وَلَا كَبِيرَةً إِلَّا أَحْصَاهَا وَوَجَدُوا مَا عَمِلُوا حَاضِرًا وَلَا يَظْلِمُ رَبُّكَ أَحَدًا (٤٩)

يُعلمنا المولى عز وجل بأن الحساب يكون بموضوعية، والتسجيل الدقيق لصغائر الأمور وكبيرها في كتاب يوثقها، ثم بإحصاء نتائج التسجيل، وبذلك يكون الوصول السريع لنتائج الحساب. وهذا ما يجب أن تكون عليه المحاسبة وحساباتها.

بذلك يتحقق العدل، والمحاسبة إنما هي أداة عدل.

وتعتبر المحاسبة والإحصاء مصادر المعلومات الأساسية لجميع المستويات الإدارية، ويجب الاهتمام بهما والاعتناء بالقائمين عليهما، فالقرارات السليمة أساسها توافر المعلومات الصحيحة والشاملة.

ذكر الطبري: كما حدثنا بشر، قال: ثنا يزيد، قال: ثنا سعيد، عن قتادة، قوله عن قول الله تعالى: ﴿مَالِ هَذَا الْكِتَابِ لا يُغَادِرُ صَغِيرَةً وَلا كَبِيرَةً إِلا

أَحْصَاهَا﴾؛ يقول: اشتكى القوم كما تسمعون الإحصاء، ولم يشتك أحد ظلماً، فإياكم والمحقَّرات من الذنوب، فإنها تجتمع على صاحبها حتى تُهلكه.

وَتِلْكَ الْقُرَى أَهْلَكْنَاهُمْ لَمَّا ظَلَمُوا وَجَعَلْنَا لِمَهْلِكِهِم مَّوْعِداً ٥٩

هلاك البلاد يكون بظلم أهلها.

وهذا ما بنينا عليه فكرة إدارة المخاطر على مستوى الأمم، فالأمة المُصلحة والداعية للإصلاح باقية، والأمة الظالم أهلها لينتظروا موعد هلاكهم بسبب أفعالهم التي نهى الله عنها عباده، وقد ضرب لنا القرآن الكريم العديد من القصص، ودلّنا على شواهدها الباقية في الأرض للاعتبار.

ذكر الطبري: يقول تعالى ذكره: وتلك القرى من عاد وثمود وأصحاب الأيكة أهلكنا أهلها لما ظلموا، فكفروا بالله وآياته، ﴿وَجَعَلْنَا لِمَهْلِكِهِمْ مَوْعِداً﴾؛ يعني ميقاتاً وأجلاً حين بلغوه جاءهم عذاب فأهلكناهم به، يقول: فكذلك جعلنا لهؤلاء المشركين من قومك يا محمد الذين لا يؤمنون بك أبداً موعداً، إذا جاءهم ذلك الموعد أهلكناهم، سُنَّتنا في الذين خلوا من قبلهم من ضربائهم.

فَلَمَّا جَاوَزَا قَالَ لِفَتَاهُ آتِنَا غَدَاءَنَا لَقَدْ لَقِينَا مِن سَفَرِنَا هَذَا نَصَباً ﴿٦٢﴾

يتناول الناس الغذاء في فترة الغداء إثر التعب والجهد، كما يتخذ الناس أُجراء وخدم يعينوهم على حياتهم، وهذا من متاع الدنيا. وفيه أيضاً تسخير بعضنا لبعض بتقديم الخدمات؛ مما يفتح المجال للتوظيف وإيجاد فرص عمل للآخرين.

ذكر القرطبي: هو اتخاذ الزاد في الأسفار.

قَالَ لَهُ مُوسَى هَلْ أَتَّبِعُكَ عَلَى أَن تُعَلِّمَنِ مِمَّا عُلِّمْتَ رُشْداً ﴿٦٦﴾

العلم رشد، يحتاج اكتسابه الإتباع وبذل الجهد والتأدب بطلبه من المعلم العالم، وليس كل معلم عالم، فمن المعلمين بمختلف مستوياتهم التعليمية من تجده ملقناً للعلم لا يجيد تربية من يعلمه، أو لا يصبر عليه، أو لا يبيّن له مآلات ما يتعلمه. وقد سمعنا عن أبي حنيفة كيف أنه ينصح طلبته ويوصيهم بمتابعة التعلم لأنه توسم فيهم الخير بل أنه رحمه الله تعالى قد أنفق على بعضهم لفقره، لذلك فهو قد ركز على شخصية الطالب ومشاركاته، لا على ما يحمله من علامات.

ذكر القرطبي: في هذه الآية دليل على أن المتعلم تبع للعالم وإن تفاوتت المراتب.

﴿وَكَيْفَ تَصْبِرُ عَلَى مَا لَمْ تُحِطْ بِهِ خُبْرًا ۝٦٨﴾

الصبر يحتاج الصابر فيه أن يكون عنده معلومات وأخبار ليقدر عليه. فسَعة العلم عند الإنسان تجعل منه مفكراً متدبراً، ولا تتأتى سَعة العلم إلا بتحصيله وبالأخذ بأسبابه بجمع المعلومات وتحليلها ودراسة نتائجها وتعديل وتطوير ما لديه من أفكار. وهذه سنة من سنن الله تعالى، فهو العليم سبحانه والمحيط بكل شيء علماً، فحقت له الألوهية، وقد ذكرت الآية ٢٨ في سورة فاطر: ﴿إِنَّمَا يَخْشَى اللَّهَ مِنْ عِبَادِهِ الْعُلَمَاءُ ۗ إِنَّ اللَّهَ عَزِيزٌ غَفُورٌ﴾.

﴿قَالَ سَتَجِدُنِي إِن شَاءَ اللَّهُ صَابِرًا وَلَا أَعْصِي لَكَ أَمْرًا ۝٦٩﴾

يجب على المتعلم أن يصبر على معلمه، وأن يطيعه فلا يعصيه، وهذان شرطا التعلم.

ولا يعتبر النقاش في القضية التعليمية من العصيان؛ فالآيات التاليات تبين أن موسى عليه السلام قد ناقش معلمه وأدلى برأيه حيث يجب فعل ذلك، لكن المعلم كان يُذكّره بشروطه التي شرطها عليه لمرافقته، ثم لما

انقضى الشرط بينهما؛ شرح له وبيّن ما يجب عليه أن يفهمه موسى ويتعلمه.

فَانطَلَقَا حَتَّىٰ إِذَا رَكِبَا فِي السَّفِينَةِ خَرَقَهَا ۖ قَالَ أَخَرَقْتَهَا لِتُغْرِقَ أَهْلَهَا لَقَدْ جِئْتَ شَيْئًا إِمْرًا (٧١)

تشير الآية الكريمة لصناعة النقل؛ فالسفن هي من وسائل النقل بغرض السفر والتنقل. والركوب فعل يستفيد منه الناقل والمنقول، كما أن الخرق فعل ظاهره الأذى كما بدا لموسى عليه السلام لجهله بمآله، وباطنه إصلاح لفاعله وهو الخَضر لأن لديه علم مسبق بذلك.

لذلك كان العلم اللدني الذي يهبه الله لبعض الناس، والتعلم المتحصل بالعملية التعليمية أمران يجعلان صاحبهما مميز عن أقرانه. الأول مخصوص يحصل بالتقرب إلى الله تعالى بفعل وتنفيذ أوامره تعالى، والثاني متاح لمن اجتهد ودرس.

ذكر القرطبي: ولا يحيطون بشيء من علمه أي من معلوماته، وهذا من الخَضر تمثيل؛ أي أن معلوماتي ومعلوماتك لا أثر لها في علم الله.

وذكر أيضاً: في خرق السفينة دليل على أن للولي أن يُنقص مال اليتيم إذا رآه صلاحاً، مثل أن يخاف على ريعه ظالماً فيُخرب بعضه، وقال أبو يوسف: يجوز للولي أن يُصانع السلطان ببعض مال اليتيم عن البعض.

﴿فَانطَلَقَا حَتَّىٰٓ إِذَآ أَتَيَآ أَهۡلَ قَرۡيَةٍ ٱسۡتَطۡعَمَآ أَهۡلَهَا فَأَبَوۡاْ أَن يُضَيِّفُوهُمَا فَوَجَدَا فِيهَا جِدَارٗا يُرِيدُ أَن يَنقَضَّ فَأَقَامَهُۥۖ قَالَ لَوۡ شِئۡتَ لَتَّخَذۡتَ عَلَيۡهِ أَجۡرٗا ٧٧﴾

تشير الآية الكريمة إلى الضيافة التي صار لها صناعة مرموقة في العصر الحديث، كما تشير لصناعة البناء، واستحقاق الأجر مقابل ذلك.

ويستفاد من هذه الآية أن من رأى منكراً صححه وهذه سنة الأنبياء كما أنها سنة المصطفى صلى الله عليه وسلم، روى أبو سعيد الخدري رضي الله عنه أنه سمع رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول: مَن رأى منكَرًا فليُغيِّرْه بيدِه فإنْ لم يستطِعْ فبلسانِه فإنْ لم يستطِعْ فبقلبِه وذاك أضعفُ الإيمانِ.

وهذا الإصلاح لابد منه حتى لو لم يحصل المصلح على ما يقابله من أجر؛ بل حتى لو جحد الناس ما يفعله؛ كما ذكرت الآية الكريمة.

ذكر القرطبي: في هذه الآية دليل على سؤال القوت، وأن من جاع وجب عليه أن يطلب ما يرد جوعه خلافاً لجهال المتصوفة، والاستطعام سؤال الطعام، والمراد به هنا سؤال الضيافة.

وذكر أيضاً: قوله تعالى: لاتخذت عليه أجراً فيه دليل على صحة جواز الإجارة.

قَالَ هَٰذَا فِرَاقُ بَيْنِي وَبَيْنِكَ ۚ سَأُنَبِّئُكَ بِتَأْوِيلِ مَا لَمْ تَسْتَطِع عَّلَيْهِ صَبْرًا ﴿٧٨﴾

من حق المتعلم على معلمه أن يُؤوّل له الحوادث والمشاهدات التي تحصل خلال العملية التعليمية ليكون ذلك مدخلاً عملياً يستفيد منه.

وقد ذكّر (المعلم) تلميذه بأن قد شرط عليه الصبر لتحقيق التعلم، وهذا ما لم يستطع التلميذ عليه صبراً، وفي هذا إشارة إلى أن المعلم والمدرب منوط به ربط الأفكار اللازمة قبل العملية التعليمية وبعدها لطلبته ومتدربيه ليكون التعلّم متكاملاً، سواءِ أكان ذلك بالتلقين كما فعل (الخضر) أم بالاستنباط.

أَمَّا السَّفِينَةُ فَكَانَتْ لِمَسَاكِينَ يَعْمَلُونَ فِي الْبَحْرِ فَأَرَدتُّ أَنْ أَعِيبَهَا وَكَانَ وَرَاءَهُم مَّلِكٌ يَأْخُذُ كُلَّ سَفِينَةٍ غَصْبًا ﴿٧٩﴾

على المساكين أن يعملوا، ومن ذلك العمل؛ العمل كبحارة أو في خدمات البحرية.

وقد أشارت هذه الآية الكريمة إلى ظلم بعض الحكام في الاستيلاء على أملاك الناس وبخاصة المساكين بغصب أموالهم وضمها إليهم. وكان التعييب شكلاً من أشكال التحوط وإدارة الخطر المتمثل باستيلاء الحاكم على السفينة غصباً.

ذكر الطنطاوي: قال الخَضر لموسى: ﴿أَمَّا السَّفِينَةُ﴾ التي خرقتها ولم ترض عنه، ﴿فَكَانَتْ لِمَسَاكِينَ يَعْمَلُونَ فِي الْبَحْرِ﴾؛ أي لضعفاء من الناس لا يستطيعون دفع الظلم عنهم، ولم يكن لهم مال يتعيشون منه سواها، فكان الناس يركبون فيها ويدفعون لهؤلاء المساكين الأجر الذين ينتفعون به.

وَأَمَّا الْجِدَارُ فَكَانَ لِغُلَامَيْنِ يَتِيمَيْنِ فِي الْمَدِينَةِ وَكَانَ تَحْتَهُ كَنزٌ لَّهُمَا وَكَانَ أَبُوهُمَا صَالِحًا فَأَرَادَ رَبُّكَ أَن يَبْلُغَا أَشُدَّهُمَا وَيَسْتَخْرِجَا كَنزَهُمَا رَحْمَةً مِّن رَّبِّكَ وَمَا فَعَلْتُهُ عَنْ أَمْرِي ذَٰلِكَ تَأْوِيلُ مَا لَمْ تَسْطِع عَّلَيْهِ صَبْرًا ﴿٨٢﴾

إن صلاح الأب كفيل برعاية الله لذريته، لذلك يُفهم أن عائد العمل الصالح يسري في الأبناء وما يليهم وليس من الضروري أن يكون آنياً؛ فليس لأحد أن يعمل العمل الصالح ثم يقول مالي لا أجد الأجر والوعد الحسن لقاء ما عملت، فقد يكون أجره؛ بركة في ذراريه مثلاً.

لذلك يمكننا أن نصنف (الصلاح) على أنه من السمت الحسن؛ أي أنه عمل استراتيجي بعيد المدى، وأجره قد يتناوب عليه الأبناء وأبناء الأبناء، فالله يُسخر لهم من يَكفلهم ويرعاهم دون علمهم ودون تدبير من عَمِل العمل الصالح أيضاً.

ويُستفاد من هذه الآيات ضرورة مساعدة المساكين واليتامى وبذل الجهد والتدبير لهم.

كما كانت عمارة الحائط شكل من أشكال التحوط لحماية كنز الأيتام من الضياع والسرقة.

ذكر الطنطاوي: أنه يجوز دفع الضرر الأكبر بارتكاب الضرر الأصغر، فإن خرق السفينة فيه ضرر ولكنه أقل من أخذ الملك لها غصباً، وإن قتل الغلام شرٌّ، ولكنه أقل من الشر الذي سيترتب على بقائه. وهو إرهاقه لأبويه، وحملهما على الكفر.

كما يجوز للإنسان أن يعمل عملاً في ملك غيره بدون إذنه بشرط أن يكون هذا العمل فيه مصلحة لذلك الغير؛ كأن يرى حريقاً في دار إنسان فيقدم على إطفائه بدون إذنه. ويدفع ضرر الحريق بضرر أقل منه، فقد خرق الخضر السفينة، لكي تبقى لأصحابها المساكين.

﴿إِنَّا مَكَّنَّا لَهُ فِي الْأَرْضِ وَآتَيْنَاهُ مِن كُلِّ شَيْءٍ سَبَباً﴾ (٨٤)

لقد مكّن الله للرجل الصالح (ذي القرنين)، وأعطاه الله من كل شيء مسبباته، وهذا ينم عن تعليم الله له ما يحتاجه.

وهذا يستدل منه أن العلم الأولي هو من الله تعالى، ويُبنى على هذا الفرض مناهج علمية مؤثرة.

﴿فَأَتْبَعَ سَبَباً﴾ (٨٥)

العلم الأولي لا يكفي بل على الإنسان أن يسعى سعيه، لذلك أتبع ذو القرنين الأسباب اللازمة ببذله الجهد للتعلم.

﴿ثُمَّ أَتْبَعَ سَبَباً﴾ (٨٩)

بعد أن سمع ذو القرنين ما عُرض عليه، أخذ بمزيد من الأسباب للقيام بالمهمة التي طُلبت منه. وتكررت الآية أيضا في الآية (٩٣) للتوكيد

على ضرورة الأخذ بالأسباب وجمع الأخبار أي المعلومات، وسبق هذه المراحل التنفيذية أنه تعلّم.

إذاً لابد من التعلم، ثم حسن التدبير والإدارة، ثم الأخذ بمزيد من الأسباب؛ وصولاً إلى تحقيق المهمة المحددة.

قَالُوا يَا ذَا الْقَرْنَيْنِ إِنَّ يَأْجُوجَ وَمَأْجُوجَ مُفْسِدُونَ فِي الْأَرْضِ فَهَلْ نَجْعَلُ لَكَ خَرْجاً عَلَى أَن تَجْعَلَ بَيْنَنَا وَبَيْنَهُمْ سَدّاً ﴿٩٤﴾

تشير هذه الآية الكريمة إلى صناعة وتشييد السدود عند الحاجة إليها، ويستحق المُشيّد الأجر على عمله ذلك.

وتشير أيضاً إلى أن الاستعانة بمن يُوقف المفسدين عن عملهم؛ ولو مقابل أجر جائز؛ لما للفساد من أثر تخريبي على البيئة بمختلف مكوناتها البشرية والمادية.

ذكر القرطبي: الخرج أخص من الخراج يُقال: أدِّ خرج رأسك وخراج مدينتك، وقال الأزهري: الخراج يقع على الضريبة، ويقع على مال الفيء، ويقع على الجزية وعلى الغلّة والخراج اسم لما يُخرج من الفرائض في الأموال.

﴿قَالَ مَا مَكَّنِّي فِيهِ رَبِّي خَيْرٌ فَأَعِينُونِي بِقُوَّةٍ أَجْعَلْ بَيْنَكُمْ وَبَيْنَهُمْ رَدْماً ﴿٩٥﴾﴾

ردَّ ذو القرنين التمكين والقوة لله تعالى، وهذا بَعد تعلمه، وأخذه بالأسباب، وجمعه للأخبار لأنها مصدر معلومات، ثم طلب العون فهو بحاجة لعمال يعملون له، وقد طلب العون الشديد لأن العمل صعب ومُجهد، لذلك لا يجوز استئجار الضعيف للقيام بالعمل الصعب أو الذي يحتاج قوة مميزة أو خبرة كبيرة.

ثم أعلمهم بطريقة العمل؛ وكأنه يضع الخطة أمامهم، فالعمل ليس اعتباطياً ولا عشوائياً بل عن علم وعن أخذ بالأسباب، وهكذا يجب أن يكون كل عمل فلا يُقدِم على الأعمال من لا يُجيدونها.

ذكر الطبري: يقول تعالى ذكره: قال ذو القرنين: الذي مكنني في عمل ما سألتموني من السدّ بينكم وبين هؤلاء القوم: ربي، ووطأه لي، وقوّاني عليه، خير من جُعلكم، والأجرة التي تعرضونها عليّ لبناء ذلك، وأكثر وأطيب، ولكن أعينوني منكم بقوة، أعينوني بفَعَلة وصناع يُحسنون البناء والعمل.

ذكر القرطبي: في هذه الآية دليل على أن المَلِك فُرض عليه أن يقوم بحماية الخلق في حفظ بيضتهم، وسد فرجتهم، وإصلاح ثغورهم، من

أموالهم التي تفيء عليهم، وحقوقهم التي تجمعها خزانتهم تحت يده ونظره، حتى لو أكلتها الحقوق، وأنفذتها المؤن، لكان عليهم جبر ذلك من أموالهم، وعليه حسن النظر لهم؛ وذلك بثلاثة شروط:

الأول: ألا يستأثر عليهم بشيء.

الثاني: أن يبدأ بأهل الحاجة فيعينهم.

الثالث: أن يُسوي في العطاء بينهم على قدر منازلهم.

فإذا فنيت بعد هذا وبقيت صفراً؛ فأطلعت الحوادث أمراً بذلوا أنفسهم قبل أموالهم، فإن لم يغن ذلك؛ فأموالهم تؤخذ منهم على تقدير، وتصريف بتدبير؛ فهذا ذو القرنين لما عرضوا عليه المال في أن يكف عنهم ما يحذرونه من عادية يأجوج ومأجوج، قال: لست أحتاج إليه وإنما أحتاج إليكم فأعينوني بقوة أي اخدموا بأنفسكم معي، فإن الأموال عندي والرجال عندكم، ورأى أن الأموال لا تُغني عنهم، فإنه إن أخذها أجرة نقص ذلك مما يحتاج إليه، فيعود بالأجر عليهم؛ فكان التطوع بخدمة الأبدان أولى.

وضابط الأمر: أنه لا يحل مالُ أحد إلا لضرورة تُعرض، فيؤخذ ذلك المال جَهراً لا سِراً، ويُنفق بالعدل لا بالاستئثار، وبرأي الجماعة لا بالاستبداد بالأمر.

آتُونِي زُبَرَ الْحَدِيدِ حَتَّى إِذَا سَاوَى بَيْنَ الصَّدَفَيْنِ قَالَ انفُخُوا حَتَّى إِذَا جَعَلَهُ نَارًا قَالَ آتُونِي أُفْرِغْ عَلَيْهِ قِطْرًا ﴿٩٦﴾

وضع ذو القرنين قطع الحديد بين الجبلين ليبني السد بينهما؛ ثم أوقد ناراً عظيمة ليذيب الحديد، واستعمل المنافيخ، وخلط الحديد بالنحاس ليكون نحاساً مذاباً، ليتشكل خليطٌ مُحكم البنيان.

إن هذه الآية قدمت مثالاً صناعياً إنشائياً فريداً، ووصفت مراحل الصنع ببلاغة لغوية جزلة، فأوجزت وعبَّرت، وهذا إنما صناعة بلاغة لغوية تضاف للصناعة المعتادة.

قُلْ هَلْ نُنَبِّئُكُم بِالْأَخْسَرِينَ أَعْمَالًا ﴿١٠٣﴾ الَّذِينَ ضَلَّ سَعْيُهُمْ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَهُمْ يَحْسَبُونَ أَنَّهُمْ يُحْسِنُونَ صُنْعًا ﴿١٠٤﴾ أُولَٰئِكَ الَّذِينَ كَفَرُوا بِآيَاتِ رَبِّهِمْ وَلِقَائِهِ فَحَبِطَتْ أَعْمَالُهُمْ فَلَا نُقِيمُ لَهُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ وَزْنًا ﴿١٠٥﴾

لطالما أخافتني هذه الآيات الكريمة، فما أسوأ وأخسر من ضلّ سعيه في هذه الحياة التي يعيشها، فيحسب أنه يحسن العمل، ظناً منه، وإذا بعمله حابط غير ذي قيمة وليس له أي وزن يقيمه.

ذكر الطبري: الذين أتعبوا أنفسهم في عمل يبتغون به ربحاً وفضلاً؛ فنالوا به عَطَبا وهلاكاً ولم يدركوا طلباً، كالمشتري سلعة يرجو بها فضلاً وربحاً، فخاب رجاؤه، وخسر بيعه، ووُكس في الذي رجا فضله.

قُل لَّوْ كَانَ الْبَحْرُ مِدَاداً لِّكَلِمَاتِ رَبِّي لَنَفِدَ الْبَحْرُ قَبْلَ أَن تَنفَدَ كَلِمَاتُ رَبِّي وَلَوْ جِئْنَا بِمِثْلِهِ مَدَداً ﴿١٠٩﴾

تشير هذه الآية الكريمة إلى صناعة الكتابة، فلو كان البحر مداداً، ما اتسع لخطِّ كلام المولى عزّ وجلّ، حتى لو جئنا بمثله مدداً.

إن البلاغة تجعل العقل يَسبح في ملكوت الله، فعبوة الحبر الصغيرة يُكتب بها كلام كثير، فكيف لو أن البحر ومن ورائه أبحر كلهم حِبرٌ، ورغم ذلك فهم لا يتسعون لكلام الله تعالى!

تشير هذه الآية الكريمة إلى الموارد المتجددة، فالأبحر تنتهي دون أن ينتهي كلام الله تعالى ولو جيء بمثلها لتمدها سَعة واتساعاً. لذلك يجب أن يتنبه الناس إلى الموارد المتجددة؛ فبحار الأرض وهي أربعة أخماس الكرة الأرضية قابلة لأن تكون متجددة، مع أن النظر والعقل يرى استحالة ذلك، وفي هذا تعليم للناس.

ومفهوم الموارد المتجددة كامن عند البشر، وقد انتبهوا إليها حديثاً؛ فمواردهم المحدودة وزيادة تكاليف استخدامها جعلتهم يفكرون في الاستفادة من الموارد الطبيعية التي خلقها الله تعالى لهم وقد جعل بعضها متكررة؛ كنور الشمس للتدفئة وتوليد الكهرباء، وكذلك أمواج البحر وغير ذلك. فالموارد عند من لا يخلق محدودة؛ لأنهم لا يستطيعون خلق شيء؛ بل يمكنهم تحويل ما خُلق لهم ونقله من مكان لآخر لتحقيق منافع إضافية، أما الموارد عند الخالق؛ فغير محدودة؛ لأنه جلّ شأنه يخلق من العدم.

ويستفاد من هذا الخلق المتجدد الإيمان بفكرة البعث والنشر والخلق من جديد وقد أشارت العديد من الآيات الكريمة لذلك، فحق على العاقلين الفاهمين أن يؤمنوا بيوم البعث وبأنهم سيبعثون ثانية وهذا هيّن على القوي الجبار.

تفسير سورة مريم

رقم السورة: ١٩ وهي مكية وعدد آياتها: ٩٨.

ذكر الطنطاوي: إن سورة مريم قد اهتمت بإِقامة الأدلة على وحدانية الله تعالى، وعلى نفي الشريك والولد عن ذاته سبحانه، كما اهتمت أيضاً بإِقامة الأدلة على أن البعث حق، وعلى أن الناس سيُحاسبون على أعمالهم يوم القيامة.

كما زخرت السورة بالحديث عن قصص بعض الأنبياء عليهم الصلاة والسلام تارة بشيء من التفصيل كما في قصة زكريا وعيسى ابن مريم، وتارة بشيء من الاختصار والتركيز كما في قصة إبراهيم وموسى وإسماعيل وإدريس.

كما نراها بوضوح تحكي شُبهات المشركين، ثم ترد عليها بما يُبطلها.

وقد ساقت السورة ما ساقت من قضايا، بأسلوب عاطفي بديع، يُهيّج المشاعر نحو الخير والحق والفضيلة، ويُنفّر من الشر والباطل والرذيلة، ويُطلع العقول على نماذج شتى من مظاهر رحمة الله تعالى بعباده الصالحين.

قال بعض العلماء ما ملخصه: والظل الغالب في جوِّ السورة هو ظل الرحمة والرضا والاتصال. فهي تبدأ بذكر رحمة ربك لعبده زكريا. ويتكرر لفظ (الرحمة) ومعناها وظلها في ثنايا السورة كثيراً، ويكثر فيها اسم (الرَّحْمنِ).

وإنك لتحس لمسات الرحمة الندية، ودبيبها اللطيف في الكلمات والعبارات والظلال، كما تحس انتفاضات الكون وارتجافاته لوقع كلمة الشرك التي لا تطيقها فطرته.

كذلك تحس أن للسورة إيقاعاً موسيقياً خاصاً، فحتى جرس ألفاظها وفواصلها فيه رخاء، وفيه عمق كألفاظ: رضياً، سرياً، حفياً، نجياً؛ فأما المواضع التي تقتضي الشدة والعنف، فتجيء فيها الفاصلة مشددة في الغالب، كألفاظ: ضداًّ، هداًّ، إداًّ، أزاًّ.

فَحَمَلَتْهُ فَانتَبَذَتْ بِهِ مَكَاناً قَصِيّاً ﴿٢٢﴾ فَأَجَاءَهَا الْمَخَاضُ إِلَى جِذْعِ
النَّخْلَةِ قَالَتْ يَا لَيْتَنِي مِتُّ قَبْلَ هَذَا وَكُنتُ نَسْياً مَّنسِيّاً ﴿٢٣﴾ فَنَادَاهَا
مِن تَحْتِهَا أَلَّا تَحْزَنِي قَدْ جَعَلَ رَبُّكِ تَحْتَكِ سَرِيّاً ﴿٢٤﴾ وَهُزِّي إِلَيْكِ
بِجِذْعِ النَّخْلَةِ تُسَاقِطْ عَلَيْكِ رُطَباً جَنِيّاً ﴿٢٥﴾ فَكُلِي وَاشْرَبِي وَقَرِّي

عَيۡنٗاۖ فَإِمَّا تَرَيِنَّ مِنَ ٱلۡبَشَرِ أَحَدٗا فَقُولِيٓ إِنِّي نَذَرۡتُ لِلرَّحۡمَٰنِ صَوۡمٗا فَلَنۡ أُكَلِّمَ ٱلۡيَوۡمَ إِنسِيّٗا ﴿٢٦﴾

كلّف الله تعالى مريم عليها السلام بأمر عظيم، وهيّأ لها أسباب العيش، فالله الخالق الذي يقول للشيء: كن فيكون، كما سيأتي في الآية (٣٥) التالية؛ لماذا لا يأمر الأشياء لتكون في خدمة من كلّفها بأمره سبحانه وتعالى؟ إنه التعليم المستمر لبني البشر، إنها المسؤولية، فقد أوحى لها أن تبتعد لمكان بعيد، فلجأت إلى جذع نخلة، وجعل لها تحتها نهراً تشرب منه، وطلب منها أن تهز الجذع ليتساقط عليها الرُطب الجنيّ اللذيذ.

إنها سنة من سنن الله في أرضه، وهي سنة العمل، فرغم أهمية ما تحمله مريم عليها السلام في بطنها، والمشقة التي هي فيها، والخوف من كلام الناس عليها، وهي الطاهرة العفيفة؛ فإن احتاجت الأكل؛ فعليها العمل، وأقلّه هزّ جذع الشجرة ليتساقط الرطب عليها فتأكل من كدِّ يدها.

إن عظمة خلق الماء والنخلة وثمرها أكبر بكثير من جهد بسيط تقوم به مريم عليها السلام، فقد هيّأ الله لها كل أمر عظيم، إلا أنها لابد أن تُساهم في عمل تبذله لتأكل وتُشبع حاجة الجوع والعطش التي فطرها الله تعالى في جميع خلقه.

ذكر الطنطاوي: أخذ العلماء من هذه الآية الكريمة، أن مباشرة الأسباب في طلب الرزق أمر واجب وأن ذلك لا ينافي التوكل على الله، لأن المؤمن يتعاطى الأسباب امتثالاً لأمر ربه مع علمه ويقينه أنه لا يقع في ملكه سبحانه إلا ما يشاؤه ويريده.

وهنا قد أمر الله تعالى مريم – على لسان مولودها – بأن تهز النخلة ليتساقط لها الرُطب، مع قدرته سبحانه على إنزال الرُطب إليها من غير هزٍّ أو تحريكٍ ... كما أخذوا منها أن خير ما تأكله المرأة بعد ولادتها الرُطب، قالوا: لأنه لو كان شيء أحسن للنفساء من الرطب لأطعمه الله تعالى لمريم.

فَأَشَارَتْ إِلَيْهِ قَالُوا كَيْفَ نُكَلِّمُ مَن كَانَ فِي الْمَهْدِ صَبِيّاً ﴿٢٩﴾ قَالَ إِنِّي عَبْدُ اللَّهِ آتَانِيَ الْكِتَابَ وَجَعَلَنِي نَبِيّاً ﴿٣٠﴾ وَجَعَلَنِي مُبَارَكاً أَيْنَ مَا كُنتُ وَأَوْصَانِي بِالصَّلَاةِ وَالزَّكَاةِ مَا دُمْتُ حَيّاً ﴿٣١﴾

أنطق الله عيسى عليه السلام وهو في المهد وهذه معجزة من معجزات هذا الرسول النبي عليه وعلى نبينا الصلاة والسلام، والشاهد في هذه الآيات تكليفه تعالى له بالزكاة إلى جانب فرائض أخرى فرضها الله تعالى على عيسى عليه السلام وعلى أمته.

فالزكاة فريضة على أهل الكتب السماوية.

ذكر الطبري: قوله ﴿وَأَوْصَانِي بِالصَّلاةِ وَالزَّكَاةِ﴾ يقول: وقضى أن يوصيني بالصلاة والزكاة، يعني المحافظة على حدود الصلاة وإقامتها على ما فرضها عليّ. وفي الزكاة معنيان: أحدهما: زكاة الأموال أن يؤدّيها. والآخر: تطهير الجسد من دَنَس الذنوب؛ فيكون معناه: وأوصاني بترك الذنوب واجتناب المعاصي. وقوله ﴿مَا دُمْتُ حَيًّا﴾ يقول: ما كنت حيّاً في الدنيا موجوداً، وهذا يُبين عن أن معنى الزكاة في هذا الموضع: تطهير البدن من الذنوب، لأن الذي يُوصف به عيسى صلوات الله وسلامه عليه أنه كان لا يدّخر شيئاً لغد، فتجب عليه زكاة المال، إلا أن تكون الزكاة التي كانت فرضت عليه الصدقة بكلّ ما فضل عن قُوتِه، فيكون ذلك وجهًا صحيحًا.

ذكر البغوي: فإن قيل: لم يكن لعيسى مال، فكيف يؤمر بالزكاة؟ قيل: معناه بالزكاة لو كان لي مال.

إِنَّا نَحْنُ نَرِثُ الْأَرْضَ وَمَنْ عَلَيْهَا وَإِلَيْنَا يُرْجَعُونَ ﴿٤٠﴾

الله هو الوارث، هو الذي خلق الخلق، وإليه مصيرهم. لذلك فإن الإنسان مستخلف في هذه الأرض، والاستخلاف فيه حمل أمانة ورسالة، وليس

وجوده في هذه الدنيا عبثياً ولا عن غير قصد، بل هو مكلف برسالة إن أحسن تأديتها فقد فاز، وما الموارد المادية التي أوجدها الله من حوله إلا خدمة وتكريماً ليقوم بما كُلّف به. فها هي مريم عليها السلام، مثالٌ على ذلك.

ذكر ابن عاشور: حقيقة الإرث: مصير مال الميت إلى من يبقى بعده. وهو هنا مَجاز في تمحض التصرف في الشيء دون مشارك. فإن الأرض كانت في تصرف سكانها من الإنسان والحيوان كلّ بما يناسبه، فإذا هلك الناس والحيوان فقد صاروا في باطن الأرض وصارت الأرض في غير تصرفهم فلم يبق تصرف فيها إلا لخالقها، وهو تصرف كان في ظاهر الأمر مشتركاً بمقدار ما خولهم الله التصرف فيها إلى أجلٍ معلوم، فصار الجميع في محض تصرف الله، ومن جملة ذلك تصرفه بالجزاء.

﴿وَكَانَ يَأْمُرُ أَهْلَهُ بِالصَّلَاةِ وَالزَّكَاةِ وَكَانَ عِندَ رَبِّهِ مَرْضِيًّا ﴿٥٥﴾﴾

ها هو اسماعيل عليه السلام يأمر قومه بالزكاة فريضة من الله.

إنها وحدة الرسالة.

ذكر ابن عاشور: فلذلك قال الله تعالى: وكان يأمر أهله بالصلاة والزكاة؛ ثم إن أمة العرب نشأت من ذريته فهم أهله أيضاً، وقد كان من شريعته الصلاة والزكاة وشؤون الحنيفية ملّة أبيه إبراهيم.

وَكَمْ أَهْلَكْنَا قَبْلَهُم مِّن قَرْنٍ هُمْ أَحْسَنُ أَثَاثًا وَرِئْيًا (٧٤)

الأقوام الغابرة التي حكم الله عليها بالهلاك كانوا يتمتعون بأثاث وفرش أحسن مما لديكم، وكانوا يستمتعون بمناظر أحسن مما أنتم عليه.

فالأثاث والأماكن الجميلة المزينة ليست شيئاً جديداً بل تملكها من قبلنا والآية الكريمة تخبرنا بأنهم استمتعوا بما هو أحسن مما لدينا.

ذكر الطبري: قول تعالى ذكره: وكم أهلكنا يا محمد قبل هؤلاء القائلين من أهل الكفر للمؤمنين، إذا تُتلى عليهم آيات الرحمن، أيّ الفريقين خير مقاماً، وأحسن ندياً، مجالس من قرن هم أكثر متاع منازل من هؤلاء، وأحسن منهم منظراً وأجمل صوراً، فأهلكنا أموالَهم، وغيَّرْنا صُورهم.

ذكر ابن كثير: ولهذا قال تعالى راداً عليهم شبهتهم: ﴿وكم أهلكنا قبلهم من قرن﴾؛ أي: وكم من أمة وقرن من المكذبين قد أهلكناهم بكفرهم، ﴿هم أحسن أثاثا ورئيا﴾؛ أي: كانوا أحسنَ من هؤلاء أموالاً وأمتعة ومناظرَ وأشكالاً.

ذكر الطنطاوي: والأثاث المتاع للبيت. وقيل: هو الجديد من الفراش، وقد يُطلق على المال بصفة عامة.

أَفَرَأَيْتَ الَّذِي كَفَرَ بِآيَاتِنَا وَقَالَ لَأُوتَيَنَّ مَالاً وَوَلَداً ﴿٧٧﴾

يبقى المال والولد صنوان حسب الترتيب؛ المال أولا والولد ثانياً على مرّ العصور مهما اختلفت أجيال الناس، فهذا ما يتمنونه سواء في الحياة الدنيا أو الآخرة. لكن التمني وحده لا يُجدي نفعاً، ولابد من العمل فهذه الأرض خُلقنا فيها لنعمل ثم لنتمنى على الله الأماني.

ذكر ابن كثير: قال عبد الرزاق: أخبرنا الثوري، عن الأعمش، عن أبي الضحى، عن مسروق قال: قال خباب بن الأرت، كنت قيناً بمكة، فكنت أعمل للعاص بن وائل، قال: فاجتمعت لي عليه دراهم، فجئت لأتقاضاه، فقال لي: لا أقضيك حتى تكفر بمحمد. فقلت: لا أكفر بمحمد حتى تموت ثم تبعث. قال: فإذا بُعثت كان لي مال وولد. قال: فذكرت ذلك لرسول الله صلى الله عليه وسلم فأنزل الله الآية.

لَّقَدْ أَحْصَاهُمْ وَعَدَّهُمْ عَدّاً ﴿٩٤﴾

الإحصاء والعد أدوات يقوم عليها أي قرار علمي، والإحصاء مرحلة متقدمة عن العد بمعنى أن عدّ الأشياء معرفة بيانات عنها ككميتها مثلاً،

أما إحصاءها فيكون بعمليات تجُرى على ما تم عدّه للوصول إلى معلومات أكثر نفعا من البيانات وتحمل قيمة أعلى منها.

ذكر الطنطاوي: حصرهم وأحاط بهم، بحيث لا يخرج أحد من مخلوقاته عن علمه وطاعته ﴿وَعَدَّهُمْ عَدًّا﴾؛ أي: وعدَّ أشخاصهم وذواتهم وحركاتهم وسكناتهم؛ بحيث لا يهربون من قبضته، ولا يخفى عليه أحد منهم.

تفسير سورة طه

رقم السورة: ٢٠ وهي مكية وعدد آياتها: ١٣٥.

تركز هذه السورة على صناعة القادة، وفن الحوار والإِقناع بمختلف الأدلة.

ذكر الطنطاوي: فَصَّلت السورة الكريمة الحديث عن قصة موسى عليه السلام فبدأت بنداء الله تعالى له، وباختياره لحمل رسالته. ثم تحدثت عن تكليفه سبحانه لموسى، بالذهاب إلى فرعون.

ثم حكت السورة ما دار بين موسى وبين فرعون من مناقشات ومجادلات، وكذلك ما دار بين موسى وبين السحرة الذين جمعهم فرعون لمنازلة موسى عليه السلام وكيف أن السحرة انتهى أمرهم بالإِيمان.

ثم بيّنت السورة الكريمة ما فعله بنو إسرائيل في غيبة موسى عنهم، وكيف أن السامري قد أضلهم بأن جعلهم يعبدون عِجلا له خوار. وكيف أن موسى رجع إليهم غضبان أسفاً؛ فحطم العجل وأحرقه وألقاه في اليم.

وبعد أن فصّلت السورة الكريمة الحديث عن قصة موسى عليه السلام عقّبت على ذلك ببيان وظيفة القرآن الكريم، وببيان جانب من أهوال يوم القيامة، وسوء عاقبة الكافرين، وحسن عاقبة المؤمنين.

ثم ساقت السورة في أواخرها جانباً من قصة آدم، فذكرت سجود الملائكة له، ونسيانه لأمر ربه، وقبول الله تعالى لتوبة آدم بعد أن وسوس له الشيطان بما وسوس.

ثم ختمت السورة الكريمة بأمر النبي صلّى الله عليه وسلّم بالصبر وبالإكثار من ذكر الله تعالى وبعدم التطلع إلى زهرة الحياة الدنيا، وبأمر أهله بالصلاة، وبالردِّ على مزاعم المشركين، وبتهديدهم بسوء العاقبة إذا ما استمروا على ضلالهم.

قَالَ هِيَ عَصَايَ أَتَوَكَّأُ عَلَيْهَا وَأَهُشُّ بِهَا عَلَىٰ غَنَمِي وَلِيَ فِيهَا مَآرِبُ أُخْرَىٰ ﴿١٨﴾

العصا هي من الأدوات والتجهيزات التي تُستعمل لأغراض متعددة، فهي أداة تعين على المشي، وهي أداة إنتاجية في رعي الغنم.

ذكر البغوي: ﴿وَلِيَ فِيهَا مَآرِبُ أُخْرَىٰ﴾ حاجات ومنافع أخرى ... وأراد بالمآرب: ما يُستعمل فيه العصا في السفر، وكان يحمل بها الزاد، ويشد بها الحبل فيستقي الماء من البئر، ويقتل بها الحيات، ويحارب بها السباع، ويستظل بها إذا قعد وغير ذلك.

وَاجْعَل لِّي وَزِيراً مِّنْ أَهْلِي (٢٩) هَارُونَ أَخِي (٣٠) اشْدُدْ بِهِ أَزْرِي (٣١) وَأَشْرِكْهُ فِي أَمْرِي (٣٢) كَيْ نُسَبِّحَكَ كَثِيراً (٣٣) وَنَذْكُرَكَ كَثِيراً (٣٤) إِنَّكَ كُنتَ بِنَا بَصِيراً (٣٥)

تبين هذه الآية الكريمة ضرورة الاستعانة بأهل الخبرة، فالمكلّف من الله هو موسى؛ رسول ونبي وهو من أولي العزم، لكن لثقل المهمة، طلب من ربه وصاحب أمره أن يستعين بمن يراه معيناً له في أداء المهمة على أفضل وجه، والله تعالى أعلم بموسى، لكنه تعليم لأولي الأمر ولمن هم أعلى في سُلَّم المسؤولية، فبعد الاختيار الجيد للعمالة، يؤخذ برأيهم ولا يكون رب العمل مستبداً، والله تعالى يضرب لنا الأمثال، وقد قدّم موسى منافع ذلك الرأي الذي طلب الإذن به ولم يتصرف به دون إذن ولي أمره، فأوضح أنه يحتاج وزيراً مُعيّناً، وأنه اختار أخوه لبيان درجة الثقة، وأنه سيشد أزره، وأنه سيشركه في أمره، ليسبحان الله كثيراً، ويذكرانه كثيراً، وهنا يتضح كيف أنهما يعلمان أنهما مُقدِمان على عمل كبير؛ لكن هذا العمل لن ينسيهما أنهما عبدان لله يتوجب عليهما ذكره وعبادته.

يُستفاد أيضاً من فعل موسى عليه السلام أهمية اختيار فريق العمل وبيان صفاتهم لرب العمل.

لذلك يمكن القول أن الله اختار عامله موسى عليه السلام، ثم قام هذا العامل بوضع خطة قضت باختيار وتجهيز فريق عمل مهني؛ ففصاحة اللسان جزء من المهمة الصعبة.

قَالَ قَدْ أُوتِيتَ سُؤْلَكَ يَا مُوسَى ﴿٣٦﴾

سمع ربُّ كل شيء وربُّ موسى ووليُ أمره من عامله حتى انتهى من كلامه، وأجازه على خطته التي وضعها.

نحن نتكلم عن خالق ومخلوق، خالق ليس بحاجة لذلك المخلوق، وهذا تعليم للبشر كيف يتعامل صاحب العمل مع عماله، يختار أصلحهم، ويدع لهم فسحة من الاختيار وإبداء الرأي، يسمع منهم، يُجيز خططهم وفِعالهم.

ولله المثل الأعلى.

أَنِ اقْذِفِيهِ فِي التَّابُوتِ فَاقْذِفِيهِ فِي الْيَمِّ فَلْيُلْقِهِ الْيَمُّ بِالسَّاحِلِ يَأْخُذْهُ عَدُوٌّ لِّي وَعَدُوٌّ لَّهُ وَأَلْقَيْتُ عَلَيْكَ مَحَبَّةً مِّنِّي وَلِتُصْنَعَ عَلَى عَيْنِي ﴿٣٩﴾

يصنع الله رسله ويهيؤهم وهذا ما ذكرته أكثر من قصة، فآدم عليه السلام هُيء لما كُلّف به، وكذلك أنبياء الله جميعهم كيوسف وموسى وعيسى ومحمد عليهم الصلاة والسلام.

لذلك الأشخاص الذين سيشغلون مناصب حساسة يجب اختيارهم من صغرهم والاعتناء بهم وتأهيلهم فسياسة الناس أمرٌ جللٌ، الخطأ فيه غير مسموح، فهذه حياة ومصالح بشر أكرمهم الله تعالى.

وهكذا تُصنع القادة.

وَاصْطَنَعْتُكَ لِنَفْسِي ﴿٤١﴾

لذلك كان الرسل والأنبياء عليهم السلام كاملين غير ناقصين. وليس هذا لأحدٍ غيرهم، لأن المربي هو الخالق البارئ.

اذْهَبْ أَنتَ وَأَخُوكَ بِآيَاتِي وَلَا تَنِيَا فِي ذِكْرِي ﴿٤٢﴾ اذْهَبَا إِلَىٰ فِرْعَوْنَ إِنَّهُ طَغَىٰ ﴿٤٣﴾ فَقُولَا لَهُ قَوْلًا لَّيِّنًا لَّعَلَّهُ يَتَذَكَّرُ أَوْ يَخْشَىٰ ﴿٤٤﴾ قَالَا رَبَّنَا إِنَّنَا نَخَافُ أَن يَفْرُطَ عَلَيْنَا أَوْ أَن يَطْغَىٰ ﴿٤٥﴾ قَالَ لَا تَخَافَا ۖ إِنَّنِي مَعَكُمَا أَسْمَعُ وَأَرَىٰ ﴿٤٦﴾ فَأْتِيَاهُ فَقُولَا إِنَّا رَسُولَا رَبِّكَ فَأَرْسِلْ مَعَنَا بَنِي إِسْرَائِيلَ وَلَا تُعَذِّبْهُمْ ۖ قَدْ جِئْنَاكَ بِآيَةٍ مِّن رَّبِّكَ ۖ وَالسَّلَامُ عَلَىٰ مَنِ اتَّبَعَ الْهُدَىٰ ﴿٤٧﴾

هذه الآية الكريمة هي بمثابة تسليم المهمة للعامل القائد الذي تم تجهيزه وإعداده، ويلاحظ دقة المهمة وتفصيلها، فهي أشبه بإجراءات.

جاء البند الأول موجها للقائد المسؤول وهو موسى عليه السلام بالقول: ﴿اذهب﴾ فلا بد من رأس واحد للهرم الوظيفي، لتطبيق محاسبة المسؤولية، وقد نص الإجراء الأول على ذكر الله تعالى لأنه الأصل في هذا الكون كما أوضحت آيات سابقة، ثم صارت الإجراءات موجهة لفريق العمل، فغاية المهمة أن شخصاً يُقال له فرعون قد طغى وتجبر على الناس ظلماً وتكبراً، أما الرسالة؛ فكانت القول اللّين؛ لعله يتذكر أو يخشى دون إضاعة الثوابت التي فُطرا عليها؛ فعلى الرغم من أن فرعون قال: أنا ربكم الأعلى، وهذا أمر يختص بالإله العظيم القادر، لكن هذا الإله المقتدر لم يأخذ هذا الطاغية بـ﴿كُن فيكون﴾، بل كانت الرسالة: ﴿قولا له قولاً ليناً لعله﴾.

ولما أعرب فريق العمل عن مصاعب المهمة، بدا من صاحب الأمر ما يُطمئنهم ويُثبتهم، وهذا ما يجب على أرباب العمل فِعله مع عمالهم؛ فيمنحونهم الصلاحية، ويُفوّضونهم، ويُقدّمون لهم الحماية اللازمة، ولا يُعرّضونهم للمهالك.

قَالَ فَمَن رَّبُّكُمَا يَا مُوسَى ﴿٤٩﴾

فرعون الملك ليس شخصاً عادياً؛ فقد حاور موسى وهارون، وهذا شأن الملوك، فهم مالكون واثقون عندهم الجأش والقوة والبأس، وفي الحوار المتبادل، ذكر له موسى عليه السلام بعض نعماء الله الخالق البارئ ليتحقق كنه الرسالة الربانية، لعله يتذكر أو يخشى، لذلك لم يخرج موسى وهارون عن المهمة المحددة.

الَّذِي جَعَلَ لَكُمُ الْأَرْضَ مَهْداً وَسَلَكَ لَكُمْ فِيهَا سُبُلاً وَأَنزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَأَخْرَجْنَا بِهِ أَزْوَاجاً مِّن نَّبَاتٍ شَتَّى ﴿٥٣﴾

ذكر موسى عليه السلام لفرعون آلاء الله؛ وأنه سبحانه خلق الأرض ومهدها لتكون صالحة لسكنى البشر، وجعل فيها الطرق والسبل، ثم أنزل عليها الماء من السماء ليُخرج به الله النبات الذي خلقه أزواجاً؛ أي ذُكراناً وإناثاً.

كُلُوا وَارْعَوْا أَنْعَامَكُمْ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِّأُولِي النُّهَى ﴿٥٤﴾

هذا النبات الذي أخرجه خالقه، هو غذاء الناس وأنعامهم؛ فلا يستطيعون العيش دونه، كما أن الأنعام بدورها هي غذاء الإنسان.

وبما أن الحوار مع ملك ذو شأن؛ فقد ذكر الله تعالى على لسان موسى عليه السلام بأن هذه الآيات هي لأولي النهى أي لأصحاب العقول الرزينة ذات

الأفكار السليمة، وهذا تكريم في الخطاب لأن أصل الرسالة: ﴿لعله يتذكر أو يخشى﴾.

﴿مِنْهَا خَلَقْنَاكُمْ وَفِيهَا نُعِيدُكُمْ وَمِنْهَا نُخْرِجُكُمْ تَارَةً أُخْرَى ﴿٥٥﴾ وَلَقَدْ أَرَيْنَاهُ آيَاتِنَا كُلَّهَا فَكَذَّبَ وَأَبَى ﴿٥٦﴾﴾

هذه الأرض هي منشؤكم وهي مآلكم، ومنها الخروج ثانية.

لقد جاء موسى وهاورن عليهما السلام فرعون بالكلام الحجة الذي لم يسمعه من قبل وهذه فصاحة بليغة عبّرت عن معلومات عميقة، أدت لجعل كفة الحوار تميل إليهما لأنهما على الحق المبين؛ لذلك انتقل الحوار من الفصاحة والبلاغة وما فيها من أدلة لفظية إلى الأدلة الحسية. وهذه من قواعد إدارة الحوار وخاصة بين علية القوم.

فكان اتهام فرعون لعجزه عن مجاراتهما في تعزيز الحوار بالأدلة، فانتقل فريق العمل المجهز تجهيزاً كاملاً (لفظياً ومهنياً) إلى مرحلة أخرى من مراحل المهمة.

ثم كان العَرْض بين موسى الرسول عليه السلام، والعلماء الخبراء ممن أحضرهم فرعون لمنازلته، بعدما أعجزه موسى عليه السلام.

﴿فَتَوَلَّى فِرْعَوْنُ فَجَمَعَ كَيْدَهُ ثُمَّ أَتَى ﴿٦٠﴾﴾

ذهب فرعون الملك ليجهز ويجمع كل ما يملكه من كيد وحيل للانتصار على موسى وهارون. فهو لا يعتقد أنه سيُهزم لأنها قضية استراتيجية بالنسبة له؛ بل هي قضية حياة أو موت. وهذه من أسس الإدارة الاستراتيجية؛ فالمعركة معركة بقاء.

﴿فَأَوْجَسَ فِي نَفْسِهِ خِيفَةً مُّوسَى ﴿٦٧﴾ قُلْنَا لَا تَخَفْ إِنَّكَ أَنتَ الْأَعْلَى ﴿٦٨﴾﴾

إنه من شدة كيد وعلم الفريق الآخر خاف موسى عليه السلام، لكن رب موسى أيّده وقوّاه، وهذا ما يجب أن يكون عليه القادة عندما يُرسلون عمالهم في أمر جلل، يُتابعونهم بالتأييد والنصرة.

﴿وَأَلْقِ مَا فِي يَمِينِكَ تَلْقَفْ مَا صَنَعُوا ۖ إِنَّمَا صَنَعُوا كَيْدُ سَاحِرٍ ۖ وَلَا يُفْلِحُ السَّاحِرُ حَيْثُ أَتَى ﴿٦٩﴾﴾

أشارت الآية الكريمة إلى صناعة السحر، وأن هذه الصناعة صناعة لا خير فيها، كما أنها لا تقوى على الصمود أمام الصناعة الحقيقة.

﴿كُلُوا مِن طَيِّبَاتِ مَا رَزَقْنَاكُمْ وَلَا تَطْغَوْا فِيهِ فَيَحِلَّ عَلَيْكُمْ غَضَبِي ۖ وَمَن يَحْلِلْ عَلَيْهِ غَضَبِي فَقَدْ هَوَى ﴿٨١﴾﴾

أمر الله تعالى قوم موسى بأكل الطيبات من الرزق، وبعدم الطغيان في الأكل، وطَغا يَطْغى ويَطْغو طُغْياناً؛ أي جاوَز الحدّ حسب الصّحّاح في اللغة، ومن أشكال الطغيان الإسراف والتبذير، وعدم بذل الطعام صدقات لمن يستحقه. وهذا تبديد للموارد الطبيعية التي خلقها الله تعالى لتلبية حاجات الموارد البشرية، وفيه استهتار بأوامر الخالق؛ لذلك حق على من فعل ذلك الطغيان؛ غضب الله تعالى.

تَعَالَى اللَّهُ الْمَلِكُ الْحَقُّ وَلَا تَعْجَلْ بِالْقُرْآنِ مِن قَبْلِ أَن يُقْضَى إِلَيْكَ وَحْيُهُ وَقُل رَّبِّ زِدْنِي عِلْماً ﴿١١٤﴾ وَلَقَدْ عَهِدْنَا إِلَى آدَمَ مِن قَبْلُ فَنَسِيَ وَلَمْ نَجِدْ لَهُ عَزْماً ﴿١١٥﴾

وقل ربي زدني علماً؛ فالعلم زادُ الإنسان في هذه الحياة، والعلم يُطلب من الله، ويُجتهد بتحصيله ببذل العزم؛ وإلا فالنسيان مرض العلم وآفته.

ذكر السعدي: لا تبادر بتلقف القرآن حين يتلوه عليك جبريل، واصبر حتى يفرغ منه، فإذا فرغ منه فاقرأه، فإن الله قد ضمن لك جمعه في صدرك وقراءتك إياه، ... ولما كانت عجلته صلى الله عليه وسلم، على تلقف الوحي ومبادرته إليه، تدل على محبته التامة للعلم وحرصه عليه، أمره الله تعالى أن يسأله زيادة العلم، فإن العلم خير، وكثرة الخير مطلوبة،

وهـي مـن الله، والـطريـق إلـيها الاجـتهاد، والـشوق لـلعلم، وسـؤال الله، والاستعانة به، والافتقار إليه في كل وقت.

ويؤخذ من هذه الآية الكريمة، الأدب في تلقي العلم، وأن المستمع للعلم ينبغي لـه أن يـتأنـى ويـصبر حتى يفرغ المـملي والمعلم مـن كـلامه المتصل بعضه ببعض، فإذا فرغ منه سأل إن كـان عـنده سؤال، ولا يـبادر بـالسؤال وقطع كلام ملقي العلم، فإنه سبب للحرمان. وكذلك المسؤول، ينبغي له أن يستملي سؤال السائل، ويعرف المقصود منه قبل الجواب، فإن ذلك سبب لإصابة الصواب.

وَمَنْ أَعْرَضَ عَن ذِكْرِي فَإِنَّ لَهُ مَعِيشَةً ضَنكًا وَنَحْشُرُهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ أَعْمَى ﴿١٢٤﴾

سنة من سنن الله في أرضه؛ من أعرض عن ذكر الرحمن، فقد تركه الله لنفسه، ووعده بمعيشة في هذه الحياة ليس فيها سوى التعب والضنك والجهد، وسيحشر يوم القيامة أعمى جزاء إعراضه في الدنيا.

ذكر الطنطاوي: فإن لهذا المُعرِض معيشة ضيقة مليئة بالهمّ والغمّ والأحزان وسوء العاقبة، حتى ولو ملك المال الوفير، والحطام الكثير؛ فإن المعيشة الطيبة لا تكون إلا مع طاعة الله، وامتثال أمره، واجتناب نهيه.

فَلَمْ يَهْدِ لَهُمْ كَمْ أَهْلَكْنَا قَبْلَهُم مِّنَ الْقُرُونِ يَمْشُونَ فِي مَسَاكِنِهِمْ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِّأُولِي النُّهَى ﴿١٢٨﴾

يتوارث الناس مساكن بعضهم بعضاً، كما يبقى بعضها كآثار شاهدة على من سبق من البشر ممن جاؤوا هذه الدنيا وسكنوا هذه المساكن، فذهبوا، وبقيت المساكن؛ لتدلّ على ما كانوا عليه، أليس في ذلك عبرة لأصحاب العقول النيّرة؟.

ذكر الطبري: يقول تعالى ذكره لنبيه محمد صلى الله عليه وسلم: أفلم يهد لقومك المشركين بالله، ومعنى يهد: يبين. يقول: أفلم يبين لهم كثرة ما أهلكنا قبلهم من الأمم التي سلكت قبلها التي يمشون في مساكنهم ودورهم، ويرون آثار عقوباتنا التي أحللناها بهم سوء مغبة ما هم عليه مقيمون من الكفر بآياتنا، ويتعظوا بهم، ويعتبروا، وينيبوا إلى الإذعان، ويؤمنوا بالله ورسوله، خوفاً أن يُصيبهم بكفرهم بالله مثل ما أصابهم.

وَلَا تَمُدَّنَّ عَيْنَيْكَ إِلَى مَا مَتَّعْنَا بِهِ أَزْوَاجًا مِّنْهُمْ زَهْرَةَ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا لِنَفْتِنَهُمْ فِيهِ وَرِزْقُ رَبِّكَ خَيْرٌ وَأَبْقَى ﴿١٣١﴾

ذكر السعدي: لا تمد عينيك معجباً، ولا تكرر النظر مستحسناً إلى أحوال الدنيا والممتّعين بها، من المآكل والمشارب اللذيذة، والملابس

الفاخرة، والبيوت المزخرفة، والنساء المجملة، فإن ذلك كله زهرة الحياة الدنيا، تبتهج بها نفوس المغترين، وتأخذ إعجاباً بأبصار المعرضين، ويتمتع بها – بقطع النظر عن الآخرة – القوم الظالمون، ثم تذهب سريعاً، وتمضي جميعاً، وتقتل محبيها وعشاقها، فيندمون حيث لا تنفع الندامة، ويعلمون ما هم عليه إذا قدموا في القيامة، وإنما جعلها الله فتنة واختباراً، ليعلم من يقف عندها ويغتر بها، ومن هو أحسن عملاً.

ذكر الطنطاوي: وما رزقك الله إياه أيها الرسول الكريم في هذه الدنيا من طيبات. وما ادخره لك في الآخرة من حسنات، خير وأبقى مما مُتِّع به هؤلاء الكافرون من متاعٍ زائلٍ سيحاسبهم الله تعالى عليه يوم القيامة حساباً عسيراً، لأنهم لم يقابلوا نِعم الله عليهم بالشكر، بل قابلوها بالجحود والكفران.

والمتأمل في هذه الآية الكريمة يراها قد رسمت للمؤمن أفضل الطرق وأحكمها، لكي يحيا حياة فاضلة طيبة، حياة يعتز فيها صاحبها بالمعاني الشريفة الباقية، ويُعرض عن المظاهر والزخارف الزائلة.

وَأْمُرْ أَهْلَكَ بِالصَّلَاةِ وَاصْطَبِرْ عَلَيْهَا ۖ لَا نَسْأَلُكَ رِزْقًا ۖ نَّحْنُ نَرْزُقُكَ ۗ وَالْعَاقِبَةُ لِلتَّقْوَىٰ ﴿١٣٢﴾

ليقيم الصلاة ويأمر أهله بها ويصبر عليهم.

يُخبر الله تعالى الإِنسان بأنه ليس مطلوباً منه أن يُوجد الرزق ويخلقه، بل الله هو الرازق له.

ذكر القرطبي: لا نسألك رزقاً أي لا نسألك أن ترزق نفسك وإياهم، وتشتغل عن الصلاة بسبب الرزق، بل نحن نتكفل برزقك وإياهم، فكان عليه السلام إذا نزل بأهله ضيق؛ أمرهم بالصلاة.

تفسير سورة الأنبياء

رقم السورة: ٢١ وهي مكية وعدد آياتها: ١١٢.

تتكلم السورة عن تهيئة البيئة التي سيعيش بها الإنسان، هذه البيئة هي الموارد الطبيعية التي جعلها الله مسخرة للإنسان يستفيد من منافعها حسب مستطاعه، وأدواته في ذلك العلم الذي جعله الله له سُلطاناً.

ذكر الطنطاوي: عند ما نقرأ هذه السورة الكريمة بتدبر وتأمل، نراها في مطلعها تسوق لنا ما يهزّ القلوب، ويحملها على الاستعداد لاستقبال يوم القيامة بالإيمان والعمل الصالح، ويزجرها عن الغفلة والإعراض.

ثم تحكي السورة بعد ذلك ألواناً من الشبهات التي أثارها المشركون حول الرسول صلّى الله عليه وسلّم وحول دعوته، وردت عليهم بما يُبطل شبهاتهم وأقوالهم.

ثم ساقت السورة الكريمة بعد ذلك أدلة متعددة على وحدانية الله تعالى وعلى شمول قدرته.

وبعد أن ذكرت السورة ألواناً من نِعم الله على خلقه، وحكت جانباً من تصرفات المشركين السيئة مع النبي صلّى الله عليه وسلّم أتبعت ذلك بتسليته صلّى الله عليه وسلّم عما قالوه في شأنه.

ثم عرضت السورة الكريمة جانباً من قصص بعض الأنبياء، تارة على سبيل الإجمال، وتارة بشيء من التفصيل، فتحدثت عن موسى وهارون، وعن إبراهيم ولوط، وعن إسحاق ويعقوب، وعن نوح وأيوب، وعن داود وسليمان، وعن إسماعيل وإدريس، وعن يونس وزكريا.

وفي نهاية حديثها عنهم صلوات الله وسلامه عليهم عقبت بالمقصود الأساسي من رسالتهم، وهو دعوة الناس جميعاً إلى إخلاص العبادة لله تعالى، وأنهم جميعاً قد جاءوا برسالة واحدة في جوهرها.

ثم تحدثت في أواخرها عن أشراط الساعة، وعن أهوالها، وعن أحوال الناس فيها.

ثم ختم سبحانه سورة الأنبياء بالحديث عن سُنَّة من سننه التي لا تتخلف، وعن رسالة نبيه صلّى الله عليه وسلّم وعن موقفه من أعدائه.

وَكَمْ قَصَمْنَا مِن قَرْيَةٍ كَانَتْ ظَالِمَةً وَأَنشَأْنَا بَعْدَهَا قَوْماً آخَرِينَ ﴿١١﴾

سُنة الإهلاك للبلاد الظالمة سنةٌ قائمةٌ، وسُنة الاستبدال أيضاً سنةٌ قائمةٌ.

لَوْ كَانَ فِيهِمَا آلِهَةٌ إِلَّا اللَّهُ لَفَسَدَتَا فَسُبْحَانَ اللَّهِ رَبِّ الْعَرْشِ عَمَّا يَصِفُونَ ﴿٢٢﴾

لا يستقيم هيكل تنظيمي إداري برأسين ولابد من رأس واحد، وكذلك الكون ليس له إلا إله واحد وإلا فسد، فسبحان الله رب العرش العظيم.

ذكر القرطبي: أي لو كان فيهما إلهان لفسد التدبير؛ لأن أحدهما إن أراد شيئاً والآخر ضده كان أحدهما عاجزاً.

ذكر الطنطاوي: وذلك لأن تعدد الآلهة يلزمه التنازع والتغالب بينهم؛ فيختل النظام لهذا الكون، ويضطرب الأمر، ويعمُّ الفساد في هذا العالم.

أَوَلَمْ يَرَ الَّذِينَ كَفَرُوا أَنَّ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ كَانَتَا رَتْقًا فَفَتَقْنَاهُمَا ۖ وَجَعَلْنَا مِنَ الْمَاءِ كُلَّ شَيْءٍ حَيٍّ ۖ أَفَلَا يُؤْمِنُونَ (٣٠)

جعل الله من الماء كل شيء حيّ، فكما أن المخلوقات قوامها الماء؛ فالحضارات التي عرفتها البشرية تجمعت حول مصادر المياه من أبحر وأنهار؛ فإن فُقد الماء فُقدت الحياة.

ذكر الطنطاوي: أولم يشاهد الذين كفروا بأبصارهم، ويعلموا بعقولهم، أن السموات والأرض كانتا رتقاً، بحيث لا ينزل المطر من السماء، ولا يخرج النبات من الأرض، ففتق الله تعالى السماء بالمطر، والأرض بالنبات.

وَجَعَلْنَا فِي الْأَرْضِ رَوَاسِيَ أَنْ تَمِيدَ بِهِمْ وَجَعَلْنَا فِيهَا فِجَاجًا سُبُلًا لَعَلَّهُمْ يَهْتَدُونَ (٣١)

جُعلت الجبال كالأوتاد المثبتة لقشرة الأرض وما عليها، ولولا ذلك لما كانت إقامة الناس ممكنة على هذه الأرض.

وجُعل فيها الفجاج؛ أي الطرق؛ ليتمكن الناس من السير والانتقال بين الأماكن والمناطق في الأرض المنبسطة الممهدة المهيأة لسكناهم.

ذكر السعدي: إن من الأدلة على قدرته وكماله ووحدانيته ورحمته، أنه لما كانت الأرض لا تستقر إلا بالجبال، أرساها بها وأوتدها، لئلا تميد بالعباد، أي: لئلا تضطرب، فلا يتمكن العباد من السكون فيها، ولا حرثها، ولا الاستقرار بها، فأرساها بالجبال، فحصل بسبب ذلك، من المصالح والمنافع، ما حصل، ولما كانت الجبال المتصل بعضها ببعض، قد تتصل اتصالا كثيراً جداً؛ فلو بقيت بحالها، جبالا شامخات، وقللا باذخات؛ لتعطل الاتصال بين كثير من البلدان.

فمن حكمة الله ورحمته، أن جعل بين تلك الجبال فجاجاً سبلاً، أي: طرقاً سهلة لا حزنة، لعلهم يهتدون إلى الوصول، إلى مطالبهم من البلدان، ولعلهم يهتدون بالاستدلال بذلك على وحدانية المنّان.

وَجَعَلْنَا السَّمَاءَ سَقْفًا مَّحْفُوظًا ۖ وَهُمْ عَنْ آيَاتِهَا مُعْرِضُونَ ﴿٣٢﴾

جُعلت السماء أشبه بالسقف الذي يحفظ ما دونه.

ذكر الطنطاوي: وجعلنا السماء سقفاً للأرض كما يكون السقف للبيت، وجعلناه محفوظاً من السقوط ومن التشقق، ومن كل شيطان رجيم. وهم – أي المشركون – عن آياتها الدالة على قدرتنا ووحدانيتنا وعلمنا؛ معرضون ذاهلون، لا يتعظون ولا يتذكرون.

وَهُوَ الَّذِي خَلَقَ اللَّيْلَ وَالنَّهَارَ وَالشَّمْسَ وَالْقَمَرَ ۖ كُلٌّ فِي فَلَكٍ يَسْبَحُونَ ﴿٣٣﴾

خلق الله الليل والنهار والشمس والقمر، كل منهما يدور في فَلك يخصه وله وظائف يقوم بها؛ يستفيد منها الإنسان على هذه الأرض، ولولا هذه النِعم والآيات لما طُوِّرت كثير من التقنيات ولفقد الإنسان صناعات يَنعم بمخرجاتها.

ذكر السعدي: هذا عام في جميع آيات السماء، من علوها، وسعتها، وعظمتها، ولونها الحسن، وإتقانها العجيب، وغير ذلك من المشاهد فيها، من الكواكب الثوابت والسيارات، وشمسها، وقمرها النيرات، المتولد عنهما، الليل والنهار، وكونهما دائما في فلكهما سابحين، وكذلك النجوم، فتقوم بسبب ذلك منافع العباد من الحر والبرد، والفصول، ويعرفون حساب عباداتهم ومعاملاتهم، ويستريحون في ليلهم، ويهدأون

ويسكنون وينتشرون في نهارهم، ويسعون في معايشهم، كل هذه الأمور إذا تدبرها اللبيب، وأمعن فيها النظر، جزم حزماً لا شك فيه، أن الله جعلها مؤقتة في وقت معلوم، إلى أجل محتوم، يقضي العباد منها مآربهم، وتقوم بها منافعهم، وليستمتعوا وينتفعوا، ثم بعد هذا، ستزول وتضمحل، ويُفنيها الذي أوجدها، ويُسكنها الذي حركها، وينتقل المكلفون إلى دار غير هذه الدار، يجدون فيها جزاء أعمالهم، كاملاً موفراً ويعلم أن المقصود من هذه الدار أن تكون مزرعة لدار القرار، وأنها منزل سفر، لا محل إقامة.

﴿وَنَضَعُ الْمَوَازِينَ الْقِسْطَ لِيَوْمِ الْقِيَامَةِ فَلَا تُظْلَمُ نَفْسٌ شَيْئًا وَإِن كَانَ مِثْقَالَ حَبَّةٍ مِّنْ خَرْدَلٍ أَتَيْنَا بِهَا وَكَفَى بِنَا حَاسِبِينَ ﴿٤٧﴾﴾

تصف هذه الآية الكريمة شدة الحساب ودقته وأدوات إقامة العدل فيه؛ وهي الموازين التي توصف بالقسط لشدة عدلها وتحقيقها له. وقد أسند الله تعالى لذاته العلية صفة المحاسب تشريفاً لها ما دام المحاسبون عادلون مقسطون.

ذكر القرطبي: وكفى بنا حاسبين أي محاسبين على ما قدموه من خير وشرّ.

﴿وَجَعَلْنَاهُمْ أَئِمَّةً يَهْدُونَ بِأَمْرِنَا وَأَوْحَيْنَا إِلَيْهِمْ فِعْلَ الْخَيْرَاتِ وَإِقَامَ الصَّلَاةِ وَإِيتَاءَ الزَّكَاةِ ۖ وَكَانُوا لَنَا عَابِدِينَ ﴿٧٣﴾﴾

سنة الله، لقد فرضت الزكاة على جميع الأقوام، وهذه الآية الكريمة تبين أنها فرضت على قوم إبراهيم ولوط.

ذكر الطنطاوي: إذ الصلاة أفضل العبادات البدنية والزكاة أفضل العبادات المالية؛ ﴿وَكَانُوا لَنَا عَابِدِينَ﴾ لا لغيرنا، فهم لم يخطر ببالهم عبادة أحد سوانا، لأنهم من المصطفين الأخيار.

﴿وَدَاوُودَ وَسُلَيْمَانَ إِذْ يَحْكُمَانِ فِي الْحَرْثِ إِذْ نَفَشَتْ فِيهِ غَنَمُ الْقَوْمِ وَكُنَّا لِحُكْمِهِمْ شَاهِدِينَ ﴿٧٨﴾﴾

ذكرت الآية الكريمة الحرث من الزرع وهو ما يمتهنه كثير من الناس ويتعيشون عليه، كما ذكرت الأغنام ورعايتها، فالزرع وما فيه اقتصاد رعوي مهم، وعليه أو على بقاياه؛ تقوم رعاية الأغنام والمواشي عموماً.

لقد تحاكم إلى نبيي الله داود وابنه سليمان عليهما السلام صاحب حرث، رعت فيه غنم قوم آخرين ليلاً، فأكلت من أشجاره، ورعت في زرعه؛ فقضى داود عليه السلام أن تكون الغنم لصاحب الحرث بسبب تفريط أصحابها. أما سليمان عليه السلام؛ فحكم أن يدفع أصحاب الغنم

غنمهم إلى صاحب الحرث؛ لينتفع بدرِّها وصوفها، ويقومون على بستان صاحب الحرث، حتى يعود إلى حاله الأولى، فيعود لكل منهما ماله.

ذكر الطبري: حين دخلت في هذا الحرث غنم القوم الآخرين من غير أهل الحرث ليلاً فَرَعته أو أفسدته، ﴿وَكُنَّا لِحُكْمِهِمْ شَاهِدِينَ﴾؛ يقول: وكنا لحكم داود وسليمان والقوم الذين حكما بينهم فيما أفسدت غنم أهل الغنم من حرث أهل الحرث، شاهدين لا يخفى علينا منه شيء، ولا يغيب عنا علمه.

وَعَلَّمْنَاهُ صَنْعَةَ لَبُوسٍ لَّكُمْ لِتُحْصِنَكُم مِّن بَأْسِكُمْ فَهَلْ أَنتُمْ شَاكِرُونَ ﴿٨٠﴾

علَّم الله تعالى داود عليه السلام صناعة الدروع، فجعل له الحديد ليّناً، لتكون وقاية ووسيلة حفظ عند الحرب، وعند اشتداد البأس.

وفي هذه الآية إشارة لصناعة الحديد عموماً، وصناعة السلاح خصوصاً.

ذكر القرطبي: هذه الآية أصل في اتخاذ الصنائع والأسباب، وهو قول أهل العقول والألباب، لا قول الجهلة الأغبياء القائلين بأن ذلك إنما شُرِّع للضعفاء، فالسبب سنة الله في خلقه فمن طعن في ذلك فقد طعن في الكتاب والسنة، ونسب من ذكرنا إلى الضعف وعدم المنة. وقد أخبر الله

تعالى عن نبيه داود عليه السلام أنه كان يصنع الدروع، وكان أيضا يصنع الخوص، وكان يأكل من عمل يده، وكان آدم حراثاً، ونوح نجاراً، ولقمان خياطاً، وطالوت دباغاً، وقيل: سقّاء؛ فالصنعة يَكْفِ بها الإنسان نفسه عن الناس، ويدفع بها عن نفسه الضرر والبأس. وفي الحديث: إن الله يحب المؤمن المحترف الضعيف المتعفف ويُبغض السائل الملحف.

يَوْمَ نَطْوِي السَّمَاءَ كَطَيِّ السِّجِلِّ لِلْكُتُبِ كَمَا بَدَأْنَا أَوَّلَ خَلْقٍ نُعِيدُهُ وَعْدًا عَلَيْنَا إِنَّا كُنَّا فَاعِلِينَ (١٠٤)

يُشبِّه المولى عزّ وجلّ طيّ السماء آخر الزمان كما تُطوى السجلات والكتب وفي هذا إشارة إلى صناعة التجليد وصناعة السجلات والكتب.

تفسير سورة الحج

رقم السورة: ٢٢ وهي مدنية وعدد آياتها: ٧٨.

ذكر الطنطاوي: المتأمل في هذه السورة الكريمة، يرى أن من أبرز ما اهتمت بالحديث عنه ما يأتي:

- بيان أنواع الناس في هذه الحياة، وعاقبة كل نوع.
- إقامة الأدلة على وحدانية الله تعالى وعلى أن البعث حق بأسلوب منطقي واضح يُقنع العقول ويهدي القلوب.
- الحديث المفصل عن فريضة الحج، وما اشتملت عليه هذه الفريضة من منافع وآداب وأحكام.
- المقارنة بين مصير المؤمنين ومصير الكافرين.
- بيان سنن الله في خلقه، والتي من أعظمها: دفاعه عن المؤمنين، ونصره لهم.
- يمتاز أسلوب السورة في مجموعه بالقوة والعنف، والشدة والرهبة، والإنذار والتحذير، وغرس التقوى في القلوب بأسلوب تخشع له النفوس.

يَوْمَ تَرَوْنَهَا تَذْهَلُ كُلُّ مُرْضِعَةٍ عَمَّا أَرْضَعَتْ وَتَضَعُ كُلُّ ذَاتِ حَمْلٍ حَمْلَهَا وَتَرَى النَّاسَ سُكَارَى وَمَا هُم بِسُكَارَى وَلَكِنَّ عَذَابَ اللَّهِ شَدِيدٌ ﴿٢﴾

تشير هذه الآية إلى الإرضاع وإلى الحمل، وهما مرحلتان أساسيتان في تنشئة المولودين حديثاً، ورغم شدة التصاق المرضعة بمن ترضعه والحامل بما تحمله في بطنها، إلا أن شدة الذهول مما يراه الناس من زلزلة الساعة أكبر؛ فتراهم كأنهم سكارى.

والإرضاع مهنة تمتهنها بعض النسوة.

يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِن كُنتُمْ فِي رَيْبٍ مِّنَ الْبَعْثِ فَإِنَّا خَلَقْنَاكُم مِّن تُرَابٍ ثُمَّ مِن نُّطْفَةٍ ثُمَّ مِنْ عَلَقَةٍ ثُمَّ مِن مُّضْغَةٍ مُّخَلَّقَةٍ وَغَيْرِ مُخَلَّقَةٍ لِّنُبَيِّنَ لَكُمْ ۚ وَنُقِرُّ فِي الْأَرْحَامِ مَا نَشَاءُ إِلَىٰ أَجَلٍ مُّسَمًّى ثُمَّ نُخْرِجُكُمْ طِفْلًا ثُمَّ لِتَبْلُغُوا أَشُدَّكُمْ ۖ وَمِنكُم مَّن يُتَوَفَّىٰ وَمِنكُم مَّن يُرَدُّ إِلَىٰ أَرْذَلِ الْعُمُرِ لِكَيْلَا يَعْلَمَ مِن بَعْدِ عِلْمٍ شَيْئًا ۚ وَتَرَى الْأَرْضَ هَامِدَةً فَإِذَا أَنزَلْنَا عَلَيْهَا الْمَاءَ اهْتَزَّتْ وَرَبَتْ وَأَنبَتَتْ مِن كُلِّ زَوْجٍ بَهِيجٍ ﴿٥﴾

يُخاطب الله الناس المشككين في بعثهم ثانية، بأن مراحل خلقهم تمت كما توضحها الآية الكريمة، أليس في الأرض ما يشير لذلك؟ حيث تكون هامدة لا حياة فيها، ثم بنزول المطر إذ هي تحيا وتزداد، وتُنبت من كل زوج مما يُبهج النفوس، وهذا مثال يتكرر أمامكم كل حين، وما بعثكم إلا كذلك.

وَأَذِّن فِي النَّاسِ بِالْحَجِّ يَأْتُوكَ رِجَالاً وَعَلَىٰ كُلِّ ضَامِرٍ يَأْتِينَ مِن كُلِّ فَجٍّ عَمِيقٍ ﴿٢٧﴾

تدعو هذه الآية الكريمة إبراهيم عليه السلام لإعلان الدعوة إلى الحج لزيارة البيت العتيق، وفعلاً أتاهما الناس من كل فج عميق.

وها هي مواسم الحج والعمرة عامرة منذ أن فُرض الحج على المسلمين وحتى قيام الساعة، وتشكل هذه المواسم اقتصاداً لتلك الأماكن المقصودة.

وهي بمثابة هجرة مؤقتة وسياحة دينية.

لِّيَشْهَدُوا مَنَافِعَ لَهُمْ وَيَذْكُرُوا اسْمَ اللَّهِ فِي أَيَّامٍ مَّعْلُومَاتٍ عَلَىٰ مَا رَزَقَهُم مِّن بَهِيمَةِ الْأَنْعَامِ ۖ فَكُلُوا مِنْهَا وَأَطْعِمُوا الْبَائِسَ الْفَقِيرَ ﴿٢٨﴾

تلك المواسم تمتد لفترة محدودة، لا بأس أن يتاجر الحجاج والمعتمرين في رحلتهم ليشهدوا منافع لهم، ويذكروا الله تعالى فيها، على ما رزقهم من الأنعام والحيوانات التي هي طعام لهم، فليأكلوا منها ولا ينسوا إطعام الفقراء منها. وبهذه الآية يقوم اقتصاد الحج، وهو اقتصاد هجرة وسياحة.

وبذلك امتزجت عبادة الحج مع التجارة المباحة، وأبيح للحجاج والمعتمرين أكل الذبائح من الحيوانات، وبإِطعامهم للفقراء فإِنهم يساعدونهم في سد حاجة الجوع لديهم.

ذكر القرطبي: اختلف العلماء في الادخار على أربعة أقوال:

- رُوي عن علي، وابن عمر رضي الله عنهم من وجه صحيح أنه لا يُدخر من الضحايا بعد ثلاث.
- وقالت جماعة: ما رُوي من النهي عن الادخار منسوخ؛ فيَّدخر إلى أي وقت أحب، وبه قال أبو سعيد الخدري وبريدة الأسلمي.
- وقالت فرقة: يجوز الأكل منها مطلقاً.
- وقالت طائفة: إن كانت بالناس حاجة إليها فلا يدخر، لأن النهي إنما كان لعلة.

وذُكر أيضاً: وأطعموا البائس الفقير، الفقير من صفة البائس، وهو الذي ناله البؤس وشدة الفقر؛ يقال: بئس يبأس بأساً إذا افتقر؛ فهو بائس. وقد

يُستعمل فيمن نزلت به نازلة دهر وإن لم يكن فقيراً ... وكلما كان التصدق بلحم الأضحية أكثر كان الأجر أوفر. وفي القدر الذي يجوز أكله؛ خلافٌ قد ذكرناه؛ فقيل النصف؛ لقوله: ﴿فكلوا﴾، ﴿وأطعموا﴾ وقيل الثلثان؛ لقوله صلى الله عليه وسلم: ألا فكلوا، وادخروا، واتجروا أي اطلبوا الأجر بالإطعام. واختلف في الأكل والإطعام؛ فقيل واجبان. وقيل مستحبان. وقيل بالفرق بين الأكل والإطعام؛ فالأكل مستحب والإطعام واجب؛ وهو قول الشافعي.

ذَٰلِكَ وَمَن يُعَظِّمْ حُرُمَاتِ اللَّهِ فَهُوَ خَيْرٌ لَّهُ عِندَ رَبِّهِ ۗ وَأُحِلَّتْ لَكُمُ الْأَنْعَامُ إِلَّا مَا يُتْلَىٰ عَلَيْكُمْ ۖ فَاجْتَنِبُوا الرِّجْسَ مِنَ الْأَوْثَانِ وَاجْتَنِبُوا قَوْلَ الزُّورِ ﴿٣٠﴾

أُحلّت الأنعام للناس؛ إلا ما سُمي عليها غيرُ الله من الخبائث والأوثان وغيرها؛ فعلى الناس اجتناب الأوثان، وقول الزور لأنه يُضيّع الحقوق بينهم، ومن الزور أن يعيد الإنسان الفضل لغير الله تعالى.

ذكر ابن كثير: ﴿ومن يعظم حرمات الله﴾؛ أي: ومن يجتنب معاصيه ومحارمه ويكون ارتكابها عظيما في نفسه، ﴿فهو خير له عند ربه﴾

أي: فله على ذلك خير كثير وثواب جزيل، فكما على فعل الطاعات ثواب جزيل وأجر كبير، وكذلك على ترك المحرمات واجتناب المحظورات.

قال ابن جُريج: قال مجاهد في قوله: ﴿ ذلك ومن يعظم حرمات الله ﴾ قال: الحرمة: مكة والحج والعمرة، وما نهى الله عنه من معاصيه كلها.

﴿ وَلِكُلِّ أُمَّةٍ جَعَلْنَا مَنسَكًا لِّيَذْكُرُوا اسْمَ اللَّهِ عَلَىٰ مَا رَزَقَهُم مِّن بَهِيمَةِ الْأَنْعَامِ ۗ فَإِلَٰهُكُمْ إِلَٰهٌ وَاحِدٌ فَلَهُ أَسْلِمُوا ۗ وَبَشِّرِ الْمُخْبِتِينَ (٣٤) الَّذِينَ إِذَا ذُكِرَ اللَّهُ وَجِلَتْ قُلُوبُهُمْ وَالصَّابِرِينَ عَلَىٰ مَا أَصَابَهُمْ وَالْمُقِيمِي الصَّلَاةِ وَمِمَّا رَزَقْنَاهُمْ يُنفِقُونَ (٣٥) ﴾

قد جعل الله لكل أمة مَنسكاً يذكروا اسمه على ما رزقهم من بهيمة الأنعام، وإله الخلق واحد، له يُسلم الناس والبشرى لمن أخبت وخضع لله وأطاعه، وصفاتهم:

- قلوبهم تخشع عند ذكر الله وهم صابرون على ما أصابهم من بلاء،
- يقيمون الصلاة ومما رزقهم الله تعالى ينفقون.

إن من شعائر الحج الذبح لله تعالى، ومَنْ ذَبح لغيره أو سَّمى غيره على الذبح فقد أشرك مع الله غيره، ولا تحل الذبائح التي سُميّ غير الله عليها.

وتوزع الذبائح في مواسم الحجيج على الفقراء من سكان مكة والمدينة وعلى فقراء العالم الإسلامي لتشبع بعض حاجاتهم الأساسية.

ذكر الطبري: ﴿وَمِمَّا رَزَقْنَاهُمْ﴾ من الأموال ﴿يُنْفِقُونَ﴾ في الواجب عليهم إنفاقها فيه، في زكاة ونفقة عيال ومن وجبت عليه نفقته وفي سبيل الله.

ذكر ابن كثير: المؤدين حق الله فيما أوجب عليهم من أداء فرائضه، ﴿ومما رزقناهم ينفقون﴾؛ أي: وينفقون ما آتاهم الله من طيب الرزق على أهليهم وأرقائهم وقراباتهم، وفقرائهم ومحاويجهم، ويحسنون إلى خلق الله مع محافظتهم على حدود الله.

ذكر السعدي:

﴿الَّذِينَ إِذَا ذُكِرَ اللَّهُ وَجِلَتْ قُلُوبُهُمْ﴾؛ أي: خوفاً وتعظيماً، فتركوا لذلك المحرمات، لخوفهم ووجلهم من الله وحده.

﴿وَالصَّابِرِينَ عَلَى مَا أَصَابَهُمْ﴾؛ من البأساء والضراء، وأنواع الأذى، فلا يجري منهم التسخط لشيء من ذلك، بل صبروا ابتغاء وجه ربهم، محتسبين ثوابه، مرتقبين أجره،

﴿وَالْمُقِيمِي الصَّلَاةِ﴾؛ أي: الذين جعلوها قائمة مستقيمة كاملة، بأن أدوا اللازم فيها والمستحب، وعبوديتها الظاهرة والباطنة.

﴿ وَمِمَّا رَزَقْنَاهُمْ يُنْفِقُونَ ﴾ وهذا يشمل جميع النفقات الواجبة، كالزكاة، والكفارة، والنفقة على الزوجات والمماليك، والأقارب، والنفقات المستحبة، كالصدقات بجميع وجوهها، وأتي بـ ﴿ من ﴾ المفيدة للتبعيض، ليعلم سهولة ما أمر الله به ورغب فيه، وأنه جزء يسير مما رزق الله، ليس للعبد في تحصيله قدرة، لولا تيسير الله له ورزقه إياه. فيا أيها المرزوق من فضل الله، أنفق مما رزقك الله، يُنفق الله عليك، ويزدك من فضله.

وَالْبُدْنَ جَعَلْنَاهَا لَكُم مِّن شَعَائِرِ اللَّهِ لَكُمْ فِيهَا خَيْرٌ فَاذْكُرُوا اسْمَ اللَّهِ عَلَيْهَا صَوَافَّ فَإِذَا وَجَبَتْ جُنُوبُهَا فَكُلُوا مِنْهَا وَأَطْعِمُوا الْقَانِعَ وَالْمُعْتَرَّ كَذَٰلِكَ سَخَّرْنَاهَا لَكُمْ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ (٣٦)

إن الله خلق الأنعام للناس وسخرها لهم لتكون من طعامهم، بينّ لهم المولى طريقة ذبحها بالتسمية عليها (بسم الله)، ثم تقام على قوائمها الأربع، ثم تُعقل يدها اليسرى، ثم تُنحر؛ فإن سقطت على الأرض جنوبها، تسلخ، ثم يُسقِط الجزار جنوبها على الأرض. وبهذا تنظيم وتعليم لكيفية الذبح بطريقة شرعية وقد ثبت طبياً فوائد ذلك.

يأكل من هذه الذبيحة أصحابها، ويُطعمون منها الفقير الذي يسأل والفقير الذي يتعفف عن السؤال.

إن شكر الله يكون بحمده وببذل الطعام لعباده الفقراء والمحتاجين، ليعيش الجميع في منأى عن الجوع والحاجة، وهذا السلوك مؤداه إشباع حاجات الفقراء الأساسية مما يسمح لهم بتوجيه ما كان مخصصاً لهذا الإنفاق لإشباع حاجات أخرى.

﴿لَن يَنَالَ اللَّهَ لُحُومُهَا وَلَا دِمَاؤُهَا وَلَٰكِن يَنَالُهُ التَّقْوَىٰ مِنكُمْ ۚ كَذَٰلِكَ سَخَّرَهَا لَكُمْ لِتُكَبِّرُوا اللَّهَ عَلَىٰ مَا هَدَاكُمْ ۗ وَبَشِّرِ الْمُحْسِنِينَ﴾ ٣٧

لا يصل لله تعالى شيء من دماء أو لحوم هذه الذبائح بل يناله سبحانه وتعالى التقوى والاخلاص، فالقصد من هذا العمل هو وجه الله وحده، دون أي فخر أو رياء أو سمعة. وهذا ليس عادة من العادات، وهكذا هو حال سائر العبادات.

ينال الله تعالى الحمد والثناء على هدايته للناس.

ذكر القرطبي: كذلك سخرها لكم منه سبحانه علينا بتذليلها وتمكيننا من تصريفها وهي أعظم منا أبدانا وأقوى منا أعضاء، ذلك ليعلم العبد أن

الأمور ليست على ما تظهر إلى العبد من التدبير، وإنما هي بحسب ما يريدها العزيز القدير، فيغلب الصغير الكبير ليعلم الخلق أن الغالب هو الله الواحد القهار فوق عباده.

﴿الَّذِينَ أُخْرِجُوا مِن دِيَارِهِم بِغَيْرِ حَقٍّ إِلَّا أَن يَقُولُوا رَبُّنَا اللَّهُ ۗ وَلَوْلَا دَفْعُ اللَّهِ النَّاسَ بَعْضَهُم بِبَعْضٍ لَّهُدِّمَتْ صَوَامِعُ وَبِيَعٌ وَصَلَوَاتٌ وَمَسَاجِدُ يُذْكَرُ فِيهَا اسْمُ اللَّهِ كَثِيرًا ۗ وَلَيَنصُرَنَّ اللَّهُ مَن يَنصُرُهُ ۗ إِنَّ اللَّهَ لَقَوِيٌّ عَزِيزٌ ﴿٤٠﴾﴾

إن سنة التدافع هي من سنن الله في الأرض، بها حُفظت دور العبادة على مختلف أشكالها من صوامع وبِيع وصلوات ومساجد.

ذكر الطبري: وأولى الأقوال في ذلك بالصواب أن يُقال: إن الله تعالى ذكره؛ أخبر أنه لولا دفاعه الناس بعضهم ببعض، لهُدم ما ذكر، من دفعه تعالى ذكره بعضهم ببعض، وكفِّه المشركين بالمسلمين عن ذلك؛ ومنه كفه ببعضهم التظالم، كالسلطان الذي كفّ به رعيته عن التظالم بينهم؛ ومنه كفُّه لمن أجاز شهادته بينهم ببعضهم عن الذهاب بحق من له قبله حق، ونحو ذلك. وكلّ ذلك دفع منه الناس بعضهم عن بعض، لولا ذلك لتظالموا؛ فهدم القاهرون صوامع المقهورين وبِيَعهم وما سمّى جل ثناؤه.

ولـم يـضع الله تـعالـى دلالـة فـي عـقل عـلى أنـه عـنى مـن ذلـك بـعضاً دون بعض، ولا جاء بأن ذلك كذلك خبر يجب التسليم له، فذلك على الظاهر والعموم على ما قد بيّنته قبل لعموم ظاهر ذلك جميع ما ذكرنا.

ٱلَّذِينَ إِن مَّكَّنَّٰهُمۡ فِي ٱلۡأَرۡضِ أَقَامُواْ ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتَوُاْ ٱلزَّكَوٰةَ وَأَمَرُواْ بِٱلۡمَعۡرُوفِ وَنَهَوۡاْ عَنِ ٱلۡمُنكَرِۗ وَلِلَّهِ عَٰقِبَةُ ٱلۡأُمُورِ ﴿٤١﴾

إن الـذيـن يـنصرهـم الله ويمـكنُّهم مـن الأرض يُـقيمون لـه الـصلاة، ويـؤتـون الزكاة لمستحقيها من عباده، ويأمرون بالمعروف وينهون عن المنكر.

فالصلاة صلة مع الله تعالى.

والزكاة صلة مع عباده الفقراء والمحتاجين.

أما الأمر بالمعروف ففيه الإصلاح والنصح.

وأما النهي عن المنكر ففيه منع الفساد والإفساد.

وبذلك يكون التمكين مستمراً لأولئك المنصورين.

ذكـر ابـن كـثير: قـال الـصباح بـن سـوادة الـكندي: سـمعت عـمر بـن عـبد الـعزيز يخطب وهـو يـقول: ﴿الـذيـن إن مـكناهـم فـي الأرض﴾ الآيـة، ثـم قال: إلا أنها ليست على الوالي وحده، ولكنها على الوالي والمولى عليه، ألا أنبئكم بما لكم على الوالي من ذلكم، وبما للوالي عليكم منه؟ إن لـكم

على الوالي من ذلكم أن يؤاخذكم بحقوق الله عليكم، وأن يأخذ لبعضكم من بعض، وأن يهديكم للتي هي أقوم ما استطاع، وإن عليكم من ذلك الطاعة غير المبزوزة ولا المستكرهة، ولا المخالف سرها علانيتها.

فَكَأَيِّن مِّن قَرْيَةٍ أَهْلَكْنَاهَا وَهِيَ ظَالِمَةٌ فَهِيَ خَاوِيَةٌ عَلَى عُرُوشِهَا وَبِئْرٍ مُّعَطَّلَةٍ وَقَصْرٍ مَّشِيدٍ (٤٥)

ألا يرى الناس كم أهلك الله من قرية بسبب ظلمها؛ فكانت خاوية متهدمة قد سقطت عروشها وأسقفها وصارت خراباً بعد أن كانت عامرة بأهلها. وكم كان فيها من آبار ماء يشرب الناس منها، كما تشرب أنعامهم، وكم من قصر وبناء شيّده أهله وزخرفوه؛ لكن حينما جاءهم أمر الله، لم يغن عنهم كل ذلك شيئاً؛ فصاروا عِبرة لمن اعتبر.

لقد عدد الله تعالى أسباب الحياة من بناء وماء وقصور لا تغني من الله شيئاً إذا لم يكن أصحابها صالحين كما أمر الله تعالى؛ فالأرض تُعمَّر بعبادة الله، لا بعمارتها المادية وحسب.

ذكر الطبري: يقول تعالى ذكره: وكم يا محمد من قرية أهلكتُ أهلها وهم ظالمون؛ يقول: وهم يعبدون غير من ينبغي أن يُعبد، ويعصون من لا ينبغي لهم أن يعصوه. وقوله: ﴿فَهِيَ خَاوِيَةٌ عَلَى عُرُوشِهَا﴾ يقول: فبادَ

أهلها وخلت، وخوت من سكانها، فخربت وتداعت، وتساقطت على عروشها؛ يعني على بنائها وسقوفها.

ذكر الطنطاوي: وكثير من القرى أهلكناها بسبب ظلمهم وكفرهم، فإذا ما نظرت إليها وجدتها خالية من أهلها، وقد سقطت سقوفها على جدرانها. وكثير من الآبار التي كانت تتفجر بالماء عطلناها وصارت مهجورة، وكثير أيضاً من القصور المشيّدة الفخمة أخليناها من أهلها.

أَفَلَمْ يَسِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَتَكُونَ لَهُمْ قُلُوبٌ يَعْقِلُونَ بِهَا أَوْ آذَانٌ يَسْمَعُونَ بِهَا فَإِنَّهَا لَا تَعْمَى الْأَبْصَارُ وَلَكِن تَعْمَى الْقُلُوبُ الَّتِي فِي الصُّدُورِ ﴿٤٦﴾

يدعو الله الناس للاعتبار في السير في الأرض مستخدمين ما وهبهم من سمع وبصر وعقل ليتدبروا حال من سبقهم فيعتبروا فلا يكررون أخطاءهم، لكن العيب لا يقتصر على عمى البصر بل بعمى البصيرة. فآثار سبأ وفرعون وعاد وثمود وغيرهم ما زالت في الأرض تدلُّ على وجودهم يُبصرها كل صاحب عين، وقد ذكرهم الله كقصص ليكون الناس واعِين متنبهين يسمعها كل صاحب أذن، لكن إذا عميت البصيرة فلا وسيلة السمع ولا وسيلة البصر تنفع، لأن القلب قد أعماه الكفر.

ذكر الطبري: يقول تعالى ذكره: أفلم يسيروا هؤلاء المكذّبون بآيات الله والجاحدون قدرته في البلاد؛ فينظروا إلى مصارع ضربائهم من مكذّبي رسل الله الذين خلوْا من قبلهم؛ كعاد وثمود وقوم لوط وشعيب، وأوطانهم ومساكنهم، فيتفكّروا فيها ويعتبروا بها ويعلموا بتدبرهم أمرها وأمر أهلها، سنة الله فيمن كفر وعبدَ غيره وكذّب رسله، فيُنيبوا من عتوّهم وكفرهم، ويكون لهم إذا تدبروا ذلك، واعتبروا به وأنابوا إلى الحقّ ﴿قُلُوبٌ يَعْقِلُونَ بِهَا﴾؛ حجج الله على خلقه وقدرته على ما بيَّنا ﴿أَوْ آذَانٌ يَسْمَعُونَ بِهَا﴾؛ يقول: أو آذان تصغي لسماع الحقّ فتعي ذلك وتميز بينه وبين الباطل. وقوله: ﴿فَإِنَّهَا لا تَعْمَى الأَبْصَارُ﴾ يقول: فإنها لا تعمى أبصارهم أن يُبصروا بها الأشخاص ويروها، بل يُبصرون ذلك بأبصارهم؛ ولكن تعمى قلوبهم التي في صدورهم عن أنصار الحق ومعرفته.

وَيَسْتَعْجِلُونَكَ بِالْعَذَابِ وَلَن يُخْلِفَ اللَّهُ وَعْدَهُ وَإِنَّ يَوْمًا عِندَ رَبِّكَ كَأَلْفِ سَنَةٍ مِّمَّا تَعُدُّونَ ﴿٤٧﴾

يعلمنا الله أنظمة عدّ جديدة على الإنسانية؛ فأُسُّها ليس العشرة بل الألف، فكل سنة تعدل ألف سنة مما يُعدُّ البشر. إن أنظمة العدّ عند

البشر مرتبطة بدوران الأرض والقمر لأنهما خلقا ليساعدا الناس، ومن ذلك معرفتهم العدِّ والحساب ومعرفة الشهور الإثني عشر؛ كما ذكر الله تعالى في غير آية.

وَكَأَيِّن مِّن قَرْيَةٍ أَمْلَيْتُ لَهَا وَهِيَ ظَالِمَةٌ ثُمَّ أَخَذْتُهَا وَإِلَيَّ الْمَصِيرُ ﴿٤٨﴾

القرى الظالمة جميعها أو أغلبها مصيرها التدمير؛ فالله تعالى يُملي لها ويُمهلها؛ فإن لم تعتبر بكل ما سبق بيانه، أُخذت بظلم أهلها، ثم مصير حسابها عند الله تعالى.

ذكر ابن عاشور: هذه الآية القصد منها التذكير بأنّ تأخير الوعيد لا يقتضي إبطاله، ولذلك اقتصر فيها على ذكر الإمهال ثم الأخذِ بعده المناسب للإملاء من حيث إنه دخول في القَبْضَة بعد بُعدِه عنها.

قُلْ يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِنَّمَا أَنَا لَكُمْ نَذِيرٌ مُّبِينٌ ﴿٤٩﴾

لقد أمر الله تعالى رسوله صلى الله عليه وسلم وغيره من الرسل إنذار الناس بلغتهم والتبيين لهم ليكون شاهداً عليهم؛ فصارت الرسل مُذكّرة للناس؛ ليؤمنوا بالله، وليبتعدوا عن الكفر، شأنهم شأن الآثار التي تركتها الأقوام الغابرة، وشأنهم شأن القصص التي رويت لهم عنهم.

ذكر ابن عاشور: والغرض من خطابهم إعلامهم بأن تكذيبهم واستهزاءهم لا يَغيظ النبي صلى الله عليه وسلم ولا يصدّه عن أداء رسالته، ففي ذلك قمع لهم إذ كانوا يحسبون أنهم بتكذيبهم واستهزائهم يمِلّونه فيترك دعوتهم، وفيه تثبيت للنبي وتسلية له فيما يلقاه منهم.

وقصر النبي على صفة النذارة قصر إضافي؛ أي لستُ طالباً نكايتكم ولا تزلفاً إليكم فمن آمن فلنفسه ومن عميَ فعليها.

فَالَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ لَهُم مَّغْفِرَةٌ وَرِزْقٌ كَرِيمٌ (٥٠)
وَالَّذِينَ سَعَوْا فِي آيَاتِنَا مُعَاجِزِينَ أُولَٰئِكَ أَصْحَابُ الْجَحِيمِ (٥١)

الناس صنفان؛ مؤمن، وغير مؤمن، الصنف الأول في رحمة الله والصنف الآخر في الجحيم. صفات الصنف الأول: إيمانهم بالله وهو إيمان غيبي، وعملهم للصالحات وهذا تأكيد ولإثبات لإيمانهم الغيبي، عندئذ سيكون لهم المغفرة، وسيكون لهم الرزق الكريم.

ذكر الطنطاوي: ﴿وَالَّذِينَ سَعَوْاْ فِي آيَاتِنَا مُعَاجِزِينَ﴾؛ أي: والذين بذلوا كل جهودهم في إبطال آياتنا الدالة على وحدانيتنا وقدرتنا وصدق رسلنا، وأسرعوا في تكذيبها وغالبوا المؤمنين وعارضوهم ليُظهروهم بمظهر العاجز عن الدفاع عن دينهم وعن عقيدتهم. أُولئِكَ الموصوفون بهذا

السعي الأثيم ﴿أَصْحَابُ الْجَحِيمِ﴾؛ أي: الملازمون للنار المتأججة ملازمة المالك لما يملكه.

﴿وَالَّذِينَ هَاجَرُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ ثُمَّ قُتِلُوا أَوْ مَاتُوا لَيَرْزُقَنَّهُمُ اللَّهُ رِزْقاً حَسَناً وَإِنَّ اللَّهَ لَهُوَ خَيْرُ الرَّازِقِينَ (٥٨) لَيُدْخِلَنَّهُم مُّدْخَلاً يَرْضَوْنَهُ وَإِنَّ اللَّهَ لَعَلِيمٌ حَلِيمٌ (٥٩)﴾

تشير هذه الآية إلى اقتصاد الهجرة، فبعض الناس ممن ضُيِّق عليهم يُهاجرون من مكان لآخر هرباً بدينهم، وقد وعدهم الله الرزق الحَسن؛ لأنه الرزاق بل هو خير الرازقين، وفي هذا دعوة للسياحة والهجرة في أرض الله للمحافظة على الإيمان به. وقد وعد الله المهاجرين بالفتح والتمكين والرضا.

ذكر السعدي: هذه بُشارة كبرى، لمن هاجر في سبيل الله، فخرج من داره ووطنه وأولاده وماله، ابتغاء وجه الله، ونصرة لدين الله، فهذا قد وجب أجره على الله، سواء مات على فراشه، أو قتل مجاهدا في سبيل الله، ... ويحتمل أن المعنى أن المهاجر في سبيل الله، قد تكفل برزقه في الدنيا، رزقاً واسعاً حسناً، سواء علم الله منه أنه يموت على فراشه، أو يُقتل شهيداً، فالرزق مضمون لهم جميعاً، فلا يتوهم أنه إذا خرج من دياره

وأمواله، سيفتقر ويحتاج، فإن رازقه هو خير الرازقين، وقد وقع كما أخبر، فإن المهاجرين السابقين، تركوا ديارهم وأبناءهم وأموالهم، نصرة لدين الله، فلم يلبثوا إلا يسيراً، حتى فتح الله عليهم البلاد، ومكّنهم من العباد فاجتبوا من أموالها، ما كانوا به من أغنى الناس.

﴿أَلَمْ تَرَ أَنَّ اللَّهَ أَنزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَتُصْبِحُ الْأَرْضُ مُخْضَرَّةً ۗ إِنَّ اللَّهَ لَطِيفٌ خَبِيرٌ ﴿٦٣﴾﴾

إن الله تعالى هو منزل الماء من السماء وليس من أحد غيره يفعل ذلك، فإن نزل الماء على الأرض اخضرّت وازهرّت وهذا من لطف الله.

ذكر السعدي: اللطيف الذي يدرك بواطن الأشياء، وخفياتها، وسرائرها، الذي يسوق إلى عبده الخير، ويدفع عنه الشر بطرق لطيفة تخفى على العباد، ومن لطفه، أنه يري عبده، عزته في انتقامه وكمال اقتداره، ثم يظهر لطفه بعد أن أشرف العبد على الهلاك، ومن لطفه، أنه يعلم مواقع القطر من الأرض، وبذور الأرض في باطنها، فيسوق ذلك الماء إلى ذلك البذر، الذي خفي على علم الخلائق فينبت منه أنواع النبات.

﴿لَّهُ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ ۗ وَإِنَّ اللَّهَ لَهُوَ الْغَنِيُّ الْحَمِيدُ ﴿٦٤﴾﴾

إن حقيقة الأمر أن كل شيء مُلكٌ لله تعالى، وأنه غني عن الغير وحميد في ذاته وفي أسمائه.

ذكر السعدي: ﴿وَإِنَّ اللَّهَ لَهُوَ الْغَنِيُّ﴾ بذاته الذي له الغنى المطلق التام، من جميع الوجوه، ومن غناه، أنه لا يحتاج إلى أحد ممن خلقه، ولا يواليهم من ذلة، ولا يتكثر بهم من قلة، ومن غناه، أنه ما اتخذ صاحبة ولا ولداً، ومن غناه، أنه صَمَدٌ، لا يأكل ولا يشرب، ولا يحتاج إلى ما يحتاج إليه الخلق بوجه من الوجوه، فهو يُطعِم ولا يُطعَم، ومن غِناه، أن الخلق كلهم مفتقرون إليه، في إيجادهم، وإعدادهم وإمدادهم، وفي دينهم ودنياهم، ومن غناه، أنه لو اجتمع من في السماوات ومن في الأرض، الأحياء منهم والأموات، في صعيد واحد، فسأل كل منهم ما بلغت أمنيته، فأعطاهم فوق أمانيهم، ما نقص ذلك من ملكه شيء، ومن غناه، أن يده سحاء بالخير والبركات، الليل والنهار.

أَلَمْ تَرَ أَنَّ اللَّهَ سَخَّرَ لَكُم مَّا فِي الْأَرْضِ وَالْفُلْكَ تَجْرِي فِي الْبَحْرِ بِأَمْرِهِ وَيُمْسِكُ السَّمَاءَ أَن تَقَعَ عَلَى الْأَرْضِ إِلَّا بِإِذْنِهِ ۗ إِنَّ اللَّهَ بِالنَّاسِ لَرَءُوفٌ رَّحِيمٌ ﴿٦٥﴾

ولأنه المالك، فقد سخر للناس كل ما في الأرض، وما في البحر، كالسفن التي تجري بأمره، ويُمسك السماء التي تُظلل الأرض وتحفظها، وتهيئ العيش الآمن لأهلها دون أن تقع على الأرض إلا بإذنه سبحانه وتعالى.

ذكر السعدي: جميع ما في الأرض، مسخر لبني آدم، حيواناتها لركوبه، وحمله وأعماله وأكله وأنواع انتفاعه، وأشجارها وثمارها يقتاتها، وقد سُلِّط على غرسها واستغلالها، ومعادنها يستخرجها وينتفع بها، ﴿وَالْفُلْكِ﴾؛ أي: وسخر لكم الفلك، وهي السفن، ﴿تَجْرِي فِي الْبَحْرِ بِأَمْرِهِ﴾؛ تحملكم وتحمل تجاراتكم وتوصلكم من محل إلى محل، وتستخرجون من البحر حلية تلبسونها.

يَا أَيُّهَا النَّاسُ ضُرِبَ مَثَلٌ فَاسْتَمِعُوا لَهُ ۚ إِنَّ الَّذِينَ تَدْعُونَ مِن دُونِ اللَّهِ لَن يَخْلُقُوا ذُبَابًا وَلَوِ اجْتَمَعُوا لَهُ ۖ وَإِن يَسْلُبْهُمُ الذُّبَابُ شَيْئًا لَّا يَسْتَنقِذُوهُ مِنْهُ ۚ ضَعُفَ الطَّالِبُ وَالْمَطْلُوبُ ﴿٧٣﴾

ضرب الله تعالى للناس مثالاً مُبسطاً؛ إن من تعبدونه من دون الله ليس لديه القدرة على خلق الذباب حتى لو اجتمع كل من تعبدونه من دون الله على ذلك. لقد سلبهم هذا الذباب كل قدرة، مع أن الطالب ممن

تعبدونه من دون الله والمطلوب؛ أي الذباب، هم أضعف وأحقر الأشياء في الأرض.

وهذا إنما ليستدل عُبّاد الأوثان وعُبّاد غير الله سُخف عقولهم وقُبح فعالهم.

(وإنه من بين آلاف التجارب الرامية إلى إنتاج ذباب الفاكهة التي تم إجراؤها في جميع أنحاء العالم لأكثر من خمسين عاماً، لم يتم إنتاج ولا أنزيم ذبابة)[1].

ذكر القرطبي: خص الذباب لأربعة أمور تخصه: لمهانته، وضعفه، ولاستقذاره، وكثرته؛ فإذا كان هذا الذي هو أضعف الحيوان وأحقره لا يقدر من عبدوه من دون الله عز وجل على خلق مثله ودفع أذيته فكيف يجوز أن يكونوا آلهة معبودين وأربابا مطاعين؟

وهذا من أقوى حجة وأوضح برهان.

وَجَاهِدُوا فِي اللَّهِ حَقَّ جِهَادِهِ ۚ هُوَ اجْتَبَاكُمْ وَمَا جَعَلَ عَلَيْكُمْ فِي الدِّينِ مِنْ حَرَجٍ ۚ مِّلَّةَ أَبِيكُمْ إِبْرَاهِيمَ ۚ هُوَ سَمَّاكُمُ الْمُسْلِمِينَ مِن قَبْلُ وَفِي هَٰذَا لِيَكُونَ الرَّسُولُ شَهِيداً عَلَيْكُمْ وَتَكُونُوا شُهَدَاءَ عَلَى

[1] مرجع سابق، بورباب.

النَّاسِ ۚ فَأَقِيمُوا الصَّلَاةَ وَآتُوا الزَّكَاةَ وَاعْتَصِمُوا بِاللَّهِ هُوَ مَوْلَاكُمْ ۖ فَنِعْمَ الْمَوْلَىٰ وَنِعْمَ النَّصِيرُ ﴿٧٨﴾

لم يفرض الله تعالى على الإنسان ما لا يطيق، ولم يطلب منه أكثر مما يحتمل، وعفا عليه ذلك.

طُلب من الإنسان إقامة الصلاة صلة بينه وبين ربه، وإيتاء الزكاة صلة بينه وبين عباد الله، وطُلب منه الاعتصام بحبل الله بوصفه المولى والسيد والمنعم والنصير، ليتقوى الإنسان بربه؛ فلا يضعف.

ذكر الطنطاوي: من مظاهر رحمته بكم أيها المؤمنون أنه سبحانه لم يشرع في هذا الدين الذي تدينون به ما فيه مشقة بكم، أو ضيق عليكم: وإنما جعل أمر هذا الدين، مبني على اليسر والتخفيف ورفع الحرج، ومن قواعده التي تدل على ذلك: أن الضرر يزال. وأن المشقة تجلب التيسير: وأن اليقين لا يرفع بالشك، وأن الأمور تتبع مقاصدها، وأن التوبة الصادقة النصوح تجب ما قبلها من ذنوب.

قال بعض العلماء: وأنت خبير بأن هناك فرقاً كبيراً، بين المشقة في الأحكام الشرعية، وبين الحرج والعُسر فيها؛ فإن الأولى حاصلة وقلما يخلو منها تكليف شرعي، إذ التكليف هو التزام ما فيه كلفة ومشقة، أما المشقة الزائدة عن الحد التي تصل إلى حد الحرج، فهي المرفوعة عن

المكلفين. فقد فرض الله الصلاة على المكلف، وأوجب عليه أداءها، وهذا شيء لا حرج فيه. ثم هو إذا لم يستطع الصلاة من قيام، فله أن يؤديها وهو قاعد أو بالإِيماء، وهكذا جميع التكاليف الشرعية.

إن هذا الدين الذي جاءنا به محمد صلّى الله عليه وسلّم من عند ربه عز وجل مبني على التخفيف والتيسير، لا على الضيق والحرج، والذين يجدون فيه ضِيقاً وحرجاً، هم الناكبون عن هديه، الخارجون على تعاليمه.

تفسير سورة المؤمنون

رقم السورة: ٢٣ وهي مكية وعدد آياتها: ١١٨.

ذكر الطنطاوي: سورة «المؤمنون» قد طوفت بنا في آفاق من شأنها أن تغرس الإيمان في القلوب، وأن تهدي النفوس إلى ما يُسعدها في دينها ودنياها.

وَالَّذِينَ هُمْ لِلزَّكَاةِ فَاعِلُونَ ﴿٤﴾

من صفات المؤمنين أنهم مؤدون لزكاة أموالهم، على اختلاف أجناس أموالهم، وهذا من الإحسان إلى خلق الله تعالى، لذلك هم محبوبون للناس لا يبغضونهم أبداً.

ذكر ابن كثير: الأكثرون على أن المراد بالزكاة هاهنا زكاة الأموال، مع أن هذه الآية مكية، وإنما فرضت الزكاة بالمدينة في سنة اثنتين من الهجرة.

والظاهر أن التي فرضت بالمدينة إنما هي ذات النصب والمقادير الخاصة، وإلا فالظاهر أن أصل الزكاة كان واجباً بمكة ...

وقد يحتمل أن يكون المراد بالزكاة هاهنا: زكاة النفس من الشرك والدنس، كقوله: قد أفلح من زكاها ﴿٩﴾ وقد خاب من دساها

﴿ ١٠ ﴾ الشمس، وكقوله: وويل للمشركين ﴿ ٦ ﴾ الذين لا يؤتون الزكاة ﴿ ٧ ﴾ فصلت، على أحد القولين في تفسيرها.

وقد يحتمل أن يكون كلا الأمرين مُراداً، وهو زكاة النفوس وزكاة الأموال؛ فإنه من جملة زكاة النفوس، والمؤمن الكامل هو الذي يتعاطى هذا وهذا.

وَالَّذِينَ هُمْ لِأَمَانَاتِهِمْ وَعَهْدِهِمْ رَاعُونَ ﴿٨﴾

من صفات المؤمنين أنهم يحفظون الأمانة فلا يُضيّعونها؛ يصونون العهد ويرعونه حق رعايته، لذلك هم مأمونو الجانب لا خيانة من طرفهم أبداً.

وتفشّي الأمانة في الأسواق يزيد من ثقة الناس بها وولائهم لها، وهذا مما يُعزز الثقة بتلك الأسواق.

ذكر السعدي: جميع ما أوجبه الله على عبده أمانة، على العبد حفظها بالقيام التام بها، وكذلك يدخل في ذلك أمانات الآدميين، كأمانات الأموال والأسرار ونحوهما، فعلى العبد مراعاة الأمرين، وأداء الأمانتين، وكذلك العهد، يشمل العهد الذي بينهم وبين ربهم والذي بينهم وبين العباد، وهي الالتزامات والعقود، التي يعقدها العبد، فعليه مراعاتها والوفاء بها، ويحرم عليه التفريط فيها وإهمالها.

﴿وَأَنزَلْنَا مِنَ السَّمَاءِ مَاءً بِقَدَرٍ فَأَسْكَنَّاهُ فِي الْأَرْضِ ۖ وَإِنَّا عَلَىٰ ذَهَابٍ بِهِ لَقَادِرُونَ ۝١٨﴾

الله منزل الماء مطراً من السماء، ومُسكنه، وخَازنه في الأرض، وهو القادر على ذهابه ومَحقه، فكم هي كبيرة وضخمة دورة الماء في الأرض؟ قد جعل الله له خزائن تُخزنه بأشكال عديدة تحفظ خواصه نظيفاً ويُبقيه صالحاً لشرب الإنسان بلا طعم وبلا لون وبلا رائحة رغم الدورة الطويلة التي يقضيها بين السماء والأرض. وهذا من قدرة الله تعالى وفضله على الإنسان. ولو قارن الإنسان ما يتكلفه من وقت وجهد لتحلية ماء البحر ليكون صالحاً للشرب؛ لعلم قدرة الله تعالى الذي يخلق من العدم وماء البحر مما خلق الله تعالى.

وحسبما يذكر مزارعون في مدينتنا (حماة) وهي مدينة يغلب عليها الاقتصاد الزراعي؛ أنه إذا تأخر نزول المطر، اضطروا لسقاية أراضيهم بوسائل مختلفة مما يُكلفهم حوالي عشرة آلاف دولار للموسم الواحد.

ذكر ابن كثير: يذكر تعالى نعمه على عبيده التي لا تُعد ولا تُحصى، في إنزاله القَطْر من السماء ﴿بقدر﴾؛ أي: بحسب الحاجة، لا كثيراً فيفسد الأرض والعمران، ولا قليلاً فلا يكفي الزروع والثمار، بل بقدر الحاجة إليه من السقي والشرب والانتفاع به، حتى إن الأراضي التي تحتاج ماء كثيراً

لزرعها ولا تحتمل دمنتها إنزال المطر عليها، يسوق إليها الماء من بلاد أخرى، كما في أرض مصر، ويقال لها: "الأرض الجرز"، يسوق الله إليها ماء النيل معه طين أحمر يجترفه من بلاد الحبشة في زمان أمطارها، فيأتي الماء يحمل طيناً أحمر، فيسقي أرض مصر، ويُقرّ الطين على أرضهم ليزرعوا فيه، لأن أرضهم سِباخ يغلب عليها الرمال، فسُبحان اللطيف الخبير الرحيم الغفور.

ذكر السعدي: ﴿وَأَنْزَلْنَا مِنَ السَّمَاءِ مَاءً﴾: يكون رزقاً لكم ولأنعامكم بقدر ما يكفيكم، فلا يُنقصه، بحيث لا يكفي الأرض والأشجار، فلا يحصل منه المقصود، ولا يزيده زيادة لا تحتمل، بحيث يتلف المساكن، ولا تعيش معه النباتات والأشجار، بل أنزله وقت الحاجة لنزوله ثم صرفه عند التضرر من دوامه، ﴿فَأَسْكَنَّاهُ فِي الْأَرْضِ﴾؛ أي: أنزلناه عليها، فسكن واستقر، وأخرج بقدرة منزله، جميع الأزواج النباتية، وأسكنه أيضاً مُعَداً في خزائن الأرض، بحيث لم يذهب نازلاً، حتى لا يُوصل إليه، ولا يبلغ قعره، ﴿وَإِنَّا عَلَى ذَهَابٍ بِهِ لَقَادِرُونَ﴾؛ إما بأن لا ننزله، أو ننزله، فيذهب نازلاً لا يُوصل إليه، أو لا يوجد منه المقصود منه، وهذا تنبيه منه لعباده أن يشكروه على نعمته، ويُقدّروا عدمها، ماذا يحصل به

من الضرر، كقوله تعالى: ﴿قُلْ أَرَأَيْتُمْ إِنْ أَصْبَحَ مَاؤُكُمْ غَوْرًا فَمَنْ يَأْتِيكُمْ بِمَاءٍ مَعِينٍ﴾.

فَأَنْشَأْنَا لَكُمْ بِهِ جَنَّاتٍ مِنْ نَخِيلٍ وَأَعْنَابٍ لَكُمْ فِيهَا فَوَاكِهُ كَثِيرَةٌ وَمِنْهَا تَأْكُلُونَ ﴿١٩﴾

ذاك الماء العذب منه يُنشئ الخالق جلّ في عُلاه جنات النخيل والعنب وكثير من أصناف الفواكه التي هي طعام الناس ولذتهم. وهذا من الموارد المادية التي لم يُجهد الإنسان فيها نفسه بل خلقها الله تعالى له جاهزة ليستثمرها وينتفع بها. وما طُلب من الإنسان سوى الشكر والحمد، وهي ألفاظ قولية أو قلبية تصل إلى الله تعالى إن كان فيها الإخلاص والوحدانية له تعالى دون شريك له فيها.

ذكر السعدي: خص تعالى هذين النوعين، مع أنه يُنشئ منه غيرهما من الأشجار، لفضلهما ومنافعهما، التي فاقت بها الأشجار.

وَشَجَرَةً تَخْرُجُ مِنْ طُورِ سَيْنَاءَ تَنْبُتُ بِالدُّهْنِ وَصِبْغٍ لِلْآكِلِينَ ﴿٢٠﴾

شجرة الزيتون ذات المنافع الكثيرة؛ فيها الزيت والدهن؛ مما يُؤكل ويُستضاء به وغير ذلك من المنافع.

ذكر السعدي: شجرة الزيتون؛ أي: جنسها، خُصت بالذكر، لأن مكانها خاص في أرض الشام، ولمنافعها، التي ذكر بعضها في قوله: ﴿ تَنۢبُتُ بِالدُّهْنِ وَصِبْغٍ لِلْآكِلِينَ ﴾؛ أي: فيها الزيت، الذي هو دهن، يُستعمل استعماله من الاستصباح به، واصطباغ الآكلين؛ أي: يجعل إداما للآكلين، وغير ذلك من المنافع.

ذكر البغوي: الصبغ والصباغ: الإِدام الذي يلون الخبز إذا غمس فيه وينصبغ، والإِدام كل ما يؤكل مع الخبز، سواء ينصبغ به الخبز أو لا ينصبغ. قال مقاتل: جعل الله في هذه الشجرة أدماً ودهناً، فالأدم: الزيتون، والدهن: الزيت، وقال: خص الطور بالزيتون لأن أول الزيتون نبت بها. ويُقال: أن الزيتون أول شجرة نبتت في الدنيا بعد الطوفان.

ذكر الطنطاوي: خصت شجرة الزيتون بالذكر: لأنها من أكثر الأشجار فائدة بزيتها وطعامها وخشبها، ومن أقل الأشجار أيضاً تكلفة لزارعها.

وخص طور سيناء بإنباتها فيه، مع أنها تنبت منه ومن غيره، لأنها أكثر ما تكون انتشاراً في تلك الأماكن، أو لأن منبتها الأصلي كان في هذا المكان، ثم انتقلت منه إلى غيره من الأماكن.

﴿وَإِنَّ لَكُمْ فِي الْأَنْعَامِ لَعِبْرَةً ۖ نُّسْقِيكُم مِّمَّا فِي بُطُونِهَا وَلَكُمْ فِيهَا مَنَافِعُ كَثِيرَةٌ وَمِنْهَا تَأْكُلُونَ ﴿٢١﴾﴾

كذلك الأنعام من الحيوانات التي يُخرج الله تعالى مما في بطونها الحليب (اللبن)، ويستفاد من لحمها، وجلدها، ووبرها، وصوفها، وعظمها، منافع كثيرة.

ذكر السعدي: ومن نعمه عليكم، أن سخّر لكم الأنعام، الإبل والبقر، والغنم، فيها عبرة للمعتبرين، ومنافع للمنتفعين ﴿نُسْقِيكُمْ مِمَّا فِي بُطُونِهَا﴾ من لبن، يخرج من بين فرث ودم، خالص سائغ للشاربين، ﴿وَلَكُمْ فِيهَا مَنَافِعُ كَثِيرَةٌ﴾ من أصوافها، وأوبارها، وأشعارها، وجعل لكم من جلود الأنعام بيوتاً تستخفونها يوم ظعنكم ويوم إقامتكم ﴿وَمِنْهَا تَأْكُلُونَ﴾ أفضل المآكل من لحم وشحم.

﴿وَعَلَيْهَا وَعَلَى الْفُلْكِ تُحْمَلُونَ ﴿٢٢﴾﴾

الأنعام والفلك هي أداة حملكم وحمل متاعكم وأغراضكم ووسيلة نقلكم كما هو حال السفن في الأنهار والبحار.

ذكر السعدي: جعلها سفناً لكم في البر، تحملون عليها أثقالكم إلى بلد لم تكونوا بالغيه إلا بشق الأنفس، كما جعل لكم السفن في البحر

تحملكم، وتحمل متاعكم، قليلاً كان أو كثيراً، فالذي أنعم بهذه النعم، وصنف أنواع الإحسان، وأدرّ علينا من خيره المدرار، هو الذي يستحق كمال الشكر، وكمال الثناء، والاجتهاد في عبوديته، وأن لا يُستعان بنعمه على معاصيه.

فَأَوْحَيْنَا إِلَيْهِ أَنِ اصْنَعِ الْفُلْكَ بِأَعْيُنِنَا وَوَحْيِنَا فَإِذَا جَاءَ أَمْرُنَا وَفَارَ التَّنُّورُ فَاسْلُكْ فِيهَا مِن كُلٍّ زَوْجَيْنِ اثْنَيْنِ وَأَهْلَكَ إِلَّا مَن سَبَقَ عَلَيْهِ الْقَوْلُ مِنْهُمْ وَلَا تُخَاطِبْنِي فِي الَّذِينَ ظَلَمُوا إِنَّهُم مُّغْرَقُونَ ﴿٢٧﴾

علّم الله نوحاً عليه السلام صناعة السفن فأوحى إليه تفاصيل ذلك لتكون مركباً عظيماً تمخر الأمواج العظيمة التي تبلغ الجبال في شكلها وقوتها فلا تتكسر ولا تتحطم حتى ترسو بركّابها آمنين على الأرض.

ذكر الطبري: ﴿فَأَوْحَيْنَا إِلَيْهِ أَنِ اصْنَعِ الْفُلْكَ بِأَعْيُنِنا وَوَحْيِنَا﴾، يقول: فقلنا له حين استنصرنَا على كَفَرة قومه: ﴿اصنع الفلك﴾، وهي السفينة؛ بأعيننا، يقول: بمرأى منا، ومنظر، ووحينا، يقول: وبتعليمنا إياك صنعتها، ﴿فَإِذَا جَاءَ أَمْرُنَا﴾ يقول: فإذا جاء قضاؤنا في قومك، بعذابهم وهلاكهم ﴿وَفَارَ التَّنُّورُ﴾.

وَقَالَ الْمَلَأُ مِن قَوْمِهِ الَّذِينَ كَفَرُوا وَكَذَّبُوا بِلِقَاءِ الْآخِرَةِ وَأَتْرَفْنَاهُمْ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا مَا هَذَا إِلَّا بَشَرٌ مِّثْلُكُمْ يَأْكُلُ مِمَّا تَأْكُلُونَ مِنْهُ وَيَشْرَبُ مِمَّا تَشْرَبُونَ (٣٣)

هناك أقوام أُترفوا في هذه الحياة الدنيا؛ فبغوا وطغوا؛ حتى قالوا لنبي الله مستنكرين: كيف يكون نبي الله بشراً له حاجات الأكل والشرب كالناس العاديين؟ وهذا إنما من طغيانهم وتكبرهم على النبيين والناس بما أُترفوا فيه.

ذكر الطبري: بعث الله صالحاً إلينا رسولاً من بيننا، وخصه بالرسالة دوننا، وهو إنسان مثلنا، يأكل مما نأكل منه من الطعام، ويشرب مما نشرب، وكيف لم يُرسل مَلَكاً من عنده يبلغنا رسالته؟ قال: ﴿وَيَشْرَبُ مِمَّا تَشْرَبُونَ﴾ معناه: مما تشربون منه، فحذف من الكلام "منه"؛ لأن معنى الكلام: ويشرب من شرابكم، وذلك أن العرب تقول: شربت من شرابك.

ذكر الطنطاوي: المتأمل في هذه الآية الكريمة يرى أن الله تعالى وصف هؤلاء الجاحدين بالغنى والجاه، وأنهم من قوم هذا النبي فازداد حسدهم له وحقدهم عليه، وأنهم أصلاء في الكفر، وفي التكذيب باليوم الآخر، وأنهم فوق كل ذلك من المترفين الذين عاشوا حياتهم في اللهو واللعب والتقلب في ألوان الملذات ... ولا شيء يُفسد الفطرة، ويطمس القلوب،

ويعمي النفوس والمشاعر عن سماع كلمة الحق؛ كالترف والتمرغ في شهوات الحياة.

لذا تراهم في شبهتهم الأولى يحاولون أن يصرفوا الناس عن هذا النبي، بزعمهم أنه بشر، يأكل مما يأكل منه الناس، ويشرب مما يشربون منه، والعقلاء في زعمهم لا يتبعون نبيّاً من البشر، لأن اتباعه يؤدي إلى الخسران المبين.

يَا أَيُّهَا الرُّسُلُ كُلُوا مِنَ الطَّيِّبَاتِ وَاعْمَلُوا صَالِحاً إِنِّي بِمَا تَعْمَلُونَ عَلِيمٌ ﴿٥١﴾

الرسل عليهم الصلاة والسلام كغيرهم من البشر مأمورون بأكل الطيبات وبالعمل الصالح والله عليهم رقيب كما هو حال كل البشر.

ذكر القرطبي: سَوَّى الله تعالى بين النبيين والمؤمنين في الخطاب بوجوب أكل الحلال وتجنب الحرام، ثم شمل الكل في الوعيد الذي تضمنه قوله تعالى: ﴿إني بما تعملون عليم﴾ صلى الله على رسله وأنبيائه. وإذا كان هذا معهم فما ظن كل الناس بأنفسهم؟.

ذكر السعدي: هذا أمر منه تعالى لرسله بأكل الطيبات، التي هي الرزق الطيب الحلال، وشكر الله بالعمل الصالح، الذي به يَصلح القلب والبدن،

والدنيا والآخرة. ويخبرهم أنه بما يعملون عليم، فكل عمل عملوه، وكل سعي اكتسبوه، فإن الله يعلمه، وسيجازيهم عليه أتم الجزاء وأفضله، فدلَّ هذا على أن الرسل كلهم، متفقون على إباحة الطيبات من المآكل، وتحريم الخبائث منها، وأنهم متفقون على كل عمل صالح وإن تنوعت بعض أجناس المأمورات، واختلفت بها الشرائع، فإنها كلها عمل صالح، ولكن تتفاوت بتفاوت الأزمنة.

ولهذا، الأعمال الصالحة، التي هي صلاح في جميع الأزمنة، قد اتفقت عليها الأنبياء والشرائع، كالأمر بتوحيد الله، وإخلاص الدين له، ومحبته، وخوفه، ورجائه، والبرّ، والصدق، والوفاء بالعهد، وصلة الأرحام، وبرّ الوالدين، والإحسان إلى الضعفاء والمساكين واليتامى، والحنو والإحسان إلى الخلق، ونحو ذلك من الأعمال الصالحة، ولهذا كان أهل العلم، والكتب السابقة، والعقل، حين بَعث الله محمداً صلى الله عليه وسلم، يستدلون على نبوته بأجناس ما يأمر به، وينهى عنه، كما جرى لهرقل وغيره، فإنه إذا أمر بما أمر به الأنبياء، الذين من قبله، ونهى عما نُهوا عنه، دلّ على أنه من جنسهم، بخلاف الكذاب، فلا بد أن يأمر بالشر، وينهى عن الخير.

﴿أَيَحْسَبُونَ أَنَّمَا نُمِدُّهُم بِهِ مِن مَّالٍ وَبَنِينَ (٥٥) نُسَارِعُ لَهُمْ فِي الْخَيْرَاتِ ۚ بَل لَّا يَشْعُرُونَ (٥٦)﴾

ليس زيادة المال والبنين بدليل على أن صاحبهما من أهل الخير والسعادة. بل لعله مدٌّ وإمهالٌ من الله دون أن يشعر؛ فيزداد إثماً وينسى فضل الله عليه.

ذكر ابن كثير: أيظن هؤلاء المغرورون أن ما نعطيهم من الأموال والأولاد لكرامتهم علينا ومعزتهم عندنا؟ كلا ليس الأمر كما يزعمون في قولهم: ﴿نحن أكثر أموالا وأولادا وما نحن بمعذبين﴾ سبأ: ٣٥، لقد أخطأوا في ذلك وخاب رجاؤهم، بل إنما نفعل بهم ذلك استدراجاً وإنظاراً وإملاءً.

﴿وَلَا نُكَلِّفُ نَفْسًا إِلَّا وُسْعَهَا ۖ وَلَدَيْنَا كِتَابٌ يَنطِقُ بِالْحَقِّ ۚ وَهُمْ لَا يُظْلَمُونَ (٦٢)﴾

إن من عدل الله أنه لا يُكلّف نفساً إلا ما تقدر عليه وهذا مبدأ إداري يُراعى عند إعداد الهياكل التنظمية؛ حيث يُوزَان التفويض والصلاحيات، ويكون الحساب على أساس ما تم إسناده من عمل لصاحب ذلك المنصب. وبينّ الله تعالى الموضوعية بأن كل شيء مكتوب؛ فالخطط ليست دون كتابة؛ بل هي محفوظة بأشكال متعددة البيان؛ كتابة ونطقاً وهي أساس

المحاسبة العادلة دون حيف أو ظلم. وكذلك الأعمال مسجلة مكتوبة لتكون المستند الموضوعي في الحساب ومناقشته.

ذكر الطنطاوي: ثم ختم سبحانه هذه الآيات الكريمة المشتملة على صفات المؤمنين الصادقين، ببيان أن هذه الصفات الجليلة لم تكلّف أصحابها فوق طاقتهم، لأن الإيمان الحق إذا خالطت بشاشته القلوب يجعلها لا تُحس بالمشقة عند فعل الطاعات، وإنما يجعلها تُحس بالرضا والسعادة والإقدام على فعل الخير بدون تردد، فقال تعالى: ﴿وَلَا نُكَلِّفُ نَفْساً إِلَّا وُسْعَهَا﴾؛ أي: وقد جرت سنتنا فيما شرعناه لعبادنا من تشريعات، أننا لا نكلّف نفسا من النفوس إلا في حدود طاقتها وقدرتها.

أَمْ تَسْأَلُهُمْ خَرْجاً فَخَرَاجُ رَبِّكَ خَيْرٌ وَهُوَ خَيْرُ الرَّازِقِينَ ﴿٧٢﴾

الرسول يدعو إلى الإيمان بالله تعالى ولا يسأل أجراً أو خراجاً من أموال من يدعوهم للإيمان؛ فأجر الله خير لأنه خير الرازقين، والرسول إنما يدعوهم وينصح لهم لما فيه مصلحتهم. لذلك جاءت الآيات متكررة على ألسنة رسل الله وأنبيائه بأنهم لا يسألون الناس أجراً إنما أجرهم على الله.

ولو كان الأمر مأجوراً من الناس أي الدعوة إلى الله لقاء أجر يدفعونه لصار الأمر تجارة فيها ربح وخسارة.

﴿وَهُوَ الَّذِي أَنشَأَ لَكُمُ السَّمْعَ وَالْأَبْصَارَ وَالْأَفْئِدَةَ ۚ قَلِيلًا مَّا تَشْكُرُونَ ﴿٧٨﴾﴾

إن حواس السمع والبصر وما يعقله القلب إنما هي مما أنشأه الله في الإنسان شأنه في ذلك شأن ما أنشأه في هذا الكون الرحب، لكن الإنسان قليل الشكر لربه، وكثير من الناس غافلون عن هذا رغم أهميته للإنسان، فالأصم والأعمى والأبلَه مورد من الموارد البشرية لكنه غير مهيّأ كالسوي، لذلك وجب شكره تعالى على هذه النعم، لكن كثيراً من الناس كفروا وجحدوا هذه النعم.

﴿وَهُوَ الَّذِي ذَرَأَكُمْ فِي الْأَرْضِ وَإِلَيْهِ تُحْشَرُونَ ﴿٧٩﴾﴾

الله تعالى هو الذي بث الناس في الأرض ومكّنهم منها، وجعلها كافية لمعايشهم ومساكنهم، ثم إليه يُحشر الناس أجمعين ليجازيهم بما عملوا في الأرض من خير وشر.

﴿مَا اتَّخَذَ اللَّهُ مِن وَلَدٍ وَمَا كَانَ مَعَهُ مِنْ إِلَٰهٍ ۚ إِذًا لَّذَهَبَ كُلُّ إِلَٰهٍ بِمَا خَلَقَ وَلَعَلَا بَعْضُهُمْ عَلَىٰ بَعْضٍ ۚ سُبْحَانَ اللَّهِ عَمَّا يَصِفُونَ ﴿٩١﴾﴾

بعدما أحال الله الناس للمحاكاة العقلية حول وحدانيته تعالى، بينّ لهم أن لا ولد له سبحانه، ولا معين له سبحانه.

يُعلمنا الله أساساً عظيماً من أسس الإدارة وضبط الهياكل التنظيمية أن لكل تنظيم إداري رأس واحد لا أكثر؛ وإلا عمّت الفوضى؛ فكلٌّ إله أو كل رب عمل سيسعى إلى حزب يتحزبه ويرأسه، ولعلا بعض الناس بعضاً كل يريد أن يكون رأس الأمر وغايته، والله تعالى مُنزه عن هذا الغلط ومُنزه عن هذا الوصف فالكون بتعقيداته وضخامته مُنتظم رتيب لا أخطاء فيه البتة وهذا من دقة صنع الله وخبرته ولطفه، فتعالى الله عن الشرك.

ذكر ابن كثير: يُنزه تعالى نفسه عن أن يكون له ولد أو شريك في الملك، فقال: ﴿ما اتخذ الله من ولد وما كان معه من إله إذاً لذهب كل إله بما خلق ولعلا بعضهم على بعض﴾؛ أي: لو قدَّر تعدد الآلهة، لانفرد كل منهم بما يخلق، فما كان ينتظم الوجود. والمشاهد أن الوجود منتظم متسق، كل من العالم العلوي والسفلي مرتبط بعضه ببعض، في غاية الكمال، ﴿ما ترى في خلق الرحمن من تفاوت﴾ الملك: ٣؛ ثم لكان كل منهم يطلب قهر الآخر وخلافه، فيعلو بعضهم على بعض. والمتكلمون ذكروا هذا المعنى وعبروا عنه بدليل التمانع، وهو أنه لو فرض

صانعان فصاعداً، فأراد واحد تحريك جسم وأراد الآخر سكونه، فإن لم يحصل مراد كل واحد منهما كانا عاجزين، والواجب لا يكون عاجزاً، ويمتنع اجتماع مراديهما للتضاد. وما جاء هذا المحُال إلا من فرض التعدد، فيكون مُحالاً فأما إن حصل مراد أحدهما دون الآخر، كان الغالب هو الواجب، والآخر المغلوب ممكناً؛ لأنه لا يليق بصفة الواجب أن يكون مقهوراً؛ ولهذا قال: ﴿ولعلا بعضهم على بعض سبحان الله عما يصفون﴾؛ أيّ: عما يقول الظالمون المعتدون في دعواهم الولد أو الشريك عُلواً كبيراً.

قَالَ كَمْ لَبِثْتُمْ فِي الْأَرْضِ عَدَدَ سِنِينَ ﴿١١٢﴾

يسأل الله تعالى الذين ظلموا أنفسهم كم لبثتم في الأرض من السنين؟

ذكر ابن عاشور: قال الله لهم إذا نُفخ في الصور: كم لبثتم في الأرض عدد سنين؟

قَالُوا لَبِثْنَا يَوْمًا أَوْ بَعْضَ يَوْمٍ فَاسْأَلِ الْعَادِّينَ ﴿١١٣﴾

يُجيب أولئك الظالمون بأنهم لبثوا يوماً أو بعض يوم، ثم ينتابهم الشك فيطلبون من الله أن يسأل العادين. وهنا يتضح دور العدّ في تقرير الأمور؛

فواحدة العد هي اليوم مرتبطة بحسابات وحركة القمر والشمس وهي مما خلقه الله تعالى ليستعين بها الناس.

ذكر ابن عاشور: وأما قولهم: فاسأل العادين؛ فهو اعتراف بأنهم لم يضبطوا مدة مُكثهم؛ فأحالوا السائل على من يضبط ذلك من الذين يظنونهم لم يزالوا أحياءً لأنهم حسبوا أنهم بُعثوا والدنيا باقية وحسبوا أن السؤال على ظاهره فتبرأوا من عهدة عدم ضبط الجواب.

ذكر الطنطاوي: وهنا يقولون في يأس وذلة: ﴿لَبِثْنا يَوْماً أَوْ بَعْضَ يَوْمٍ﴾؛ وهو جواب يدلُّ على استصغارهم للمدة التي لبثوها في الدنيا بجانب ما هم فيه من عذاب.

وقوله تعالى: ﴿فَسْئَلِ الْعادِّينَ﴾؛ يُشعر بذهولهم عن التحقق من مقدار المدة التي لبثوها في الدنيا؛ أي: فاسأل المتمكنين من معرفة المدة التي مكثناها في الدنيا.

أَفَحَسِبْتُمْ أَنَّمَا خَلَقْنَاكُمْ عَبَثًا وَأَنَّكُمْ إِلَيْنَا لَا تُرْجَعُونَ ﴿١١٥﴾

لم يُخلق هذا الكون بما فيه عَبثاً، يأكل الناس ويشربوا ويمرحوا متمتعين بلذات الدنيا، ثم يُتركون وشأنهم دون ثواب أو عقاب، فالرجوع حتمي إلى الخالق ليُحاسب كلٌّ حسبما قدمه من عمل.

ذكر البغوي: قوله عز وجل: ﴿أفحسبتم أنما خلقناكم عبثا﴾ لعباً وباطلاً لا لحكمة، وهو نصب على الحال؛ أي: عابثين. وقيل: للعبث، أي: لتلعبوا وتعبثوا كما خُلقت البهائم لا ثواب لها ولا عقاب، وهو مثل قوله: ﴿أيحسب الإنسان أن يترك سدى﴾ القيامة: ٣٦، وإنما خُلقتم للعبادة وإقامة أوامر الله عز وجل، و﴿وأنكم إلينا لا ترجعون﴾؛ أي: أفحسبتم أنكم إلينا لا ترجعون في الآخرة للجزاء.

تفسير سورة النور

رقم السورة: ٢٤ وهي مدنية وعدد آياتها: ٦٤.

ذكر الطنطاوي: اشتملت هذه السورة الكريمة، على أحكام العفاف والستر. وهما قوام المجتمع الصالح. وبدونها تنحط المجتمعات. ويصير أمرها فرطا، ويصبح الفرد إلى الحيوان الأعجم، أقرب منه إلى الإنسان العاقل.

﴿الزَّانِيَةُ وَالزَّانِي فَاجْلِدُوا كُلَّ وَاحِدٍ مِّنْهُمَا مِائَةَ جَلْدَةٍ ۖ وَلَا تَأْخُذْكُم بِهِمَا رَأْفَةٌ فِي دِينِ اللَّهِ إِن كُنتُمْ تُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ ۖ وَلْيَشْهَدْ عَذَابَهُمَا طَائِفَةٌ مِّنَ الْمُؤْمِنِينَ ﴿٢﴾﴾

إن الزنى مؤداه خلط الأنساب بين الناس، مما يُخرِّب تماسك الموارد البشرية ويؤذيها، ولولا الموارد البشرية لما كانت الأرض التي خلقها الله بما فيها، وما في الكون، وسُخِّر ذلك كله للإنسان.

كما أن انتشار الزنى سيُغني كثير من الناس عن الزواج؛ وبالتالي عن التكاثر، لذلك فإن كثيراً من الأمم - الحالية - تُعاني خطر الفناء لعزوف أبنائها ومواطنيها عن سُنة الزواج والاكتفاء بالزنى أو اللواط لقضاء شهواتهم.

ولا تَخفى الآثار النفسية التي تلحق بالنساء والرجال بسبب انتشار الزنى وعدم تكوين أُسر طبيعية كما هو حال البشر.

ذكر القرطبي: الحد الذي أوجب الله في الزنا، والخمر، والقذف، وغير ذلك ينبغي أن يُقام بين أيدي الحكام، ولا يُقيمه إلا فضلاء الناس، وخيارهم يختارهم الإمام لذلك. وكذلك كانت الصحابة تفعل كلما وقع لهم شيء من ذلك رضي الله عنهم. وسبب ذلك أنه قيام بقاعدة شرعية وقربة تعبدية، تجب المحافظة على فعلها، وقدرها، ومحلها، وحالها، بحيث لا يتعدى شيء من شروطها ولا أحكامها، فإن دم المسلم وحرمته عظيمة، ويجب مراعاته بكل ما أمكن.

وَالَّذِينَ يَرْمُونَ الْمُحْصَنَاتِ ثُمَّ لَمْ يَأْتُوا بِأَرْبَعَةِ شُهَدَاءَ فَاجْلِدُوهُمْ ثَمَانِينَ جَلْدَةً وَلَا تَقْبَلُوا لَهُمْ شَهَادَةً أَبَدًا وَأُولَئِكَ هُمُ الْفَاسِقُونَ ﴿٤﴾

قدمت الشريعة الإسلامية الحماية للموارد البشرية من سخف وسفاهة البعض، فالاتهام بالزنا من طرف لآخر يُوجب تقديم أربعة شهداء رأوا حادثة الزنا رؤيا العين وإلا فالعقوبة الصارمة.

ذكر الطبري: يقول تعالى ذكره: الذين يَشْتمون العفائف من حرائر المسلمين، فيرمونهنّ بالزنا، ثم لم يأتوا على ما رمَوْهن به من ذلك بأربعة

شهداء عدول يشهدون، عليهنّ أنهنّ رأوهن يفعلن ذلك، فاجلدوا الذين رموهن بذلك ثمانين جلدة، ولا تقبلوا لهم شهادة أبداً، وأولئك هم الذين خالفوا أمر الله وخرجوا من طاعته ففسقوا عنها.

﴿وَالَّذِينَ يَرْمُونَ أَزْوَاجَهُمْ وَلَمْ يَكُن لَّهُمْ شُهَدَاءُ إِلَّا أَنفُسُهُمْ فَشَهَادَةُ أَحَدِهِمْ أَرْبَعُ شَهَادَاتٍ بِاللَّهِ إِنَّهُ لَمِنَ الصَّادِقِينَ ﴿٦﴾﴾

للأزواج بين بعضهم ضوابط تخصهم حفاظاً على النسل البشري نقيّاً طاهراً، لتكون الموارد البشرية موارد صحية.

ذكر ابن كثير: هذه الآية الكريمة فيها فَرَج للأزواج وزيادة مخرج، إذا قذف أحدهم زوجته وتعسَّر عليه إقامة البيِّنة، أن يُلاعنها، كما أمر الله عزّ وجلّ وهو أن يُحضرها إلى الإمام، فيدعي عليها بما رماها به، فيُحلِّفه الحاكم أربع شهادات بالله في مقابلة أربعة شهداء، ﴿إنه لمن الصادقين﴾؛ أي: فيما رماها به من الزنى.

﴿وَلَا يَأْتَلِ أُولُو الْفَضْلِ مِنكُمْ وَالسَّعَةِ أَن يُؤْتُوا أُولِي الْقُرْبَىٰ وَالْمَسَاكِينَ وَالْمُهَاجِرِينَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ ۖ وَلْيَعْفُوا وَلْيَصْفَحُوا ۗ أَلَا تُحِبُّونَ أَن يَغْفِرَ اللَّهُ لَكُمْ ۗ وَاللَّهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿٢٢﴾﴾

نهى الله تعالى بهذه الآية المنفقين المحسنين – والمقصود أبو بكر رضي الله عنه – عن هكذا حلف بقطع النفقة عمن يُنفقون عليهم رغم انخرطهم بما عُرف بالإفك، بل حثّه الله تعالى على العفو والصفح، ووعده بالمغفرة إن غَفَر له.

إنها الدعوة للمعاملة الحسنة بالعفو والصفح مع المحتاج الذي يُنفَق عليه وكان من أقرباء أبي بكر رضي الله عنه؛ فلا تترك النفقة والإحسان بمعصية الإنسان، وهذا مفهوم اجتماعي للإنفاق لم يعهده غير المسلمين.

ذكر السعدي: هذه الآية دليل على النفقة على القريب، وأنه لا تُترك النفقة والإحسان بمعصية الإنسان، والحث على العفو والصفح، ولو جرى عليه ما جرى من أهل الجرائم.

يَاأَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَدْخُلُوا بُيُوتًا غَيْرَ بُيُوتِكُمْ حَتَّىٰ تَسْتَأْنِسُوا
وَتُسَلِّمُوا عَلَىٰ أَهْلِهَا ذَٰلِكُمْ خَيْرٌ لَّكُمْ لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ ﴿٢٧﴾
فَإِن لَّمْ تَجِدُوا فِيهَا أَحَدًا فَلَا تَدْخُلُوهَا حَتَّىٰ يُؤْذَنَ لَكُمْ وَإِن قِيلَ
لَكُمُ ارْجِعُوا فَارْجِعُوا هُوَ أَزْكَىٰ لَكُمْ وَاللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ عَلِيمٌ
﴿٢٨﴾

تذهب هذه الآيات نحو إرساء مفهوم الخصوصية، وترسي أدب التعامل بين الناس، فيتعاملون كبشر يستأنس بعضهم بعضاً لا يستوحش بعضهم بعضاً كما هو حاصل في كثير من الأماكن وعبر الأزمان.

ذكر السعدي: يُرشد الباري عباده المؤمنين، أن لا يدخلوا بيوتاً غير بيوتهم بغير استئذان، فإن في ذلك عدة مفاسد: منها ما ذكره الرسول صلى الله عليه وسلم، حيث قال: "إنما جُعل الاستئذان من أجل البصر" فبسبب الإخلال به، يقع البصر على العورات التي داخل البيوت، فإن البيت للإنسان في ستر عورة ما وراءه، بمنزلة الثوب في ستر عورة جسده.

ومنها: أن ذلك يوجب الريبة من الداخل، ويتهم بالشر سرقة أو غيرها، لأن الدخول خفية، يدلُّ على الشر، ومنع الله المؤمنين من دخول غير بيوتهم ﴿حَتَّى يَسْتَأْنِسُوا﴾؛ أي: يستأذنوا. سمي الاستئذان استئناساً، لأن به يحصل الاستئناس، وبعدمه تحصل الوحشة.

لا تمتنعوا من الرجوع، ولا تغضبوا منه، فإن صاحب المنزل، لم يمنعكم حقاً واجبا لكم، وإنما هو متبرع، فإن شاء أذن أو منع.

لَّيْسَ عَلَيْكُمْ جُنَاحٌ أَن تَدْخُلُوا بُيُوتًا غَيْرَ مَسْكُونَةٍ فِيهَا مَتَاعٌ لَّكُمْ ۚ وَاللَّهُ يَعْلَمُ مَا تُبْدُونَ وَمَا تَكْتُمُونَ ﴿٢٩﴾

أما إن كانت البيوت والأماكن غير مسكونة أي ليس فيها قاطن وفيها متاع تخص الداخل إليها فلا بأس بذلك؛ لأنها بحكم المكان العام.

ذكر الطبري: يقول تعالى ذكره: ليس عليكم أيها الناس إثم وحرج أن تدخلوا بيوتاً لا ساكن بها بغير استئذان. ثم اختلفوا في ذلك أيّ البيوت عَنى، فقال بعضهم: عنى بها الخانات والبيوت المبنية بالطرق التي ليس بها سكان معروفون، وإنما بنيت لمارّة الطريق والسابلة، ليأووا إليها، ويُؤوا إليها أمتعتهم.

﴿وَقُل لِّلْمُؤْمِنَاتِ يَغْضُضْنَ مِنْ أَبْصَارِهِنَّ وَيَحْفَظْنَ فُرُوجَهُنَّ وَلَا يُبْدِينَ زِينَتَهُنَّ إِلَّا مَا ظَهَرَ مِنْهَا ۖ وَلْيَضْرِبْنَ بِخُمُرِهِنَّ عَلَىٰ جُيُوبِهِنَّ ۖ وَلَا يُبْدِينَ زِينَتَهُنَّ إِلَّا لِبُعُولَتِهِنَّ أَوْ آبَائِهِنَّ أَوْ آبَاءِ بُعُولَتِهِنَّ أَوْ أَبْنَائِهِنَّ أَوْ أَبْنَاءِ بُعُولَتِهِنَّ أَوْ إِخْوَانِهِنَّ أَوْ بَنِي إِخْوَانِهِنَّ أَوْ بَنِي أَخَوَاتِهِنَّ أَوْ نِسَائِهِنَّ أَوْ مَا مَلَكَتْ أَيْمَانُهُنَّ أَوِ التَّابِعِينَ غَيْرِ أُولِي الْإِرْبَةِ مِنَ الرِّجَالِ أَوِ الطِّفْلِ الَّذِينَ لَمْ يَظْهَرُوا عَلَىٰ عَوْرَاتِ النِّسَاءِ ۖ وَلَا يَضْرِبْنَ بِأَرْجُلِهِنَّ لِيُعْلَمَ مَا يُخْفِينَ مِن زِينَتِهِنَّ ۚ وَتُوبُوا إِلَى اللَّهِ جَمِيعًا أَيُّهَ الْمُؤْمِنُونَ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ ﴿٣١﴾﴾

تشير هذه الآية إلى الزينة التي تضعها النساء وفي هذا بيان لرواج صناعتها وتجارتها، كما حددت الآية الكريمة ضوابط اتخاذ هذه الزينة بين المسلمين والمسلمات.

ذكر القرطبي: الزينة على قسمين: خَلقية ومكتسبة؛ فالخلقية وجهها؛ فإنه أصل الزينة وجمال الخلقة ومعنى الحيوانية؛ لما فيه من المنافع وطرق العلوم. وأما الزينة المكتسبة فهي ما تحاوله المرأة في تحسين خلقتها؛ كالثياب، والحلي، والكحل، والخضاب.

وذكر أيضاً: من الزينة ظاهر وباطن؛ فما ظهر فمباح أبدا لكل الناس من المحارم والأجانب؛ وقد ذكرنا ما للعلماء فيه. وأما ما بطن فلا يحل إبداؤه إلا لمن سماهم الله تعالى في هذه الآية، أو حلَّ محلهم. واختلف في السوار؛ فقالت عائشة: هي من الزينة الظاهرة لأنها في اليدين. وقال مجاهد: هي من الزينة الباطنة لأنها خارج عن الكفين وإنما تكون في الذراع. قال ابن العربي: وأما الخضاب فهو من الزينة الباطنة إذا كان في القدمين.

ذكر السعدي: يؤخذ من هذا ونحوه، قاعدة سد الوسائل، وأن الأمر إذا كان مباحاً، ولكنه يفضي إلى محرم، أو يُخاف من وقوعه، فإنه يُمنع منه،

فالضرب بالرِجْل في الأرض، الأصل أنه مباح، ولكن لما كان وسيلة لعلم الزينة، منع منه.

﴿وَأَنكِحُوا الْأَيَامَىٰ مِنكُمْ وَالصَّالِحِينَ مِنْ عِبَادِكُمْ وَإِمَائِكُمْ ۚ إِن يَكُونُوا فُقَرَاءَ يُغْنِهِمُ اللَّهُ مِن فَضْلِهِ ۗ وَاللَّهُ وَاسِعٌ عَلِيمٌ ﴿٣٢﴾﴾

تدعو هذه الآية الكريمة المستطيعين إلى التزاوج من الفقراء الذين تحت نفقتهم للتكاثر والتوالد وإنجاب الذراري، ولا يعتبر الفقر عائقاً لأن الله تعالى هو المغني وهو صاحب الفضل.

ذكر القرطبي: لا تمتنعوا عن التزويج بسبب فقر الرجل والمرأة؛ إن يكونوا فقراء يغنهم الله من فضله. وهذا وعد بالغنى للمتزوجين طلب رضا الله واعتصاما من معاصيه.

وذكر أيضاً: هذه الآية حجة على من قال: إن القاضي يفرق بين الزوجين إذا كان الزوج فقيراً لا يقدر على النفقة؛ لأن الله تعالى قال: يغنهم الله ولم يقل يفرق. وهذا انتزاع ضعيف، وليس هذه الآية حكماً فيمن عجز عن النفقة، وإنما هي وعد بالإغناء لمن تزوج فقيراً. فأما من تزوج موسراً وأعسر بالنفقة فإنه يفرق بينهما؛ قال الله تعالى: وإن يتفرقا يغن الله كلا من سعته.

وَلْيَسْتَعْفِفِ الَّذِينَ لَا يَجِدُونَ نِكَاحاً حَتَّى يُغْنِيَهُمُ اللَّهُ مِن فَضْلِهِ ۗ
وَالَّذِينَ يَبْتَغُونَ الْكِتَابَ مِمَّا مَلَكَتْ أَيْمَانُكُمْ فَكَاتِبُوهُمْ إِنْ
عَلِمْتُمْ فِيهِمْ خَيْراً ۖ وَآتُوهُم مِّن مَّالِ اللَّهِ الَّذِي آتَاكُمْ ۚ وَلَا تُكْرِهُوا
فَتَيَاتِكُمْ عَلَى الْبِغَاءِ إِنْ أَرَدْنَ تَحَصُّناً لِّتَبْتَغُوا عَرَضَ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا ۚ
وَمَن يُكْرِههُّنَّ فَإِنَّ اللَّهَ مِن بَعْدِ إِكْرَاهِهِنَّ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿٣٣﴾

فمن لم يجد مالاً يُعينه، فليستعفف ويكفَّ عن الزنى وما شابهه حتى يُغنه الله من فضله.

وقد أمر الله تعالى مساعدة العبيد ممن أراد عتق نفسه أن يُعطى من مال الله أي من مال الزكاة على أقل تقدير، إن عَلِم فيهم خيراً؛ أي قدرتهم على التكسب والصلاح في دينه.

ونهى الله تعالى إكراه الفتيات الإماء أن يكن زانيات، فقد كان الأسياد في الجاهلية يجبرون الإماء على البغاء وكانوا يأخذوا لقاء ذلك مالاً مقابله كأجرة. فالكسب يجب يكون نزيهاً وفيه المروءة؛ فلا يقبل كسب الرذيلة والخسة.

ذكر السعدي: لهذا جعل الله للمكاتبين قسطاً من الزكاة، ورغب في إعطائه بقوله: ﴿مِنْ مَالِ اللَّهِ الَّذِي آتَاكُمْ﴾؛ أي: فكما أن المال مال الله،

وإنما الذي بأيديكم عطية من الله لكم ومحض منه، فأحسنوا لعباد الله، كما أحسن الله إليكم.

ذكر البغوي: لو مات المكاتب قبل أداء النجوم[١]، اختلف أهل العلم فيه: فذهب كثير منهم إلى أنه يموت رقيقاً، وترتفع الكتابة سواء ترك مالاً أو لم يترك، كما لو تلف المبيع قبل القبض يرتفع البيع. وهو قول عمر، وابن عمر، وزيد بن ثابت، وبه قال عمر بن عبد العزيز، والزهري، وقتادة، وإليه ذهب الشافعي وأحمد. وقال قوم: إن ترك وفاء بما بقي عليه من الكتابة كان حُراً وإن كان فيه فضل، فالزيادة لأولاده الأحرار، وهو قول عطاء، وطاوس، والنخعي، والحسن، وبه قال مالك، والثوري، وأصحاب الرأي. ولو كاتب عبده كتابة فاسدة يُعتق بأداء المال لأن عتقه معلق بالأداء، وقد وجد وتبعه الأولاد والاكتساب كما في الكتابة الصحيحة، ويفترقان في بعض الأحكام: وهي أن الكتابة الصحيحة لا يملك المولى فسخها ما لم يعجز المكاتب عن أداء النجوم، ولا تبطل بموت المولى، ويعتق بالإبراء عن النجوم، والكتابة الفاسدة يملك المولى فسخها قبل أداء المال، حتى لو أدى المال بعد الفسخ لا يُعتق ويبطل بموت المولى، ولا يُعتق بالإبراء عن النجوم، وإذا عتق المكاتب بأداء المال لا يثبت التراجع في الكتابة

---

[١] أي الأقساط المستحقة عليه لفداء نفسه.

الصحيحة، ويثبت في الكتابة الفاسدة، فيرجع المولى عليه بقيمة رقبته، وهو يرجع على المولى بما دفع إليه إن كان مالاً.

ذكر الطنطاوي: على المؤمنين والمؤمنات الذين لا يجدون نكاحاً؛ أي: الذين لا يجدون الوسائل والأسباب التي توصلهم إلى الزواج بسبب ضيق ذات اليد أو ما يشبه ذلك، عليهم أن يتحصنوا بالعفاف وأن يصونوا أنفسهم عن الفواحش، وأن يستمروا على ذلك حتى يرزقهم الله تعالى من فضله رزقاً، يستعينون به على إتمام الزواج. فهذه الجملة الحكيمة وعد كريم من الله تعالى للتائقين إلى الزواج، العاجزين عن تكاليفه بأنه سبحانه سيرزقهم من فضله ما يعينهم على التمكن منه، متى اعتصموا بطاعته، وحافظوا على أداء ما أمرهم به.

﴿اللَّهُ نُورُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ ۚ مَثَلُ نُورِهِ كَمِشْكَاةٍ فِيهَا مِصْبَاحٌ ۖ الْمِصْبَاحُ فِي زُجَاجَةٍ ۖ الزُّجَاجَةُ كَأَنَّهَا كَوْكَبٌ دُرِّيٌّ يُوقَدُ مِن شَجَرَةٍ مُّبَارَكَةٍ زَيْتُونَةٍ لَّا شَرْقِيَّةٍ وَلَا غَرْبِيَّةٍ يَكَادُ زَيْتُهَا يُضِيءُ وَلَوْ لَمْ تَمْسَسْهُ نَارٌ ۚ نُّورٌ عَلَىٰ نُورٍ ۗ يَهْدِي اللَّهُ لِنُورِهِ مَن يَشَاءُ ۚ وَيَضْرِبُ اللَّهُ الْأَمْثَالَ لِلنَّاسِ ۗ وَاللَّهُ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ (٣٥)﴾

تشير هذه الآية الكريمة إلى صناعة المصابيح حيث يوضع زيت الزيتون في زجاجة ذات مشكاة؛ أي فتحة؛ لتنير وتتلألأ كالكوكب المضيء.

ذكر الطبري: هذا القرآن من عند الله، وأنه كلامه، فجعل مَثَله ومثل كونه من عنده، مثل المصباح الذي يوقد من الشجرة المباركة.

ذكر القرطبي: قيل: المشكاة عمود القنديل الذي فيه الفتيلة. وقال مجاهد: هي القنديل. وقال: ﴿في زجاجة﴾ لأنه جسم شفاف، والمصباح فيه أنور منه في غير الزجاج. والمصباح: الفتيل بناره كأنها كوكب دُرّي أي في الإنارة والضوء. وذلك يحتمل معنيين: إما أن يريد أنها بالمصباح كذلك، وإما أن يريد أنها في نفسها لصفائها، وجودة جوهرها كذلك.

رِجَالٌ لَّا تُلْهِيهِمْ تِجَارَةٌ وَلَا بَيْعٌ عَن ذِكْرِ اللَّهِ وَإِقَامِ الصَّلَاةِ وَإِيتَاءِ الزَّكَاةِ ۙ يَخَافُونَ يَوْمًا تَتَقَلَّبُ فِيهِ الْقُلُوبُ وَالْأَبْصَارُ ﴿٣٧﴾

الرجال هم الرجال الذين لا يُؤثّر بهم تجارة ولا بيع عن ذكر الله، وإقام الصلاة وإيتاء الزكاة؛ لأنهم يخافون يوماً تتقلب فيه القلوب والأبصار.

إذاً هم يتجرون، يبيعون ويشترون كغيرهم؛ لكن دون أن يُلهيهم ذلك العمل عن ذكر الله لأنه أصل، كما أنهم يؤتون الزكاة المستحقة على ما

ملكوا من الأموال؛ فلا يُمسكوا ولا يبخلوا؛ فلا يحيدوا عن الحق الذي أمرهم الله به.

وبذلك كان تعريف الرجال وتميزهم؛ فالمال لا يُغيّر طبائعم ولا يُحرّف سلوكهم؛ بل هم مراقبون لله تعالى ببصرهم وبصيرتهم، يخافون حسابه.

ذكر القرطبي: قال الكلبي: التجار هم الجلاب المسافرون، والباعة هم المقيمون.

ذكر البغوي: قيل: خُص الرجال بالذكر في هذه المساجد لأنه ليس على النساء جمعة ولا جماعة في المسجد، ﴿لا تلهيهم﴾ لا تشغلهم، ﴿تجارة﴾ قيل خَص التجارة بالذكر لأنها أعظم ما يشتغل به الإنسان عن الصلاة والطاعات، وأراد بالتجارة الشراء وإن كان اسم التجارة يقع على البيع والشراء جميعاً؛ لأنه ذكر البيع بعد هذا؛ كقوله: ﴿وإذا رأوا تجارة﴾ الجمعة: ١١؛ يعني: الشراء، وقال الفراء: التجارة لأهل الجلب والبيع ما باعه الرجل على يديه. قوله: ﴿ولا بيع عن ذكر الله﴾ عن حضور المساجد لإقامة الصلاة، ﴿وإقام﴾؛ أي: لإقامة، ﴿الصلاة﴾ حذف الهاء وأراد أداءها في وقتها، لأن من أخّر الصلاة عن وقتها لا يكون من مقيمي الصلاة، وأعاد ذكر إقامة الصلاة مع أن المراد من ذكر الله الصلوات الخمس لأنه أراد بإقام الصلاة حفظ المواقيت. روى سالم عن ابن عمر أنه كان في

السوق فأقيمت الصلاة فقام الناس وأغلقوا حوانيتهم فدخلوا المسجد؛ فقال ابن عمر: فيهم نزلت: ﴿رجال لا تلهيهم تجارة ولا بيع عن ذكر الله وإقام الصلاة وإيتاء الزكاة﴾ المفروضة، قال ابن عباس رضي الله عنه: إذا حضر وقت أداء الزكاة لم يحبسوها. وقيل: هي الأعمال الصالحة.

أَلَمْ تَرَ أَنَّ اللَّهَ يُزْجِي سَحَابًا ثُمَّ يُؤَلِّفُ بَيْنَهُ ثُمَّ يَجْعَلُهُ رُكَامًا فَتَرَى الْوَدْقَ يَخْرُجُ مِنْ خِلَالِهِ وَيُنَزِّلُ مِنَ السَّمَاءِ مِنْ جِبَالٍ فِيهَا مِنْ بَرَدٍ فَيُصِيبُ بِهِ مَنْ يَشَاءُ وَيَصْرِفُهُ عَنْ مَنْ يَشَاءُ يَكَادُ سَنَا بَرْقِهِ يَذْهَبُ بِالْأَبْصَارِ ٤٣

تحكي هذه الآية الكريمة صناعة المطر[١]، وهي مرئية للناظر، فالله الخالق يسوق قطع السحاب المتفرق ثم يؤلفه ليجعله سحاباً متراكماً؛ وهو أشبه بالجبال؛ ثم يخرج الوابل والمطر من خلال السحاب كنقط متفرقة، وبذلك يحصل النفع منها دون ضرر، فتمتلئ بها قيعان الأرض والخلجان، وتسيل بها الأودية، لتُنبت الأرض من كل زوج كريم. وتارة يُنزل الله من ذلك

[١] ذكرت وكالة ناسا العربية: المذنبات تمثل بقايا فجر تشكل نظامنا الشمسي قبل حوالي ٤.٦ مليار سنة، وهي تتألف بمعظمها من الجليد المغطى بمادة عضوية داكنة، وتمت الإشارة إلى هذه الأجسام بتعبير «كرات الثلج الملوثة»، وقد تحمل هذه الأجسام أدلة حول تشكّل نظامنا الشمسي؛ فربما تكون المُذنَّبات هي المسؤولة عن إحضار الماء. والمركبات العضوية، ولبنات بناء الحياة إلى الأرض في مراحل مبكرة من تاريخها، بالإضافة إلى الأجزاء الأخرى من النظام الشمسي. رابط

السحاب بَرَداً يُتلف ما يصيبه بحسب حكمه القدري وحكمته جلّ في علاه. ويكاد ضوء برق ذلك السحاب، بل من شدته يكاد يذهب بالأبصار.

ذكر السعدي: ألم تشاهد ببصرك، عظيم قدرة الله، وكيف ﴿ يُزْجِي ﴾؛ أي: يسوق ﴿ سَحَابًا ﴾؛ قطعا متفرقة، ﴿ ثُمَّ يُؤَلِّفُ ﴾ بين تلك القطع، فيجعله سحابا متراكماً، مثل الجبال. ﴿ فَتَرَى الْوَدْقَ ﴾؛ أي: الوابل والمطر، يخرج من خلال السحاب، نقطاً متفرقة، ليحصل بها الانتفاع من دون ضرر، فتمتلئ بذلك الغدران، وتتدفق الخلجان، وتسيل الأودية، وتنبت الأرض من كل زوج كريم، وتارة ينزل الله من ذلك السحاب بردا يتلف ما يصيبه.

﴿ فَيُصِيبُ بِهِ مَنْ يَشَاءُ وَيَصْرِفُهُ عَنْ مَنْ يَشَاءُ ﴾ بحسب ما اقتضاه حكمه القدري، وحكمته التي يحمد عليها، ﴿ يَكَادُ سَنَا بَرْقِهِ ﴾؛ أي: يكاد ضوء برق ذلك السحاب، من شدته ﴿ يَذْهَبُ بِالأَبْصَارِ ﴾؛ أليس الذي أنشأها وساقها لعباده المفتقرين، وأنزلها على وجه يحصل به النفع وينتفي به الضرر، كامل القدرة، نافذ المشيئة، واسع الرحمة؟.

وَأَقِيمُوا الصَّلَاةَ وَآتُوا الزَّكَاةَ وَأَطِيعُوا الرَّسُولَ لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ ﴿٥٦﴾

إنها الدعوة المستمرة الجامعة بين إقامة الصلاة وإيتاء الزكاة للوصل بين العبد وربه، وبين العبد وأخيه الإنسان، وبهذا تكون عمارة الأرض. وكل ذلك جاء به الرسول وأمر به كما كلفه الله تعالى لذلك وجبت طاعته صلى الله عليه وسلم.

لَيْسَ عَلَى الْأَعْمَى حَرَجٌ وَلَا عَلَى الْأَعْرَجِ حَرَجٌ وَلَا عَلَى الْمَرِيضِ حَرَجٌ وَلَا عَلَى أَنفُسِكُمْ أَن تَأْكُلُوا مِن بُيُوتِكُمْ أَوْ بُيُوتِ آبَائِكُمْ أَوْ بُيُوتِ أُمَّهَاتِكُمْ أَوْ بُيُوتِ إِخْوَانِكُمْ أَوْ بُيُوتِ أَخَوَاتِكُمْ أَوْ بُيُوتِ أَعْمَامِكُمْ أَوْ بُيُوتِ عَمَّاتِكُمْ أَوْ بُيُوتِ أَخْوَالِكُمْ أَوْ بُيُوتِ خَالَاتِكُمْ أَوْ مَا مَلَكْتُم مَّفَاتِحَهُ أَوْ صَدِيقِكُمْ لَيْسَ عَلَيْكُمْ جُنَاحٌ أَن تَأْكُلُوا جَمِيعًا أَوْ أَشْتَاتًا فَإِذَا دَخَلْتُم بُيُوتًا فَسَلِّمُوا عَلَى أَنفُسِكُمْ تَحِيَّةً مِّنْ عِندِ اللَّهِ مُبَارَكَةً طَيِّبَةً كَذَٰلِكَ يُبَيِّنُ اللَّهُ لَكُمُ الْآيَاتِ لَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ ﴿٦١﴾

تحُلُّ هذه الآية الكريمة الأكل للناس مما ملكوه، وعددت الآية الكريمة تلك الأماكن بحسب القربى، وهذا فيه كناية عن الوكالة.

وفيها إشارة إلى ﴿ما ملكتم مفاتحه﴾ كناية عن التملك والحيازة الحكمية.

ذكر الطبري: اختلف أهل التأويل في هذه الآية في المعنى الذي أنزلت فيه، فقال بعضهم: أنزلت هذه الآية ترخيصاً للمسلمين في الأكل مع العميان والعرجان والمرضى وأهل الزمانة من طعامهم، من أجل أنهم كانوا قد امتنعوا من أن يأكلوا معهم من طعامهم، خشية أن يكونوا قد أتوا بأكلهم معهم من طعامهم شيئاً مما نهاهم الله عنه بقوله: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لا تَأْكُلُوا أَمْوَالَكُمْ بَيْنَكُمْ بِالْبَاطِلِ إِلا أَنْ تَكُونَ تِجَارَةً عَنْ تَرَاضٍ مِنْكُمْ﴾.

ذكر القرطبي: قوله تعالى: أو ما ملكتم مفاتحه يعني مما اختزنتم وصار في قبضتكم. وعِظَم ذلك ما ملكه الرجل في بيته وتحت غلقه؛ وذلك هو تأويل الضحاك، وقتادة، ومجاهد. وعند جمهور المفسرين يدخل في الآية: الوكلاء والعبيد والأجراء.

قال ابن عباس: عني وكيل الرجل على ضيعته، وخازنه على ماله؛ فيجوز له أن يأكل مما هو قيِّم عليه. وذكر معمر، عن قتادة، عن عكرمة قال: إذا ملك الرجل المفتاح فهو خازن، فلا بأس أن يطعم الشيء اليسير.

ابن العربي: وللخازن أن يأكل مما يخزن إجماعاً؛ وهذا إذا لم تكن له أجرة، فأما إذا كانت له أجرة على الخزن حُرِّم عليه الأكل.

وقرأ سعيد بن جبير ﴿ملكتم﴾ بضم الميم وكسر اللام وشدها. وقرأ أيضا ﴿مفاتيحه﴾ بياء بين التاء والحاء، جمع مفتاح؛ وقد مضى في ﴿الأنعام﴾. وقرأ قتادة ﴿مفتاحه﴾ على الإفراد.

وقال ابن عباس: نزلت هذه الآية في الحارث بن عمرو، خرج مع رسول الله صلى الله عليه وسلم غازياً وخلف مالك بن زيد على أهله، فلما رجع وجده مجهوداً؛ فسأله عن حاله فقال: تحرجت أن آكل من طعامك بغير إذنك؛ فأنزل الله تعالى هذه الآية.

ذكر البغوي: قوله تعالى: ﴿ليس على الأعمى حرج ولا على الأعرج حرج ولا على المريض حرج﴾ الآية، اختلف العلماء في هذه الآية، فقال ابن عباس رضي الله عنهما لما أنزل الله عز وجل؛ قوله: ﴿يأيها الذين آمنوا لا تأكلوا أموالكم بينكم بالباطل﴾ النساء: ٢٩، تحرج المسلمون عن مؤاكلة المرضى والزمنى والعمي والعرج، وقالوا الطعام أفضل الأموال، وقد

نهانا الله عن أكل المال بالباطل. والأعمى لا يُبصر موضع الطعام الطيب، والأعرج لا يتمكن من الجلوس، ولا يستطيع المزاحمة على الطعام، والمريض يضعف عن التناول فلا يستوفي الطعام؛ فأنزل الله هذه الآية وعلى هذا التأويل يكون "على" بمعنى "في"؛ أي: ليس في الأعمى، يعني: ليس عليكم في مؤاكلة الأعمى والأعرج والمريض.

ذكر السعدي: فيها دليل على أن الأب يجوز له أن يأخذ ويتملك من مال ولده ما لا يضره، لأن الله سمى بيته بيتاً للإنسان. وفيها دليل على أن المتصرف في بيت الإنسان، كزوجته، وأخته ونحوهما، يجوز لهما الأكل عادة، وإطعام السائل المعتاد. وفيها دليل، على جواز المشاركة في الطعام، سواء أكلوا مجتمعين، أو متفرقين، ولو أفضى ذلك إلى أن يأكل بعضهم أكثر من بعض.

ذكر الطنطاوي: يبدو لنا أن الآية الكريمة نزلت لتعليم المؤمنين ألواناً متعددة من الآداب التي شرعها الله تعالى لهم، ويسرها لهم بفضله وإحسانه، حتى يعلموا أن شريعته سبحانه مبنية على اليسر لا على العسر، وعلى التخفيف ورفع الحرج، لا على التشديد والتضييق.

وذكر أيضاً: ليس عليكم أيها المؤمنون حرج أو إثم في أن تأكلوا مجتمعين أو متفرقين، وقد كان بعضهم من عاداته أن لا يأكل منفرداً، فإن

لم يجد من يأكل معه عاف الطعام، فرفع الله تعالى هذا الحرج المتكلف، ورد الأمر إلى ما تقتضيه شريعة الإسلام من بساطة ويسر وعدم تكلف، فأباح لهم أن يأكلوا فرادى ومجتمعين.

فالجملة الكريمة بيان للحالة التي يجوز عليها الأكل، بعد بيان البيوت التي يجوز الأكل منها والمتأمل في هذه الآية الكريمة يراها قد اشتملت على أحكم الأداء للترتيب اللفظي والموضوعي، فقد بدأت ببيت الإنسان نفسه، ثم بيوت الآباء، فالأمهات، فالإخوة، فالأخوات، فالأقارب، فالبيوت التي يملكون التصرف فيها فبيوت الأصدقاء.

تفسير سورة الفرقان

رقم السورة: ٢٥ وهي مكية وعدد آياتها: ٧٧.

ذكر الطنطاوي: اهتمت السورة الكريمة بما يأتي:

(أ) أن السورة الكريمة قد ساقت ألوانا من الأدلة على قدرة الله تعالى وعلى وجوب إخلاص العبادة له، وعلى الثناء عليه سبحانه بما هو أهله.

(ب) أن السورة الكريمة زاخرة بالآيات التي تُدخل الأنس والتسرية والتسلية والتثبيت على قلب النبي صلّى الله عليه وسلّم بعد أن اتهمه المشركون بما هو بريء منه، وسخروا منه ومن دعوته، ووصفوا القرآن بأنه أساطير الأولين، واستنكروا أن يكون النبي من البشر. وهذه التهم الباطلة فيما حكاه الله عنهم.

وهكذا نرى السورة الكريمة زاخرة بالحديث عن الشبهات التي أثارها المشركون حول النبي صلّى الله عليه وسلّم ودعوته، وزاخرة أيضاً بالرد عليها رداً يُبطلها، ويُزهقها، ويُسلي النبي صلى الله عليه وسلّم عما أصابه منهم، ويزيد المؤمنين إيماناً على إيمانهم.

(ج) أن السورة الكريمة مشتملة على آيات كثيرة، تبين ما سيكون عليه المشركون يوم القيامة من همٍّ وغمٍّ وكربٍّ وحسرةٍ وندامةٍ وسوءِ مصير،

كما تبين ما أعده الله تعالى لعباده المؤمنين من عاقبة حسنة، ومن جنات تجرى من تحتها الأنهار.

وهكذا نرى السورة تسوق آيات كثيرة في المقارنة بين مصير الكافرين ومصير المؤمنين، وليهلَك من هلك عن بيّنة ويحيا من حي عن بينة.

الَّذِي لَهُ مُلْكُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَلَمْ يَتَّخِذْ وَلَداً وَلَمْ يَكُن لَّهُ شَرِيكٌ فِي الْمُلْكِ وَخَلَقَ كُلَّ شَيْءٍ فَقَدَّرَهُ تَقْدِيراً (٢)

خلق الله كل شيء فقدره تقديراً، والتقدير مرحلة سابقة للصنع والخلق، وهي أشبه بالمرحلة التخطيطية، والله تعالى يخلق من العدم ويخلق بـ ﴿كن فيكون﴾، وفي هذه الآية يُعلمنا الله تعالى التدبير والتقدير.

جاء في تفسير البغوي: قدر لكل شيء تقديراً من الأجل والرزق، فجَرَت المقادير على ما خلق.

جاء في تفسير ابن عاشور: جعله على مقدار واحد معيّن لا مجرد مصادفة، محكماً مضبوطاً صالحاً لما خلق لأجله لا تفاوت فيه ولا خلل، وهذا يقتضي أنه خلقه بإرادة وعلم على كيفية أرادها وعيّنها.

وَاتَّخَذُوا مِن دُونِهِ آلِهَةً لَّا يَخْلُقُونَ شَيْئًا وَهُمْ يُخْلَقُونَ وَلَا يَمْلِكُونَ لِأَنفُسِهِمْ ضَرًّا وَلَا نَفْعًا وَلَا يَمْلِكُونَ مَوْتًا وَلَا حَيَاةً وَلَا نُشُورًا ﴿٣﴾

الإله خالق، والإله مالك، وملكه يكون بمقدرته على أن يحيي ويميت وينفع ويضرّ. أما تملك الأشياء فيمكن أن يكون لغير الله؛ لأنه بمثابة تفويض من الله تعالى لغيره ممن خلقه، وأبقى المولى لذاته العلية مطلق الملكية التي فيها:

(١) النفع.

(٢) الضرّ.

(٣) الحياة.

(٤) الموت.

لذلك فملِك الناس للأشياء دون ملك الخصائص الأربعة المذكورة تبقيها مِلكية من باب الاستخلاف كما جاء في غير آية.

ذكر القرطبي: لا يملكون لأنفسهم ضرّاً ولا نفعاً أي لا دفع ضرّ وجلب نفع... ولا يملكون موتاً ولا حياة ولا نشوراً أي لا يميتون أحدا، ولا يحيونه.

وَقَالُوا مَالِ هَٰذَا الرَّسُولِ يَأْكُلُ الطَّعَامَ وَيَمْشِي فِي الْأَسْوَاقِ ۙ لَوْلَا أُنزِلَ إِلَيْهِ مَلَكٌ فَيَكُونَ مَعَهُ نَذِيرًا ﴿٧﴾

استغرب الكفار كون الرسول بشر يأكل ويمشي في الأسواق، فالأكل فيه قضاء حاجة، والسوق مرتع البيع والشراء لما يحتاجه الناس، وذلك مما يعتبر نقصاً في الكمال من وجهة نظر الكفار، فهذا ليس فيه تنزيه برأيهم ولا يليق برسولٍ حسب معتقدهم.

ذكر الطبري: دخول الأسواق مباح للتجارة وطلب المعاش. وكان عليه السلام يدخلها لحاجته، ولتذكرة الخلق بأمر الله ودعوته، ويعرض نفسه فيها على القبائل، لعل الله أن يرجع بهم إلى الحق.

ذكر البغوي: ﴿ وقالوا مال هذا الرسول ﴾ يَعنُون محمداً صلى الله عليه وسلم، ﴿ يأكل الطعام ﴾ كما نأكل نحن، ﴿ ويمشي في الأسواق ﴾ يلتمس المعاش كما نمشي، فلا يجوز أن يمتاز عنا بالنبوة، وكانوا يقولون له: لست أنت بملَك ولا بملِك، لأنك تأكل والملَك لا يأكل، ولست بملِك لأن الملِك لا يتسوق، وأنت تتسوق وتتبذل. وما قالوه فاسد؛ لأن أكله الطعام لكونه آدمياً، ومشيه في الأسواق لتواضعه، وكان ذلك صفة له، وشيء من ذلك لا ينافي النبوة.

﴿ لولا أنزل إليه ملك ﴾ فيصدقه، ﴿ فيكون معه نذيرا ﴾ داعياً.

أَوْ يُلْقَىٰ إِلَيْهِ كَنزٌ أَوْ تَكُونُ لَهُ جَنَّةٌ يَأْكُلُ مِنْهَا ۚ وَقَالَ الظَّالِمُونَ إِن تَتَّبِعُونَ إِلَّا رَجُلًا مَّسْحُورًا ﴿٨﴾

يعتقد أولئك الكفار أن الرسول لابد له من كنزٍ وجناتٍ يأكل منها، لكن المال؛ سواء أكان كنزاً أم جناناً هي من حاجات البشر وليست من ضرورياتهم التي لا يمكنهم الحياة دونها، والرسول صلى الله عليه وسلم اختار حياة التواضع والبساطة لا التكلف والغنى.

ذكر الطنطاوي: قال صاحب الكشاف عند تفسيره لهذه الآيات: إن صح أنه رسول الله فما باله حاله كحالنا ﴿يأكل الطعام﴾ كما نأكل، ويتردد في الأسواق لطلب المعاش كما نتردد. يَعنُون أنه كان يجب أن يكون مَلِكاً مستغنياً عن الأكل والتعيش.

ثم نزلوا عن اقتراحهم أن يكون مَلِكاً إلى اقتراح أن يكون إنساناً معه مَلَك، حتى يتساندا في الإنذار والتخويف.

ثم نزلوا أيضا فقالوا: وإن لم يكن مرفوداً بمَلَك، فليكن مرفوداً بكنز يُلقى إليه من السماء يستظهر به ولا يحتاج إلى تحصيل المعاش.

ثم نزلوا فاقتنعوا بأن يكون رجلاً له بستان يأكل منه ويرتزق.

تَبَارَكَ الَّذِي إِن شَاءَ جَعَلَ لَكَ خَيْراً مِّن ذَلِكَ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِن تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ وَيَجْعَل لَّكَ قُصُوراً ﴿٩﴾

تبارك الله تعالى الذي لو شاء؛ لجعل لرسوله خيراً من ذلك من الجنات والقصور، فهو المالك الحقيقي وهو القادر على ذلك من دون غيره.

وَمَا أَرْسَلْنَا قَبْلَكَ مِنَ الْمُرْسَلِينَ إِلَّا إِنَّهُمْ لَيَأْكُلُونَ الطَّعَامَ وَيَمْشُونَ فِي الْأَسْوَاقِ وَجَعَلْنَا بَعْضَكُمْ لِبَعْضٍ فِتْنَةً أَتَصْبِرُونَ وَكَانَ رَبُّكَ بَصِيراً ﴿٢٠﴾

إذاً هي سنة الله في رسله عليهم الصلاة والسلام أنهم بشرٌ لهم حاجاتهم البشرية، واحتياجهم للأسواق شأنه شأن غيرهم فيه.

ذكر الطبري: هذه الآية أصل في تناول الأسباب وطلب المعاش بالتجارة والصناعة وغير ذلك ... أخبر الله تعالى في كتابه عن أصفيائه ورسله وأنبيائه بالأسباب والاحتراف؛ فقال وقوله الحق: وعلمناه صنعة لبوس لكم. وقال: وما أرسلنا قبلك من المرسلين إلا إنهم ليأكلون الطعام ويمشون في الأسواق، قال العلماء: أي يتجرون ويحترفون ...

القول بالأسباب والوسائط سنة الله وسنة رسوله، وهو الحق المبين ... خاطب موسى الكليم ﴿اضرب بعصاك البحر﴾ وقد كان قادراً على فلق

البحر دون ضرب عصا. وكذلك مريم عليها السلام ﴿وهزي إليك بجذع النخلة﴾ وقد كان قادراً على سقوط الرطب دون هز ولا تعب ...

إن الرزق هنا: المطر بإجماع أهل التأويل؛ بدليل قوله: ﴿وينزل لكم من السماء رزقاً﴾، وقال: ﴿ونزلنا من السماء ماء مباركا فأنبتنا به جنات وحب الحصيد﴾، ولم يُشاهد يُنزل من السماء على الخلق أطباق الخبز ولا جفان اللحم؛ بل الأسباب أصل في وجود ذلك، ومعنى قوله عليه السلام: اطلبوا الرزق في خبايا الأرض أي بالحرث والحفر والغرس. وقد يُسمى الشيء بما يئول إليه، وسُمي المطر رزقاً لأنه عنه يكون الرزق، وذلك مشهور في كلام العرب. وقال عليه السلام: لأن يأخذ أحدكم حبله فيحتطب على ظهره خير له من أن يسأل أحداً أعطاه أو منعه وهذا فيما خرج من غير تعب من الحشيش والحطب. ولو قدر رجل بالجبال منقطعاً عن الناس لما كان له بد من الخروج إلى ما تخرجه الآكام وظهور الأعلام حتى يتناول من ذلك ما يعيش به؛ وهو معنى قوله عليه السلام: لو أنكم كنتم توكلون على الله حق توكله لرزقتم كما ترزق الطير تغدو خماصاً وتروح بطاناً فغدوها ورواحها سبب؛ فالعجب العجب ممن يدعي التجريد والتوكل على التحقيق، ويقعد على ثنيات الطريق، ويدع الطريق المستقيم، والمنهج الواضح القويم.

ثبت في البخاري عن ابن عباس قال: كان أهل اليمن يحجون ولا يتزودون ويقولون نحن المتوكلون، فإذا قدموا سألوا الناس؛ فأنزل الله تعالى وتزودوا. ولم يُنقل عن النبي صلى الله عليه وسلم وأصحابه رضوان الله عليهم أنهم خرجوا إلى أسفارهم بغير زاد، وكانوا المتوكلين حقاً. والتوكل اعتماد القلب على الرب في أن يُلِّم شعثه ويجمع عليه أربه؛ ثم يتناول الأسباب بمجرد الأمر، وهذا هو الحق.

سأل رجل الإمام أحمد بن حنبل فقال: إني أريد الحج على قدم التوكل. فقال: اخرج وحدك؛ فقال: لا، إلا مع الناس. فقال له: أنت إذن متكل على أجربتهم. وقد أتينا على هذا في كتاب (قمع الحرص بالزهد والقناعة ورد ذل السؤال بالكسب والصناعة).

وذكر أيضاً: قال ابن العربي: أما أكل الطعام فضرورة الخلق لا عار ولا دَرَك فيه، وأما الأسواق فسمعت مشيخة أهل العلم يقولون: لا يدخل إلا سوق الكتب والسلاح، وعندي أنه يدخل كل سوق للحاجة إليه ولا يأكل فيها؛ لأن ذلك إسقاط للمروءة وهدم للحشمة.

وذكر أيضاً: إن كل واحد مُختَبر بصاحبه، فالغني ممتحن بالفقير، عليه أن يواسيه ولا يسخر منه. والفقير ممتحن بالغني، عليه ألا يحسده ولا يأخذ منه إلا ما أعطاه، وأن يصبر كل واحد منهما على الحق؛ فالفتنة أن يحسد

المبتلى المعافى، ويحقر المعافى المبتلى. والصبر: أن يحبس كلاهما نفسه، هذا عن البطر، وذاك عن الضجر.

وَلَقَدْ آتَيْنَا مُوسَى الْكِتَابَ وَجَعَلْنَا مَعَهُ أَخَاهُ هَارُونَ وَزِيراً (٣٥)
فَقُلْنَا اذْهَبَا إِلَى الْقَوْمِ الَّذِينَ كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا فَدَمَّرْنَاهُمْ تَدْمِيراً (٣٦)

يستفاد من الآية الكريمة ضرورة بناء فريق عمل يُساند بعضه بعضاً، وبعد أن يعلم فريق العمل المهمة الملقاة على عاتقه، يأتي التكليف واضحاً بالمهمة، ولا يُترك فريق العمل دون قوة وتدبير رب العمل.

ويلاحظ أن التدمير جزاء المكذبين وهذا عقاب دنيوي أليم.

ذكر ابن عاشور: الوزير: المؤازر وهو المعاون المظاهر، مشتق من الأزْر وهو القوة. وأصل الأزر: شدّ الظهر بإزارٍ عند الإقبال على عمل ذي تعب، وقد تقدم في سورة طَه. وكان هارون رسولاً ثانياً ومُوسى هو الأصل. والقوم هم قبط مصر قوم فرعون.

وذكر أيضاً: أن موسى وهارون بلّغا الرسالة وأظهر الله منهما الآيات فكذب بها قوم فرعون فاستحقوا التدمير تعريضاً بالمشركين في تكذيبهم.

وَقَوْمَ نُوحٍ لَّمَّا كَذَّبُوا الرُّسُلَ أَغْرَقْنَاهُمْ وَجَعَلْنَاهُمْ لِلنَّاسِ آيَةً
وَأَعْتَدْنَا لِلظَّالِمِينَ عَذَاباً أَلِيماً (٣٧) وَعَاداً وَثَمُودَ وَأَصْحَابَ الرَّسِّ

وَقُرُوناً بَيْنَ ذَلِكَ كَثِيراً (٣٨) وَكُلّاً ضَرَبْنَا لَهُ الْأَمْثَالَ وَكُلّاً تَبَّرْنَا تَتْبِيراً (٣٩)

وكذلك حال قوم نوح لما كذبوا؛ أُهلكوا بالغرق وسينتظرهم عذاب أليم. وعاد وثمود وأصحاب الرس وغيرهم كثير؛ فهذه أمثلة شاهدة للاعتبار.

ذكر الطنطاوي: بيان لمظهر من مظاهر رحمة الله تعالى: حيث إنه سبحانه لا يُهلك الأمم إلا بعد أن يسوق لها ما يرشدها، فتأبى إلا السير في طريق الغيّ والعصيان ... أي: وأنذرنا كل فريق من القرون الماضية المكذبة، وضربنا له الأمثال الحكيمة الكفيلة بإرشاده إلى طريق الحق، ولكنه استحب العمى على الهدى، والضلالة على الهداية، فكانت عاقبته كما قال تعالى بعد ذلك: ﴿وَكُلاًّ تَبَّرْنا تَتْبِيراً﴾.

وَهُوَ الَّذِي جَعَلَ لَكُمُ اللَّيْلَ لِبَاساً وَالنَّوْمَ سُبَاتاً وَجَعَلَ النَّهَارَ نُشُوراً (٤٧)

لقد خلق الله تعالى الليل والنهار فقدّر النهار لباساً وسَكناً لمخلوقاته ينامون فيه، ويسبتون، وفي ذلك نفعٌ وخيرٌ كثيرٌ لهم ولأجسادهم، وجعل النهار لينتشروا فيه عملاً وضرباً في الأرض ليبتغوا الفضل فيه.

ذكر السعدي: من رحمته بكم ولطفه أن جعل الليل لكم بمنزلة اللباس الذي يغشاكم، حتى تستقروا فيه وتهدؤوا بالنوم وتسبت حركاتكم؛ أي: تنقطع عند النوم، فلولا الليل لما سكن العباد ولا استمروا في تصرفهم فضرهم ذلك غاية الضرر، ولو استمر أيضا الظلام لتعطلت عليهم معايشهم ومصالحهم، ولكنه جعل النهار نشوراً ينتشرون فيه لتجاراتهم وأسفارهم وأعمالهم فيقوم بذلك ما يقوم من المصالح.

ذكر الطنطاوي: وهكذا تتقلب الحياة بالإنسان وهو تارة تحت جنح الليل الساتر، وتارة مستغرق في نومه، وتارة يكدح لطلب معاشه.

وَهُوَ الَّذِي أَرْسَلَ الرِّيَاحَ بُشْرًا بَيْنَ يَدَيْ رَحْمَتِهِ ۚ وَأَنزَلْنَا مِنَ السَّمَاءِ مَاءً طَهُورًا ﴿٤٨﴾

أرسل الله تعالى الرياح مصدراً للطاقة يستبشر بها الناس لأنها نذير المطر الذي يهطل من السماء طاهراً نظيفاً؛ فيحيا به جميع المخلوقات؛ فبدون الماء تنعدم الحياة.

(جعل الله وسيلة الطهارة الأولى هي الماء، وأثبتت الدراسات الحديثة بأن الماء هو الوحيد الطاهر المطهر لغيره، لمميزات فيه كثيرة، أهمها: أنه وسط غير ملائم لنمو الكائنات الدقيقة متى كان نقيا، لعدم احتوائه على

العناصر الغذائية اللازمة لنموها، ولأن درجة حرارة الماء غير مناسبة لهذا النمو، كما أن درجة الضغط الأزموزي للماء أقل منه عند هذه الكائنات؛ مما يؤدي إلى موتها وهلاكها؛ لذا فالماء في ذاته طهور)[1].

ذكر السعدي: هو وحده الذي رحم عباده وأدرّ عليهم رزقه بأن أرسل الرياح مبشرات بين يدي رحمته، وهو المطر فثار بها السحاب وتألف وصار كِسفا وألقحته وأدرّته بإِذن آمرها والمتصرف فيها؛ ليقع استبشار العباد بالمطر قبل نزوله وليستعدوا له قبل أن يفاجئهم دفعة واحدة.

﴿وَأَنْزَلْنَا مِنَ السَّمَاءِ مَاءً طَهُورًا﴾ يُطهّر من الحدث والخبث ويُطهر من الغش والأدناس، وفيه بركة من بركته أنه أنزله ليحيي به بلدة ميتاً فتختلف أصناف النوابت والأشجار فيها مما يأ كل الناس والأنعام.

﴿وَنُسْقِيَهُ مِمَّا خَلَقْنَا أَنْعَامًا وَأَنَاسِيَّ كَثِيرًا﴾؛ أي: نسقيكموه أنتم وأنعامكم، أليس الذي أرسل الرياح المبشرات وجعلها في عملها متنوعات، وأنزل من السماء ماء طهوراً مباركاً فيه رزق العباد ورزق بهائمهم، هو الذي يستحق أن يُعبد وحده ولا يُشرك معه غيره؟

لِّنُحْيِيَ بِهِ بَلْدَةً مَّيْتًا وَنُسْقِيَهُ مِمَّا خَلَقْنَا أَنْعَامًا وَأَنَاسِيَّ كَثِيرًا ﴿٤٩﴾

[1] مرجع سابق، بورباب.

هذا الماء يُحيي به الله البلاد الميتة التي جفت تربتها وقست، وهذا الماء هو سُقيا الأنعام وبه تحيا، وسُقيا الناس وبه يحيون.

ذكر الطنطاوي: فإن قلت: لم قدم إحياء الأرض وسَقي الأنعام على سَقي الأناسي؟ قلت: لأن حياة الأناسي بحياة أرضهم وحياة أنعامهم، فقدم ما هو سبب حياتهم وتعيّشهم على سقيهم، ولأنهم إذا ظفروا بما يكون سقياً لأرضهم ومواشيهم لم يعدموا سُقياهم.

وَلَقَدْ صَرَّفْنَاهُ بَيْنَهُمْ لِيَذَّكَّرُوا فَأَبَى أَكْثَرُ النَّاسِ إِلَّا كُفُورًا (٥٠)

صرّف الله هذا كله تذكرة للناس وعبرة لهم، لكن أكثرهم أبى إلا الكفر والإعراض.

ذكر الطبري: يقول تعالى ذكره: ولقد قسمنا هذا الماء الذي أنزلناه من السماء طهوراً لنُحيي به الميِّت من الأرض بين عبادي، ليتذكروا نعمي عليهم، ويشكروا أيادي عندهم وإحساني إليهم؛

﴿ فَأَبَى أَكْثَرُ النَّاسِ إِلا كُفُوراً ﴾ يقول: إلا جحوداً لنعمي عليهم، وأياديّ عليهم.

ذكر القرطبي: قيل: صرفناه بينهم وابلاً وطشاً وطلاً ورهاماً، الجوهري: الرهام الأمطار اللينة، ورذاذاً. وقيل: تصريفه تنويع الانتفاع به في الشرب والسقي والزراعات به والطهارات وسقي البساتين والغسل وشبهه.

ذكر ابن كثير: قال عمر مولى غفرة: كان جبريل عليه السلام في موضع الجنائز؛ فقال له النبي صلى الله عليه وسلم: "يا جبريل: إني أحب أن أعلم أمر السحاب؟ قال: فقال جبريل: يا نبي الله، هذا ملك السحاب فسله. فقال: تأتينا صكاك مختمة: اسق بلاد كذا وكذا، كذا وكذا قطرة. رواه ابن حاتم، وهو حديث مرسل ... عن رسول الله صلى الله عليه وسلم أنه قال لأصحابه يوماً على أثر سماء أصابتهم من الليل: "أتدرون ماذا قال ربكم؟ قالوا: الله ورسوله أعلم. قال: قال: أصبح من عبادي مؤمن بي وكافر، فأما من قال: مُطرنا بفضل الله ورحمته فذاك مؤمن بي كافر بالكوكب. وأما من قال: مُطرنا بنوء كذا وكذا، فذاك كافر بي، مؤمن بالكوكب".

وَهُوَ الَّذِي مَرَجَ الْبَحْرَيْنِ هَٰذَا عَذْبٌ فُرَاتٌ وَهَٰذَا مِلْحٌ أُجَاجٌ وَجَعَلَ بَيْنَهُمَا بَرْزَخًا وَحِجْرًا مَّحْجُورًا ﴿٥٣﴾

لقد خلق الله تعالى حواجز بين المياه العذبة والمياه المالحة أي مياه الأنهار ومياه البحار؛ فلا يطغى أحدهما على الآخر؛ فلكل منافعه المادية والمعنوية للبشر، وهذا كله من تقدير الله تعالى وحكمته.

ذكر الطبري: يقول تعالى ذكره: والله الذي خلط البحرين، فأمرج أحدهما في الآخر، وأفاضه فيه. وأصل المرج الخلط ... يخلط ماء البحر العذب بماء البحر الملح الأجاج، ثم يمنع الملح من تغيير العذب عن عذوبته، وإفساده إياه بقضائه وقدرته، لئلا يضرّ إفساده إياه بركبان الملح منهما؛ فلا يجدوا ماء يشربونه عند حاجتهم إلى الماء؛ فقال جلّ ثناؤه: ﴿ وَجَعَلَ بَيْنَهُمَا بَرْزَخًا ﴾ يعني حاجزاً يمنع كل واحد منهما من إفساد الآخر.

﴿ وَحِجْرًا مَحْجُورًا ﴾ يقول: وجعل كلّ واحد منهما حراماً مُحرّماً على صاحبه أن يُغيره ويُفسده.

قُلْ مَا أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ مِنْ أَجْرٍ إِلَّا مَن شَاءَ أَن يَتَّخِذَ إِلَىٰ رَبِّهِ سَبِيلاً ﴿٥٧﴾

لكل عمل أجر، لكن عمل الرسل والأنبياء لا أجر عليه إلا الهداية إلى الله تعالى كما ذكرت غير آية.

تَبَارَكَ الَّذِي جَعَلَ فِي السَّمَاءِ بُرُوجاً وَجَعَلَ فِيهَا سِرَاجاً وَقَمَراً مُّنِيراً ﴿٦١﴾

تبارك الله الخالق الذي جعل في السماء أفلاكاً ونجوماً، وجعل فيها الشمس مصدر الطاقة منها النور والحرارة، والقمر ذو المنافع الكثيرة على الأرض كالمدِّ والجزر وغيرها من المنافع.

وَالَّذِينَ إِذَا أَنفَقُوا لَمْ يُسْرِفُوا وَلَمْ يَقْتُرُوا وَكَانَ بَيْنَ ذَلِكَ قَوَاماً ﴿٦٧﴾

من صفات عباد الرحمن أنهم معتدلون في صرفهم؛ فلا يسرفوا لأن السرف مؤداه تضخم الاقتصاد، ولا يقتروا ويبخلوا؛ لأن ذلك مؤداه انكماش الاقتصاد؛ بل هم يتوسطون تلكما الحالتين ليكون الاقتصاد منتعشاً في حركة مستمرة لا يتوقف فيها حاله ولا تكسد فيها أسواقه.

تشير هذه الآية إلى ترشيد الاستهلاك وإبقاء الإنفاق متوسطاً؛ ما يُبقي دورة الاقتصاد تسير في حركة معتدلة، وفي ذلك تكون ديمومة الاستقرار الاقتصادي.

ذكر القرطبي: قال ابن عباس: من أنفق مائة ألف في حق فليس بسرف، ومن أنفق درهما في غير حقه فهو سرف، ومن منع من حق عليه فقد قتر. وقاله مجاهد وابن زيد وغيرهما.

وذكر أيضاً: لهذا ترك رسول الله صلى الله عليه وسلم أبا بكر الصديق أن يتصدق بجميع ماله؛ لأن ذلك وسط بنسبة جَلده وصبره في الدين، ومنع غيره من ذلك.

وذكر أيضاً: قال عبد الملك بن مروان لعمر بن عبد العزيز حين زوجه ابنته فاطمة: ما نفقتك؟ فقال له عمر: الحسنة بين سيئتين، ثم تلا هذه الآية.

وقال عمر بن الخطاب: كفى بالمرء سرفاً ألا يشتهي شيئاً إلا اشتراه فأكله.

وفي سنن ابن ماجه عن أنس بن مالك قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: إن من السرف أن تأكل كل ما اشتهيت.

وقال أبو عبيدة: لم يزيدوا على المعروف ولم يبخلوا.

ذكر الطنطاوي: كان إنفاقهم ﴿قواما﴾ أي وسطاً بين الإسراف والتقتير والتبذير والبخل؛ فهم في حياتهم نموذج يُقتدى به في القصد والاعتدال والتوازن. وذلك لأن الإسراف والتقتير كلاهما مفسد لحياة الأفراد والجماعات والأمم، لأن الإسراف تضييع للمال في غير محله. والتقتير إمساك له عن وجوهه المشروعة، أما الوسط والاعتدال في انفاق المال؛ فهو سمة من سمات العقلاء الذين على أكتافهم تنهض الأمم، وتسعد الأفراد والجماعات.

تفسير سورة الشعراء

رقم السورة: ٢٦ وهي مكية وعدد آياتها: ٢٢٧.

ذكر الطنطاوي: بعد أن تحدثت السورة في مطلعها عن سمو منزلة القرآن الكريم، وعن موقف المشركين من الرسول صلّى الله عليه وسلّم أتبعت ذلك بالحديث عن قصة موسى مع فرعون ومع بني إسرائيل، ثم عن قصة إبراهيم مع قومه، ثم عن قصة نوح مع قومه، ثم عن قصة هود مع قومه، ثم عن قصة صالح مع قومه، ثم عن قصة لوط مع قومه، ثم عن قصة شعيب مع قومه.

ثم تحدثت في أواخرها عن نزول الروح الأمين بالقرآن الكريم على قلب النبي صلّى الله عليه وسلّم، وساقت ألواناً من التسلية والتعزية للرسول صلّى الله عليه وسلّم بسبب تكذيب الكافرين له، وأرشدته إلى ما يجب عليه نحو عشيرته الأقربين، ونحو المؤمنين، وبشّرت أتباعه بالنصر وأنذرت أعداءه بسوء المصير.

والسورة الكريمة بعد ذلك تمتاز بقصر آياتها، وبجمعها لموضوعات السور المكية، من إقامة الأدلة على وحدانية الله تعالى، وعلى أن البعث حق، وعلى صدق النبي صلّى الله عليه وسلّم بما يُبلغه عن ربه، وعلى أن هذا

القرآن من عند الله، كما نرى أسلوبها يمتاز بالترغيب والترهيب، الترغيب للمؤمنين في العمل الصالح، والترهيب للمشركين بسوء المصير إذا ما استمروا على شركهم.

وقد ختمت كل قصة من قصص هذه السورة الكريمة بقوله تعالى: ﴿إِنَّ فِي ذلِكَ لَآيَةً وَما كانَ أَكْثَرُهُمْ مُؤْمِنِينَ. وَإِنَّ رَبَّكَ لَهُوَ الْعَزِيزُ الرَّحِيمُ﴾ وقد تكرر ذلك فيها ثماني مرات.

أَوَلَمْ يَرَوْا إِلَى الْأَرْضِ كَمْ أَنبَتْنَا فِيهَا مِن كُلِّ زَوْجٍ كَرِيمٍ (٧)

أنبت الله الخالق من الأرض جميع أصناف النباتات، مما يأكل الناس وأنعامهم.

ذكر القرطبي: رُوي عن الشعبي أنه قال: الناس من نبات الأرض فمن صار منهم إلى الجنة فهو كريم، ومن صار إلى النار فهو لئيم.

ذكر الطنطاوي: أعمى هؤلاء الجاحدون عن مظاهر قدرة الله تعالى ورحمته بهم، ولم يروا بأعينهم كيف أخرجنا النبات من الأرض، وجعلنا فيها أصنافاً وأنواعاً لا تُحصى من النباتات الكريمة الجميلة المشتملة على الذكر والأنثى.

فالآية الكريمة توبيخ لهم على إعراضهم عن الآيات التكوينية، بعد توبيخهم على إعراضهم عن الآيات التنزيلية، وتحريض لهم على التأمل فيما فوق الأرض من نبات مختلف الأنواع والأشكال والثمار. لعل هذا التأمل ينبه حِسَّهم الخامد وذهنهم البليد وقلبهم المطموس.

﴿فَلَمَّا جَاءَ السَّحَرَةُ قَالُوا لِفِرْعَوْنَ أَئِنَّ لَنَا لَأَجْرًا إِن كُنَّا نَحْنُ الْغَالِبِينَ ﴿٤١﴾ قَالَ نَعَمْ وَإِنَّكُمْ إِذًا لَّمِنَ الْمُقَرَّبِينَ ﴿٤٢﴾﴾

لكل عمل أجر حتى لو كان عملاً ليس فيه خير كفعل السحر، ويبدو أن التقرب للحاكم كان جزءً من الصفقة.

ذكر ابن عاشور: سؤالهم عن استحقاق الأجر إدلال بخِبرتهم وبالحاجة إليهم؛ إذ علموا أن فرعون شديد الحرص على أن يكونوا غالبين وخافوا أن يُسَخِّرهم فرعون بدون أجر؛ فشرطوا أجرهم من قبل الشروع في العمل ليقيدوه بوعده.

﴿وَالَّذِي هُوَ يُطْعِمُنِي وَيَسْقِينِ ﴿٧٩﴾﴾

في قول إبراهيم عليه السلام: أن المُطعم والساقي هو الله؛ لأنه الخالق لهذه النِعم الضرورية لحياة البشر.

ذكر ابن كثير: هو خالقي ورازقي بما سخر ويسر من الأسباب السماوية والأرضية فساق المزن وأنزل الماء وأحيا به الأرض وأخرج به من كل الثمرات رزقاً للعباد وأنزل الماء عذباً زلالاً يُسقيه مما خلق أنعاماً وأناسي كثيراً.

وَإِذَا مَرِضْتُ فَهُوَ يَشْفِينِ ﴿٨٠﴾

كذلك قوله عليه السلام: إن مرض الناس؛ فإن الشفاء حاصل بأمر الله تعالى، وبالتالي فما الدواء إلا وسيلة، وهو بحد ذاته من مخلوقات الله.

ذكر الطنطاوي: أضاف المرض إلى نفسه في قوله: ﴿وَإِذا مَرِضْتُ فَهُوَ يَشْفِينِ﴾، وإن كان الكل من الله تعالى تأدباً مع خالقه عز وجل وشكراً له سبحانه على نعمة الخلق والهداية.

والإطعام والإسقاء والشفاء.

وَالَّذِي يُمِيتُنِي ثُمَّ يُحْيِينِ ﴿٨١﴾

كذلك قوله عليه السلام: إن الله تعالى هو الذي يميت ويحيي الناس.

ذكر القرطبي: والذي يميتني ثم يحيين يريد البعث وكانوا ينسبون الموت إلى الأسباب؛ فبين أن الله هو الذي يميت ويحيي. وكله بغير ياء: يهدين يشفين لأن الحذف في رءوس الآي حسن لتتفق كلها. وقرأ ابن أبي

إسحاق على جلالته ومحله من العربية هذا كله بالياء؛ لأن الياء اسم وإنما دخلت النون لعلة؛ فإن قيل: فهذه صفة لجميع الخلق فكيف جعلها إبراهيم دليلاً على هدايته ولم يهتد بها غيره؟ قيل: إنما ذكرها احتجاجاً على وجوب الطاعة؛ لأن من أنعم وجب أن يُطاع ولا يُعصى ليلتزم غيره من الطاعة ما قد التزمها؛ وهذا إلزام صحيح.

ذكر الطنطاوي: سبحانه الذي بقدرته وحده أن يميتني عند حضور أجلي، ثم يعيدني إلى الحياة مرة أخرى يوم البعث والحساب. وجاء العطف بـ﴿ ثُمَّ ﴾ في قوله ﴿ ثُمَّ يُحْيِينِ ﴾ لاتساع الأمر بين الإماتة في الدنيا والإحياء في الآخرة.

يَوْمَ لَا يَنفَعُ مَالٌ وَلَا بَنُونَ ﴿٨٨﴾

المال والبنون زينة الحياة الدنيا وهذا ما ذكرته غير آية، لكن يوم الدين لا تنفع هذه الزينة أحداً من الناس؛ إلا إن كانت قد استخدمت في الدنيا كما أمر الله تعالى.

ذكر ابن عاشور: ﴿ يوم لا ينفع مال ﴾ يظهر أنه من كلام إبراهيم عليه السلام؛ فيكون ﴿ يوم لا ينفع ﴾ بدلاً من ﴿ يوم يبعثون ﴾ قصد به إظهار

أن الالتجاء في ذلك اليوم إلى الله وحده، ولا عون فيه بما اعتاده الناس في الدنيا من أسباب الدفع عن أنفسهم.

﴿وَمَا أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ مِنْ أَجْرٍ إِنْ أَجْرِيَ إِلَّا عَلَىٰ رَبِّ الْعَالَمِينَ ١١٠﴾

ما أجمعت عليه الرسل عليهم السلام أن أجرهم على الله رب العالمين وليس لهم أجر يقابل دعوتهم الناس لعبادة الله تعالى. وهذا هو قول نوح عليه السلام لقومه أيضاً.

ذكر الطنطاوي: وهكذا نرى أن نوحاً قد سلك مع قومه أحكم الطرق في دعوتهم إلى الله، فهو يحضهم ثلاث مرات على تقوى الله بعد أن يبين لهم أخوته لهم، وأمانته عندهم، وتعففه عن أخذ أجر منهم في مقابل ما يدعوهم إليه من حق وخير، ومصارحته إياهم بأن أجره إنما هو من الله رب العالمين، وليس من أحد سواه.

﴿فَأَنجَيْنَاهُ وَمَن مَّعَهُ فِي الْفُلْكِ الْمَشْحُونِ ١١٩﴾

تشير هذه الآية إلى سفن الشحن التي تنقل الناس وبضائعهم عبر البحار.

ذكر السعدي: أي السفينة الْمَشْحُونِ من الخلق والحيوانات.

﴿وَمَا أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ مِنْ أَجْرٍ إِنْ أَجْرِيَ إِلَّا عَلَىٰ رَبِّ الْعَالَمِينَ ١٢٧﴾

هود نبي الله يقول لقومه لا أسألكم أجرا مقابل دعوتي لكم إلى الله؛ كما فعل أخوته الأنبياء صلى الله عليهم وسلم.

ذكر القرطبي: أي لا طمع لي في مالكم؛ ﴿إِنْ أَجْرِيَ إِلَّا عَلَى رَبِّ الْعَالَمِينَ﴾ أي ما جزائي ﴿إلا على رب العالمين﴾.

أَتَبْنُونَ بِكُلِّ رِيعٍ آيَةً تَعْبَثُونَ ﴿١٢٨﴾

تشير هذه الآية إلى الأبنية التي كان يبنيها قوم هود في المرتفعات وبين الجبال ترفاً وعبثاً بلا فائدة وأغلب التفاسير ذكرت أنها بيوت للحمام.

وهذا على كل حال من صناعة البناء والتشييد.

ذكر الطبري: اختلف أهل التأويل في معنى المصانع، فقال بعضهم: هي قصور مشيدة.

ذكر القرطبي: أي تبنون بكل موضع مرتفع لتشرفوا على السابلة.

ذكر ابن كثير: اختلف المفسرون في الريع بما حاصله: أنه المكان المرتفع عند جواد الطرق المشهورة. تبنون هناك بناء محكماً باهراً هائلاً؛ ولهذا قال: ﴿أتبنون بكل ريع آية﴾؛ أي: مَعلماً بناءً مشهوراً، تعبثون، وإنما تفعلون ذلك عبثاً لا للاحتياج إليه؛ بل لمجرد اللعب واللهو وإظهار القوة؛

ولهذا أنكر عليهم نبيهم عليه السلام ذلك؛ لأنه تضييع للزمان وإتعاب للأبدان في غير فائدة، واشتغال بما لا يُجدي في الدنيا ولا في الآخرة.

﴿وَتَتَّخِذُونَ مَصَانِعَ لَعَلَّكُمْ تَخْلُدُونَ ﴿١٢٩﴾﴾

تشير هذه الآية الكريمة لبناء القصور الضخمة والبروج المشيدة والحصون، ولربما المصانع بمفهومها الحديث.

ذكر الطبري: إن المصانع جمع مصنعة، والعرب تسمي كل بناء مصنعة، وجائز أن يكون ذلك البناء كان قصوراً وحصوناً مشيدة، وجائز أن يكون مآخذ للماء، ولا خبر يقطع العذر بأيّ ذلك كان، ولا هو مما يدرك من جهة العقل.

﴿وَمَا أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ مِنْ أَجْرٍ إِنْ أَجْرِيَ إِلَّا عَلَى رَبِّ الْعَالَمِينَ ﴿١٤٥﴾﴾

هذا رد صالح عليه السلام على قومه؛ وهو ما يرد به الأنبياء عادة؛ فلا أجر على الدعوة إلى الله تعالى.

﴿أَتُتْرَكُونَ فِي مَا هَاهُنَا آمِنِينَ ﴿١٤٦﴾ فِي جَنَّاتٍ وَعُيُونٍ ﴿١٤٧﴾ وَزُرُوعٍ وَنَخْلٍ طَلْعُهَا هَضِيمٌ ﴿١٤٨﴾ وَتَنْحِتُونَ مِنَ الْجِبَالِ بُيُوتًا فَارِهِينَ ﴿١٤٩﴾﴾

وعظ صالح عليه السلام قومه؛ لعلهم يرقون ويستمعون لشكر المنعم على نعمائه؛ فالأمن نعمة تأخذ الترتيب الأول في الحاجات.. ثم يتلوها تنعمهم بالجنات المزروعة وعيون الينابيع.. ثم يتلوها الزرع بأنواعه، ومنها ثمر النخل الذي يكون رطباً ليناً لذيذاً وتمراً ناضجاً طيباً.

أشارت هذه الآية الكريمة إلى صناعة النحت، وصناعة اقتطاع الجبال مما يُسمى بالمقالع؛ حيث كانوا يتفننون بصنع البيوت الفاخرة المنحوتة في الجبال.

يقول نبي الله لهم ذلك متسائلاً: أتظنون أنكم متروكون بدون حساب من خالقكم؟ وأنتم تتقلبون في نعمائه؛ التي عددها لهم.

ذكر الطنطاوي: فأنت ترى أن صالحاً عليه السلام قد استعمل مع قومه أرق ألوان الوعظ، لكي يوقظ قلوبهم الغافلة، نحو طاعة الله تعالى وشكره، وقد استعمل في وعظه لفت أنظارهم إلى ما يتقلبون فيه من نعم تشمل البساتين والعيون، والزروع المتعددة، والنخيل الجيدة الطلع، اللذيذة الطعم، حتى لكأن ثمرها لجودته ولينه، لا يحتاج إلى هضم في البطون.

﴿وَلَا تُطِيعُوٓاْ أَمۡرَ ٱلۡمُسۡرِفِينَ ١٥١ ٱلَّذِينَ يُفۡسِدُونَ فِي ٱلۡأَرۡضِ وَلَا يُصۡلِحُونَ ١٥٢﴾

نهى نبي الله قومه أن يطيعوا المسرفين لأنهم مفسدون في الأرض وهم غير مصلحين فيها، والإصلاح عكس الفساد فمن كان مفسداً لا يكون مصلحاً، ولا يصلح أن يكون كذلك.

ذكر السعدي: أي الذين وصفهم ودأبهم الإفساد في الأرض بعمل المعاصي والدعوة إليها إفساداً لا إصلاح فيه، وهذا أضرّ ما يكون لأنه شر محض، وكأن أناساً عندهم مستعدون لمعارضة نبيهم موضعون في الدعوة لسبيل الغيّ؛ فنهاهم صالح عن الاغترار بهم، ولعلهم الذين قال الله فيهم: ﴿وَكَانَ فِي الْمَدِينَةِ تِسْعَةُ رَهْطٍ يُفْسِدُونَ فِي الأَرْضِ وَلا يُصْلِحُونَ﴾؛ فلم يُفد فيهم هذا النهي والوعظ شيئاً.

﴿وَمَآ أَسۡـَٔلُكُمۡ عَلَيۡهِ مِنۡ أَجۡرٍۖ إِنۡ أَجۡرِيَ إِلَّا عَلَىٰ رَبِّ ٱلۡعَٰلَمِينَ ١٦٤﴾

لوط عليه السلام يقول لقومه نفس مقالة أخوته الأنبياء عليهم السلام؛ أن لا أجر على عمله الدعوي.

﴿وَمَآ أَسۡـَٔلُكُمۡ عَلَيۡهِ مِنۡ أَجۡرٍۖ إِنۡ أَجۡرِيَ إِلَّا عَلَىٰ رَبِّ ٱلۡعَٰلَمِينَ ١٨٠﴾

شعيب عليه السلام يقول لقومه نفس مقالة أخوته الأنبياء عليهم السلام أن لا أجر مقابل عمله الدعوي.

أَوْفُوا الْكَيْلَ وَلَا تَكُونُوا مِنَ الْمُخْسِرِينَ ﴿١٨١﴾

إيفاء الكيل والميزان لإقامة العدل ضرورة شرعية، ومن أخسرهما كان مطففا لجهة دون جهة وهذا ظلمٌ وهو وسيلة لأكل حقوق الناس. وهذا مدخل لفساد الحياة بين الناس، لذلك جاء الأمر من الله بإقامة العدل في كل شيء.

ذكر ابن كثير: إذا دفعتم إلى الناس فكملوا الكيل لهم، ولا تُخسروا الكيل فتعطوه ناقصاً، وتأخذوه إذا كان لكم تاماً وافياً، ولكن خذوا كما تعطون، وأعطوا كما تأخذون.

وَزِنُوا بِالْقِسْطَاسِ الْمُسْتَقِيمِ ﴿١٨٢﴾

الأمر هو بالوزن القسط لإقامة العدل، والوزن هنا يطال التجار والباعة، كما يطال المحاسبين والمدققين بمختلف صنوفهم وغيرهم؛ لأنهم يزنون أعمال الشركاء فيما بينهم وبين غيرهم أيضاً.

وَلَا تَبْخَسُوا النَّاسَ أَشْيَاءَهُمْ وَلَا تَعْثَوْا فِي الْأَرْضِ مُفْسِدِينَ ﴿١٨٣﴾

يجب عدم بخس الناس حقوقها وأشياءها؛ فهذا من الإِفساد في الأرض.

ويمكن أن يشمل هذا الفساد بَخس الناس قدرهم، أو مقامهم، أو أموالهم، وكل ذلك يدخل في نهي الآية الكريمة.

ذكر ابن عاشور: من بَخْسِ الأشياء أن يقولوا للذي يعرض سلعة سليمة للبيع: إن سلعتك رديئة، ليصرف عنها الراغبين فيشتريها برُخص.

تفسير سورة النمل

رقم السورة: ٢٧ وهي مكية وعدد آياتها: ٩٣.

تصف السورة فعل الملوك وتصرفاتهم وآدابهم.

ذكر الطنطاوي: السورة الكريمة اشتملت القصص على جانب كبير منها، خصوصاً قصص بعض أنبياء بنى إسرائيل، فقد حدثتنا عن جانب من قصة موسى، وداود، وسليمان. ثم بيّنت أن على بني إسرائيل المعاصرين للنبي صلّى الله عليه وسلّم أن يعودوا إلى القرآن، ليعرفوا منه الأمر الحق في كل ما اختلفوا فيه.

كما نراها تجمع في توجيهاتها وإرشاداتها بين الترغيب والترهيب، وبين التذكير بنعم الله التي نشاهدها في هذا الكون، وبين التحذير من أهوال يوم القيامة.

الَّذِينَ يُقِيمُونَ الصَّلَاةَ وَيُؤْتُونَ الزَّكَاةَ وَهُم بِالْآخِرَةِ هُمْ يُوقِنُونَ ﴿٣﴾

إقامة الصلاة وإيتاء زكاة المال هما الركنان التطبيقيان لإيمان فاعلهما الغيبي بالآخرة.

ذكر الطنطاوي: قال الجمل: ولما كان إقامة الصلاة وإيتاء الزكاة، مما يتكرر ويتجدد في أوقاتهما، أتى بهما فعلين، ولما كان الإيقان بالآخرة أمراً ثابتاً مطلوباً دوامه، أتى به جملة اسمية.

وَلَقَدْ آتَيْنَا دَاوُودَ وَسُلَيْمَانَ عِلْماً وَقَالَا الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي فَضَّلَنَا عَلَى كَثِيرٍ مِّنْ عِبَادِهِ الْمُؤْمِنِينَ (١٥) وَوَرِثَ سُلَيْمَانُ دَاوُودَ وَقَالَ يَا أَيُّهَا النَّاسُ عُلِّمْنَا مَنطِقَ الطَّيْرِ وَأُوتِينَا مِن كُلِّ شَيْءٍ إِنَّ هَذَا لَهُوَ الْفَضْلُ الْمُبِينُ (١٦)

هذا هو الأنموذج المطلوب أن يكون عليه البشر، فنبيّا الله داوود وسليمان عليهما السلام آتاهما الله العلم؛ فحمداه لأنه تعالى فضّلهما على كثير من عباده المؤمنين. وأقرّ سليمان عليه السلام بما خصّه الله به فاعترف بالفضل البيّن الواضح لخالقه ولم يكن جاحداً لأنعمه تعالى.

وكل إنسان آتاه الله فضلاً كثيراً أو قليلاً عليه أن يشكر ويحمد الله على ذلك ليدوم ذلك الفضل؛ فيُؤجر عليه أجراً عظيماً، مع الفارق البيّن الكبير بين فضل الله تعالى للإنسان وبين شكره وحمده، لكن الله المُنعم يقبل ذلك ويعطي عليه أجراً كبيراً.

ويُفهم من قول نبي الله سليمان عليه السلام أن الطير أمة كغيرها من الأمم، لها لغتها ولها منطقها الذي تعمل به. وستوضح الآيات التاليات بعضاً من ذلك على شكل حوارات لمن خصه الله بفهمها، وهي نقلت إلينا لنستوعب كيف ميّزنا الله عن غيرنا من المخلوقات.

ذكر الطنطاوي: قال صاحب الكشاف: وفي الآية دليل على شرف العلم، وإنافة محله. وتقدم حَمَلته وأهله، وأن نعمة العلم من أجل النعم، وأجزل القسم، وأن من أوتيه فقد أوتى فضلاً على كثير من عباد الله.

وَتَفَقَّدَ الطَّيْرَ فَقَالَ مَا لِيَ لَا أَرَى الْهُدْهُدَ أَمْ كَانَ مِنَ الْغَائِبِينَ ﴿٢٠﴾

يُستدل من هذه الآية أن ولي الأمر عليه أن يتفقد رعيته وأن يتابعهم، فإن حصل شيء ما؛ كأن غاب مثلاً، فلا يتهمه، بل إن سليمان عليه السلام رد غياب الطير الغائب أولاً لقصورٍ عنده وهذا أدبٌ مع الخلق؛ فقال مالي لا أرى الهدهد؟ ولم يقل أين الهدهد؟ وهذا من لطف القائد والمدير وحنكته.

ذكر القرطبي: والطير اسم جامع والواحد طائر، والمراد بالطير هنا جنس الطير وجماعتها.

ذكر السعدي: دل هذا على كمال عزمه وحزمه وحسن تنظيمه لجنوده وتدبيره بنفسه للأمور الصِغار والكبار، حتى إنه لم يهمل هذا الأمر، وهو تفقد الطيور والنظر: هل هي موجودة كلها أم مفقود منها شيء؟

وذكر أيضاً: وفقده الهدهد يدل على كمال حزمه وتدبيره للمُلك بنفسه وكمال فطنته حتى فقد هذا الطائر الصغير ﴿فَقَالَ مَا لِيَ لا أَرَى الْهُدْهُدَ أَمْ كَانَ مِنَ الْغَائِبِينَ﴾؛ أي: هل عدم رؤيتي إياه لقلة فطنتي به لكونه خفياً بين هذه الأمم الكثيرة؟ أم على بابها بأن كان غائباً من غير إذني ولا أمري؟.

﴿إِنَّهُۥ مِن سُلَيۡمَٰنَ وَإِنَّهُۥ بِسۡمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحۡمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ ٣٠ أَلَّا تَعۡلُواْ عَلَيَّ وَأۡتُونِي مُسۡلِمِينَ ٣١﴾

تدلُّ هذه الآية الكريمة على بلاغة نبي الله سليمان عليه السلام، وهو القائد الحاكم؛ فهي أنموذج على الرسائل بين الحكام، حيث البلاغة في النص والجزالة في المعنى دون إطناب وإسهاب فالوقت عند الإِداراة العليا يكون وقتاً غالياً لا ينبغي إشغاله بسفساف الأمور وحقيرها، وقد بدأ سليمان عليه السلام بالتعريف بنفسه وهذا أدب مع المخاطب ثم بدأ باسم

الله الأعظم وهذا أدب مع خالقه، ثم جاء نص الرسالة بكلمات معدودات.

ذكر السعدي: وهذا في غاية الوجازة مع البيان التام فإنه تضمن نهيهم عن العلو عليه، والبقاء على حالهم التي هم عليها والانقياد لأمره والدخول تحت طاعته، ومجيئهم إليه ودعوتهم إلى الإسلام، وفيه استحباب ابتداء الكتب بالبسملة كاملة وتقديم الاسم في أول عنوان الكتاب.

قَالَتْ يَا أَيُّهَا الْمَلَأُ أَفْتُونِي فِي أَمْرِي مَا كُنتُ قَاطِعَةً أَمْرًا حَتَّى تَشْهَدُونِ ﴿٣٢﴾

يُستدلُّ من هذه الآية الكريمة على الشورى في الحكم؛ فملكة سبأ تخاطب مجلسها طالبة منهم النصح والشورى على ما جاءها من سليمان عليه السلام.

ذكر الطبري: أشيروا عليّ في أمري الذي قد حضرني من أمر صاحب هذا الكتاب الذي أُلقي إليّ، فجعلت المشورة فُتيا.

ذكر القرطبي: أخذت في حسن الأدب مع قومها، ومشاورتهم في أمرها، وأعلمتهم أن ذلك مُطرداً عندها في كل أمر يُعرض، ما كنت قاطعة أمراً حتى تشهدون؛ فكيف في هذه النازلة الكبرى؟

وذكر أيضاً: في هذه الآية دليل على صحة المشاورة. وقد قال الله تعالى لنبيه صلى الله عليه وسلم: ﴿وشاورهم في الأمر﴾ آل عمران؛ إما استعانة بالآراء، وإما مداراة للأولياء. وقد مدح الله تعالى الفضلاء بقوله: وأمرهم شورى بينهم.

والمشاورة من الأمر القديم وخاصة في الحرب؛ فهذه بلقيس امرأة جاهلية كانت تعبد الشمس: قالت يا أيها الملأ أفتوني في أمري ما كنت قاطعة أمراً حتى تشهدون لتختبر عزمهم على مقاومة عدوهم، وحزمهم فيما يُقيم أمرهم، وإمضائهم على الطاعة لها، بعلمها بأنهم إن لم يبذلوا أنفسهم وأموالهم ودماءهم دونها لم يكن لها طاقة بمقاومة عدوها، وإن لم يجتمع أمرهم وحزمهم وجدُّهم كان ذلك عوناً لعدوهم عليهم، وإن لم تختبر ما عندهم، وتعلم قدر عزمهم لم تكن على بصيرة من أمرهم، وربما كان في استبدادها برأيها وهن في طاعتها، ودخيلة في تقدير أمرهم، وكان في مشاورتهم وأخذ رأيهم عون على ما تريده من قوة شوكتهم، وشدة مدافعتهم؛ ألا ترى إلى قولهم في جوابهم: ﴿نحن أولو قوة وأولو

بأس شديد ﴾. قال ابن عباس: كان من قوة أحدهم أنه يركض فرسه حتى إذا احتد ضم فخذيه فحبسه بقوته.

ذكر السعدي: وفي قولها هذا دليل على حُسن سياستها، ورجاحة عقلها، حيث جمعت رؤوس مملكتها، واستشارتهم في أمرها، وأعلمتهم أن هذه عادة مطردة عندها، وبذلك طابت نفوسهم، وزادت ثقتهم فيها.

قَالُوا نَحْنُ أُولُو قُوَّةٍ وَأُولُو بَأْسٍ شَدِيدٍ وَالْأَمْرُ إِلَيْكِ فَانظُرِي مَاذَا تَأْمُرِينَ (٣٣)

جاء رد وزراء المملكة باستعراض قوتهم وبأسهم، وهذا ما ينبغي أن يكون عليه المساعد الأمين، ويبدو أنهم كانوا صادقين في قولهم. ويبدو تأدبهم مع رأس الهرم الإداري حيث سمعت ما تتوقعه، وأحالوا الأمر النهائي والأخير لها.

ذكر ابن كثير: قال الحسن البصري رحمه الله: فلما قالوا لها ما قالوا، كانت هي أحزم رأياً منهم، وأعلم بأمر سليمان، وأنه لا قِبل لها بجنوده وجيوشه، وما سُخر له من الجن والإنس والطير، وقد شَاهدتْ من قضية الكتاب مع الهدهد أمراً عجيباً بديعاً؛ فقالت لهم: إني أخشى أن نحاربه

ونمتنع عليه، فيقصدنا بجنوده، ويُهلكنا بمن معه، ويخلص إلي وإليكم الهلاك والدمار دون غيرنا.

ذكر السعدي: إنا أقوياء على القتال، فكأنهم مالوا إلى هذا الرأي الذي لو تم لكان فيه دمارهم، ولكنهم أيضا لم يستقروا عليه بل قالوا: ﴿وَالأَمْرُ إِلَيْكِ﴾ أي: الرأي ما رأيت لعلمهم بعقلها وحزمها ونُصحها لهم ﴿فَانْظُرِي﴾ نظر فكر وتدبر ﴿مَاذَا تَأْمُرِينَ﴾.

قَالَتْ إِنَّ الْمُلُوكَ إِذَا دَخَلُوا قَرْيَةً أَفْسَدُوهَا وَجَعَلُوا أَعِزَّةَ أَهْلِهَا أَذِلَّةً وَكَذَلِكَ يَفْعَلُونَ (٣٤) وَإِنِّي مُرْسِلَةٌ إِلَيْهِم بِهَدِيَّةٍ فَنَاظِرَةٌ بِمَ يَرْجِعُ الْمُرْسَلُونَ (٣٥)

عرضت ملكة سبأ حكمتها من خلال استقراء دروس التاريخ قبل أن تقرر ماذا عليها أن تفعل؟ ثم قررت أن تلجأ للدهاء لتتعرف على خصمها وردة فعله، بإرسالها هدية له.

ذكر القرطبي: كان النبي صلى الله عليه وسلم يقبل الهدية ويثيب عليها ولا يقبل الصدقة، وكذلك كان سليمان عليه السلام وسائر الأنبياء صلوات الله عليهم أجمعين. وإنما جَعلت بلقيس قبول الهدية أو ردّها علامة على ما في نفسها؛ على ما ذكرناه من كون سليمان ملكاً أو نبياً؛

لأنه قال لها في كتابه: ألا تعلوا علي وأتوني مسلمين وهذا لا تقبل فيه فدية، ولا يؤخذ عنه هدية، وليس هذا من الباب الذي تقرر في الشريعة عن قبول الهدية بسبيل، وإنما هي رشوة وبيع الحق بالباطل، وهي الرشوة التي لا تحل. وأما الهدية المطلقة للتحبب والتواصل فإنها جائزة من كل أحد وعلى كل حال، وهذا ما لم يكن من مُشرك. فإن كانت من مشرك ففي الحديث نُهيت عن زبد المشركين يعني رفدهم وعطاياهم. وروي عنه عليه السلام أنه قبلها كما في حديث مالك عن ثور بن زيد الدبلي وغيره، فقال جماعة من العلماء بالنسخ فيهما، وقال آخرون: ليس فيها ناسخ ولا منسوخ، والمعنى فيها: أنه كان لا يقبل هدية من يطمع بالظهور عليه وأخذ بلده ودخوله في الإسلام، وبهذه الصفة كانت حالة سليمان عليه السلام؛ فعن مِثلِ هذا نهى أن تُقبل هديته حملاً على الكف عنه؛ وهذا أحسن تأويل للعلماء في هذا؛ فإنه جمع بين الأحاديث.

وذكر أيضاً: الهدية مندوب إليها، وهي مما تُورث المودة وتُذهب العداوة.

وذكر أيضاً: روي عن النبي صلى الله عليه وسلم أنه قال: جلساؤكم شركاؤكم في الهدية واُختلف في معناه؛ فقيل: هو محمول على ظاهره. وقيل: يُشاركهم على وجه الكرم والمروءة، فإن لم يفعل فلا يُجبر عليه. وقال أبو يوسف: ذلك في الفواكه ونحوها. وقال بعضهم: هم شركاؤه

في السرور لا في الهدية ... أما إذا كان فقيهاً من الفقهاء اختص بها فلا شركة فيها لأصحابه، فإن أشركهم فذلك كرم وجود منه.

ذكر الطنطاوي: قال ابن عباس: قالت لقومها إن قَبِل الهدية فهو مَلِك فقاتلوه، وإن لم يقبلها فهو نبيٌّ فاتبعوه. وقال قتادة: رحمها الله ورضي عنها ما كان أعقلها في إسلامها وفي شركها!! لقد علمت أن الهدية تقع موقعاً من الناس.

فَلَمَّا جَاءَ سُلَيْمَانَ قَالَ أَتُمِدُّونَنِ بِمَالٍ فَمَا آتَانِيَ اللَّهُ خَيْرٌ مِّمَّا آتَاكُم بَلْ أَنتُم بِهَدِيَّتِكُمْ تَفْرَحُونَ ﴿٣٦﴾

لما كان سليمان عليه السلام رجلٌ يحمل أمانةً من خالقه ومكلفٌ بأدائها على أحسن وجه. ولما كان يعلم أن المال بمختلف أشكاله إنما هو خلق من خلق الله الذي كلّفه بالأمانة، ردّ الخير لخالقه ورفض العرض الذي قُدم له؛ أي الهدية.

ذكر الطنطاوي: افهموا أيها الرسل وقولوا لمن أرسلكم بتلك الهدية: إن سليمان ما آتاه الله من خير، أفضل مما آتاكم، وإنه يقول لكم جميعاً: انتفعوا أنتم بهديتكم وافرحوا بها، لأنكم لا تفكرون إلا في متع الحياة الدنيا، أما أنا ففي غِنى عن هداياكم ولا يهمني إلا إيمانكم.

﴿قَالَ عِفْرِيتٌ مِّنَ الْجِنِّ أَنَا آتِيكَ بِهِ قَبْلَ أَن تَقُومَ مِن مَّقَامِكَ وَإِنِّي عَلَيْهِ لَقَوِيٌّ أَمِينٌ ﴿٣٩﴾﴾

تقدم هذه الآية الكريمة مثالاً عن أفراد فريق العمل، فمن يجد في نفسه الكفاءة قدّم نفسه لقائده وأوضح مزاياه الوظيفية؛ فهذا العفريت يقول لسليمان عليه السلام بأنه: يستطيع إنجاز المهمة الموصوفة وأوضح الزمن اللازم لذلك، وأنه يتمتع بالمزايا الوظيفية لتحقيق الأمر من قوة؛ حيث إن المهمة صعبة للغاية، ومن أمانة؛ لأن المهمة فيها أبعادٌ ليست عادية؛ فمن سيأتي بها ملكةٌ عظيمةٌ ذات مُلكٍ وقوةٍ ولا ينبغي له أن يؤذيها أو يُقلل من شأنها؛ وهذا مما يليق بقائده، كما يليق بها.

﴿قَالَ الَّذِي عِندَهُ عِلْمٌ مِّنَ الْكِتَابِ أَنَا آتِيكَ بِهِ قَبْلَ أَن يَرْتَدَّ إِلَيْكَ طَرْفُكَ فَلَمَّا رَآهُ مُسْتَقِرًّا عِندَهُ قَالَ هَذَا مِن فَضْلِ رَبِّي لِيَبْلُوَنِي أَأَشْكُرُ أَمْ أَكْفُرُ وَمَن شَكَرَ فَإِنَّمَا يَشْكُرُ لِنَفْسِهِ وَمَن كَفَرَ فَإِنَّ رَبِّي غَنِيٌّ كَرِيمٌ ﴿٤٠﴾﴾

لم تأخذ سليمان عليه السلام العزة بنفسه بل سرعان ما كان شاكراً لربه الذي هو سبب ومصدر كل ما هو عليه، فكان خير مُبلّغ عن ربه بأن هذا

بلاء له من الله ليراه أشاكر بنعمه أم كافر بها؟ ومن شكر فليس لأن الله بحاجة شكره بل هو شكر المرء المبتلى لنفسه، فالله غني كريم عن غيره.

ذكر ابن عاشور: هذه المناظرة بين العفريت من الجن والذي عنده علم من الكتاب ترمز إلى أنه يتأتى بالحكمة والعلم ما لا يتأتى بالقوة، وأن الحكمة مكتسبة لقوله: ﴿عنده علم من الكتاب﴾، وأن قوة العناصر طبيعة فيها، وأن الاكتساب بالعلم طريق لاستخدام القوى التي لا تستطيع استخدام بعضها بعضاً. فذكر في هذه القصة مثلاً لتغلب العلم على القوة.

وذكر أيضاً: وضرب حكمة خُلقية دينية وهي: ﴿من شكر فإنما يشكر لنفسه ومن كَفر فإن ربي غني كريم﴾؛ فكلٌّ متقرب إلى الله بعمل صالح يجب أن يستحضر أن عمله إنما هو لنفسه يرجو به ثواب الله ورضاه في الآخرة ويرجو دوام التفضل من الله عليه في الدنيا، فالنفع حاصل له في الدارين ولا ينتفع الله بشيء من ذلك.

ذكر السعدي: أي: ليختبرني بذلك؛ فلم يغترَّ عليه السلام بملكه وسلطانه وقدرته كما هو دأب الملوك الجاهلين، بل علم أن ذلك اختبار من ربه فخاف أن لا يقوم بشكر هذه النعمة، ثم بين أن هذا الشكر لا ينتفع الله به وإنما يرجع نفعه إلى صاحبه.

ذكر الطنطاوي: وفي ذلك ما فيه من الدلالة على شرف العلم وفضله وشرف حامليه وفضلهم وأن هذه الكرامة التي وهبها الله تعالى لهذا الرجل، كانت بسبب ما آتاه سبحانه من علم.

فَتِلْكَ بُيُوتُهُمْ خَاوِيَةً بِمَا ظَلَمُوا إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَةً لِّقَوْمٍ يَعْلَمُونَ ﴿٥٢﴾

البيوت من الأصول المادية ذكرها الله في حالة قوم صالح لإبقاء أثرهم رغم تدميرهم ليكونوا عبرة لمن بعدهم، وهذا جزاء الظالم على ظلمِه نفسهِ وظلمِه لغيرِه.

لقد دمّر الله الأصول البشرية وأبقى الأصول المادية.

ذكر ابن عاشور: لما خصَّ الله عملهم بوصف الظلم من بين عدة أحوال يشتمل عليها كفرهم؛ كالفساد كان ذلك إشارة إلى أن للظلم أثراً في خراب بلادهم.

وهذا معنى ما رُوي عن ابن عباس أنه قال: أجد في كتاب الله أن الظلم يخرب البيوت، وتلا: ﴿فتلك بيوتهم خاوية بما ظلموا﴾. وهذا من أسلوب أخذ كل ما يُحتمل من معاني الكلام في القرآن كما ذكرناه في المقدمة التاسعة من مقدمات هذا التفسير.

وَأَمْطَرْنَا عَلَيْهِم مَّطَرًا فَسَاءَ مَطَرُ الْمُنذَرِينَ ﴿٥٨﴾

السماء مخلوق من مخلوقات الله لها وظيفتها في هذه الدنيا، فكما أنها مصدر المطر الذي به تُغاث الناس، فهنا كانت وظيفتها مصدر مطر منذر مدمر للناس من قوم لوط لما فعلوه من فواحش.

ذكر السعدي: بئس المطر مطرهم وبئس العذاب عذابهم لأنهم أُنذروا وخُوّفوا فلم ينزجروا ولم يرتدعوا فأحلّ الله بهم عقابه الشديد.

أَمَّنْ خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ وَأَنزَلَ لَكُم مِّنَ السَّمَاءِ مَاءً فَأَنبَتْنَا بِهِ حَدَائِقَ ذَاتَ بَهْجَةٍ مَّا كَانَ لَكُمْ أَن تُنبِتُوا شَجَرَهَا ۗ أَإِلَٰهٌ مَّعَ اللَّهِ ۚ بَلْ هُمْ قَوْمٌ يَعْدِلُونَ (٦٠)

تعيد هذه الآية تذكير الناس بأن الأصل في خلق بيئة الحياة الدنيا إنما إبهاج الناس؛ فكيف يُشركون مع الله إلهاً آخر؟ وهم ليس لديهم قدرة على إنبات شجر هذه البيئة، لذلك هم قوم أشركوا غير الله بما لا يستطيعونه هم، ولا من أشركوه.

ذكر القرطبي: قد يُستدل من هذا على منع تصوير شيء سواء كان له روح أم لم يكن؛ وهو قول مجاهد. ويعضده قوله صلى الله عليه وسلم: قال الله عز وجل ومن أظلم ممن ذهب يخلق خلقاً كخلقي فليخلقوا ذرة أو ليخلقوا حبة أو ليخلقوا شعيرة، رواه مسلم في صحيحه من حديث أبي

هريرة؛ ... وذهب الجمهور إلى أن تصوير ما ليس فيه روح يجوز هو والاكتساب به. وقد قال ابن عباس للذي سأله أن يصنع الصور: إن كنت لا بد فاعلا فاصنع الشجر وما لا نفس له، خرجه مسلم أيضاً.

والمنع أولى والله أعلم لما ذكرنا.

أَمَّن جَعَلَ الْأَرْضَ قَرَارًا وَجَعَلَ خِلَالَهَا أَنْهَارًا وَجَعَلَ لَهَا رَوَاسِيَ وَجَعَلَ بَيْنَ الْبَحْرَيْنِ حَاجِزًا أَإِلَٰهٌ مَّعَ اللَّهِ بَلْ أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْلَمُونَ (٦١)

تعيد هذه الآية تذكير الناس بموارد الأرض فهي مستقر الناس فيها الأنهار مخازن الماء العذب، وفيها الجبال الراسيات، وفيها البحار مخازن الماء المالح، يفصل بينها حواجز لا يطغى أحدها على الآخر، فكل منها له تركيزه الملحي ولها دورها في حفظ الطبيعة كما أراد لها الله تعالى؛ فكيف يُشركون مع الله إلهاً آخر؟ إن أكثرهم لا يعلمون وبجهلهم غارقون.

ذكر ابن عاشور: وهذا انتقال من الاستدلال المشوب بالامتنان إلى الاستدلال المجرد بدلائل قدرته وعلمه بأن خلق المخلوقات العظيمة وبتدبيره نظامها حتى لا يطغى بعضها على بعض فيختل نظام الجميع.

﴿أَمَّن يُجِيبُ الْمُضْطَرَّ إِذَا دَعَاهُ وَيَكْشِفُ السُّوءَ وَيَجْعَلُكُمْ خُلَفَاءَ الْأَرْضِ ۗ أَإِلَٰهٌ مَّعَ اللَّهِ ۚ قَلِيلًا مَّا تَذَكَّرُونَ ﴿٦٢﴾﴾

تعيد هذه الآية تذكير الناس بمن يجيب المضطر إذا دعا الله تعالى فيكشف السوء عنه، وهو الذي جعل الإنسان خليفة في هذه الأرض ليعمرها بعدل الله وتقواه وبما يحتاجه من سُكنى فيها؛ فكيف يُشركون مع الله إلهاً آخر؟ إن أكثرهم ناسون لا يتذكرون.

ذكر القرطبي: جاء رجل إلى مالك بن دينار فقال: أنا أسألك بالله أن تدعو لي فأنا مضطر؛ قال: إذا فاسأله فإنه يجيب المضطر إذا دعاه.

ضَمِنَ الله تعالى إجابة المضطر إذا دعاه، وأخبر بذلك عن نفسه؛ والسبب في ذلك أن الضرورة إليه باللجاء ينشأ عن الإخلاص وقطع القلب عما سواه؛ وللإخلاص عنده سبحانه موقع وذمة، وُجِد من مؤمن أو كافر، طائع أو فاجر؛ كما قال تعالى: ﴿حتى إذا كنتم في الفلك وجرين بهم بريح طيبة وفرحوا بها جاءتها ريح عاصف وجاءهم الموج من كل مكان وظنوا أنهم أحيط بهم دعوا الله مخلصين له الدين لئن أنجيتنا من هذه لنكونن من الشاكرين﴾، وقوله: ﴿فلما نجاهم إلى البر إذا هم يشركون﴾؛ فأجابهم عند ضرورتهم ووقوع إخلاصهم، مع علمه أنهم

يعودون إلى شركهم وكفرهم. وقال تعالى: ﴿فإذا ركبوا في الفلك دعوا الله مخلصين له الدين﴾؛ فيجيب المضطر لموضع اضطراره وإخلاصه.

ذكر ابن عاشور: ارتقى الاستدلال من التذكير بالتصرف الرباني في ذوات المخلوقات إلى التذكير بتصرفه في أحوال الناس التي لا يخلو عنها أحد في بعض شؤون الحياة وذلك حال الاضطرار إلى تحصيل الخير، وحال انتياب السوء، وحال التصرف في الأرض ومنافعها، فهذه ثلاثة أنواع لأحوال البشر. وهي:

- حالة الاحتياج،
- وحالة البؤس،
- وحالة الانتفاع.

أَمَّن يَهْدِيكُمْ فِي ظُلُمَاتِ الْبَرِّ وَالْبَحْرِ وَمَن يُرْسِلُ الرِّيَاحَ بُشْرًا بَيْنَ يَدَيْ رَحْمَتِهِ ۗ أَإِلَٰهٌ مَّعَ اللَّهِ ۚ تَعَالَى اللَّهُ عَمَّا يُشْرِكُونَ ﴿٦٣﴾

تعيد هذه الآية تذكير الناس بما خلقه الله تعالى لهدايتهم في ظلمات البرّ والبحر؛ من نجوم، وأفلاك، ومجالات مغناطيسية، وعلامات في الأرض تعينهم على معرفة مسالكهم وطرقهم ووجهاتهم.

هو الذي يرسل الرياح؛ كمصدر طاقة توجه حركة سفنهم، وتمدهم بالطاقة، والقوة، وتبشرهم بقدوم ماء المطر مصدر حياتهم؛ فكيف يشركون مع الله إلهاً آخر؟ إن الله مُنزه عن الإشراك به، ولا حاجة له لمعين أو مساعد أو شريك؛ فهذه من صفات من لديه عجز والله ذو القوة المتين.

ذكر ابن عاشور: لإضراب الانتقال من نوع دلائل التصرف في أحوال عامة الناس إلى دلائل التصرف في أحوال المسافرين منهم في البر والبحر؛ فإنهم أدرى بهذه الأحوال وأقدر لما في خلالها من النعمة والامتنان ...؛ فالله الهادي للسير في تلك الظلمات بأن خلق النجوم على نظامٍ صالحٍ للهداية في ذلك، وبأن ركّب في الناس مدارك للمعرفة بإرصاد سيرها وصعودها وهبوطها، وهداهم أيضاً بمهاب الرياح، وخوّلهم معرفة اختلافها بإحساس جفافها ورطوبتها، وحرارتها وبردها.

أَمَّن يَبْدَأُ الْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُ وَمَن يَرْزُقُكُم مِّنَ السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ ۗ أَإِلَٰهٌ مَّعَ اللَّهِ ۚ قُلْ هَاتُوا بُرْهَانَكُمْ إِن كُنتُمْ صَادِقِينَ ﴿٦٤﴾

تعيد هذه الآية تذكير الناس بمن خلقهم بداية ومن سيُعيد خلقهم ثانية، وتذكرهم بمن يرزقهم مما خلقه في السماء ومما خلقه في الأرض؛ فكيف

يشركون مع الله إلهاً آخر؟ فإن كان لدى أحد برهان على ذلك فليأت به ليثبت دعواه وصدقه.

ذكر ابن عاشور: هذا انتقال إلى الاستدلال بتصرف الله تعالى بالحياة الأولى، والثانية، وبإعطاء المدد لدوام الحياة الأولى مدة مقدرة، وفيه تذكير بنعمة الإيجاد ونعمة الإمداد. والاستفهام تقريري لأنهم لا ينكرون أنه يبدأ الخلق وأنه يرزقهم.

وأدمج في خلال الاستفهام قوله: ﴿ثم يعيده﴾؛ لأن تسليم بدئه الخلق يُلجئهم إلى فهم إمكان إعادة الخلق التي أحالوها. ولما كان إعادة الخلق محلّ جدل، وكان إدماجها إيقاظاً وتذكيراً أعيد الاستفهام في الجملة التي عطفت عليه بقوله: ﴿ومن يرزقكم من السماء والأرض﴾؛ ولأن الرزقَ مُقارِنٌ لبدء الخلق؛ فلو عُطفَ على إعادة الخلق لتُوهِّم أنه يرزق الخلق بعد الإعادة؛ فيحسبوا أن رزقهم في الدنيا من نِعم آلهتهم.

وَإِنَّ رَبَّكَ لَذُو فَضْلٍ عَلَى النَّاسِ وَلَـٰكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لَا يَشْكُرُونَ ﴿٧٣﴾

إن الله هو صاحب الفضل على الناس، ورغم ذلك فأكثرهم لا يشكرون، مع أنه سبحانه قد طلب منهم شكره.

ذكر ابن عاشور: موقع هذا موقع الاستدراك على قوله: ﴿عسى أن يكون ردف لكم بعض الذي تستعجلون﴾ النمل: ٧٢؛ أي أن تأخير العذاب عنهم هو من فضل الله عليهم. وهذا خبر خاص بالنبي صلى الله عليه وسلم تنبيهاً على أن تأخير الوعيد أثر من آثار رحمة الله لأن أزمنة التأخير أزمنة إمهال فهم فيها بنعمة، لأن الله ذو فضل على الناس كلهم.

أَلَمْ يَرَوْا أَنَّا جَعَلْنَا اللَّيْلَ لِيَسْكُنُوا فِيهِ وَالنَّهَارَ مُبْصِرًا إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَاتٍ لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ ﴿٨٦﴾

لقد جعل الله الليل سَكناً وسُباتاً وراحة للناس، بينما جعل لهم النهار مُبصراً فيه نور يُعينهم على العيش وقضاء حوائجهم دون تكلف ودون حاجة منهم لتوليد الضوء بطرق فيها تدخل إنساني، وهذه آيات لا يعلمها إلا من أيقن بقدرة الله.

ذكر ابن عاشور: هذا الكلام متصل بقوله: ﴿ووقع القول عليهم بما ظلموا﴾ النمل: ٨٥؛ أي بما أشركوا، فذكّرهم بدلائل الوحدانية بذكر أظهر الآيات وأكثرها تكراراً على حواسهم وأجدرها بأن تكون مقنعة في ارعوائهم عن شركهم. وهي آية ملازمة لهم طول حياتهم تخطر ببالهم مرتين كل يوم على الأقل. وتلك هي آية اختلاف الليل والنهار الدالة على

انفراده تعالى بالتصرف في هذا العالم؛ فأصنامهم تخضع لمفعولها فتظلم ذواتهم في الليل وتنير في النهار، وفيها تذكير بتمثيل الموت والحياة بعده بسكون الليل وانبثاق النهار عقبه.

وذكر أيضاً: ووجه كون الآيات في ذلك كثيرة كما اقتضاه الجمع هو أن في نظام الليل آيات على الانفراد بخلق الشمس وخلق نورها الخارق للظلمات، وخلق الأرض، وخلق نظام دورانها اليومي تجاه أشعة الشمس وهي الدورة التي تكوّن الليل والنهار، وفي خلق طبع الإنسان بأن يتلقّى الظلمة بطلب السكون لما يعتري الأعصاب من الفتور دون بعض الدواب التي تنشط في الليل كالهوام والخفافيش وفي ذلك أيضاً دلالة على تعاقب الموت والحياة، فتلك آيات وفي كل آية منها دقائق ونظم عظيمة، لو بُسِط القولُ فيها لأوعب مجلدات من العلوم.

وفي جعل النهار مبصراً آيات كثيرة على الوحدانية ودقة صنع تقابل ما تقدم في آيات جعل الليل سكناً. وفيه دلالة على أن لا إحالة ولا استبعاد في البعث بعد الموت، وأنه نظير بعث اليقظة بعد النوم، وفي جليل تلك الآيات ودقيقها عدة آيات فهذا وجه جعل ذلك آيات ولم يجعل آيتين.

﴿وَتَرَى الْجِبَالَ تَحْسَبُهَا جَامِدَةً وَهِيَ تَمُرُّ مَرَّ السَّحَابِ صُنْعَ اللَّهِ الَّذِي أَتْقَنَ كُلَّ شَيْءٍ إِنَّهُ خَبِيرٌ بِمَا تَفْعَلُونَ ۝٨٨﴾

هذه الجبال الضخمة الراسيات المُثْبتات لقشرة الأرض يظن رائيها أنها جامدة؛ بينما هي حية لها وظائف حيوية، وستكون حركتها في يوم من الأيام كما يُرى السحاب.

هذا صنع الله وهو صنع مُتقنٌ كما هو حال كل شيء لأنه الخبير.

يستدل من هذه الآية أن الصناعة المتقنة تحتاج: (العلم والخبرة).

ذكر القرطبي: قال الماوردي: وفيهما ضرب له ثلاثة أقوال:

أحدها: أنه مثلٌ ضربه الله تعالى للدنيا يظن الناظر إليها أنها واقفة كالجبال، وهي آخذة بحظها من الزوال كالسحاب؛ قاله سهل بن عبد الله.

الثاني: أنه مثلٌ ضربه الله للإيمان تحسبه ثابتاً في القلب وعمله صاعد إلى السماء.

الثالث: أنه مثلٌ ضربه الله للنفس عند خروج الروح والروح تسير إلى العرش.

ذكر ابن عاشور: وجعل كلا الفريقين قوله: تأولوا الصنع بمعنى مطلق الفعل من غير التزام ما في مادة (صَنَعَ) من معنى التركيب والإيجاد؛ فإن الإتقان إجادة، والهدم لا يحتاج إلى إتقان.

تفسير سورة القصص

رقم السورة: ٢٨ وهي مكية وعدد آياتها: ٨٨.

ذكر الطنطاوي: السورة الكريمة قد اهتمت بأمور من أهمها ما يأتي:

تثبيت المؤمنين، وتقوية عزائمهم، وتبشيرهم بأن العاقبة لهم، وبأن الله تعالى سيجعل من ضعفهم قوة، ومن قلتهم كثرة، كما جعل من موسى وقومه أمة منتصرة بعد أن كانت مهزومة، وغالبة بعد أن كانت مغلوبة.

أن السورة الكريمة تعطينا صورة زاخرة بالمعاني الكريمة والمؤثرة، عن حياة موسى عليه السلام فهي تحكي لنا حالة أمه. وأحاسيسها، وخلجات قلبها، وخوفها، عند ولادته، وبعد ولادته، وبعد إلقائه في اليم، وبعد أن علمت بالتقاط آل فرعون له، وبعد رد الله تعالى إليها ابنها، فضلا منه سبحانه ورحمة.

كما تحكي لنا ما جُبُل عليه موسى عليه السلام من مروءة عالية جعلته يأبى أن يرى مظلوماً فلا ينصره، ومحتاجاً فلا يُعينه؛ فعندما رأى امرأتين عاجزتين عن سقي غنمهما، قال لهما: ﴿ما خَطْبُكُما قالَتا لا نَسْقِي حَتَّى يُصْدِرَ الرِّعاءُ، وَأَبُونا شَيْخٌ كَبِيرٌ، فَسَقى لَهُما﴾، وعندما رأى مظلوماً

يستنصره، ما كان منه إلا أن نصره، وقال: ﴿رَبِّ بِمَا أَنْعَمْتَ عَلَيَّ فَلَنْ أَكُونَ ظَهِيراً لِلْمُجْرِمِينَ﴾.

تأكيد أن هذا القرآن من عند الله، بدليل أن هذا القرآن قد قصّ على النبي صلّى الله عليه وسلم وعلى الناس، قصصاً لا علم لهم بحقيقتها قبل أن يقصها عليهم.

اهتمت السورة اهتماماً واضحاً، ببيان مظاهر قدرة الله تعالى في هذا الكون، هذه القدرة التي نراها في إهلاك الظالمين والمغرورين، حتى ولو ساندتهم جميع قوى الأرض.

كما نراها في الرد على كفار مكة الذين زعموا، أن اتباعهم للحق يؤدي إلى تخطفهم والاعتداء عليهم.

والخلاصة، أن سورة القصص على رأس السور المكية، التي حضت المؤمنين على الثبات والصبر، وساقت لهم من أخبار السابقين، ما يزيدهم إيماناً على إيمانهم، ويقيناً على يقينهم، بأن الله تعالى سيجعل العاقبة لهم.

وَحَرَّمْنَا عَلَيْهِ الْمَرَاضِعَ مِن قَبْلُ فَقَالَتْ هَلْ أَدُلُّكُمْ عَلَىٰ أَهْلِ بَيْتٍ يَكْفُلُونَهُ لَكُمْ وَهُمْ لَهُ نَاصِحُونَ ﴿١٢﴾

تعتبر الرضاعة مصدر غذاء كامل للطفل، يحصل عليها دون تكلف من ثديي أمه طازجاً يُغنيه عن كل طعام، وفي حالة موسى عليه السلام حرّم الله عليه المراضع ليُعيدَه لأمه، وهذا من تدبير الله تعالى في رعاية نبيه عليه الصلاة والسلام.

وتوضح هذه الآية الكريمة مهنة كفالة الأطفال وخاصة الرضع، والعناية بهم، وهي مهنة تمارسها النساء في البيوت فتكون لهم مصدر عيش كريم.

ذكر ابن عاشور: التحريم: المنع، وهو تحريم تكويني، أي قدّرنا في نفس الطفل الامتناع من التقام أثداء المراضع وكراهتها؛ ليضطر آل فرعون إلى البحث عن مرضع يتقبّل ثديها؛ لأن فرعون وامرأته حريصان على حياة الطفل، ومن مقدمات ذلك أن جعل الله إرضاعه من أمه مدة تعود فيها بثديها.

فَلَمَّا أَنْ أَرَادَ أَن يَبْطِشَ بِالَّذِي هُوَ عَدُوٌّ لَّهُمَا قَالَ يَا مُوسَىٰ أَتُرِيدُ أَن تَقْتُلَنِي كَمَا قَتَلْتَ نَفْسًا بِالْأَمْسِ ۖ إِن تُرِيدُ إِلَّا أَن تَكُونَ جَبَّارًا فِي الْأَرْضِ وَمَا تُرِيدُ أَن تَكُونَ مِنَ الْمُصْلِحِينَ ﴿١٩﴾

الأصل في من يرعى الناس الصلاح؛ لأنه يُصلحهم ويرعى مصالحهم، توضح هذه الآية الكريمة أن الجبارين في الأرض الذين يقتلون الناس لا يمكن أن يكونوا مصلحين، وتتحدث الآية عمن قتل نفساً واحدة؛ لا من استشرى القتل في سلوكه وحياته فذاك إنما أكثر جبروتاً.

ذكر ابن عاشور: إنك تحاول أن تكون متصرفاً بالانتقام وبالشدة ولا تحاول أن تكون من المصلحين بين الخصمين بأن تسعى في التراضي بينهما.

ويظهر أن كلام القبطي زَجْرٌ لموسى عن البطش به، وصار بينهما حواراً أعقبه مجيء رجل من أقصى المدينة.

وَلَمَّا وَرَدَ مَاءَ مَدْيَنَ وَجَدَ عَلَيْهِ أُمَّةً مِّنَ النَّاسِ يَسْقُونَ وَوَجَدَ مِن دُونِهِمُ امْرَأَتَيْنِ تَذُودَانِ قَالَ مَا خَطْبُكُمَا قَالَتَا لَا نَسْقِي حَتَّى يُصْدِرَ الرِّعَاءُ وَأَبُونَا شَيْخٌ كَبِيرٌ ﴿٢٣﴾

الآبار مصدر للماء، وهي كما ذكرت غير آية خزاناً في باطن الأرض يختزن الماء الذي نزل به المطر من السحاب المركوم.

وحيث يوجد ماء توجد حضارات ويوجد أناس يعيشون.

يُستدل من الآية الكريمة أن مهنة السقاية مهنة قديمة يقوم بها بعض الناس ويمتهنونها.

ذكر القرطبي: إن قيل كيف ساغ لنبي الله الذي هو شعيب صلى الله عليه وسلم أن يرضى لابنتيه بسقي الماشية؟ قيل له: ليس ذلك بمحظور والدين لا يأباه؛ وأما المروءة فالناس مختلفون في ذلك، والعادة متباينة فيه، وأحوال العرب فيه خلاف أحوال العجم، ومذهب أهل البدو غير مذهب الحضر، خصوصاً إذا كانت الحالة حالة ضرورة.

ذكر ابن عاشور: ومنها مباشرة المرأة الأعمال والسعي في طرق المعيشة.

وذكر أيضاً: وفي إذنه لابنتيه بالسقي دليل على جواز معالجة المرأة أمور مالها وظهورها في مجامع الناس إذا كانت تستر ما يجب ستره فإن شرع من قبلنا شرع لنا إذا حكاه شرعنا ولم يأت من شرعنا ما ينسخه. وأما تحاشي الناس من نحو ذلك فهو من المروءة والناس مختلفون فيما تقتضيه المروءة والعادات متباينة فيه وأحوال الأمم فيه مختلفة وخاصة ما بين أخلاق البدو والحضر من الاختلاف.

ذكر الطنطاوي: قالتا لموسى عليه السلام: إن من عادتنا أن لا نسقي مواشينا حتى يصرف الرعاء دوابهم عن الماء، ويصبح الماء خالياً لنا، لأننا لا قدرة لنا على المزاحمة، وليس عندنا رجل يقوم بهذه المهمة، وأبونا شيخ كبير في السن لا يقدر أيضا على القيام بمهمة الرعي والمزاحمة على السقي.

فَسَقَىٰ لَهُمَا ثُمَّ تَوَلَّىٰ إِلَى الظِّلِّ فَقَالَ رَبِّ إِنِّي لِمَا أَنزَلْتَ إِلَيَّ مِنْ خَيْرٍ فَقِيرٌ ﴿٢٤﴾

قام موسى عليه السلام بسقاية المرأتين واستراح من العمل فجلس في الظل، وناجى ربه بأنه مفتقر للخير الذي يسوقه وييسره الله له.

ذكر الطنطاوي: فسقى لهما مواشيهما سريعاً؛ من أجل أن يريحهما ويكفيهما عناء الانتظار وفي هذا التعبير إشارة إلى قوّته، حيث إنه استطاع وهو فرد غريب بين أُمّة من الناس يَسْقون؛ أن يزاحم تلك الكثرة من الناس، وأن يسقي للمرأتين الضعيفتين غنمهما، دون أن يصرفه شيء عن ذلك.

فَجَاءَتْهُ إِحْدَاهُمَا تَمْشِي عَلَى اسْتِحْيَاءٍ قَالَتْ إِنَّ أَبِي يَدْعُوكَ لِيَجْزِيَكَ أَجْرَ مَا سَقَيْتَ لَنَا فَلَمَّا جَاءَهُ وَقَصَّ عَلَيْهِ الْقَصَصَ قَالَ لَا تَخَفْ نَجَوْتَ مِنَ الْقَوْمِ الظَّالِمِينَ ﴿٢٥﴾

لم يَسْقِ موسى عليه السلام للمرأتين على أساس الأجر؛ بل كان متبرعاً من باب المساعدة، لكن والد الامرأتين أراد أن يجزيه أجر ذلك العمل.

يستدل من ذلك ضرورة سعي الناس لمساعدة الآخرين، ويتوجب على الناس مكافأة من يُساعدهم لبقاء العون مستمراً بين الناس؛ فالأول عمله

من باب الشهامة، والثاني عمله من باب الوفاء، والصفتان إن لازمت أعمال الناس وأسواقهم كانت السعادة رفيقة حياتهم.

قَالَتْ إِحْدَاهُمَا يَا أَبَتِ اسْتَأْجِرْهُ إِنَّ خَيْرَ مَنِ اسْتَأْجَرْتَ الْقَوِيُّ الْأَمِينُ ﴿٢٦﴾

يُستدل من هذه الآية الكريمة أن الترشيح لمنصب يمكن أن يكون بناء على توصية من طرف معين، حيث توافرت خاصتين مهمتين فيما يتقلد العمالة، وهي خاصية القوة، وخاصية الأمانة، ويشمل ذلك القوة الفكرية والعلمية والبدنية، إضافة للأمانة فلا يستعمل الخائن لأي عمل.

ويعتبر هذا أول عقد إيجار مسجل في التاريخ.

ذكر ابن عاشور: في هذا العرض دليل لمسألة جمع عقد النكاح مع عقد الإجارة.

المشهور من مذهب مالك أن الشرط المقارن لعقد النكاح إن كان مما ينافي عقد النكاح فهو باطل، ويُفسخ النكاح قبل البناء، ويَثبت بعده بصداق المثل. وأما غير المنافي لعقد النكاح فلا يفسخ النكاح لأجله ولكن يلغى الشرط. وعن مالك أيضاً: تكره الشروط كلها ابتداء فإن وقع مضى. وقال أشهب وأصبغ: الشرط جائز واختاره أبو بكر بن العربي وهو الحق للآية،

ولقول النبي صلى الله عليه وسلم: أحق الشروط أن يوفى به ما استحللتم به الفروج.

وظاهر الآية أيضاً أن الإِجارة المذكورة جُعلت مهراً للبنت، ويحتمل أن المشروط التزام الإِجارة لا غير، وأما المهر فتابع لما يعتبر في شرعهم ركناً في النكاح، والشرائع قد تختلف في معاني الماهيات الشرعية. وإذا أخذنا بظاهر الآية كانت دالة على أنهما جعلا المهر منافع إجارة الزوج لشعيب فيُحتمل أن يكون ذلك برضاها لأنها سمعت وسكتت بناء على عوائد مرعية عندهم بأن ينتفع بتلك المنافع أبوها ...

وإذ قد كان حُكْم شرع من قبلنا مختلفاً في جعله شرعاً لنا كان حجة مختلفاً فيها بين علماء أصول الفقه فزادها ضعفاً في هذه الآية الإِجمال الذي تطرقها فوجب الرجوع إلى أدلة أخرى من شريعة الإِسلام. ودليل الجواز داخل تحت عموم معنى المهر؛ فإِن كانت المنافع المجعولة مهراً حاصلة قبل البناء فالأمر ظاهر، وإن كان بعضها أو جميعها لا يتحقق إلا بعد البناء كما في هذه الآية رجعت المسألة إلى النكاح بمهر مؤجل وهو مكروه غير باطل. وإلى الإِجارة بعوض غير قابل للتبعيض بتبعيض العمل فإِذا لم يُتم الأجير العمل في هذه رجعت إلى مسألة عجز العامل عن العمل بعد أن قبض الأجر.

قَالَ إِنِّي أُرِيدُ أَنْ أُنكِحَكَ إِحْدَى ابْنَتَيَّ هَاتَيْنِ عَلَى أَن تَأْجُرَنِي ثَمَانِيَ حِجَجٍ فَإِنْ أَتْمَمْتَ عَشْرًا فَمِنْ عِندِكَ وَمَا أُرِيدُ أَنْ أَشُقَّ عَلَيْكَ سَتَجِدُنِي إِن شَاءَ اللَّهُ مِنَ الصَّالِحِينَ ﴿٢٧﴾

عرض والد المرأتين على موسى عقد إجارة مقتضاه أن يعمل عنده ثماني سنوات مقابل مهر ابنته التي سيزوجها له، وعرض مدّ العقد لسنتين إضافيتين إن شاء ذلك، وبدا الإحسان في عرضه حيث أضاف أنه لا يرغب بأن يَشقَّ عليه في العمل ولا أن يُجهده، وقدم نفسه بأنه سيكون من الصالحين في تعامله معه. وهذه من صفات رب العمل في تعامله مع أُجرائه.

ذكر القرطبي: أجمع العلماء على أنه جائز أن يستأجر الراعي شهوراً معلومة، بأجرة معلومة، لرعاية غنم معدودة؛ فإن كانت معدودة معينة؛ ففيها تفصيل لعلمائنا ...

قال مالك: وليس على الراعي ضمان وهو مُصدَّقٌ فيما هلك أو سُرق، لأنه أمين كالوكيل. وقد ترجم البخاري: (باب إذا أبصر الراعي أو الوكيل شاة تموت أو شيئاً يَفسد فأصلح ما يخاف الفساد)، وساق حديث كعب بن مالك عن أبيه أنه كانت لهم غنم ترعى بسلع، فأبصرت جارية لنا بشاة من غنمنا موتاً فكسرت حجراً فذبحتها به، فقال لهم: لا تأكلوا حتى

أسأل النبي أو أرسل إلى النبي صلى الله عليه وسلم من يسأله، وأنه سأل النبي صلى الله عليه وسلم أو أرسل إليه فأمره بأكلها.

قَالَ ذَٰلِكَ بَيْنِي وَبَيْنَكَ ۖ أَيَّمَا الْأَجَلَيْنِ قَضَيْتُ فَلَا عُدْوَانَ عَلَيَّ ۖ وَاللَّهُ عَلَىٰ مَا نَقُولُ وَكِيلٌ ﴿٢٨﴾

تُرك خِيار القضاء مفتوحاً لموسى حتى لو أخذ العرض الأدنى، فرد موسى عليه السلام بأنه لن يكون مُتعدياً، ووكلا الله تعالى على عقد إجارتهما.

وَأَنْ أَلْقِ عَصَاكَ ۖ فَلَمَّا رَآهَا تَهْتَزُّ كَأَنَّهَا جَانٌّ وَلَّىٰ مُدْبِرًا وَلَمْ يُعَقِّبْ ۚ يَا مُوسَىٰ أَقْبِلْ وَلَا تَخَفْ ۖ إِنَّكَ مِنَ الْآمِنِينَ ﴿٣١﴾

تفيد الآية الكريمة أن رب العمل عليه أن يؤمن الحماية وأدواتها لعامله، كما يُقدم له الأمان اللازم لقضاء العمل الموكل إليه.

وَأَخِي هَارُونُ هُوَ أَفْصَحُ مِنِّي لِسَانًا فَأَرْسِلْهُ مَعِيَ رِدْءًا يُصَدِّقُنِي ۖ إِنِّي أَخَافُ أَنْ يُكَذِّبُونِ ﴿٣٤﴾

يستأذن موسى عليه السلام ربَّه عزَّ وجلَّ بأن يأخذ أخاه في مهمته ليُعينه على تنفيذها. ويُستفاد من ذلك أنه يمكن لقائد فريق العمل أن يستعين

بمن يراه مناسباً للمهمة فيختاره بنفسه، ويطلب من رب عمله الموافقة على خِياره بعد أن يُقدم له خصائص هذا المساعد ومزاياه.

ذكر ابن عاشور: هذا سؤال صريح يدلُّ على أن موسى لا يريد بالأول التنصل من التبليغ؛ ولكنه أراد تأييده بأخيه. وإنما عيّنه ولم يسأل مؤيداً ما لعلمه بأمانته، وإخلاصه لله ولأخيه، وعلمه بفصاحة لسانه.

قَالَ سَنَشُدُّ عَضُدَكَ بِأَخِيكَ وَنَجْعَلُ لَكُمَا سُلْطَانًا فَلَا يَصِلُونَ إِلَيْكُمَا ۚ بِآيَاتِنَا أَنتُمَا وَمَنِ اتَّبَعَكُمَا الْغَالِبُونَ ﴿٣٥﴾

رغم أن المهمة هي مهمة النبوة؛ لكن الله تعالى وافق على طلبه، وأعطاهما أداة الحماية اللازمة والتي أسماها (السلطان) وهي حماية تشمل الرسولين عليهما السلام ومن اتبعهما.

ذكر ابن عاشور: السلطان هنا مصدر بمعنى التسلط على القلوب والنفوس، أي مهابة في قلوب الأعداء ورعباً منكما، كما ألقى على موسى محبة حين التقطه آل فرعون.

وَقَالَ فِرْعَوْنُ يَا أَيُّهَا الْمَلَأُ مَا عَلِمْتُ لَكُم مِّنْ إِلَٰهٍ غَيْرِي فَأَوْقِدْ لِي يَا هَامَانُ عَلَى الطِّينِ فَاجْعَل لِّي صَرْحًا لَّعَلِّي أَطَّلِعُ إِلَىٰ إِلَٰهِ مُوسَىٰ وَإِنِّي لَأَظُنُّهُ مِنَ الْكَاذِبِينَ ﴿٣٨﴾

تشير هذه الآية الكريمة إلى أصل صناعة الأهرامات التي تعددت الأقوال بشأنها؛ فقد وصل فريق بحث علمي مؤخراً إلى أنها طين مشوي من صنع الإنسان، ويعود عمرها إلى عمر الفراعنة، وهي ليست من الصخور.

كما تشير هذه الآية إلى هامان كبير البنائين لدى فرعون، وبذلك فقد أشارت الآية الكريمة إلى بعض أجزاء الهيكل التنظيمي لعصر الفراعنة، فضلاً عن صناعة الأهرامات.

وقد وجدت هذه البيانات مسطورة على جدران الأهرام نفسه.

ذكر الطبري: ﴿فَأَوْقِدْ لِي يَا هَامَانُ عَلَى الطِّينِ﴾ يقول: فاعمل لي آجراً، وذُكر أنه أوّل من طبخ الآجر وبنى به.

ذكر ابن كثير: أمر وزيره هامان ومدبر رعيته ومشير دولته أن يوقد له على الطين، ليتخذ له آجراً لبناء الصرح.

ذكر الطنطاوي: الصرح: البناء الشاهق المرتفع؛ أي: فاصنع لي يا هامان من الطين آجراً قوياً، ثم هيئ لي منه بناء عالياً مكشوفاً. أصعد عليه، لعلى أرى إله موسى من فوقه.

أُولَئِكَ يُؤْتَوْنَ أَجْرَهُم مَّرَّتَيْنِ بِمَا صَبَرُوا وَيَدْرَءُونَ بِالْحَسَنَةِ السَّيِّئَةَ وَمِمَّا رَزَقْنَاهُمْ يُنفِقُونَ ﴿٥٤﴾

المؤمنون سيؤتيهم الله أجرهم على إيمانهم، ومن صفاتهم أن يدفعوا بالحسنى أمام من يُسيء إليهم، وأنهم يُنفقون مما آتاهم الله من رزقه. لذلك فإن الإنفاق سمةٌ مستمرة للمؤمنين بالله.

﴿وَقَالُوا إِن نَّتَّبِعِ الْهُدَىٰ مَعَكَ نُتَخَطَّفْ مِنْ أَرْضِنَا ۚ أَوَلَمْ نُمَكِّن لَّهُمْ حَرَمًا آمِنًا يُجْبَىٰ إِلَيْهِ ثَمَرَاتُ كُلِّ شَيْءٍ رِّزْقًا مِّن لَّدُنَّا وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لَا يَعْلَمُونَ ﴿٥٧﴾﴾

يقول الله تعالى للكفار الذين يخافون على أنفسهم إذا اتبعوا الرسول: لقد مكّنا لكم الحرم وجعلناه آمنا دون غيره من البلاد، وتأتيه الثمرات بجميع أشكالها؛ رزقاً من الله تعالى.

ذكر الطنطاوي: لقد جعلنا لهم حرماً ذا أمن، وأفضنا عليهم من خيرات الأرض، ولكن أكثرهم يجهلون هذه الحقيقة، ويجهلون أن اتباعهم للدين الحق، يؤدى إلى سعادتهم في حياتهم وبعد مماتهم.

﴿وَكَمْ أَهْلَكْنَا مِن قَرْيَةٍ بَطِرَتْ مَعِيشَتَهَا ۖ فَتِلْكَ مَسَاكِنُهُمْ لَمْ تُسْكَن مِّن بَعْدِهِمْ إِلَّا قَلِيلًا ۖ وَكُنَّا نَحْنُ الْوَارِثِينَ ﴿٥٨﴾﴾

لقد أهلك الله تعالى قرى كثيرة بَطرت معيشتها وبقيت مساكنهم دلالة عليهم، لم يسكنها أحد إلا قليلا منها، وكان الله هو الوارث، وهذه سنة من سنن الله تعالى في هذه الأرض.

ذكر الطنطاوي: كثيراً من أهل قرى كانت أحوالهم كحال أهل مكة في الأمن وسعة الرزق؛ فلما بطروا معيشتهم، واستعملوا نعمنا في الشرّ لا في الخير، وفي الفسوق لا في الطاعة، أخذناهم أخذ عزيز مقتدر، بأن دمرناهم وقراهم تدميراً. إذن فبَطرُ النعمة وعدم الشكر عليها، هو السبب الحقيقي في الهلاك، وليس اتباع الهدى، كما زعم أولئك المشركون الجاهلون.

﴿وَمَا كَانَ رَبُّكَ مُهْلِكَ الْقُرَى حَتَّى يَبْعَثَ فِي أُمِّهَا رَسُولاً يَتْلُو عَلَيْهِمْ آيَاتِنَا ۚ وَمَا كُنَّا مُهْلِكِي الْقُرَى إِلَّا وَأَهْلُهَا ظَالِمُونَ﴾ (٥٩)

سنة الإِهلاك قائمة على ظلم أهلها لأنفسهم، ليرسل الله لهم ما يُذكّرهم من الرسل؛ فإن أبوا، فالعقاب الأليم بالمحق والهلاك وبشتى ألوان العذاب. لذلك جاءت أكثر من آية تدعو إلى النهي عن الظلم والمنكر والأمر بالمعروف؛ فمن لم يفعل فقد استحق العذاب.

ذكر السعدي: من حكمته ورحمته أن لا يُعذب الأمم بمجرد كفرهم قبل إقامة الحجة عليهم، بإرسال الرسل إليهم.

ذكر الطنطاوي: إن حكمة الله تعالى وعدالته قد اقتصت، أن لا يُهلك قرية من القرى التي كفر أهلها، حتى يبعث في كبرى تلك القرى وأصلها رسولاً من رسله الكرام، يتلو على أهلها آياته، ويُبلغهم دعوته، ويُبين لهم الحق من الباطل.

وحكمة إرسال الرسول في كبرى تلك القرى، أنها المركز والعاصمة، والتي بدورها تُبلغ الرسالة للقرى التابعة لها، وأنها عادة المكان المختار لسكنى وجهاء القوم ورؤسائهم.

وَمَا أُوتِيتُم مِّن شَيْءٍ فَمَتَاعُ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَزِينَتُهَا ۚ وَمَا عِندَ اللَّهِ خَيْرٌ وَأَبْقَىٰ ۚ أَفَلَا تَعْقِلُونَ ﴿٦٠﴾

ما أعطاكم الله إياه هو مجرد شيء من متاع الحياة الدنيا وزينتها، لكن ما عند الله خير من ذلك كله.

ذكر ابن عاشور: إن كل ما أوتوه من نعمة هو من متاع الحياة الدنيا كالأمن والرزق، ومن زينتها كاللباس والأنعام والمال، وأما ما عند الله فمن نعيم الآخرة وذلك أبقى؛ لئلا يحسبوا أن ما هم فيه من الأمن والرزق هو

الغاية المطلوبة فلا يتطلبوا ما به تحصيل النعيم العظيم الأبدي، وتحصيله بالإيمان.

ذكر السعدي: هذا حض من الله لعباده على الزهد في الدنيا وعدم الاغترار بها، وعلى الرغبة في الأخرى، وجعلها مقصود العبد ومطلوبه، ويخبرهم أن جميع ما أوتيه الخلق، من الذهب، والفضة، والحيوانات والأمتعة، والنساء، والبنين، والمآكل، والمشارب، واللذات، كلها متاع الحياة الدنيا وزينتها؛ أي: يتمتع به وقتاً قصيراً، متاعاً قاصراً، محشواً بالمنغصات، ممزوجاً بالغصص. ويزين به زماناً يسيراً، للفخر والرياء، ثم يزول ذلك سريعاً، وينقضي جميعاً، ولم يستفد صاحبه منه إلا الحسرة والندم، والخيبة والحرمان.

﴿ وَمَا عِنْدَ اللَّهِ ﴾ من النعيم المقيم، والعيش السليم ﴿ خَيْرٌ وَأَبْقَى ﴾؛ أي: أفضل في وصفه وكميته، وهو دائم أبداً، ومستمر سرمداً.

وَمِن رَّحْمَتِهِ جَعَلَ لَكُمُ اللَّيْلَ وَالنَّهَارَ لِتَسْكُنُوا فِيهِ وَلِتَبْتَغُوا مِن فَضْلِهِ وَلَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ (٧٣)

إن خلق الليل للسكن والنهار للمعاش هو رحمة من الله كما ذكرت غير آية.

﴿إِنَّ قَارُونَ كَانَ مِن قَوْمِ مُوسَىٰ فَبَغَىٰ عَلَيْهِمْ ۖ وَآتَيْنَاهُ مِنَ الْكُنُوزِ مَا إِنَّ مَفَاتِحَهُ لَتَنُوءُ بِالْعُصْبَةِ أُولِي الْقُوَّةِ إِذْ قَالَ لَهُ قَوْمُهُ لَا تَفْرَحْ ۖ إِنَّ اللَّهَ لَا يُحِبُّ الْفَرِحِينَ ﴿٧٦﴾﴾

لقد آتى الله قارون من الأموال والكنوز شيئاً عظيماً؛ حتى أن مفاتيح الخزائن والمغارات التي وضُع فيها المال يعجز عن حملها الرجال الأقوياء.

يُستدل من هذه الآية الكريمة أن حيازة المال بكميات هائلة لا يعود للعهود الحديثة بل هذا قديم وقد ذكر الله ذلك عن قارون مثلاً.

ذكر الطنطاوي: لقد أعطى الله تعالى قارون نعماً عظيمة، فلم يشكر الله عليها، بل طغى وبغى، فقال له العقلاء من قومه: لا تفرح بهذا المال الذي بين يديك فرح البطر الفخور، المستعمل لنعم الله في الفسوق والمعاصي، فإن الله تعالى لا يحب من كان كذلك.

﴿وَابْتَغِ فِيمَا آتَاكَ اللَّهُ الدَّارَ الْآخِرَةَ ۖ وَلَا تَنسَ نَصِيبَكَ مِنَ الدُّنْيَا ۖ وَأَحْسِن كَمَا أَحْسَنَ اللَّهُ إِلَيْكَ ۖ وَلَا تَبْغِ الْفَسَادَ فِي الْأَرْضِ ۖ إِنَّ اللَّهَ لَا يُحِبُّ الْمُفْسِدِينَ ﴿٧٧﴾﴾

تدعو هذه الآية الكريمة إلى التوازن بين الحياتين الدنيا والآخرة فليس المطلوب السعي للآخرة دون الحياة الدنيا بل ليأخذ الناس نصيبهم من

متاع هذه الدنيا وزينتها مع الإِحسان للغير، كما أحسن الله لمن أخذ نصيبه منها. ويجب عدم الإِفساد في الأرض لأن الله لا يحب المفسدين.

ذكر الطنطاوي: ثم قالوا له أيضاً على سبيل النصح والإِرشاد: ﴿وَابْتَغِ فِيما آتاكَ اللَّهُ الدَّارَ الآخِرَةَ﴾؛ أي: واطلب فيما أعطاك الله تعالى من أموال عظيمة، ثواب الدار الآخرة، عن طريق إنفاق جزء من مالك في وجوه الخير، كالإِحسان إلى الفقراء والمحتاجين.

﴿وَلا تَنْسَ نَصِيبَكَ مِنَ الدُّنْيا﴾؛ أي: اجعل مالك زاداً لآخرتك، ولا تترك التنعم بنعم الله في دنياك، فإِن لربك عليك حقاً، ولنفسك عليك حقاً، ولأهلك عليك حقاً، ولضيفك عليك حقاً، فأعط كل ذي حق حقه.

﴿وَأَحْسِنْ كَما أَحْسَنَ اللَّهُ إِلَيْكَ﴾؛ أي: وأحسن إلى عباد الله بأن تترك البغي عليهم، وتعطيهم حقوقهم. مثل ما أحسن الله إليك بنعم كثيرة.

﴿وَلا تَبْغِ الْفَسادَ فِي الأَرْضِ﴾؛ أي: ولا تطلب الفساد في الأرض عن طريق البغي والظلم، ﴿إِنَّ اللَّهَ لا يُحِبُّ الْمُفْسِدِينَ﴾؛ كما أنه سبحانه لا يحب الفرحين المختالين.

وهكذا ساق العقلاء من قوم قارون النصائح الحكيمة له، والتي من شأن من اتبعها أن ينال السعادة في دنياه وأخراه.

﴿قَالَ إِنَّمَا أُوتِيتُهُ عَلَى عِلْمٍ عِندِي ۚ أَوَلَمْ يَعْلَمْ أَنَّ اللَّهَ قَدْ أَهْلَكَ مِن قَبْلِهِ مِنَ الْقُرُونِ مَنْ هُوَ أَشَدُّ مِنْهُ قُوَّةً وَأَكْثَرُ جَمْعًا ۚ وَلَا يُسْأَلُ عَن ذُنُوبِهِمُ الْمُجْرِمُونَ ﴿٧٨﴾﴾

ولقد رد قارون فضل جمع المال الكثير لنفسه، وبناء على علمه وخبرته دون الله الرازق، فكان نصيبه الإِهلاك.

وقد أهلك الله ممن قبله ممن هو أشدُّ منه قوة وأكثر جمعاً للمال، وبذلك فإن هناك من جمع مالاً أكثر من قارون.

ذكر الطنطاوي: قال قارون في الرد على ناصحيه: إن هذا المال الكثير الذي تحت يدي، إنما أوتيته بسبب علمي وجدي واجتهادي؛ فكيف تطلبون مني أن أتصرف بمقتضى نصائحكم؟ لا؛ لن أتبع تلك النصائح التي وجهتموها إليّ؛ فإن هذا المال مالي ولا شأن لكم بتصرفي فيه، كما أنه لا شأن لكم بتصرفاتي الخاصة، ولا بسلوكي في حياتي التي أملكها.

وهذا القول يدل على أن قارون، كان قد بلغ الذروة في الغرور والطغيان وجحود النعمة. ولذا جاءه التهديد المصحوب بالسخرية منه ومن كنوزه.

والمقصود بهذا الاستفهام التعجيب من حاله، والتأنيب له على جهله وغروره؛ أي: أبلغ الغرور والجهل بقارون أنه يزعم أن هذا المال الذي بين يديه جمعه بمعرفته واجتهاده، مع أنه يعلم حق العلم عن طريق التوراة

وغيرها، أن الله تعالى قد أهلك من قبله؛ من أهل القرون السابقة عليه من هو أشدُّ منه في القوة، وأكثر منه في جمع المال واكتنازه؛ فالمقصود بالجملة الكريمة تهديده وتوبيخه على غروره وبطره.

﴿فَخَرَجَ عَلَى قَوْمِهِ فِي زِينَتِهِ قَالَ الَّذِينَ يُرِيدُونَ الْحَيَاةَ الدُّنْيَا يَا لَيْتَ لَنَا مِثْلَ مَا أُوتِيَ قَارُونُ إِنَّهُ لَذُو حَظٍّ عَظِيمٍ ﴿٧٩﴾﴾

خرج قارون متبختراً متكبراً في زينة عظيمة؛ فانبهر محبو الحياة الدنيا، وتمنوا ما لقارون، ووصفوه بأنه ذو حظ عظيم.

﴿وَقَالَ الَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ وَيْلَكُمْ ثَوَابُ اللَّهِ خَيْرٌ لِّمَنْ آمَنَ وَعَمِلَ صَالِحًا وَلَا يُلَقَّاهَا إِلَّا الصَّابِرُونَ ﴿٨٠﴾﴾

أما أهل العلم فقالوا: إن ثواب الله خير لمن آمن وعمل صالحاً.

ذكر القرطبي: قال الذين أوتوا العلم ويلكم – وهم أحبار بني إسرائيل – قالوا للذين تمنوا مكانه: ويلكم ثواب الله خير؛ يعني الجنة. لمن آمن وعمل صالحاً ولا يُلقاها إلا الصابرون أي لا يُؤتى الأعمال الصالحة أو لا يُؤتى الجنة في الآخرة إلا الصابرون على طاعة الله.

فَخَسَفْنَا بِهِ وَبِدَارِهِ الْأَرْضَ فَمَا كَانَ لَهُ مِن فِئَةٍ يَنصُرُونَهُ مِن دُونِ اللَّهِ
وَمَا كَانَ مِنَ الْمُنتَصِرِينَ ﴿٨١﴾

أما مصير قارون فكان الخسف به وبداره، ويكأن داره كانت مخزن أمواله الكثيرة، فدُمرت خسفاً به وبما فيها، وهذا جزاء من ادعى القوة لنفسه من دون الله.

ذكر الطنطاوي: ﴿وَما كانَ قارون مِنَ الْمُنْتَصِرِينَ﴾؛ بل كان من الأذلين الذين تلقوا عقوبة الله تعالى باستسلام وخضوع وخنوع، دون أن يستطيع هو أو قومه رد عقوبة الله تعالى.

وَأَصْبَحَ الَّذِينَ تَمَنَّوْا مَكَانَهُ بِالْأَمْسِ يَقُولُونَ وَيْكَأَنَّ اللَّهَ يَبْسُطُ
الرِّزْقَ لِمَن يَشَاءُ مِنْ عِبَادِهِ وَيَقْدِرُ ۖ لَوْلَا أَن مَّنَّ اللَّهُ عَلَيْنَا لَخَسَفَ بِنَا ۖ
وَيْكَأَنَّهُ لَا يُفْلِحُ الْكَافِرُونَ ﴿٨٢﴾

فما كان ممن تمنوا مكان قارون إلا أن اعترفوا بأن الرزق من الله تعالى، وأنه سبحانه يبسطه لمن يشاء ويقدِره على من يشاء.

ذكر ابن كثير: ليس المال بدال على رضا الله عن صاحبه وعن عباده؛ فإن الله يُعطي ويمنع، ويُضيق ويوسع، ويُخفض ويرفع، وله الحكمة التامة والحجة البالغة.

ذكر ابن عاشور: إن الذين كانوا يتمنون منزلة قارون ندموا على تمنيهم لما رأوا سوء عاقبته وامتلكهم العجب من تلك القصة ومن خفي تصرفات الله تعالى في خلقه وعلموا وجوب الرضى بما قُدِّر للناس من الرزق فخاطب بعضهم بعضاً بذلك وأعلنوه.

تِلْكَ الدَّارُ الْآخِرَةُ نَجْعَلُهَا لِلَّذِينَ لَا يُرِيدُونَ عُلُوًّا فِي الْأَرْضِ وَلَا فَسَادًا وَالْعَاقِبَةُ لِلْمُتَّقِينَ (٨٣)

إن الدار الآخرة ستكون للمتواضعين لله، ولعباده في الأرض ممن لا يُفسدون فيها.

ذكر ابن عاشور: انتهت قصة قارون بما فيها من العبر من خير وشرّ، فأعقبت باستئناف كلام عن الجزاء على الخير وضده في الحياة الأبدية وأنها مُعدَّة للذين حالهم بضد حال قارون، مع مناسبة ذكر الجنة بعنوان الدار لذكر الخسف بدار قارون للمقابلة بين دار زائلة ودار خالدة.

تفسير سورة العنكبوت

رقم السورة: ٢٩ وهي مكية وعدد آياتها: ٦٩.

ذكر الطنطاوي: حدثتنا السورة من بين ما حدثتنا عن الإيمان وتكاليفه، وعن سنن الله في خلقه، وعن قصص بعض الأنبياء مع أقوامهم، وعن هوان الشرك والشركاء، وعما يعين المؤمن على طاعة الله، وعن علاقة المؤمنين بغيرهم، وعن البراهين الساطعة الناطقة بأن هذا القرآن من عند الله، وعن أن المؤمن لا يليق به أن يقيم في مكان لا يستطيع فيه أن يؤدي شعائر دينه، وعن سوء عاقبة الأشرار، وحسن عاقبة الأخيار.

إِنَّمَا تَعْبُدُونَ مِن دُونِ اللَّهِ أَوْثَانًا وَتَخْلُقُونَ إِفْكًا إِنَّ الَّذِينَ تَعْبُدُونَ مِن دُونِ اللَّهِ لَا يَمْلِكُونَ لَكُمْ رِزْقًا فَابْتَغُوا عِندَ اللَّهِ الرِّزْقَ وَاعْبُدُوهُ وَاشْكُرُوا لَهُ إِلَيْهِ تُرْجَعُونَ ﴿١٧﴾

يُخاطب إبراهيم عليه السلام قومه ويُدلل على أن ما يعبدونه ليس إلهاً ولا يستحق الألوهية ودليله أن ما يعبدونهم لا يملكون لهم رزقاً.

لذلك يفهم من هذه الآية الكريمة أن مالك الرزق هو الله، ومن يستحق العبادة يجب أن يكون له القدرة على رزق عباده، فهو من يُبتغى الرزق عنده ويُطلب، وبذلك يستحق العبادة والشكر.

ذكر الطبري: وقوله: ﴿إِنَّ الَّذِينَ تَعْبُدُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ لا يَمْلِكُونَ لَكُمْ رِزْقًا﴾ يقول جلّ ثناؤه: إن أوثانكم التي تعبدونها، لا تقدر أن ترزقكم شيئاً.

﴿فَابْتَغُوا عِنْدَ اللَّهِ الرِّزْقَ﴾ يقول: فالتمسوا عند الله الرزق لا من عند أوثانكم، تدركوا ما تبتغون من ذلك.

﴿وَاعْبُدُوهُ﴾ يقول: وذُلّوا له ﴿وَاشْكُرُوا لَهُ﴾ على رزقه إياكم، ونعمه التي أنعمها عليكم، يُقال: شكرته وشكرتُ له، أفصح من شكرته.

وقوله: ﴿إِلَيْهِ تُرْجَعُونَ﴾ يقول: إلى الله تُرَدّون من بعد مماتكم، فيسألكم عما أنتم عليه من عبادتكم غيره وأنتم عباده وخلقه، وفي نعمه تتقلَّبون، ورزقه تأكلون!.

ذكر ابن عاشور: وتنكير ﴿رِزقاً﴾ في سياق النفي يدلُّ على عموم نفي قدرة أصنامهم على كل رزق ولو قليلاً. وتفريع الأمر بابتغاء الرزق من الله إبطال لظنهم الرزق من أصنامهم أو تذكير بأن الرازق هو الله؛ فابتغاء الرزق منه يقتضي تخصيصه بالعبادة كما دلَّ عليه عطف ﴿واعبدوه واشكروا له﴾.

وقد سلك إبراهيم مسلك الاستدلال بالنعم الحسية لأن إثباتها أقرب إلى أذهان العموم.

وَإِلَىٰ مَدْيَنَ أَخَاهُمْ شُعَيْبًا فَقَالَ يَا قَوْمِ اعْبُدُوا اللَّهَ وَارْجُوا الْيَوْمَ الْآخِرَ وَلَا تَعْثَوْا فِي الْأَرْضِ مُفْسِدِينَ ﴿٣٦﴾

دعوة الرسل عليهم السلام لأقوامهم: لا تعثوا في الأرض مفسدين؛ أي النهي المستمر عن إفساد الأرض، لأن في ذلك تضييعاً للموارد المادية والبشرية، وخسارة للجميع.

ذكر ابن كثير: ثم نهاهم عن العيث في الأرض بالفساد، وهو السعي فيها والبغي على أهلها، وذلك أنهم كانوا يُنقصون المكيال والميزان، ويقطعون الطريق على الناس.

وَعَادًا وَثَمُودَ وَقَد تَّبَيَّنَ لَكُم مِّن مَّسَاكِنِهِمْ ۖ وَزَيَّنَ لَهُمُ الشَّيْطَانُ أَعْمَالَهُمْ فَصَدَّهُمْ عَنِ السَّبِيلِ وَكَانُوا مُسْتَبْصِرِينَ ﴿٣٨﴾

ذكرت الآيات المساكن والبيوت بأسماء عديدة وجميعها أصول مادية يتخذها الناس سَكناً ومسكناً.

ذكر الطبري: وقد تبين لكم يا معشر الكفار من مساكنهم بالحجر والأحقاف آيات في إهلاكهم فحذف فاعل التبين وزين لهم الشيطان أعمالهم أي أعمالهم الخسيسة فحسبوها رفيعة؛ فصدهم عن السبيل أي عن طريق الحق.

ذكر ابن عاشور: إنهم كانوا أهل بصائر؛ أي عقول؛ فلا عذر لهم في صدهم عن السبيل، وفي هذه الجملة اقتضاء أن ضلال عاد كان ضلالاً ناشئاً عن فساد اعتقادهم وكفرهم المتأصل فيهم والموروث عن آبائهم وأنهم لم ينجوا من عذاب الله لأنهم كانوا يستطيعون النظر في دلائل الوحدانية وصدق رسلهم.

﴿فَكُلًّا أَخَذْنَا بِذَنبِهِۦ ۖ فَمِنْهُم مَّنْ أَرْسَلْنَا عَلَيْهِ حَاصِبًا وَمِنْهُم مَّنْ أَخَذَتْهُ ٱلصَّيْحَةُ وَمِنْهُم مَّنْ خَسَفْنَا بِهِ ٱلْأَرْضَ وَمِنْهُم مَّنْ أَغْرَقْنَا ۚ وَمَا كَانَ ٱللَّهُ لِيَظْلِمَهُمْ وَلَـٰكِن كَانُوٓا۟ أَنفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ ﴿٤٠﴾﴾

تعددت صور الأخذ بالعذاب للأقوام الظالمة بما أحدثوه من ذنوب، وكانت نتيجة ذلك التدمير وخراب ما عمروه وما فعلوه، لذلك فإن كل ما يُشيّده الإنسان ليس له قيمة إن لم يؤمن بالله ويشكره على نعمه؛ فقد يمده الله تعالى بطول الأمل ثم يُؤخذ بشتى ألوان العذاب، ويُضيع كل ما أشاده هباء منثوراً.

ويكأن المال واقتصاده إنما هو لله، ويجب أن يُسخَّرَ لعبادة الله المالك الحقيقي.

ذكر ابن عاشور: وظلمهم أنفسهم هو تسببهم في عذاب أنفسهم فجرُّوا إليها العقاب لأن النفس أولى الأشياء برأفة صاحبها بها وتفكيره في أسباب خيرها.

مَثَلُ الَّذِينَ اتَّخَذُوا مِن دُونِ اللَّهِ أَوْلِيَاءَ كَمَثَلِ الْعَنكَبُوتِ اتَّخَذَتْ بَيْتًا ۖ وَإِنَّ أَوْهَنَ الْبُيُوتِ لَبَيْتُ الْعَنكَبُوتِ ۖ لَوْ كَانُوا يَعْلَمُونَ (٤١)

ضرب الله مثلا بيت العنكبوت بوهنه وضعفه مثالاً عمن اتخذ إلهاً غير الله أو أشرك معه أحداً.

(تبين الدراسات الحديثة بأنه يتم تشييد البناء الاجتماعي والعلاقات الأُسرية في بيت العنكبوت على مصالح مؤقتة حتى إذا انتهت هذه المصالح انقلب الأفراد أعداء وقام بعضهم بقتل بعض، فهذه أنثى العنكبوت تسمح للذكر بدخول عشها لوجود مصلحة التلقيح حتى إذا قضت أربها منه انقلبت عليه وقامت بقتله وأكله، وأخرى تقدم زوجها طعاما لأولادها، وفي نوع آخر يأكل الصغار أمهم أول ما تقوى أعوادهم)[١].

[١] مرجع سابق، بورباب.

ذكر السعدي: لّما بيّن نهاية ضعف آلهة المشركين، ارتقى من هذا إلى ما هو أبلغ منه، وأنها ليست بشيء، بل هي مجرد أسماء سموها، وظنون اعتقدوها، وعند التحقيق، يتبين للعاقل بطلانها وعدمها.

ذكر الطنطاوي: حال هؤلاء المشركين الذين اتخذوا من دون الله تعالى أصناما يعبدونها، ويرجون نفعها وشفاعتها؛ كحال العنكبوت في اتخاذها بيتاً ضعيفاً مهلهلاً، لا ينفعها لا في الحرّ ولا في القرّ، ولا يدفع عنها شيئاً من الأذى.

يَا عِبَادِيَ الَّذِينَ آمَنُوا إِنَّ أَرْضِي وَاسِعَةٌ فَإِيَّايَ فَاعْبُدُونِ (٥٦)

تدعو هذه الآية الكريمة عباد الله إلى أن يسيحوا في الأرض هرباً بدينهم، وتشجع هذه الآية على اقتصاد السياحة.

قال صلى الله عليه وسلم فيما رواه عبد الله ابن عمر رضي الله عنهما: سافِروا تصِحُّوا وتَغنَموا.

وقال صلى الله عليه وسلم فيما رواه أبو هريرة رضي الله عنه: سافروا تصحُّوا واغزُوا تستَغنْوا. وفي رواية أخرى: اغزوا تغنَموا وصوموا تصِحُّوا وسافِروا تستغنوا.

وقال صلى الله عليه وسلم فيما رواه جابر بن عبد الله رضي الله عنه: خيرُ أمتي الذين إذا أساؤوا استغفروا، وإذا سافَروا قصَروا وأفطَروا.

ذكر ابن كثير: لهذا لما ضاق على المستضعفين بمكة مقامهم بها، خرجوا مهاجرين إلى أرض الحبشة، ليأمنوا على دينهم هناك، فوجدوا هناك خير المنزلين، أصحمة النجاشي ملك الحبشة، رحمه الله، آواهم وأيدهم بنصره، وجعلهم سيوما ببلاده. ثم بعد ذلك هاجر رسول الله صلى الله عليه وسلم وأصحابه الباقون إلى المدينة النبوية يثرب المطهرة.

ذكر القرطبي: قال ابن جبير وعطاء: إن الأرض التي فيها الظلم والمنكر تترتب فيها هذه الآية وتلزم الهجرة عنها إلى بلد حق.

ذكر ابن عاشور: قوله: ﴿فإياي فاعبدون﴾ أن علّة الأمر لهم بالهجرة هي تمكينهم من إظهار التوحيد وإقامة الدين. وهذا هو المعيار في وجوب الهجرة من البلد الذي يفتن فيه المسلم في دينه وتجري عليه فيه أحكام غير إسلامية.

ذكر الطنطاوي: تحريض لهم على الهجرة من الأرض التي لا يتمكنون فيها من إقامة شعائر دينهم، فكأنه سبحانه يقول لهم: ليس هناك ما يجبركم على الإقامة في تلك الأرض التي لا قدرة لكم فيها على إظهار دينكم، بل

اخرجوا منها فإن أرضي واسعة، ومن خرج من أجل كلمة الله، رزقه الله تعالى من حيث لا يحتسب.

ومن المفسرين الذين أجادوا في شرح هذا المعنى، صاحب الكشاف رحمه الله؛ فقد قال: ومعنى الآية: أن المؤمن إذا لم يتسهل له العبادة في بلد هو فيه، ولم يتمش له أمر دينه كما يحب، فليهاجر عنه إلى بلد يُقدِّر أنه فيه أسلم قلباً، وأصح ديناً، وأكثر عبادة.

وَكَأَيِّن مِّن دَابَّةٍ لَّا تَحْمِلُ رِزْقَهَا اللَّهُ يَرْزُقُهَا وَإِيَّاكُمْ وَهُوَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ ﴿٦٠﴾

الدابة تشير لكل من يدبُّ على الأرض، فليس من دابة تدب على الأرض تحمل رزقها معها فلا مخزن ولا مستودع يُسعفها أكثر مما تتسع له معدتها، لكن الله يرزقهم جميعاً ويؤمن لهم رزقهم تباعاً. وبذلك تكفّل الله تعالى برزق عباده جميعهم ضعيفهم وقويهم. وكأن هذه الآية الكريمة تقول لمن سيهاجر في سبيل الله إن رزقك سيكون معك حيثما تكون.

ذكر ابن كثير: لا تطيق جمعه وتحصيله ولا تؤخر شيئا لغد، ﴿الله يرزقها وإياكم﴾؛ أي: الله يقيض لها رزقها على ضعفها، وييسره عليها، فيبعث إلى كل مخلوق من الرزق ما يصلحه، حتى الذرّ في قرار الأرض، والطير

في الهواء والحيتان في الماء، قال الله تعالى: ﴿وما من دابة في الأرض إلا على الله رزقها ويعلم مستقرها ومستودعها كل في كتاب مبين﴾ هود: ٦.

ذكر القرطبي: عن ابن عمر رضي الله عنه قوله: خرجتُ مع رسولِ اللهِ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم حتَّى دخل بعضَ حيطانِ الأنصارِ فجعل يلتقِطُ من التَّمرِ ويأكلُ فقال يا بنَ عمرَ ما لك لا تأكلُ فقلتُ يا رسولَ اللهِ لا أشتهيه فقال لكنِّي أشتهيه وهذه صبيحةٌ رابعةٌ منذ لم أذُقْ طعامًا ولم أجِدْهُ ولو شئتُ لدعوتُ ربِّي فأعطاني مثلَ مُلكِ كسرَى وقيصرَ فكيف بك يا بنَ عمرَ إذا بقيتَ في قومٍ يُخبِّئون رزقَ سنتِهم بضَعفِ اليقينِ، قال واللهِ ما برِحنا ولا رُحنا حتَّى نزلت ﴿وَكَأَيِّنْ مِنْ دَابَّةٍ لَا تَحْمِلُ رِزْقَهَا اللَّهُ يَرْزُقُهَا وَإِيَّاكُمْ﴾ الآيةُ. ثم أردف القرطبي: وهذا ضعيف يضعفه أنه عليه السلام كان يدخر لأهله قوت سنتهم، اتفق البخاري عليه ومسلم. وكانت الصحابة يفعلون ذلك وهم القدوة وأهل اليقين والأئمة لمن بعدهم من المتقين المتوكلين. وهذا يدلّ على أن الايمان والتسليم بأن الرزق من الله لكل مخلوق لا محالة، لكن حُسن التدبير وبذل العمل في تحصيله أمر لا بد منه ولا غنى عنه، وقد سبقت الإشارة في غير آية أن مريم عليها السلام ورغم ما كلفها الله به من حَملٍ ورغم ضعفها قال لها: ﴿وهزي إليك

بجذع النخلة﴾ كدليل على ضرورة بذل العمل مع أن خالقها قد هيّأ لها الماء والغذاء حولها.

وذكر أيضاً: الله يرزقها وإياكم يسوي بين الحريص والمتوكل في رزقه وبين الراغب والقانع وبين الحيول والعاجز حتى لا يغتر الجَلَد أنه مرزوق بجَلَده ولا يتصور العاجز أنه ممنوع بعجزه، وفي الصحيح عن النبي صلى الله عليه وسلم: لَو أنَّكُم كنتُم تَوكَّلُونَ على اللهِ حقَّ تَوكُّلِه لرُزِقْتُمْ كما تُرزَقُ الطَّيرُ، تغدو خِماصًا، وتروحُ بطانًا.

ذكر البغوي: ﴿وكأين من دابة لا تحمل رزقها﴾ وذلك أن النبي صلى الله عليه وسلم قال للمؤمنين الذين كانوا بمكة وقد آذاهم المشركون: "هاجروا إلى المدينة"، فقالوا: كيف نخرج إلى المدينة وليس لنا بها دار ولا مال، فمن يطعمنا بها ويسقينا؟ فأنزل الله: ﴿وكأين من دابة﴾ ذات حاجة إلى غذاء ﴿لا تحمل رزقها﴾؛ أي: لا ترفع رزقها معها ولا تدخر شيئاً لغد مثل البهائم والطير ﴿الله يرزقها وإياكم﴾ حيث كنتم ﴿وهو السميع العليم﴾ السميع لأقوالكم: لا نجد ما ننفق بالمدينة، العليم بما في قلوبكم.

ذكر السعدي: ﴿اللَّهُ يَرْزُقُهَا وَإِيَّاكُمْ﴾؛ فكلكم عيال اللّه، القائم برزقكم، كما قام بخلقكم وتدبيركم، ﴿وَهُوَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ﴾؛ فلا يخفى عليه خافية، ولا تهلك دابة من عدم الرزق بسبب أنها خافية عليه.

ذكر الطنطاوي: قدم سبحانه رزق الدابة التي لا تستطيع تحصيله، على رزقهم فقال: ﴿اللَّهُ يَرْزُقُها وَإِيَّاكُمْ﴾؛ لينفي من قلوب الناس القلق على الرزق، وليشعرهم بأن الأسباب ليست هي كل شيء، فإن واهب الأسباب، لا يترك أحدا بدون رزق، ولإزالة ما قد يخطر في النفوس من أن الهجرة من أجل إعلاء كلمة الله قد تنقص الرزق.

اللَّهُ يَبْسُطُ الرِّزْقَ لِمَنْ يَشَاءُ مِنْ عِبَادِهِ وَيَقْدِرُ لَهُ ۚ إِنَّ اللَّهَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ ٦٢

إن الله هو من يبسط الرزق لمن يشاء ويقدره، كما يقلله على من يشاء لعلمه الواسع وتدبيره سبحانه وتعالى.

ذكر الطبري: إن الله عليم بمصالحكم، ومن لا يصلُح له إلا البسط في الرزق، ومن لا يصلح له إلا التقتير عليه، وهو عالم بذلك.

ذكر ابن كثير: فذكر أنه المستبد بخلق الأشياء المتفرد بتدبيرها.

ذكر ابن عاشور: أدمج في الاستدلال على انفراده تعالى بالرزق التذكير بأنه تعالى يرزق عباده على حسب مشيئته دليلاً على أنه المختار في تصرفه وليس ذلك على مقادير حاجاتهم ولا على ما يبدو من الانتفاع بما يُرزقونه.

﴿وَلَئِن سَأَلْتَهُم مَّن نَّزَّلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَأَحْيَا بِهِ الْأَرْضَ مِن بَعْدِ مَوْتِهَا لَيَقُولُنَّ اللَّهُ ۚ قُلِ الْحَمْدُ لِلَّهِ ۚ بَلْ أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْقِلُونَ ﴿٦٣﴾﴾

هو منزل الماء من السماء لتحيا به الأرض بعد أن تصبح جافة متشققة لا حياة فيها.

ذكر ابن عاشور: أعيد أسلوب السؤال والجواب ليتصل ربط الأدلة بعضها ببعض على قرب؛ فقد كان المشركون لا يدَّعُون أن الأصنام تُنزل المطر كما صرحت به الآية فقامت الحجة عليهم ولم ينكروها وهي تقرع أسماعهم ... فلا جرم أن يكون موتها بتقدير الله للعلم بأن موت الأرض كان بعد حياة سبقت من نوع هذه الحياة، فصارت الآية دالة على أنه المتصرف بإِحياء الأرض وإماتتها، ويُعلم منه أن محيي الحيوان ومميته بطريقة لحن الخطاب.

وَمَا هَٰذِهِ الْحَيَاةُ الدُّنْيَا إِلَّا لَهْوٌ وَلَعِبٌ ۚ وَإِنَّ الدَّارَ الْآخِرَةَ لَهِيَ الْحَيَوَانُ ۚ لَوْ كَانُوا يَعْلَمُونَ ﴿٦٤﴾

تصف هذه الآية الكريمة حقيقة الحياة الدنيا فهي أشبه بمن يتلهى ويلعب، والحياة الحقيقية هي حياة الخلد حياة الآخرة، أما هذه الحياة الدنيا ففانية وكل ما فيها.

ذكر القرطبي: أي ليس ما أعطاه الله الأغنياء من الدنيا إلا وهو يضمحل ويزول؛ كاللعب الذي لا حقيقة له ولا ثبات.

وذكر أيضاً: هذا كله في أمور الدنيا من المال والجاه والملبس الزائد على الضروري الذي به قوام العيش والقوة على الطاعات، وأما ما كان منها لله فهو من الآخرة، وهو الذي يبقى؛ كما قال: ويبقى وجه ربك ذو الجلال والإكرام أي ما ابتغي به ثوابه ورضاه، وإن الدار الآخرة لهي الحيوان أي دار الحياة الباقية التي لا تزول ولا موت فيها.

ذكر ابن عاشور: وقد زادت هذه الآية بتوجيه اسم الإشارة إلى الحياة وهي إشارة تحقير وقلة اكتراث.

ذكر السعدي: يُخبر تعالى عن حالة الدنيا والآخرة، وفي ضمن ذلك، التزهيد في الدنيا والتشويق للأخرى.

فَإِذَا رَكِبُوا فِي الْفُلْكِ دَعَوُا اللَّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ الدِّينَ فَلَمَّا نَجَّاهُمْ إِلَى الْبَرِّ إِذَا هُمْ يُشْرِكُونَ (٦٥)

إذا ركب الإنسان سفينة البحر ليسافر ويتنقل، وليشحن بضاعته؛ فإنه سرعان ما يلجأ إلى الله بوصفه الخالق ليُنجيَه من مخاطر النقل البحري؛ فإن وصل البرّ اطمأن وعاد لِشركه، وكأن الله غير موجود إلا في البحر، وكأن الله لا يقدر على الإنسان إلا في البحر، وهذا غير صحيح إلا عند من عدم عقله.

ذكر السعدي: ألزم تعالى المشركين بإخلاصهم للهّ تعالى، في حالة الشدة، عند ركوب البحر وتلاطم أمواجه وخوفهم الهلاك، يتركون إذاً أندادهم، ويُخلصون الدعاء للهّ وحده لا شريك له، فلما زالت عنهم الشدة، ونجى من أخلصوا له الدعاء إلى البر، أشركوا به من لا نجاهم من شدة، ولا أزال عنهم مشقة؛ فهلا أخلصوا للهّ الدعاء في حال الرخاء والشدة، واليسر والعسر، ليكونوا مؤمنين به حقاً، مستحقين ثوابه، مندفعاً عنهم عقابه.

أَوَلَمْ يَرَوْا أَنَّا جَعَلْنَا حَرَمًا آمِنًا وَيُتَخَطَّفُ النَّاسُ مِنْ حَوْلِهِمْ أَفَبِالْبَاطِلِ يُؤْمِنُونَ وَبِنِعْمَةِ اللَّهِ يَكْفُرُونَ (٦٧)

جعل الله المسجد الحرام آمناً وجعل أهله في أمن وسَعة من الرزق، بينما الناس من حولهم يخافون ويُتخطفون، أفلا يعبدون الذي أطعمهم من جوع وآمنهم من خوف. وهذه حاجات أساسية وضرورية ليعيش الناس، ويقومون بما تحتاجه حياتهم.

ذكر ابن عاشور: كان أهل مكة في بحبوحة من الأمن وكان غيرهم من القبائل حول مكة وما بَعدُ منها يغزو بعضهم بعضاً ويتغاورون ويتناهون، وأهل مكة آمنون لا يعدو عليهم أحد مع قتلهم، فذكّرهم الله هذه النعمة عليهم.

تفسير سورة الروم

رقم السورة: ٣٠ وهي مكية وعدد آياتها: ٦٠.

سورة تذكر كنه الحياة وما وراءها.

ذكر الطنطاوي: أفاضت السورة في الحديث عن الأدلة المتعددة، التي تشهد بوحدانية الله تعالى وقدرته، كما تشهد بأن هذا القرآن من عند الله، وبأن يوم القيامة حق وصدق.

كما ساقت آيات متعددة في المقارنة بين مصير الأخيار، ومصير الأشرار، ودعت الناس إلى الثبات على الدين الحق، وهو دين الإسلام، كما حضت على التعاطف والتراحم بين المسلمين، ونهت عن تعاطي الربا، لأنه لا يربو عند الله تعالى، وإنما الذي يُعطي من صدقات هو الذي يربو عند الله عز وجل كما ذكرت أنواعاً من النعم التي أنعم الله تعالى بها على عباده، وأمرتهم بشكره سبحانه عليها، لكي يزيدهم من فضله.

يَعْلَمُونَ ظَاهِرًا مِّنَ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَهُمْ عَنِ الْآخِرَةِ هُمْ غَافِلُونَ ﴿٧﴾

لابد من تعلم كنه الحياة وما وراءها؛ فلا يكفي الإنسان أن يعلم ظواهر الحياة فقط.

ذكر ابن كثير: قال الحسن البصري: والله لبلغ من أحدهم بدنياه أنه يقلب الدرهم على ظفره، فيخبرك بوزنه، وما يُحسن أن يُصلي.

ذكر القرطبي: يعلمون ظاهراً من الحياة الدنيا؛ يعني أمر معايشهم ودنياهم: متى يزرعون؟ ومتى يحصدون؟، وكيف يغرسون وكيف يبنون؟.

ذكر السعدي: هؤلاء الذين لا يعلمون؛ أي: لا يعلمون بواطن الأشياء وعواقبها. وإنما ﴿ يَعْلَمُونَ ظَاهِرًا مِنَ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا ﴾؛ فينظرون إلى الأسباب ويجزمون بوقوع الأمر الذي في رأيهم انعقدت أسباب وجوده، ويتيقنون عدم الأمر الذي لم يُشاهدوا له من الأسباب المقتضية لوجوده شيئاً؛ فهم واقفون مع الأسباب غير ناظرين إلى مسببها المتصرف فيها.

﴿ وَهُمْ عَنِ الْآخِرَةِ هُمْ غَافِلُونَ ﴾ قد توجهت قلوبهم وأهواؤهم وإراداتهم إلى الدنيا وشهواتها وحطامها فعملت لها، وَسَعَت وأقبلت بها، وأدبرت وغفلت عن الآخرة؛ فلا الجنة تشتاق إليها، ولا النار تخافها وتخشاها، ولا المقام بين يدي اللهّ ولقائه يُروِّعها ويزعجها، وهذا علامة الشقاء وعنوان الغفلة عن الآخرة.

أَوَلَمْ يَسِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَيَنظُرُوا كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ ۚ كَانُوا أَشَدَّ مِنْهُمْ قُوَّةً وَأَثَارُوا الْأَرْضَ وَعَمَرُوهَا أَكْثَرَ مِمَّا عَمَرُوهَا وَجَاءَتْهُمْ رُسُلُهُم بِالْبَيِّنَاتِ ۖ فَمَا كَانَ اللَّهُ لِيَظْلِمَهُمْ وَلَٰكِن كَانُوا أَنفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ ﴿٩﴾

تدعو الآية الكريمة الناس إلى الاستقراء وتتبع آثار من سَبَقَهم، فأولئك السابقون كانوا أشد قوة وأكثر آثاراً وأكثر عمراناً للأرض، أشادوا القصور، وأقاموا المصانع، وغرسوا، وزرعوا، وجرّوا الأنهار؛ لكنهم كذّبوا رسل ربهم؛ فلم تُغن عنهم قوتهم، ولا نفعتهم آثارهم فأهلكهم الله جميعاً.

إذاً عمران الأرض من قبل الناس أمر محمود؛ لكن ما هو أهم منه هو عمران الأرض بالإيمان بالله؛ وإلا فلا نفع من عمران الأرض، وزينتها، لأن كفران الناس مؤداه زوال كل هذه النِعم كما جاء في غير آية.

ذكر الطبري: يقول تعالى ذكره: أولم يسر هؤلاء المكذّبون بالله، الغافلون عن الآخرة من قريش في البلاد التي يسلكونها تجراً؛ فينظروا إلى آثار الله فيمن كان قبلهم من الأمم المكذّبة، كيف كان عاقبة أمرها في تكذيبها رسلها؟ فقد كانوا أشدّ منهم قوّة، ﴿وَأَثَارُوا الأرْضَ﴾، يقول: واستخرجوا الأرض، وحرثوها وعمروها أكثر مما عمر هؤلاء، فأهلكهم الله

بكفرهم وتكذيبهم رسلهم، فلم يقدروا على الامتناع، مع شدّة قواهم مما نـزل بهم من عقاب الله، ولا نفعتهم عمارتهم ما عمروا من الأرض، إذ ﴿جَاءَتْهُمْ رُسُلُهُم بِالْبَيِّنَاتِ﴾ من الآيات، فكذّبوهم، فأحلّ الله بهم بأسه، ﴿فَمَا كَانَ اللهُ لِيَظْلِمَهُمْ﴾ بعقابه إياهم على تكذيبهم رسله، وجحودهم آياته، ﴿وَلَكِن كَانُوا أَنْفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ﴾ بمعصيتهم ربهم.

وَمِنْ آيَاتِهِ مَنَامُكُم بِاللَّيْلِ وَالنَّهَارِ وَابْتِغَاؤُكُم مِّن فَضْلِهِ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِّقَوْمٍ يَسْمَعُونَ ﴿٢٣﴾

إن من آيات الله نومكم ليلاً وطلبكم لرزق الله وفضله نهاراً.

ذكر ابن عاشور: حالة النوم حالة عجيبة من أحوال الإنسان والحيوان إذ جعل الله له في نظام أعصاب دماغه قانوناً يستردّ به قوة مجموعه العصَبي بعد أن يعتريه فشل الإعياء من إعمال عقله وجسده؛ فيعتريه شبه موت يخدّر إدراكه، ولا يعطل حركات أعضائه الرئيسية، ولكنه يثبطها حتى يبلغ من الزمن مقداراً كافياً؛ لاسترجاع قوته فيفيق من نومته وتعود إليه حياته كاملة.

وذكر أيضاً: الابتغاء من فضل الله: طلب الرزق بالعمل لأن فضل الله؛ الرزق، وجُعل هذا كناية عن الهبوب إلى العمل لأن الابتغاء يستلزم

الهبوب من النوم، وذلك آية أخرى لأنه نشاط القوة بعد أن خارت وفشلت. ولكون ابتغاء الرزق من خصائص النهار أطلق هنا فلم يقيد بالليل والنهار.

وَمِنْ آيَاتِهِ يُرِيكُمُ الْبَرْقَ خَوْفاً وَطَمَعاً وَيُنَزِّلُ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَيُحْيِي بِهِ الْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِّقَوْمٍ يَعْقِلُونَ (٢٤)

إن من آيات الله البرق؛ تخافونه وتطمعون به فتستبشرون بماء المطر يتلوه؛ لأن الله يحيي الأرض به بعد موتها.

ذكر ابن عاشور: تلك آية خامسة وهي متعلقة بالإنسان وليست متصلة به، فإن البرق آية من آيات صنع الله، فهو من خلْق القوى الكهربائية النورانية في الأسحبة وجعلها آثاراً مُشَاهدة، وكم من قوى أمثالها منبثة في العوالم العلوية لا تُشاهد آثارُها. ومن الحِكم الإلهية في كون البرق مرئياً أن ذلك يثير في النفوس خوفاً من أن يكون الله سلّطه عقاباً وطمعاً في أن يكون أراد به خيراً للناس فيطمعون في نزول المطر، ولذلك أعقبه بقوله: ﴿ وينزِّل من السماء ماء﴾؛ فإن نزول المطر مما يخطر بالبال عند ذكر البرق.

﴿ضَرَبَ لَكُم مَّثَلًا مِّنْ أَنفُسِكُمْ ۖ هَل لَّكُم مِّن مَّا مَلَكَتْ أَيْمَانُكُم مِّن شُرَكَاءَ فِي مَا رَزَقْنَاكُمْ فَأَنتُمْ فِيهِ سَوَاءٌ تَخَافُونَهُمْ كَخِيفَتِكُمْ أَنفُسَكُمْ ۚ كَذَٰلِكَ نُفَصِّلُ الْآيَاتِ لِقَوْمٍ يَعْقِلُونَ﴾ ٢٨

أنتم لا تقبلون مماليككم أن يكونوا شركاءَ لكم بما رزقكم الله به، فكيف تقبلون بأن لله شركاء؟

تدلّ الآية الكريمة على أن الإنسان بطبعه يحب التملك وحده دون غيره من الشركاء إن استطاع إلى ذلك سبيلاً.

ذكر القرطبي: قال بعض العلماء: هذه الآية أصل في الشركة بين المخلوقين لافتقار بعضهم إلى بعض ونفيها عن الله سبحانه ... إذ الشركة تقتضي المعاونة، ونحن مفتقرون إلى معاونة بعضنا بعضاً بالمال والعمل.

ذكر الطنطاوي: المعنى: ضرب الله تعالى لكم أيها الناس مثلاً مُنتزعاً من أنفسكم التي هي أقرب شيء إليكم، وبيان هذا المثل: أنكم لا ترضون أن يُشارككم في أموالكم التي رزقناكم إياها، عبيدكم وإماؤكم، مع أنهم مثلكم في البشرية، ونحن الذين خلقناهم كما خلقناكم، بل إنكم لتخافون على أموالكم منهم، أن يشاركوكم فيها، كما تخافون عليها من

الأحرار المشابهين لكم في الحرية وفي جواز التصرف في تلك الأموال. فإذا كان هذا شأنكم مع عبيدكم الذين هم مثلكم في البشرية، والذين لم تخلقوهم بل نحن الذين خلقناكم وخلقناهم؛ فكيف أجزتم لأنفسكم أن تشركوا مع الله تعالى آلهة أخرى في العبادة؟، مع أنه سبحانه هو الخالق لكم ولهم، والرازق لكم ولهم؟.

إن تصرفكم هذا ظاهر التناقض والبطلان، لأنكم لم ترضوا أن يشارككم غيركم في أموالكم، ورضيتم أن تُشركوا مع الله تعالى: غيره في العبادة، مع أنه سبحانه هو الخالق والرازق لكل شيء.

وَإِذَآ أَذَقۡنَا ٱلنَّاسَ رَحۡمَةٗ فَرِحُواْ بِهَاۖ وَإِن تُصِبۡهُمۡ سَيِّئَةُۢ بِمَا قَدَّمَتۡ أَيۡدِيهِمۡ إِذَا هُمۡ يَقۡنَطُونَ ٣٦ أَوَلَمۡ يَرَوۡاْ أَنَّ ٱللَّهَ يَبۡسُطُ ٱلرِّزۡقَ لِمَن يَشَآءُ وَيَقۡدِرُۚ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَأٓيَٰتٖ لِّقَوۡمٖ يُؤۡمِنُونَ ٣٧

إذا أذاق الله الناس برحمة؛ فرحوا، وإن أصابهم بسيئة؛ سرعان ما يقنطون. ومثال ذلك الرزق الذي يرزقهم إياه، أو ليس الله هو الذي يبسط الرزق لمن يشاء، ويقدره على من يشاء؟

ذكر الطبري: يقول تعالى ذكره: إذا أصاب الناس منا خصب ورخاء وعافية في الأبدان والأموال، فرحوا بذلك، وإن تصبهم منا شدّة من جدب

وقحط وبلاء في الأموال والأبدان، ﴿بِمَا قَدَّمَتْ أَيْدِيهِمْ﴾ يقول: بما أسلفوا من سيء الأعمال بينهم وبين الله، وركبوا من المعاصي، ﴿إِذَا هُمْ يَقْنطُونَ﴾ يقول: إذا هم ييأسون من الفرج، والقنوط: هو الإياس.

وذكر أيضاً: يقول تعالى ذكره: أولم ير هؤلاء الذين يفرحون عند الرخاء يصيبهم والخصب، وييأسون من الفرج عند شدّة تنالهم بعيون قلوبهم؛ فيعلموا أن الشدّة والرخاء بيد الله، وأن الله يبسط الرزق لمن يشاء من عباده فيوسّعه عليه، ويقدر على من أراد فيُضيّقه عليه.

﴿إِنَّ فِي ذلكَ لآياتٍ لِقَوْمٍ يُؤمِنُونَ﴾، يقول: إن في بسطه ذلك على من بسطه عليه، وقدره على من قدره عليه، ومخالفته بين من خالف بينه من عباده في الغنى والفقر؛ لدلالة واضحة لمن صدّق حجج الله وأقرّ بها إذا عايَنها ورآها.

﴿فَآتِ ذَا الْقُرْبَى حَقَّهُ وَالْمِسْكِينَ وَابْنَ السَّبِيلِ ذَلِكَ خَيْرٌ لِلَّذِينَ يُرِيدُونَ وَجْهَ اللَّهِ وَأُولَئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ (٣٨)﴾

ادفع حق المال بإيتاء الصدقات لذوي القربى والمساكين وابن السبيل. هذا العطاء غير مرتبط ببسط المال وقدره بل كلٌ يدفع حسب مقدرته، فلا يصح لمن وُسَّع الله عليه ألا يساعد الناس، ولا يقبل ممن ضُيّق عليه رزقه أن

يقنط فيحجم عن مساعدة الناس؛ فمن أراد بإنفاقه وجه الله فأولئك هم المفلحون الفائزون.

ذكر القرطبي: لما تقدم أنه سبحانه يبسط الرزق لمن يشاء ويقدر أمر من وسّع عليه الرزق أن يُوصل إلى الفقير كفايته ليمتحن شكر الغني. والخطاب للنبي عليه السلام، والمراد هو وأمته؛ لأنه قال: ذلك خير للذين يريدون وجه الله. وأمر بإيتاء ذي القربى لقرب رحمه؛ وخير الصدقة ما كان على القريب، وفيها صلة الرحم. وقد فضل رسول الله صلى الله عليه وسلم الصدقة على الأقارب على عتق الرقاب، فقال لميمونة وقد أعتقت وليدة: أما إنك لو أعطيتها أخوالك كان أعظم لأجرك.

ذكر ابن عاشور: إن لكل صنف من هؤلاء الثلاثة حقاً؛ فحقٌّ ذي القربى يختلف بحسب حاجته؛ فللغني حقه في الإهداء تودّداً، وللمحتاج حق أقوى. والظاهر أن المراد ذو القرابة الضعيف المال الذي لم يبلغ به ضُعفه مَبلغ المسكنة بقرينة التعبير عنه بالحق.

وذكر أيضاً: وحق المسكين: سدٌّ خلته. وحق ابن السبيل: الضيافة.

ذكر السعدي: فأعط القريب منك على حسب قربه وحاجته حقه الذي أوجبه الشارع أو حض عليه من النفقة الواجبة والصدقة والهدية والبر والسلام والإكرام والعفو عن زلته والمسامحة عن هفوته. وكذلك آت

المسكين الذي أسكنه الفقر والحاجة ما تُزيل به حاجته وتدفع به ضرورته من إطعامه وسقيه وكسوته.

﴿وَمَا آتَيْتُم مِّن رِّبًا لِّيَرْبُوَ فِي أَمْوَالِ النَّاسِ فَلَا يَرْبُو عِندَ اللَّهِ ۖ وَمَا آتَيْتُم مِّن زَكَاةٍ تُرِيدُونَ وَجْهَ اللَّهِ فَأُولَٰئِكَ هُمُ الْمُضْعِفُونَ ﴿٣٩﴾﴾

إن من يستغل حاجة الناس بإقراضهم بالربا المحرم فيحسبون أن هذه الزيادة التي يأخذونها من أموال الناس هي زيادة؛ فهي عند الله ليست كذلك؛ لأن الله يمحق الربا. أما ما دفعتموه من زكاة لوجه الله تعالى فإن الله يضاعف هذا الإنفاق أضعافاً ويربيه ويزيده لهم.

ذكر الطنطاوي: ذلك الإيتاء لهؤلاء الثلاثة، خيرٌ وأبقى عند الله تعالى للذين يريدون بصدقتهم وإحسانهم وجه الله، وأولئك المتصفون بتلك الصفات الحميدة، هم الكاملون في الفلاح، والظفر بالخير في الدنيا والآخرة. وبعد أن حضهم على صلة الأقارب والمساكين وابن السبيل، نفرهم من تعاطي الربا.

ثم حض سبحانه على التصدق في سبيله فقال: ﴿وَما آتَيْتُمْ مِنْ زَكاةٍ﴾؛ أي من صدقة تتقربون بها إلى الله، و﴿تُرِيدُونَ بأدائها وَجْهَ اللَّهِ﴾؛ أي: رضاه وثوابه.

﴿فَأُولَئِكَ الذين يفعلون ذلك هُمُ الْمُضْعِفُونَ﴾؛ أي: ذوو الأضعاف المضاعفة من الثواب والعطاء الكريم.

اللَّهُ الَّذِي خَلَقَكُمْ ثُمَّ رَزَقَكُمْ ثُمَّ يُمِيتُكُمْ ثُمَّ يُحْيِيكُمْ هَلْ مِن شُرَكَائِكُم مَّن يَفْعَلُ مِن ذَٰلِكُم مِّن شَيْءٍ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ عَمَّا يُشْرِكُونَ ﴿٤٠﴾

الله تعالى الذي خلقكم هو رازقكم، وهو من سيُميتكم ثم يُحييكم. وقد ربط الله تعالى خلق الإنسان برزقه؛ فلا يتركه دون ذلك. وهذا من خصائص الربوبية.

ذكر الطبري: هل من آلهتكم وأوثانكم التي تجعلونهم لله في عبادتكم إياه شركاء من يفعل من ذلكم من شيء؟؛ فيخلق، أو يرزق، أو يميت، أو ينشر، وهذا من الله تقريع لهؤلاء المشركين.

وإنما معنى الكلام أن شركاءهم لا تفعل شيئاً من ذلك، فكيف يُعبد مَن دون الله من لا يفعل شيئاً من ذلك؟، ثم برأ نفسه تعالى ذكره عن الفرية التي افتراها هؤلاء المشركون عليه بزعمهم أن آلهتهم له شركاء.

ظَهَرَ الْفَسَادُ فِي الْبَرِّ وَالْبَحْرِ بِمَا كَسَبَتْ أَيْدِي النَّاسِ لِيُذِيقَهُم بَعْضَ الَّذِي عَمِلُوا لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ ﴿٤١﴾

لقد خلق الله الكون متوازناً لا خلل فيه؛ لكن الناس أفسدوه بكسبهم وبما فعلوه فظهر الفساد، أي فساد الموارد البشرية والمادية، وسيذوقون وبال فعلهم لعلهم يرجعون للصواب والحق.

ويعزو العلماء التغيرات المناخية في البيئة المحيطة إلى تلك التصرفات التي نجمت عن تلويث البحار والأنهار وتغيير التربة ونفث الغازات الناجمة عن الصناعة في الجو وما إلى ذلك من قطعٍ للغابات دون وجه حق، وصيد الحيوانات بشرهٍ مما أفسد التوازن البيئي، وقد بدأ ذلك يُؤثر جليّاً على حياة الناس.

ذكر القرطبي: وقيل: الفساد كساد الأسعار وقلة المعاش. وقيل: الفساد المعاصي وقطع السبيل والظلم؛ أي صار هذا العمل مانعاً من الزرع والعمارات والتجارات.

ذكر ابن عاشور: وفساد البر يكون بفقدان منافعه وحدوث مضارّه، مثل حبس الأقوات من الزرع والثمار والكلأ، وفي مَوتان الحيوان المنتفع به، وفي انتقال الوحوش التي تصاد من جراء قحط الأرض إلى أرضين أخرى، وفي حدوث الجوائح من جراد وحشرات وأمراض.

وفساد البحر كذلك يظهر في تعطيل منافعه من قلّة الحيتان واللؤلؤ والمرجان؛ فقد كانا من أعظم موارد بلاد العرب وكثرة الزوابع الحائلة عن الأسفار في البحر، ونضوب مياه الأنهار وانحباس فيضانها الذي به يستقي الناس.

وَمِنْ آيَاتِهِ أَن يُرْسِلَ الرِّيَاحَ مُبَشِّرَاتٍ وَلِيُذِيقَكُم مِّن رَّحْمَتِهِ وَلِتَجْرِيَ الْفُلْكُ بِأَمْرِهِ وَلِتَبْتَغُوا مِن فَضْلِهِ وَلَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ ﴿٤٦﴾

إن الرياح هي من آيات الله؛ فهي نذير بُشرى لكم بقدوم المطر، وبها تسير السفن في البحر، والنقل البحري فيه منافع كثيرة لكم؛ تبتغون به فضلاً من الله. إذاً الرياح مصدر للطاقة، كما المطر مصدر للحياة من زرع وضرع.

اللَّهُ الَّذِي يُرْسِلُ الرِّيَاحَ فَتُثِيرُ سَحَابًا فَيَبْسُطُهُ فِي السَّمَاءِ كَيْفَ يَشَاءُ وَيَجْعَلُهُ كِسَفًا فَتَرَى الْوَدْقَ يَخْرُجُ مِنْ خِلَالِهِ فَإِذَا أَصَابَ بِهِ مَن يَشَاءُ مِنْ عِبَادِهِ إِذَا هُمْ يَسْتَبْشِرُونَ ﴿٤٨﴾

تلك الرياح التي يرسلها الله تعالى، تحرك السحب وتنشره في السماء كبساط كيفما يشاء لأنه هو المتصرف المدبر سبحانه وتعالى. يجعله

سحاباً كثيفاً فوق بعضه البعض، ثم يُنزّل ماء المطر منقطاً؛ كيلا يؤذي ما ينزل عليه؛ فيستفيد منه الناس ويستبشرون به لحاجتهم وضرورتهم إليه لسُقيا البشر وسُقيا حيواناتهم وزراعاتهم.

وَإِن كَانُوا مِن قَبْلِ أَن يُنَزَّلَ عَلَيْهِم مِّن قَبْلِهِ لَمُبْلِسِينَ ﴿٤٩﴾

لقد كانوا قبل نزول المطر قانطين آيسين، وبنزوله يفرحون ويستبشرون.

فَانظُرْ إِلَى آثَارِ رَحْمَتِ اللَّهِ كَيْفَ يُحْيِي الْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا ۚ إِنَّ ذَٰلِكَ لَمُحْيِي الْمَوْتَىٰ ۖ وَهُوَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ ﴿٥٠﴾

انظروا إلى آثار رحمة الله، إنه يُحيي الأرض بعد موتها كما يُحيي النفوس بعد قُنوطها، كما أنه مُحيي الموتى؛ فقُدرته وَسعت كل شيء فلا يُعجزه شيء.

ذكر الطنطاوي: ﴿فَانْظُرْ إِلى آثارِ رَحْمَتِ اللَّهِ﴾؛ والفاء للدلالة على سرعة الانتقال من حالة اليأس إلى الاستبشار؛ أي: فانظر أيها العاقل نظرة تعقل واتعاظ واستبصار، إلى الآثار المترتبة على نزول المطر، وكيف أن نزوله حوّل النفوس من حالة الحزن إلى حالة الفرح، وجعل الوجوه مستبشرة بعد أن كانت عابسة يائسة.

﴿وَلَئِنْ أَرْسَلْنَا رِيحًا فَرَأَوْهُ مُصْفَرًّا لَّظَلُّوا مِن بَعْدِهِ يَكْفُرُونَ﴾ (٥١)

إذا أرسل الله ريحاً على زرعهم؛ فاصفر، وهلك؛ فسرعان ما ينسون نِعم الله تعالى؛ فتراهم يُسارعون بالكفر والجحود.

ذكر الطبري: يقول تعالى ذكره: ولئن أرسلنا ريحاً مفسدة ما أنبته الغيث الذي أنزلناه من السماء، فرأى هؤلاء الذين أصابهم الله بذلك الغيث الذي حييت به أرضوهم، وأعشبت ونبتت به زروعهم، ما أنبتته أرضوهم بذلك الغيث من الزرع مصفرّاً، قد فسد بتلك الريح التي أرسلناها؛ فصار من بعد خُضرته مُصفراً، لظلّوا من بعد استبشارهم، وفرحتهم به يكفرون بربهم.

ذكر القرطبي: قوله تعالى: ﴿ولئن أرسلنا ريحاً فرأوه مصفراً﴾ يعني الريح، ... واصفرار الزرع بعد اخضراره يدلُّ على يَبَسه، وكذا السحاب يدلُّ على أنه لا يُمطر، والريح على أنها لا تُلقح؛ لظلوا من بعده يكفرون.

تفسير سورة لقمان

رقم السورة: ٣١ وهي مكية وعدد آياتها: ٣٤.

ذكر الطنطاوي: خاطبت السورة النفس البشرية، بما من شأنه أن يسعدها ويحييها حياة طيبة. إنها قد بينت أوصاف المؤمنين الصادقين، وأوصاف أعدائهم، وبينت عاقبة الأخيار وعاقبة الأشرار، ووضحت تلك الوصايا الحكيمة التي أوصى بها لقمان ابنه وأحب الناس إليه، وساقت أنواعاً من النعم التي أنعم بها سبحانه على عباده، وبيّنت أن هناك أموراً لا يعلمها إلا الله تعالى وحده.

وقد ساقت السورة ما ساقت من هدايات، بأسلوب بليغ مُؤثر، يُرضي العواطف، ويُقنع العقول.

ٱلَّذِينَ يُقِيمُونَ ٱلصَّلَوٰةَ وَيُؤْتُونَ ٱلزَّكَوٰةَ وَهُم بِٱلْـَٔاخِرَةِ هُمْ يُوقِنُونَ ﴿٤﴾

إقامة الصلاة، فعل يدلُّ على العبادة البدنية، وإيتاء الزكاة، فعل يدلُّ على العبادة المالية؛ وكلاهما من صفات المحسنين الموقنين بالغيب كاليوم الآخر.

وَمِنَ ٱلنَّاسِ مَن يَشْتَرِي لَهْوَ ٱلْحَدِيثِ لِيُضِلَّ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ بِغَيْرِ عِلْمٍ
وَيَتَّخِذَهَا هُزُوًا أُو۟لَـٰٓئِكَ لَهُمْ عَذَابٌ مُّهِينٌ ﴿٦﴾

تستعير الآية الكريمة عمل الشراء للتعبير عمن ابتغى لهو الحديث وسفسافه بالقول المحرم تاركاً سبيل الله والقول الحسن النافع.

ذكر الطبري: قال بعضهم: من يشتري الشراء المعروف بالثمن. وقال آخرون: بل معنى ذلك: من يختار لهو الحديث ويستحبه. وقال آخرون: لعله أن لا ينفق فيه مالا؛ ولكن اشتراؤه استحبابه، بحسب المرء من الضلالة أن يختار حديث الباطل على حديث الحقّ، وما يضرّ على ما ينفع. وقيل: اشتراؤه: استحبابه.

ورجح الطبري: أولى التأويلين عندي بالصواب تأويل من قال: معناه: الشراء، الذي هو بالثمن، وذلك أن ذلك هو أظهر معنييه.

خَلَقَ السَّمَاوَاتِ بِغَيْرِ عَمَدٍ تَرَوْنَهَا ۖ وَأَلْقَىٰ فِي الْأَرْضِ رَوَاسِيَ أَن تَمِيدَ بِكُمْ وَبَثَّ فِيهَا مِن كُلِّ دَابَّةٍ ۚ وَأَنزَلْنَا مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَأَنبَتْنَا فِيهَا مِن كُلِّ زَوْجٍ كَرِيمٍ ﴿١٠﴾

تعدد الآية الكريمة مخلوقات خلقها الله؛ لتكون بيئة عيش الإنسان في هذه الحياة الدنيا؛ كخلق السماوات التي كانت دون أعمدة، وكخلق الجبال التي أوجدها الله لتثبت الأرض فلا تميل بالإنسان، وكخلق كل ما يدب على الأرض من إنسان وحيوان، وكخلقه للماء الذي ينزل من

السماء على الأرض لينبت فيها ما ينفع الناس، وينفع حيواناتهم طعاماً وسقياً.

يَا بُنَيَّ إِنَّهَا إِن تَكُ مِثْقَالَ حَبَّةٍ مِّنْ خَرْدَلٍ فَتَكُن فِي صَخْرَةٍ أَوْ فِي السَّمَاوَاتِ أَوْ فِي الْأَرْضِ يَأْتِ بِهَا اللَّهُ ۚ إِنَّ اللَّهَ لَطِيفٌ خَبِيرٌ ﴿١٦﴾

تُعبِّر هذه الآية عن شدة رقابة الله تعالى لجميع مخلوقاته، فلو كانت حبة صغيرة جداً موجودة في صخرة أو في السماوات أو في الأرض فإن الله بها عليم وإن شاء أتى بها سبحانه وتعالى. وكذلك يجب أن تكون شدة الرقابة في المؤسسات وفي الأعمال.

ذكر البغوي: قال الحسن: معنى الآية هو الإحاطة بالأشياء، صغيرها وكبيرها.

ذكر الطنطاوي: والمعنى: يا بني إن ما تفعله من حسنة أو سيئة، سواء أكان في نهاية القلة والصغر، كمثال حبة من خردل، أم كان هذا الشيء القليل مخبوءاً في صخرة من الصخور الملقاة في فجاج الأرض، أم كان في السموات أم في الأرض، فإن الله تعالى يعلمه ويُحضره ويُجازي عليه؛ إِنَّ اللَّهَ تعالى لطيف خبير؛ أي: محيط بجميع الأشياء جليلها وحقيرها، عظيمها وصغيرها.

فالمقصود من الآية الكريمة، غرس الهيبة والخشية والمراقبة لله تعالى: لأنه سبحانه لا يخفى عليه شيء في هذا الكون، مهما دقَّ وقلَّ وتَخفَّى في أعماق الأرض أو السماء.

يَا بُنَيَّ أَقِمِ الصَّلَاةَ وَأْمُرْ بِالْمَعْرُوفِ وَانْهَ عَنِ الْمُنكَرِ وَاصْبِرْ عَلَىٰ مَا أَصَابَكَ ۖ إِنَّ ذَٰلِكَ مِنْ عَزْمِ الْأُمُورِ ﴿١٧﴾

إن إقامة الصلاة أساس كل ما بعده في حياة المؤمن، والأمر بالمعروف بغية الاصلاح والتطوير، والنهي عن المنكر بغية عدم الفساد لما فيه من خراب وتخريب للموارد الاقتصادية التي أوجدها الخالق العظيم للإنسان.

ذكر ابن عاشور: انتقل من تعليمه أصول العقيدة إلى تعليمه أصول الأعمال الصالحة.

أَلَمْ تَرَوْا أَنَّ اللَّهَ سَخَّرَ لَكُم مَّا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ وَأَسْبَغَ عَلَيْكُمْ نِعَمَهُ ظَاهِرَةً وَبَاطِنَةً ۗ وَمِنَ النَّاسِ مَن يُجَادِلُ فِي اللَّهِ بِغَيْرِ عِلْمٍ وَلَا هُدًى وَلَا كِتَابٍ مُّنِيرٍ ﴿٢٠﴾

لقد سخر الله تعالى للناس كل مخلوقاته ظاهرها وخفيّها.

ذكر الطبري: يقول تعالى ذكره: ﴿أَلَمْ تَرَوْا﴾ أيها الناس ﴿أنَّ اللّهَ سَخَّرَ لَكُم مَّا فِي السَّمَاوَاتِ﴾ من شمس وقمر ونجم وسحاب ﴿وَما فِي الأَرْضِ﴾ من دابة وشجر وماء وبحر وفلك، وغير ذلك من المنافع، يجري ذلك كله لمنافعكم ومصالحكم، لغذائكم وأقواتكم وأرزاقكم وملاذّكم، تتمتعون ببعض ذلك كله، وتنتفعون بجميعه، ﴿وَأَسْبَغَ عَلَيْكُمْ نِعَمَهُ ظَاهِرَةً وَبَاطِنَةً﴾.

ذكر ابن عاشور: ومعنى ﴿سخر لكم﴾؛ لأجلكم، لأن من جملة ذلك التسخير ما هو منافع لنا من الأمطار والرياح ونور الشمس والقمر ومواقيت البروج والمنازل والاتجاه بها. والخطاب في ﴿ألم تروا﴾ يجوز أن يكون لجميع الناس مؤمنهم ومشركهم لأنه امتنان، ويجوز أن يكون لخصوص المشركين باعتبار أنه استدلال.

وَلَوْ أَنَّمَا فِي الْأَرْضِ مِن شَجَرَةٍ أَقْلَامٌ وَالْبَحْرُ يَمُدُّهُ مِن بَعْدِهِ سَبْعَةُ أَبْحُرٍ مَّا نَفِدَتْ كَلِمَاتُ اللَّهِ ۗ إِنَّ اللَّهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ ﴿٢٧﴾

تشير هذه الآية الكريمة إلى صناعة الأقلام وصناعة أحبارها، ويستدل من التشبيه أن كلام الله ليس له نهاية حتى لو استخدمنا كل الأشجار كأقلام

والأبحر كأحبار فإن كلام الله لا ينفد، وهذه إشارة لسعة علم الله تعالى. كما أنه يدلُّ على تجدد الموارد المادية كما ذكرنا في غير آية.

﴿أَلَمْ تَرَ أَنَّ الْفُلْكَ تَجْرِي فِي الْبَحْرِ بِنِعْمَتِ اللَّهِ لِيُرِيَكُم مِّنْ آيَاتِهِ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِّكُلِّ صَبَّارٍ شَكُورٍ ﴿٣١﴾﴾

هذه السفن التي تسير في البحار إنما تسير بقدرة الله تعالى.

ذكر ابن عاشور: فكان خلق البحر على هذه الصفة العظيمة ميسراً للانتفاع بالأسفار فيه حين لا تغني طرق البرّ في التنقل غناء؛ فجعله قابلاً لحمل المراكب العظيمة، وألْهَم الإنسان لصنع تلك المراكب على كيفية تحفظها من الغرق في عباب البحر، وعصمهم من توالي الرياح والموج في أسفارهم، وهداهم إلى الحيلة في مصانعتها إذا طرأت حتى تنجلي، ولذلك وصف هذا الجري بملابسة نعمة الله فإن الناس كلما مَخرت بهم الفلك في البحر كانوا ملابسين لنعمة الله عليهم بالسلامة إلا في أحوال نادرة، وقد سميت هذه النعمة أمراً في قوله: ﴿والفلك تجري في البحر بأمره﴾ في سورة الحج: ٦٥؛ أي: بتقديره ونظام خلقه.

إِنَّ اللَّهَ عِندَهُ عِلْمُ السَّاعَةِ وَيُنَزِّلُ الْغَيْثَ وَيَعْلَمُ مَا فِي الْأَرْحَامِ وَمَا تَدْرِي نَفْسٌ مَّاذَا تَكْسِبُ غَدًا وَمَا تَدْرِي نَفْسٌ بِأَيِّ أَرْضٍ تَمُوتُ إِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ خَبِيرٌ ﴿٣٤﴾

الله الخالق عنده علم الغيب معلوم، فهو يعلم: موعد قيام الساعة، ونزول المطر، وما في أرحام النساء الحوامل، وماذا ستكسب كل نفس، وأين ستموت تلك الأنفس. وهذه الغيبيات الخمس غُيّبت عن الخلق جميعهم.

ذكر الطبري: لقبت هذه الخمسة في كلام النبي صلى الله عليه وسلم بمفاتح الغيب، وفسر بها قوله تعالى: ﴿وعنده مفاتح الغيب لا يعلمها إلا هو﴾ الأنعام: ٥٩.

تفسير سورة السجدة

رقم السورة: ٣٢ وهي مكية وعدد آياتها: ٣٠.

ذكر الطنطاوي: السورة زاخرة بالأدلة على وحدانية الله تعالى وقدرته، وعلى أن القرآنَ حق، والبعثُ حق، والحسابُ حق، والجزاءُ حق.

تَتَجَافَىٰ جُنُوبُهُمْ عَنِ الْمَضَاجِعِ يَدْعُونَ رَبَّهُمْ خَوْفًا وَطَمَعًا وَمِمَّا رَزَقْنَاهُمْ يُنفِقُونَ ﴿١٦﴾

من صفات المؤمنين أنهم يُنفقون مما رزقهم الله تعالى. وقد ذكرنا في غير موضع أهمية الإنفاق في دوران عجلة الاقتصاد.

ذكر السعدي: ﴿وَمِمَّا رَزَقْنَاهُمْ﴾ من الرزق، قليلاً كان أو كثيراً ﴿يُنْفِقُونَ﴾ ولم يذكر قيد النفقة، ولا المنفق عليه، ليدل على العموم، فإنه يدخل فيه، النفقة الواجبة، كالزكوات، والكفارات، ونفقة الزوجات والأقارب، والنفقة المستحبة في وجوه الخير، والنفقة والإحسان المالي، خير مطلقاً، سواء وافق غنياً أو فقيراً، قريباً أو بعيداً، ولكن الأجر يتفاوت، بتفاوت النفع، فهذا عملهم.

أَوَلَمْ يَهْدِ لَهُمْ كَمْ أَهْلَكْنَا مِن قَبْلِهِم مِّنَ الْقُرُونِ يَمْشُونَ فِي مَسَاكِنِهِمْ ۚ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَاتٍ ۖ أَفَلَا يَسْمَعُونَ (٢٦)

المساكن هي مما تملكه الناس، لكنها في هذه الآية دلالة على آثار من كانوا يسكنونها وقد أهلكهم الله بذنوبهم.

ذكر ابن عاشور: أنهم يمرون على المواضع التي فيها بقايا مساكنهم مثل حِجر ثمود وديار مَدين فتُعضِّد مشاهدةُ مساكنهم الأخبار الواردة عن استئصالهم وهي دلائل إمكان البعث؛ كما قال تعالى: ﴿ وما نحن بِمَسْبُوقِين على أن نبدل أمثالكم ونُنْشِئَكم فيما لا تعلمون ﴾ الواقعة: ٦٠–٦١، ودلائل ما يحيق بالمكذبين للرسل؛ وفي كل أمة وموطن دلائل كثيرة متماثلة أو متخالفة.

أَوَلَمْ يَرَوْا أَنَّا نَسُوقُ الْمَاءَ إِلَى الْأَرْضِ الْجُرُزِ فَنُخْرِجُ بِهِ زَرْعًا تَأْكُلُ مِنْهُ أَنْعَامُهُمْ وَأَنفُسُهُمْ ۖ أَفَلَا يُبْصِرُونَ (٢٧)

يسوق الله الماء إلى الأرض الجرداء فتَخرج به الزروع الذي منه طعام الناس وطعام أنعامهم، أفلا يعتبر أولئك من ذلك؟

ذكر الطبري: أولم ير هؤلاء المكذّبون بالبعث بعد الموت، والنشر بعد الفناء، أنّا بقُدرتنا نسوق الماء إلى الأرض اليابسة الغليظة التي لا نبات

فيها، وأصله من قولهم: ناقة جرز: إذا كانت تأكل كلّ شيء، وكذلك الأرض الجروز: التي لا يبقى على ظهرها شيء إلا أفسدته، نظير أكل الناقة الجراز كلّ ما وجدته.

ذكر ابن عاشور: ونيطُ الاستدلال هنا بالرؤية؛ لأن إحياء الأرض بعد موتها ثم إخراج النبت منها دلالة مشاهدة. واختير المضارع في قوله ﴿نسوق﴾ لاستحضار الصورة العجيبة الدالة على القدرة الباهرة.

تفسير سورة الأحزاب

رقم السورة: ٣٣ وهي مدنية وعدد آياتها: ٧٣.

ذكر الطنطاوي: المتأمل في سورة الأحزاب، يراها زاخرة بالأحكام الشرعية، وبالآداب الاجتماعية، وبالتوجيهات الربانية، تارة من الله تعالى لرسوله صلّى الله عليه وسلم وتارة لأزواجه صلّى الله عليه وسلم، وتارة للمؤمنين.

كما يراها تهتم اهتماما واضحا بتنظيم المجتمع الإِسلامي تنظيماً حكيماً، من شأنه أن يأخذ بيد المتبعين له إلى السعادة الدنيوية والأخروية.

وَأَوْرَثَكُمْ أَرْضَهُمْ وَدِيَارَهُمْ وَأَمْوَالَهُمْ وَأَرْضًا لَّمْ تَطَئُوهَا ۚ وَكَانَ اللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرًا ﴿٢٧﴾

ذكر الطنطاوي: وأورثكم الله تعالى أرض هؤلاء اليهود وزروعهم كما أورثكم ﴿ دِيارَهُمْ ﴾ أي حصونهم ﴿ وَأَمْوالَهُمْ ﴾ التي تركوها من خلفهم، كنقودهم ومواشيهم.

كما أورثكم ﴿ أَرْضاً لَمْ تَطَؤُها ﴾ بعد القتال وهي أرض خيبر، أو أرض فارس والروم، وفي هذه الجملة الكريمة بُشارة عظيمة للمؤمنين، بأن الله تعالى سينصرهم على أعدائهم ...

أخرج الشيخان عن عائشة رضي الله عنها قالت: لما رجع النبي صلّى الله عليه وسلّم من الخندق، ووضع السلاح واغتسل، أتاه جبريل فقال: يا محمد قد وضعت السلاح، والله ما وضعناه فاخرج إليهم؛ فقال النبي صلّى الله عليه وسلّم: فإلى أين؟ قال: هاهنا. وأشار إلى بنى قريظة. فخرج النبي صلّى الله عليه وسلّم إليهم ...

قال الرسول صلّى الله عليه وسلّم: لقد حكمت فيهم بحكم الله من فوق سبع سماوات.

يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَدْخُلُوا بُيُوتَ النَّبِيِّ إِلَّا أَن يُؤْذَنَ لَكُمْ إِلَىٰ طَعَامٍ غَيْرَ نَاظِرِينَ إِنَاهُ وَلَٰكِنْ إِذَا دُعِيتُمْ فَادْخُلُوا فَإِذَا طَعِمْتُمْ فَانتَشِرُوا وَلَا مُسْتَأْنِسِينَ لِحَدِيثٍ ۚ إِنَّ ذَٰلِكُمْ كَانَ يُؤْذِي النَّبِيَّ فَيَسْتَحْيِي مِنكُمْ ۖ وَاللَّهُ لَا يَسْتَحْيِي مِنَ الْحَقِّ ۚ وَإِذَا سَأَلْتُمُوهُنَّ مَتَاعًا فَاسْأَلُوهُنَّ مِن وَرَاءِ حِجَابٍ ۚ ذَٰلِكُمْ أَطْهَرُ لِقُلُوبِكُمْ وَقُلُوبِهِنَّ ۚ وَمَا كَانَ لَكُمْ أَن تُؤْذُوا رَسُولَ اللَّهِ وَلَا أَن تَنكِحُوا أَزْوَاجَهُ مِن بَعْدِهِ أَبَدًا ۚ إِنَّ ذَٰلِكُمْ كَانَ عِندَ اللَّهِ عَظِيمًا ﴿٥٣﴾

ذكرت الآية الكريمة موارد مادية عديدة؛ كالبيوت والطعام والمتاع.

وتتناول هذه الآية الكريمة آداب الضيافة، وضوابط دخول بيت النبي صلى الله عليه وسلم لمراعاة خصوصية تلك البيوت؛ فلابد للناس من:

١. إذن قبل الدخول.

٢. عدم البقاء لأكثر من الحاجة.

٣. إن طعموا فليذهبوا ويخرجوا.

٤. لا يطيلوا الجلوس مستمعين للأحاديث فذلك يُحرج النبي صلى الله عليه وسلم.

٥. إن سألوا شيئا فليسألوه من وراء حجاب.

٦. ألا يتزوجوا أزواجه بعد موته صلى الله عليه وسلم.

سُنَّةَ اللَّهِ فِي الَّذِينَ خَلَوْا مِن قَبْلُ وَلَن تَجِدَ لِسُنَّةِ اللَّهِ تَبْدِيلاً ﴿٦٢﴾

لله سنن ثابتة في خلقه، وليس لهذه السنن من تحويل ولا تبديل. وهذه تفيد بثبات السياسات عبر الأزمان وكأنها سياسات حوكمة تطبق على كل الناس قديمهم وحديثهم.

ذكر ابن عاشور: لن تجد لسنن الله مع الذين خَلَوْا من قبل ولا مع الحاضرين ولا مع الآتين تبديلاً.

تفسير سورة سبأ

رقم السورة: ٣٤ وهي مكية وعدد آياتها: ٥٤.

ذكر الطنطاوي: ساقت السورة أنواعاً من الأدلة على وحدانية الله تعالى، وعلى أن يوم القيامة حق، وعلى أن الرسول صلى الله عليه وسلم صادق فيما يبلغه عن ربه، كما أنها حكت شبهات المشركين، وردت عليهم بما يبطلها.

وَلَقَدْ آتَيْنَا دَاوُودَ مِنَّا فَضْلًا يَا جِبَالُ أَوِّبِي مَعَهُ وَالطَّيْرَ وَأَلَنَّا لَهُ الْحَدِيدَ ﴿١٠﴾

الحديد مادة أثبت العلم أنها ليست من الأرض بل جاءتها من خارج كوكب الأرض، ومن فضل الله تعالى على الناس أن ألان له هذه المادة الصلبة التي تدخل في أغلب صناعاته الثقيلة وفي إنشاءاته وعمارته.

لذلك كان الحديد أداة تمكين للإنسان في هذه الأرض.

ذكر ابن كثير: ﴿وألنا له الحديد﴾: قال الحسن البصري، وقتادة، والأعمش وغيرهم: كان لا يحتاج أن يدخله ناراً ولا يضربه بمطرقة، بل كان يفتله بيده مثل الخيوط.

﴿أَنِ اعْمَلْ سَابِغَاتٍ وَقَدِّرْ فِي السَّرْدِ ۖ وَاعْمَلُوا صَالِحًا ۖ إِنِّي بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ ﴿١١﴾﴾

أشارت الآية الكريمة لصناعة السلاح وصناعة الحديد عموماً.

أمر الله تعالى نبيه داود عليه السلام أن يصنع الدروع من مادة الحديد التي طوعها الله له، وعلمه صنعتها، وطلب منه أن يُقدّر حلقات الدروع ثم يدخلها ببعضها.

﴿وَلِسُلَيْمَانَ الرِّيحَ غُدُوُّهَا شَهْرٌ وَرَوَاحُهَا شَهْرٌ ۖ وَأَسَلْنَا لَهُ عَيْنَ الْقِطْرِ ۖ وَمِنَ الْجِنِّ مَن يَعْمَلُ بَيْنَ يَدَيْهِ بِإِذْنِ رَبِّهِ ۖ وَمَن يَزِغْ مِنْهُمْ عَنْ أَمْرِنَا نُذِقْهُ مِنْ عَذَابِ السَّعِيرِ ﴿١٢﴾﴾

سخر الله تعالى الرياح بقوتها وشدتها بما تمثله من طاقة عظيمة لنبيه سليمان عليه السلام، كما سخر له مادة معدن النحاس، وهي مادة تدخل في كثير من الصناعات، وسخر له الجنّ يعملون بين يديه وبخدمته وبأمره.

ذكر ابن عاشور: و﴿الْقِطْرِ﴾ بكسر القاف وسكون الطاء: النحاس المُذاب.

﴿يَعْمَلُونَ لَهُ مَا يَشَاءُ مِن مَّحَارِيبَ وَتَمَاثِيلَ وَجِفَانٍ كَالْجَوَابِ وَقُدُورٍ رَّاسِيَاتٍ ۚ اعْمَلُوا آلَ دَاوُودَ شُكْرًا ۚ وَقَلِيلٌ مِّنْ عِبَادِيَ الشَّكُورُ ﴿١٣﴾﴾

يعمل أولئك الجن لسليمان عليه السلام ما يشاء من الأبنية والقصور الفخمة ومن تماثيل الأشياء وغيرها؛ فهم مهرة في الصنع ومتقنون لعملهم. ويعملون له القدور الضخمة وما يلزم من أدوات المطابخ الكبيرة، ويلاحظ أن الشكر لله ضرورة وواجب على الإنسان لما لله من فضل عليه.

ذكر القرطبي: قال ابن العربي: رأيت برباط أبي سعيد قدور الصوفية على نحو ذلك، فإنهم يطبخون جميعاً ويأكلون جميعاً من غير استئثار واحد منهم على أحد.

﴿لَقَدْ كَانَ لِسَبَإٍ فِي مَسْكَنِهِمْ آيَةٌ ۖ جَنَّتَانِ عَن يَمِينٍ وَشِمَالٍ ۖ كُلُوا مِن رِّزْقِ رَبِّكُمْ وَاشْكُرُوا لَهُ ۚ بَلْدَةٌ طَيِّبَةٌ وَرَبٌّ غَفُورٌ ﴿١٥﴾﴾

تحكي هذه الآية الكريمة سنة من سنن الله تعالى في قوم سبأ، رزقهم بلدة طيبة فيها جنتان بينهما وادٍ تجتمع فيه المياه والجنتان عن جنبيه حيث بنوا سدهم الشهير، فيهما رزق يأكلونه، إن شكروا.

ذكر السعدي: إن اللّهّ لما علم احتياجهم في تجارتهم ومكاسبهم إلى الأرض المباركة، الظاهر أنها: قرى صنعاء قاله غير واحد من السلف، وقيل: إنها الشام، هيّأ لهم من الأسباب ما به يتيسر وصولهم إليها، بغاية السهولة، من الأمن، وعدم الخوف، وتواصل القرى بينهم وبينها، بحيث لا يكون عليهم مشقة، بحمل الزاد والمزاد.

ذكر الطنطاوي: هذه البلدة التي تسكنونها بلدة طيبة لاشتمالها على كل ما تحتاجونه من خيرات، وربكم الذي أعطاكم هذه النعم، رب واسع المغفرة والرحمة لمن تاب إليه وأناب، ويعفو عن كثير من ذنوب عباده بفضله وإحسانه.

فَأَعۡرَضُواْ فَأَرۡسَلۡنَا عَلَيۡهِمۡ سَيۡلَ ٱلۡعَرِمِ وَبَدَّلۡنَٰهُم بِجَنَّتَيۡهِمۡ جَنَّتَيۡنِ ذَوَاتَيۡ أُكُلٍ خَمۡطٖ وَأَثۡلٖ وَشَيۡءٖ مِّن سِدۡرٖ قَلِيلٖ ﴿١٦﴾

هي سنة الله في إنزال العقوبة والعذاب على من كفر.

فهم أعرضوا عن شكر الله، فجاءهم عذاب الله، وجاءهم سيلٌ عَرِم خرّب سدّهم وأتلف جنتيهم؛ فتبدل الحال من جنتين ذواتي ثمار تؤكل، إلى شجر غير مفيد كثير الشوك، ثمره لا يؤكل.

ذكر الطنطاوي: يرى بعضهم أن المراد بالعرم: السدود التي كانت مبنية لحجز الماء من خلفها، ويأخذون منها لزروعهم على قدر حاجتهم، فلما أُصيبوا بالترف والجحود تركوا العناية بإِصلاح هذه السدود، فتصدعت، واجتاحت المياه أراضيهم فأفسدتها، واكتسحت مساكنهم، فتفرقوا عنها، ومُزقوا شرّ ممزق.

وذكر أيضاً: المقصود من الآية الكريمة بيان أن الجحود والبطر، يُؤديان إلى الخراب والدمار، وإلى زوال النعم وتحويلها إلى نقم.

وَجَعَلْنَا بَيْنَهُمْ وَبَيْنَ الْقُرَى الَّتِي بَارَكْنَا فِيهَا قُرًى ظَاهِرَةً وَقَدَّرْنَا فِيهَا السَّيْرَ سِيرُوا فِيهَا لَيَالِيَ وَأَيَّامًا آمِنِينَ (١٧)

إن من نعم الله عليهم أن جعل بين قرى سبأ والقرى المباركة أي بلاد الشام – على أغلب تقدير – قرى بيّنة، المسافات بينها مقدرة ومعروفة، يسير خلالها الناس ليالي وأيام بأمن وسلام دون خوف.

وهذه نعمة ضرورية لبقاء التجارة ورواجها ولانتقال الناس وانتقال أموالهم دون وجل ودون خوف.

يُستفاد من هذه الآية أن أماكن القرى والبلدان مقدرة من الله.

ذكر الطنطاوي: ذلك الذي فعلناه بهم من تبديل جنتيهم، بجنتين ذواتي أكل خمط؛ هو الجزاء العادل لهم بسبب جحودهم وترفهم وفسوقهم عن أمرنا.

وإننا من شأننا ومن سنتنا أننا لا نعاقب ولا نجازي هذا الجزاء الرادع الشديد، إلا لمن جحد نعمنا، وكفر بآياتنا، وآثر الغيَّ على الرشد، والعصيان على الطاعة.

فَقَالُوا رَبَّنَا بَاعِدْ بَيْنَ أَسْفَارِنَا وَظَلَمُوا أَنفُسَهُمْ فَجَعَلْنَاهُمْ أَحَادِيثَ وَمَزَّقْنَاهُمْ كُلَّ مُمَزَّقٍ ۚ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَاتٍ لِّكُلِّ صَبَّارٍ شَكُورٍ ﴿١٩﴾

لكنهم لما كفروا بأنعم الله بدّل الله حياتهم فصارت أسفارهم متباعدة وتمزق القوم كل ممزق وصاروا حديث الناس ومضرب مثلهم؛ فشتان بين ما كانوا عليه وما صاروا إليه.

ذكر الطنطاوي: مع أننا بفضلنا وإحساننا قد أعطيناهم تلك النعمة، ومكانهم منها، وهي نعمة تيسير وسائل السفر، ومنحهم الأمان والاطمئنان خلاله؛ إلا أنهم لشؤمهم وضيق تفكيرهم وشقائهم تضرعوا إلينا، وقالوا: يا ربنا اجعل بيننا وبين القرى المباركة، مفاوز وصحارى متباعدة الأقطار، بدل تلك القرى العامرة المتقاربة ...

وقوله: ﴿وَظَلَمُوا أَنْفُسَهُمْ﴾؛ أي: قالوا ذلك القول السيء، وظلموا أنفسهم بسببه، حيث أجيب دعاؤهم، فكان نقمة عليهم، لأنهم بعد أن كانوا يسافرون بيسر وأمان، صاروا يسافرون بمشقة وخوف.

قُلْ مَن يَرْزُقُكُم مِّنَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ ۖ قُلِ اللَّهُ ۖ وَإِنَّا أَوْ إِيَّاكُمْ لَعَلَىٰ هُدًى أَوْ فِي ضَلَالٍ مُّبِينٍ ﴿٢٤﴾

تقطع هذه الآية الكريمة كل قول؛ فالرازق من السماوات والأرض هو الله.

ذكر الطبري: يقول تعالى ذكره لنبيه محمد صلى الله عليه وسلم: قل يا محمد لهؤلاء المشركين بربهم الأوثان والأصنام: من يرزقكم من السماوات والأرض بإنزاله الغيث عليكم منها حياة لحروثكم، وصلاحاً لمعايشكم، وتسخيره الشمس والقمر والنجوم لمنافعكم، ومنافع أقواتكم، والأرض بإخراجه منها أقواتكم وأقوات أنعامكم.

وترك الخبر عن جواب القوم استغناء بدلالة الكلام عليه، ثم ذكره، وهو: فإن قالوا: لا ندري، فقل: الذي يرزقكم ذلك الله، وإنَّا أو إياكم أيها القوم لعلى هدى أو في ضلال مبين، يقول: قل لهم: إنا لعلى هدى أو في ضلال، أو إنكم على ضلال أو هدى.

﴿وَمَا أَرْسَلْنَا فِي قَرْيَةٍ مِّن نَّذِيرٍ إِلَّا قَالَ مُتْرَفُوهَا إِنَّا بِمَا أُرْسِلْتُم بِهِ كَافِرُونَ ٣٤﴾

إن المترفين من الأغنياء يحسبون أن مالهم أغناهم عن الله فتراهم يسارعون بالكفر لقوّتهم التي يظنونها.

ذكر الطنطاوي: الآية الكريمة تحكي موقف المترفين في كل أمة، من الرسل الذين جاءوا لهدايتهم، وأن هؤلاء المترفين في كل زمان ومكان، كانوا أعداء للأنبياء وللمصلحين، لأن الترف من شأنه أن يُفسد الفِطرة، ويبعث على الغرور والتطاول، ويحول بين الإنسان وبين التمسك بالفضائل والقيم العليا، ويهدي إلى الانغماس في الرذائل والشهوات الدنيا.

﴿وَقَالُوا نَحْنُ أَكْثَرُ أَمْوَالًا وَأَوْلَادًا وَمَا نَحْنُ بِمُعَذَّبِينَ ٣٥﴾

إن سبب استغناءهم ظنهم بأن أموالهم التي اكتسبوها إنما اكتسبوها بعلمهم وجهدهم وأن أولادهم الذين رُزقوهم إنما كان بقوتهم وتدبيرهم، ومن شدة تكبرهم وترفهم صرّحوا بملء أشداقهم بأنهم: لن يُعذَّبوا.

ذكر الطبري: قال أهل الاستكبار على الله من كل قرية أرسلنا فيها نذيراً لأنبيائنا ورسلنا: نحن أكثر أموالا وأولاداً وما نحن في الآخرة بمعذبين لأن الله لو لم يكن راضياً ما نحن عليه من الملة والعمل لم يخولنا الأموال

والأولاد، ولم يبسط لنا في الرزق، وإنما أعطانا ما أعطانا من ذلك لرضاه أعمالنا، وآثرنا بما آثرنا على غيرنا لِفضلِنا، وزُلفة لنا عنده.

قُلْ إِنَّ رَبِّي يَبْسُطُ الرِّزْقَ لِمَن يَشَاءُ وَيَقْدِرُ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ ﴿٣٦﴾

إن الله هو من يبسط الرزق لمن يشاء، ويوسّعه على من يشاء، لكن جهل الناس قادهم لذلك الاعتقاد الذي هم عليه – حسبما جاءت به الآية السابقة –.

ذكر القرطبي: قل إن ربي يبسط الرزق؛ أي يوسّعه لمن يشاء، ويقدر؛ أي يقتّر، أي؛ أن الله هو الذي يفاضل بين عباده في الأرزاق امتحاناً لهم؛ فلا يدلّ شيء من ذلك على ما في العواقب؛ فسَعة الرزق في الدنيا لا تدل على سعادة الآخرة؛ فلا تظنوا أموالكم وأولادكم تُغني عنكم غداً شيئاً. ولكن أكثر الناس لا يعلمون هذا؛ لأنهم لا يتأملون.

ذكر الطنطاوي: وربما يُوسع رزق العاصي، ويُضيّق رزق المطيع. أو العكس، وربما يُوسع على شخص في وقت، ويُضيّق عليه في وقت آخر، ولا ينقاس على ذلك أمر الثواب والعقاب، لأن مناطهما الطاعة وعدمها.

﴿وَمَا أَمْوَالُكُمْ وَلَا أَوْلَادُكُم بِالَّتِي تُقَرِّبُكُمْ عِندَنَا زُلْفَىٰ إِلَّا مَنْ آمَنَ وَعَمِلَ صَالِحًا فَأُولَٰئِكَ لَهُمْ جَزَاءُ الضِّعْفِ بِمَا عَمِلُوا وَهُمْ فِي الْغُرُفَاتِ آمِنُونَ ﴿٣٧﴾﴾

صحيح الاعتقاد أن التقرب لله تعالى لا يكون بكثرة المال والولد، بل يكون بالإيمان بالله اعتقاداً ثم بإتباعه العمل الصالح.

ذكر القرطبي: بهذه الآية أُستدل من فضل الغنى على الفقر. وقال محمد بن كعب: إن المؤمن إذا كان غنياً تقياً أتاه الله أجره مرتين بهذه الآية.

ذكر الطنطاوي: أي: ليس الأمر كما زعمتم أيها المترفون من أن كثرة الأموال والأولاد ستنجيكم من العذاب؛ ولكن الحق والصدق أن الذي يُنجيكم من ذلك ويُقربكم منا، هو الإيمان والعمل الصالح؛ فهؤلاء الذين آمنوا وعملوا الأعمال الصالحة لهم عند الله تعالى الجزاء الحسن المضاعف، وهم في غرفات الجنات آمنون مطمئنون.

﴿قُلْ إِنَّ رَبِّي يَبْسُطُ الرِّزْقَ لِمَن يَشَاءُ مِنْ عِبَادِهِ وَيَقْدِرُ لَهُ ۚ وَمَا أَنفَقْتُم مِّن شَيْءٍ فَهُوَ يُخْلِفُهُ ۖ وَهُوَ خَيْرُ الرَّازِقِينَ ﴿٣٨﴾﴾

الله تعالى هو الذي يبسط الرزق لعباده ويوسّعه عليهم لمن يشاء، ويفيد الفعل المضارع الاستمرار ما قام الناس على هذه الأرض، كما أنه تعالى من

من يُقدّر هذا الرزق وينقصه، أما الإِنفاق في سبيله تعالى فهو ليس بمثابة خسارة ونقص كما يظهر لمن يفعل ذلك؛ بل إن الله تعهد بأنه سيخلفه وهذا معناه أن المال سيتم استثماره ثم سيعود لمنفقه بطريقة أو بأخرى لأن الله تعالى المتعهد، وهو خير الرازقين.

وهذا مفهوم غريب على أكثر الناس فالإنفاق خسارة وخروج للمال من اليد. ويميّز الاقتصاديون (مضاعف الاستثمار)، فإنفاق الحكومات مؤجاه أضعاف تلك الاستثمارات من خلال توليد سلسلة استثمارات تابعة ومتلاحقة.

تفسير سورة فاطر

رقم السورة: ٣٥ وهي مكية وعدد آياتها: ٤٥.

ذكر الطنطاوي: سورة فاطر قد طوفت بالنفس الإنسانية في أرجاء هذا الكون، وأقامت الأدلة على وحدانية الله تعالى وقدرته، عن طريق نعم الله تعالى المبثوثة في الأرض وفي السماء، وفي الليل وفي النهار، وفي الشمس وفي القمر، وفي الرياح وفي السحب، وفي البر وفي البحر، وفي غير ذلك من النعم التي سخرها سبحانه لعباده.

كما نراها قد حددت وظيفة الرسول صلّى الله عليه وسلّم وساقت له ما يسليه ويزيده ثباتاً على ثباته، وما يُرشد كل عاقل إلى حسن عاقبة الأخيار، وسوء عاقبة الأشرار.

يَا أَيُّهَا النَّاسُ اذْكُرُوا نِعْمَتَ اللَّهِ عَلَيْكُمْ هَلْ مِنْ خَالِقٍ غَيْرُ اللَّهِ يَرْزُقُكُمْ مِنَ السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ لَا إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ فَأَنَّىٰ تُؤْفَكُونَ ﴿٣﴾

تأتي الآيات تترى تذكر الإنسان بقدرة خالقه، وأنه الرازق الذي يرزق عباده من السماء ومن الأرض.

ذكر ابن عاشور: لو كان غيره خالقاً لكان رازقاً إذ الخلق بدون رزق قصور في الخالقية؛ لأن المخلوق بدون رزق لا يلبث أن يصير إلى الهلاك والعدم؛

فيكون خَلْقُه عبثاً، يُنزَّه عنه الموصوف بالإِلهية المقتضية للحكمة؛ فكانت الآية مذكرة بنعمتي الإِيجاد والإِمداد.

وزيادة ﴿من السماء والأرض﴾ تذكير بتعدد مصادر الأرزاق؛ فإن منها سماوية؛ كالمطر الذي منه شراب، ومنه طُهور، وسبب نبات أشجار وكَلأٍ، وكالمَنّ الذي ينزل على شجر خاص من أندية في الجوّ، وكالضياء من الشمس، والاهتداء بالنجوم في الليل، وكذلك أنواع الطير الذي يُصَاد، كلّ ذلك من السماء.

ومن الأرض أرزاق كثيرة من حبوب وثمار وزيوت وفواكه ومعادن وكلأٍ وكمأة وأسماك البِحار والأنهار.

وفي هذا القيد فائدة أخرى وهي دفع توهم الغفّل أن أرزاقاً تأتيهم من غير الله من أنواع العطايا التي يعطيها بعضهم بعضاً، والمعاوضات التي يعاوضها بعضهم مع بعض فإنها لكثرة تداولها بينهم قد يُلهيهم الشُغل بها عن التدبر في أصول منابعها فإن أصول موادها من صنع الله تعالى.

وَاللَّهُ الَّذِي أَرْسَلَ الرِّيَاحَ فَتُثِيرُ سَحَابًا فَسُقْنَاهُ إِلَى بَلَدٍ مَيِّتٍ فَأَحْيَيْنَا بِهِ الْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا ۚ كَذَٰلِكَ النُّشُورُ ﴿٩﴾

البعث والنشور أشبه بكيفية إرسال الله تعالى الرياح لتثير السحاب فتوجهه لبلد أرضه ميتة يابسة لا حياة فيها، فإذا نزل عليها الماء أحياها الله بعد موتها.

هذا تذكير مستمر للناس بالنشور وما بعده.

سأل أبو رزين العقيلي رسول الله صلى الله عليه وسلم؛ فقال: يا رسولَ اللهِ كيف يُحيي اللهُ الموْتى؟ قال: أمَا مررتَ بوادٍ مُمحِلٍ ثم مررتَ بهِ خَضِراً؟ قال: بلى قال: فكذلك النُّشورُ أو قال: كذلك يُحيي اللهُ الموْتى.

﴿وَمَا يَسْتَوِي الْبَحْرَانِ هَٰذَا عَذْبٌ فُرَاتٌ سَائِغٌ شَرَابُهُ وَهَٰذَا مِلْحٌ أُجَاجٌ ۖ وَمِن كُلٍّ تَأْكُلُونَ لَحْمًا طَرِيًّا وَتَسْتَخْرِجُونَ حِلْيَةً تَلْبَسُونَهَا ۖ وَتَرَى الْفُلْكَ فِيهِ مَوَاخِرَ لِتَبْتَغُوا مِن فَضْلِهِ وَلَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ ﴿١٢﴾﴾

خلق الله الأنهار بمياهها الحلوة والبحر بمياهه المالحة، وتختلف البحار المالحة عن بعضها بنسبة ملوحة كل منها. أما الناس؛ فتأكل من لحوم البحر والنهر لحما طرياً، وهذا كناية عن صيد السمك، وصيد ما يعيش في الماء.

كما يستخرج الناس من البحار الحلي والأحجار الكريمة التي يتزينون بها.

كما أنهم يُبحرون بالسفن عبر البحار ابتغاء فضل الله من تجارة ونقل للأشخاص وللسلع وغيرها.

إن هذه الآية الكريمة تشير إلى مهن صناعية وتجارية وخدمية؛ بحرية ونهرية، أو تتعلق بها.

ذكر ابن عاشور: انتقال من الاستدلال بالأحوال في الأجواء بين السماء والأرض على تفرد الله تعالى بالإِلهية إلى الاستدلال بما على الأرض من بحار وأنهار وما في صفاتها من دلالة زائدة على دلالة وجود أعيانها، على عظيم مخلوقات الله تعالى.

ذكر السعدي: هذا إخبار عن قدرته وحكمته ورحمته، أنه جعل البحرين لمصالح العالم الأرضي كلهم، وأنه لم يسوِّ بينهما، لأن المصلحة تقتضي أن تكون الأنهار عذبة فراتاً، سائغاً شرابها؛ لينتفع بها الشاربون والغارسون والزارعون، وأن يكون البحر مُلحاً أُجاجاً؛ لئلا يفسد الهواء المحيط بالأرض بروائح ما يموت في البحر من الحيوانات؛ ولأنه ساكن لا يجري؛ فملوحته تمنعه من التغير؛ ولتكون حيواناته أحسن وألذ، ولهذا قال: ﴿ وَمِنْ كُلٍ ﴾ من البحر الملح والعذب ﴿ تَأْكُلُونَ لَحْمًا طَرِيًّا ﴾ وهو السمك المتيسر صيده في البحر، ﴿ وَتَسْتَخْرِجُونَ حِلْيَةً تَلْبَسُونَهَا ﴾ من لؤلؤ ومرجان وغيرهما، مما يوجد في البحر، فهذه مصالح عظيمة للعباد.

ومن المصالح أيضا والمنافع في البحر، أن سخره اللهّ تعالى يحمل الفلك من السفن والمراكب، فتراها تمخر البحر وتشقه، فتسلك من إقليم إلى إقليم آخر، ومن محل إلى محل، فتحمل السائرين وأثقالهم وتجاراتهم، فيحصل بذلك من فضل اللهّ وإحسانه شيء كثير، ولهذا قال: ﴿وَلِتَبْتَغُوا مِنْ فَضْلِهِ وَلَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ﴾.

ذكر الطنطاوي: أوجدنا البحرين، وسخرناهما لمنفعتكم، لتطلبوا أرزاقكم فيهما، وهذه الأرزاق هي من فضل الله تعالى عليكم، ومن رحمته بكم، ولعلكم بعد ذلك تشكروننا على آلائنا ونعمنا؛ فإن من شَكرنا زدناه من خيرنا وعطائنا.

يُولِجُ اللَّيْلَ فِي النَّهَارِ وَيُولِجُ النَّهَارَ فِي اللَّيْلِ وَسَخَّرَ الشَّمْسَ وَالْقَمَرَ كُلٌّ يَجْرِي لِأَجَلٍ مُسَمًّى ذَٰلِكُمُ اللَّهُ رَبُّكُمْ لَهُ الْمُلْكُ وَالَّذِينَ تَدْعُونَ مِنْ دُونِهِ مَا يَمْلِكُونَ مِنْ قِطْمِيرٍ ﴿١٣﴾

يولج الله تعالى الليل بالنهار ويولج النهار بالليل ولتداخلهما منافع للناس، كما سخر الشمس والقمر ولكل منهما وظائفه التي تحقق المنافع للناس.

ذكر ابن عاشور: استدلال عليهم بما في مظاهر السماوات من الدلائل على بديع صنع الله في أعظم المخلوقات؛ ليتذكروا بذلك أنه الإِله الواحد.

﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ أَنتُمُ الْفُقَرَاءُ إِلَى اللَّهِ ۖ وَاللَّهُ هُوَ الْغَنِيُّ الْحَمِيدُ ﴿١٥﴾﴾

حقيقة الأمر أن الناس فقراء، وأن الله هو الغني، وأنهم في حاجته جلّ في علاه. لذلك فاقتصاد الناس مرتهن بعطاء الله الغني الحميد.

﴿أَلَمْ تَرَ أَنَّ اللَّهَ أَنزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَأَخْرَجْنَا بِهِ ثَمَرَاتٍ مُّخْتَلِفًا أَلْوَانُهَا ۚ وَمِنَ الْجِبَالِ جُدَدٌ بِيضٌ وَحُمْرٌ مُّخْتَلِفٌ أَلْوَانُهَا وَغَرَابِيبُ سُودٌ ﴿٢٧﴾﴾

الله الذي أنزل من السماء ماء أخرج به ثمرات مختلف ألوانها وطعمها، وخلق جبالاً مختلفة الألوان بيضاء وحمراء وسوداء.

ذكر ابن عاشور: استئناف فيه إيضاح ما سبقه من اختلاف أحوال الناس في قبول الهدى ورفضه بسبب ما تهيأت خِلقة النفوس إليه ليظهر به أن الاختلاف بين أفراد الأصناف والأنواع ناموس جِبلّي فَطر الله عليه مخلوقات هذا العالم الأرضي.

والخطاب للنبي صلى الله عليه وسلم ليدفع عنه اغتمامه من مشاهدة عدم انتفاع المشركين بالقرآن.

وضُرب اختلاف الظواهر في أفراد الصنف الواحد مثلاً لاختلاف البواطن تقريباً للأفهام، فكان هذا الاستئناف من الاستئناف البياني لأن مثل هذا

التقريب مما تشرئِبُّ إليه الأفهام عند سماع قوله: ﴿إن الله يسمع من يشاء﴾ فاطر: ٢٢.

ذكر السعدي: يُذكِّر تعالى خلقه للأشياء المتضادات، التي أصلها واحد، ومادتها واحدة، وفيها من التفاوت والفرق ما هو مشاهد معروف، ليدلَّ العباد على كمال قدرته وبديع حكمته.

فمن ذلك: أن اللّه تعالى أنزل من السماء ماء، فأخرج به من الثمرات المختلفات، والنباتات المتنوعات، ما هو مشاهد للناظرين، والماء واحد، والأرض واحدة.

ومن ذلك: الجبال التي جعلها اللّه أوتاداً للأرض، تجدها جبالاً مشتبكة، بل جبلاً واحداً، وفيها ألوان متعددة، فيها جدد بيض، أي: طرائق بيض، وفيها طرائق صفر وحمر، وفيها غرابيب سود، أي: شديدة السواد جداً.

وَمِنَ النَّاسِ وَالدَّوَابِّ وَالْأَنْعَامِ مُخْتَلِفٌ أَلْوَانُهُ كَذَٰلِكَ ۗ إِنَّمَا يَخْشَى اللَّهَ مِنْ عِبَادِهِ الْعُلَمَاءُ ۗ إِنَّ اللَّهَ عَزِيزٌ غَفُورٌ ﴿٢٨﴾

كما خلق أُناساً ودواباً وأنعاماً مختلفة الألوان.

لذلك فالعلماء هم من يخشون ربهم لعلمهم بقدرته عزَّ وجلَّ.

ذكر ابن كثير: ﴿ومن الناس والدواب والأنعام مختلف ألوانه كذلك﴾؛ أي: كذلك الحيوانات من الأناسي والدواب، وهو: كل ما دب على قوائم والأنعام، من باب عطف الخاص على العام. كذلك هي مختلفة أيضاً؛ فالناس منهم بربر وحبوش وطماطم في غاية السواد، وصقالبة وروم في غاية البياض، والعرب بين ذلك، والهنود دون ذلك؛ ولهذا قال تعالى في الآية الأخرى: ﴿واختلاف ألسنتكم وألوانكم إن في ذلك لآيات للعالمين﴾ الروم: ٢٢. وكذلك الدواب والأنعام مختلفة الألوان، حتى في الجنس الواحد، بل النوع الواحد منهن مختلف الألوان، بل الحيوان الواحد يكون أبلق، فيه من هذا اللون وهذا اللون، فتبارك الله أحسن الخالقين.

ذكر السعدي: ومن ذلك: الناس والدواب، والأنعام، فيها من اختلاف الألوان والأوصاف والأصوات والهيئات، ما هو مرئي بالأبصار، مشهود للنظار، والكل من أصل واحد ومادة واحدة.

فتفاوتها دليل عقلي على مشيئة اللّه تعالى، التي خصصت ما خصصت منها، بلونه، ووصفه، وقدرة اللّه تعالى حيث أوجدها كذلك، وحكمته ورحمته، حيث كان ذلك الاختلاف، وذلك التفاوت، فيه من المصالح والمنافع، ومعرفة الطرق، ومعرفة الناس بعضهم بعضاً، ما هو معلوم.

وذلك أيضا، دليل على سعة علم الله تعالى، وأنه يبعث من في القبور، ولكن الغافل ينظر في هذه الأشياء وغيرها نظر غفلة لا تُحدث له التذكر، وإنما ينتفع بها من يخشى اللّهّ تعالى، ويعلم بفكره الصائب وجه الحكمة فيها.

ولهذا قال: ﴿إِنَّمَا يَخْشَى اللَّهَ مِنْ عِبَادِهِ الْعُلَمَاءُ﴾ فكل من كان باللّهّ أعلم، كان أكثر له خشية، وأوجبت له خشية الله، الانكفاف عن المعاصي، والاستعداد للقاء من يخشاه، وهذا دليل على فضيلة العلم، فإنه داع إلى خشية الله، وأهل خشيته هم أهل كرامته، كما قال تعالى: ﴿رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ وَرَضُوا عَنْهُ ذَلِكَ لِمَنْ خَشِيَ رَبَّهُ﴾.

إِنَّ الَّذِينَ يَتْلُونَ كِتَابَ اللَّهِ وَأَقَامُوا الصَّلَاةَ وَأَنفَقُوا مِمَّا رَزَقْنَاهُمْ سِرًّا وَعَلَانِيَةً يَرْجُونَ تِجَارَةً لَّن تَبُورَ ﴿٢٩﴾

إن من يتلون كتاب الله ويقيمون الصلاة وينفقون مما رزقهم الله بالسرّ وبالعلن؛ إنما يرجون تجارة مع الله لا تخسر أبداً، وترافق الرجاء مع التجارة لأن التاجر يأمل الربح دوماً رغم توقعه الخسارة.

ذكر السعدي: أي: لن تكسد وتفسد؛ بل تجارة هي أجلّ التجارات وأعلاها وأفضلها، ألا وهي رضا ربهم، والفوز بجزيل ثوابه، والنجاة من

سخطه وعقابه، وهذا فيه أنهم يخلصون بأعمالهم، وأنهم لا يرجون بها من المقاصد السيئة والنيات الفاسدة شيئاً.

تفسير سورة يس

رقم السورة: ٣٦ وهي مكية وعدد آياتها: ٨٣.

ذكر الطنطاوي: إن هذه السورة الكريمة، قد اهتمت بإِقامة الأدلة على وحدانية الله تعالى وعلى كمال قدرته كما اهتمت بإبراز الأدلة المتعددة على أن البعث حق، وعلى أن الرسول صلّى الله عليه وسلم صادق فيما يُبلغه عن ربه.

كما اهتمت بضرب الأمثال لبيان حسن عاقبة الأخيار، وسوء عاقبة الأشرار. كل ذلك بأسلوب بليغ مؤثر، يغلب عليه قصر الآيات، وإيراد الشواهد المتنوعة على قدرة الله تعالى، عن طريق مخلوقاته المبثوثة في هذا الكون، والتي من شأن المتأمل فيها بعقل سليم، أن يهتدي إلى الحق، وإلى الصراط المستقيم.

إِنَّا نَحْنُ نُحْيِي الْمَوْتَىٰ وَنَكْتُبُ مَا قَدَّمُوا وَآثَارَهُمْ ۚ وَكُلَّ شَيْءٍ أَحْصَيْنَاهُ فِي إِمَامٍ مُّبِينٍ ﴿١٢﴾

تشير الآية الكريمة لكتابة الأعمال من أجل الحساب كإِثبات وبيان.

وتفيد بكتابة العمليات والأحداث تمهيداً لإنجاز المحاسبة عليها، وتكون الكتابة في نسخة رئيسية واضحة بيّنة، وقد ذكرت غير آية نسخ تلك

الكتابة وحفظها، وتفيد بضرورة الإحصاء وهو مرحلة متقدمة للعدّ حيث تُحصى الأعمال المتشابهة وتُقاس؛ مما يُساعد في تسوية الحسابات وسرعة اتخاذ القرار بشأنها.

وتُعتبر المحاسبة والإحصاء مصدرا المعلومات لكل منشأة ولكل اقتصاد وعلى بياناتهما تُتخذ القرارات.

ذكر ابن كثير: نكتب أعمالهم التي باشروها بأنفسهم، وآثارهم التي أثروها من بعدهم، فنجزيهم على ذلك أيضاً.

وَآيَةٌ لَّهُمُ الْأَرْضُ الْمَيْتَةُ أَحْيَيْنَاهَا وَأَخْرَجْنَا مِنْهَا حَبًّا فَمِنْهُ يَأْكُلُونَ ٣٣

إن من آيات الله إحياء الأرض بعد موتها، وإخراج الحبِّ منها، والذي هو طعام الناس وأكلهم. والحبُّ هو طريقة حفظ ليكون طعاماً للناس ويكون بذاراً يُعاد غرسه لينبت من جديد.

ذكر الطبري: دلالة لهؤلاء المشركين على قُدرة الله على ما يشاء، وعلى إحيائه من مات من خلقه وإعادته بعد فنائه، كهيئته قبل مماته إحياؤه الأرض الميتة، التي لا نبت فيها ولا زرع بالغيث الذي ينزله من السماء

حتى يخرج زرعها، ثم إخراجه الحب الذي هو قوت لهم وغذاء، فمنه يأكلون.

وَجَعَلْنَا فِيهَا جَنَّاتٍ مِّن نَّخِيلٍ وَأَعْنَابٍ وَفَجَّرْنَا فِيهَا مِنَ الْعُيُونِ ﴿٣٤﴾

جعل الله تعالى في الأرض جنات النخيل والأعناب وفجر فيها الماء عيوناً وينابيع، وهذه موارد اقتصادية يستفيد منها الإنسان وبها أسباب عيشه وحياته.

ذكر الطنطاوي: أحيينا هذه الأرض الميتة بالماء، وجعلنا فيها بقدرتنا ورحمتنا بساتين كثيرة من نخيل وأعناب، وفجرنا وشققنا فيها كثيراً من الآبار والعيون التي تُسقى بها تلك الزروع والثمار.

لِيَأْكُلُوا مِن ثَمَرِهِ وَمَا عَمِلَتْهُ أَيْدِيهِمْ ۖ أَفَلَا يَشْكُرُونَ ﴿٣٥﴾

يأكلون ثمار تلك الجنات، ويأكلون مما لم تتدخل فيه أيديهم؛ بل خلقه الله تعالى جاهزا للأكل. دون حاجة لعمل منهم كالطبخ وما شابهه.

وفي هذه الآية إشارة إلى بذل الجهد في العمل لتحويل المنتجات الأولية لمنتجات أخرى أي الصناعات التحويلية؛ لأن الآية نفت تدخل الإنسان بعمله في هذه الثمار والينابيع.

وَآيَةٌ لَّهُمْ أَنَّا حَمَلْنَا ذُرِّيَّتَهُمْ فِي الْفُلْكِ الْمَشْحُونِ ﴿٤١﴾

ومن آياته أن السفن تحملهم وتنقلهم بين الأمصار كما تحمل بضائعهم لتشحنها من مكان لآخر.

وَخَلَقْنَا لَهُم مِّن مِّثْلِهِ مَا يَرْكَبُونَ ﴿٤٢﴾

خلق لهم ما يركبونه في غير البحر كالإبل وغيرها كوسائل نقل لها نفس الأغراض والمنافع.

وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ أَنفِقُوا مِمَّا رَزَقَكُمُ اللَّهُ قَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا لِلَّذِينَ آمَنُوا أَنُطْعِمُ مَن لَّوْ يَشَاءُ اللَّهُ أَطْعَمَهُ إِنْ أَنتُمْ إِلَّا فِي ضَلَالٍ مُّبِينٍ ﴿٤٧﴾

إذا قيل لهم أنفقوا مما رزقكم الله وأطعموا المحتاج الجائع، قال الكافرون للذين آمنوا هل نُطعم من لو يشاء الله أطعمه؟ فتراهم يرفضون أمر الله ويقدموا الحجج دفاعاً عن موقفهم معرضين عن أمر الله تعالى.

أَوَلَمْ يَرَوْا أَنَّا خَلَقْنَا لَهُم مِّمَّا عَمِلَتْ أَيْدِينَا أَنْعَامًا فَهُمْ لَهَا مَالِكُونَ ﴿٧١﴾

لقد خلق الله تعالى الأنعام صنع الله؛ ثم سخرها للإنسان، وملّكه إياها، أفلا يرى الناس ذلك؟

تشير هذه الآية الكريمة إلى الملكية والحيازة الفعلية.

وَذَلَّلْنَاهَا لَهُمْ فَمِنْهَا رَكُوبُهُمْ وَمِنْهَا يَأْكُلُونَ ﴿٧٢﴾

بما أن الناس تملكوا هذه الأنعام وحازوها كما أشارت الآية السابقة بعدما ذللها الله لهم، فقد سُخّرت وذلّلت لهم لتكون بأمرهم وطاعتهم؛ فيركبونها ويتمتعون بها كوسائل نقل وانتقال لهم ولحاجاتهم، ويذبحونها فتكون طعاماً لهم.

ذكر ابن كثير: ﴿فمنها ركوبهم ومنها يأكلون﴾ أي: منها ما يركبون في الأسفار، ويحملون عليه الأثقال، إلى سائر الجهات والأقطار.

﴿ومنها يأكلون﴾ إذا شاءوا نحروا واجتزروا.

وَلَهُمْ فِيهَا مَنَافِعُ وَمَشَارِبُ ۖ أَفَلَا يَشْكُرُونَ ﴿٧٣﴾

لهم فيها منافع عديدة؛ فيشربون من لبنها ويستترون بما بوبرها وشعرها وجلدها وما يصنعونه منها، ويتخذونها أثاثاً لهم.

ذكر ابن كثير: ﴿ولهم فيها منافع﴾؛ أي: من أصوافها وأوبارها وأشعارها أثاثاً ومتاعاً إلى حين، ﴿ومشارب﴾؛ أي: من ألبانها وأبوالها لمن

يتداوى، ونحو ذلك. ﴿أفلا يشكرون﴾؟ أي: أفلا يوحدون خالق ذلك ومسخره، ولا يشركون به غيره؟

الَّذِي جَعَلَ لَكُم مِّنَ الشَّجَرِ الْأَخْضَرِ نَارًا فَإِذَا أَنتُم مِّنْهُ تُوقِدُونَ

٨٠

جعل الله من الشجر الأخضر ناراً بعد أن يُصبح يابساً؛ فيكون مصدر من مصادر الطاقة؛ فبه يُوقدون نار طبخ طعامهم، وبه يُشعلون مدافئهم ليشعروا بالدفء والحرارة.

ذكر الطنطاوي: قل أيها الرسول الكريم لهؤلاء المنكرين للبعث، يحيي الأجساد البالية الله تعالى الذي أنشأها أول مرة، والذي جعل لكم بفضله ورحمته وقدرته من الشجر الأخضر الرطب ناراً، فإذا أنتم من هذا الشجر الأخضر توقدون النار. وتنتفعون بها في كثير من أحوال حياتكم.

وإذاً فمَن قدر على إحداث النار من الشجر الأخضر مع ما فيه من المائية المضادة لها كان أقدر على إعادة الأجساد بعد فنائها.

تفسير سورة الصافات

رقم السورة: ٣٧ وهي مكية وعدد آياتها: ١٨٢.

ذكر الطنطاوي: المتأمل في هذه السورة الكريمة يراها بأنها قد اهتمت بإِقامة الأدلة على وحدانية الله تعالى، وعلى أن البعث حق، وعلى أن الرسول صلّى الله عليه وسلم صادق فيما يبلغه عن ربه، وذلك لكي تغرس العقيدة السليمة في النفوس. كما يراها تهتم بحكاية أقوال المشركين وشبهاتهم؛ ثم ترد على تلك الأقوال والشبهات بما يزهقها ويبطلها.

كما يراها كذلك تسوّق ألواناً من المحاورات التي تدور بين المشركين فيما بينهم عند ما يُحيط بهم العذاب يوم القيامة، وألواناً من المحاورات التي تدور بينهم وبين أهل الجنة الذين نجاهم الله تعالى من النار وسعيرها.

كما يراها أيضاً تُسوق لنا نماذج من قصص الأنبياء مع أقوامهم، تارة بشيء من التفصيل كما في قصة إبراهيم مع قومه، وتارة بشيء من التركيز والإِجمال كما في بقية قصص الأنبياء الذين ورد الحديث عنهم فيها. وتمتاز بعرضها للمعاني والأحداث بأسلوب مؤثر. ترى فيه قصر الفواصل وكثرة المشاهد، والمواقف.

مما يجعل القارئ لآياتها في شوق إلى ما تسوقه من نتائج.

وَقِفُوهُمْۖ إِنَّهُم مَّسۡـُٔولُونَ ﴿٢٤﴾

كل إنسان مكلف مسؤول أمام الله، وسوف يقف أمامه يحاسبه عن كل شاردة وواردة، وهذه المسؤولية ترتب على كل إنسان أن يعلم أن تصرفاته مسجلة عليه كما ذكرت غير آية.

ذكر ابن كثير: أي: قفوهم حتى يُسألوا عن أعمالهم، وأقوالهم التي صدرت عنهم في الدار الدنيا؛ كما قال الضحاك.

تفسير سورة ص

رقم السورة: ٣٨ وهي مكية وعدد آياتها: ٨٨.

ذكر الطنطاوي: اهتمت السورة اهتماماً واضحاً، بإقامة الأدلة على وحدانية الله تعالى وقدرته، وعلى صدق النبي صلّى الله عليه وسلم فيما يُبلّغه عن ربه، وعلى أن يوم القيامة حق، كما اهتمت بحكاية شبهات المشركين ثم الرد عليها، كما ذكرت جانباً من قصص بعض الأنبياء ليعتبر بقصصهم كل ذي عقل سليم، كما أنها قد اهتمت ببيان حسن عاقبة الأخيار وسوء عاقبة الأشرار، ليهلك من هلك عن بينة ويحيا من حي عن بيّنة.

إِنَّ هَٰذَآ أَخِي لَهُۥ تِسۡعٌ وَتِسۡعُونَ نَعۡجَةً وَلِيَ نَعۡجَةٌ وَٰحِدَةٌ فَقَالَ أَكۡفِلۡنِيهَا وَعَزَّنِي فِي ٱلۡخِطَابِ ﴿٢٣﴾

هي شراكة عُرضت على داوود نبي الله عليه السلام للحكم بشأنها؛ موضوعها شركة بين من يملك تسع وتسعون نعجة، ومن يملك نعجة واحدة؛ فسأل الأول الثاني أن يُكفّلها وقد شدد عليه القول.

ذكر ابن عاشور: وذِكر غالب أحوال الخلطاء أراد به الموعظة لهما بعد القضاء بينهما على عادة أهل الخير من انتهاز فرص الهداية فأراد داود عليه

السلام أن يرغبهما في إيثار عادة الخلطاء الصالحين وأن يُكرّه إليهما الظلم والاعتداء.

ويستفاد من المقام أنه يَأسف لحالهما، وأنه أراد تسلية المظلوم عما جرى عليه من خليطه، وأن له أسوة في أكثر الخلطاء.

قَالَ لَقَدْ ظَلَمَكَ بِسُؤَالِ نَعْجَتِكَ إِلَى نِعَاجِهِ ۖ وَإِنَّ كَثِيرًا مِّنَ الْخُلَطَاءِ لَيَبْغِي بَعْضُهُمْ عَلَىٰ بَعْضٍ إِلَّا الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ وَقَلِيلٌ مَّا هُمْ ۗ وَظَنَّ دَاوُودُ أَنَّمَا فَتَنَّاهُ فَاسْتَغْفَرَ رَبَّهُ وَخَرَّ رَاكِعًا وَأَنَابَ ﴿٢٤﴾

أجابهم داوود عليه السلام: بأن الأول قد ظلم الآخر بسؤاله ذاك.

ورسخ داوود عليه السلام قضية شائكة لا تنتهي؛ ألا وهي أن أكثر الشركاء – وقد عُبّر عنهم بالخلطاء – يبغي بعضهم على الآخر، وهذا الأمر قائم حتى أيامنا هذه.

كما أنه عليه السلام أوضح أن الشركة بمجرد انعقادها صارت خلطة، فلا يُميَّز ملك شريك عن شريك آخر لاختلاطهما تماماً فكل منهم يملك كل جزء من ميزانية الشركة.

واستثنى نبي الله عليه السلام من أولئك الباغين من مَلَك صفتي:

الإيمان: وهذا سلوك غيبي؛

والعمل الصالح: وهذا سلوك تطبيقي، وأوضح أن أولئك قلائل.

ذكر البغوي: وإن كثيرا من ﴿الخلطاء﴾ الشركاء.

﴿يَا دَاوُودُ إِنَّا جَعَلْنَاكَ خَلِيفَةً فِي الْأَرْضِ فَاحْكُمْ بَيْنَ النَّاسِ بِالْحَقِّ وَلَا تَتَّبِعِ الْهَوَى فَيُضِلَّكَ عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ ۚ إِنَّ الَّذِينَ يَضِلُّونَ عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ لَهُمْ عَذَابٌ شَدِيدٌ بِمَا نَسُوا يَوْمَ الْحِسَابِ ﴿٢٦﴾﴾

يقول المولى عزّ وجلّ لنبيه عليه السلام: إنا جعلنك خليفة في الأرض، وطلب منه أن يحكم بالحق بين الناس دون الهوى والميل لأن ذلك مُضلٌّ عن سبيل الله[١].

هذه قواعد أرستها الآية الكريمة في الحكم والقضاء.

---

[١] ذكر الطنطاوي:
الخلاصة: أن كل ما قيل عند تفسير هذه الآيات، مما يتصل بزواج داود بتلك المرأة أو بزوجها لا أساس له من الصحة. لأنه لم يقم عليه دليل أو ما يشبه الدليل. بل قام الدليل على عدم صحته إطلاقا. لأنه يتنافى مع عصمة الأنبياء. الذين صانهم الله تعالى من ارتكاب ما يخدش الشرف والمروءة قبل النبوة وبعدها.
وذكر أيضاً:
وملخصه: أن الخصومة حقيقية بين اثنين من البشر.
وذكر أيضاً:
ولعلنا بهذا البيان نكون قد وفقنا للصواب، في تفسير هذه الآيات الكريمة، التي ذكر بعض المفسرين عند تفسيرها أقوالا وقصصا لا يؤيدها عقل أو نقل، ولا يليق بمسلم أن يصدقها، لأنها تتنافى مع عصمة الأنبياء عليهم الصلاة والسلام الذين اختارهم الله تعالى لتبليغ دعوته، وحمل رسالته. وإرشاد الناس إلى إخلاص العبادة له سبحانه وإلى مكارم الأخلاق، وحميد الخصال.

﴿فَقَالَ إِنِّي أَحْبَبْتُ حُبَّ الْخَيْرِ عَن ذِكْرِ رَبِّي حَتَّى تَوَارَتْ بِالْحِجَابِ ﴿٣٢﴾﴾

نبي الله سليمان عليه السلام عرضت عليه الجِياد الجميلة؛ فلما ألهته عن ذكر ربه، قال: بأن اهتمامه بهذه الخيل وهي زينة من زينة الدنيا؛ ما هو إلا لذكر ربه فهو يحب تدريبها وإعدادها للجهاد من أجل ربه، وللقتال في سبيله حتى توارت الخيل، واختفت عن الرؤية لحلول الظلام.

ذكر الطنطاوي: الخير: يُطلق كثيراً على المال الوفير.

﴿فَسَخَّرْنَا لَهُ الرِّيحَ تَجْرِي بِأَمْرِهِ رُخَاءً حَيْثُ أَصَابَ ﴿٣٦﴾ وَالشَّيَاطِينَ كُلَّ بَنَّاءٍ وَغَوَّاصٍ ﴿٣٧﴾﴾

لقد سخر الله الرياح لنبيه سليمان يتحكم بها كيفما شاء، وسخر له الشياطين البنائين والغواصين. وفي هذه الآية الكريمة إشارة للتحكم بمصدر طاقة الريح، وإلى البناء والعمارة، وإلى مهنة الغوص.

ذكر الطبري: يعملون له ما يشاء من محاريب وتماثيل، وغوّاص يستخرجون الحليّ من البحر.

ذكر ابن كثير: منهم من هو مُستعمل في الأبنية الهائلة من محاريب وتماثيل وجفان كالجواب وقدور راسيات إلى غير ذلك من الأعمال الشاقة

التي لا يقدر عليها البشر وطائفة غواصون في البحار يستخرجون مما فيها من اللآلئ والجواهر والأشياء النفيسة التي لا توجد إلا فيها.

﴿إِنَّ هَٰذَا لَرِزْقُنَا مَا لَهُۥ مِن نَّفَادٍ ٥٤﴾

توضح هذه الآية الكريمة أن خزائن الله تعالى لا تنفد، مما يعني أنه لا يوجد مشكلة اقتصادية عند الخالق كما هو حال العباد.

ذكر السعدي: هو دائم مستقر في جميع الأوقات، متزايد في جميع الآنات.

تفسير سورة الزمر

رقم السورة: ٣٩ وهي مكية وعدد آياتها: ٧٥.

ذكر الطنطاوي: المتأمل في سورة «الزمر» يراها قد اشتملت على مقاصد متنوعة من أهمها ما يأتي:

(أ) إقامة الأدلة المتعددة على وحدانية الله تعالى وعلى وجوب إخلاص العبادة له، تارة عن طريق خلق السموات والأرض، وتكوين الليل والنهار، وتسخير الشمس والقمر، وخلق الناس جميعا من نفس واحدة. وتارة عن طريق لجوء المشركين إليه وحده عند الشدائد، وتارة عن طريق توفي الأنفس حين موتها، وتارة عن طريق ضرب الأمثال.

(ب) تذكير الناس بأهوال الآخرة وما فيها من ثواب وعقاب، وبعث ونشور، وفرح يعلو وجوه المتقين، وكآبة تجلل وجوه الكافرين.

(ج) تلقين الرسول صلّى الله عليه وسلم الحجج والإجابات التي يردُّ بها على شبهات المشركين، وعلى دعاواهم الباطلة، فقد تكرر لفظ «قل» في هذه السورة كثيراً.

(د) الإكثار من المقارنة بين عاقبة الأخيار وعاقبة الأشرار، بأسلوب يغلب عليه طابع الاستفهام الإنكاري، الذي حذف فيه الخبر للعلم به من سياق الكلام.

خَلَقَكُم مِّن نَّفْسٍ وَاحِدَةٍ ثُمَّ جَعَلَ مِنْهَا زَوْجَهَا وَأَنزَلَ لَكُم مِّنَ الْأَنْعَامِ ثَمَانِيَةَ أَزْوَاجٍ ۚ يَخْلُقُكُمْ فِي بُطُونِ أُمَّهَاتِكُمْ خَلْقًا مِّن بَعْدِ خَلْقٍ فِي ظُلُمَاتٍ ثَلَاثٍ ۚ ذَٰلِكُمُ اللَّهُ رَبُّكُمْ لَهُ الْمُلْكُ ۖ لَا إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ۖ فَأَنَّىٰ تُصْرَفُونَ (٦)

ذكرت الآية الكريمة بعضاً مما خلقه الله؛ كالناس، وبعضاً من أنعامهم التي سخرها الله لهم، وهذه الأنعام فصّلتها غير آية، وقد أوضحت أن الله قد أنزلها؛ كالضأن والماعز والإبل والبقر، وذلك لأهميتها، وقد خصتها آيات تتعلق بالذبح والكفارات والنذور والزكاة والدية. كما تعتبر هذه الأنعام من أكثر الحيوانات استهلاكاً من قبل الناس.

ذكر البغوي: قيل: إنه أنزل الماء الذي هو سبب نبات القطن الذي يكون منه اللباس، وسبب النبات الذي تبقى به الأنعام.

ذكر ابن عاشور: انتقال إلى الاستدلال بخلق الناس وهو الخلق العجيب. وأُدمج فيه الاستدلال بخلق أصلهم وهو نفس واحدة تشعب منها عدد عظيم وبخلق زوج آدم ليتقوّم ناموس التناسل.

وذكر أيضاً: ذلكم الذي خلق وسخر وأنشأ الناس والأنعام وخلق الإِنسان أطواراً هو الله، فلا تشركوا معه غيره؛ إذ لم تَبْق شُبهة تَعذر أهلَ الشرك بشركهم.

ذكر الطنطاوي: الكلام على سبيل المجاز، لأن هذه الأنعام لا تعيش إلا عن طريق ما تأكله من نبات، والنبات لا يخرج إلا بالماء النازل من السماء فكأن الأنعام نازلة من السماء، لأن سبب سببها منزل منها.

قُلْ يَا عِبَادِ الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا رَبَّكُمْ ۚ لِلَّذِينَ أَحْسَنُوا فِي هَٰذِهِ الدُّنْيَا حَسَنَةٌ ۗ وَأَرْضُ اللَّهِ وَاسِعَةٌ ۗ إِنَّمَا يُوَفَّى الصَّابِرُونَ أَجْرَهُم بِغَيْرِ حِسَابٍ

١٠

تدعو هذه الآية المؤمنين للهجرة فأرض الله واسعة وبهجرتهم ينتشر دين الله تعالى إن أحسنوا دعاءه وينتشر الخير بين الناس.

ذكر القرطبي: ذكر الماوردي: يحتمل أن يريد بسعة الأرض سعة الرزق؛ لأنه يرزقهم من الأرض فيكون معناه: ورِزق الله واسع، وهو أشبه؛ لأنه أخرج سعتها مخرج الامتنان.

قلت: فتكون الآية دليلا على الانتقال من الأرض الغالية، إلى الأرض الراخية، كما قال سفيان الثوري: كن في موضع تملأ فيه جرابك خبزاً بدرهم.

ذكر ابن عاشور: إن الله وعدهم أن يُلاقوا حسنة إذا هم هاجروا من ديار الشرك. وليس حسن العيش ولا ضده مقصوراً على مكان معين وقد وقع التصريح بما كني عنه هنا في قوله تعالى: ﴿قالوا ألم تكن أرض الله واسعة فتهاجروا فيها﴾ النساء: ٩٧.

والمراد: الإِيماء إلى الهجرة إلى الحَبَشَة. قال ابن عباس في قوله تعالى: ﴿قُلْ يا عِبادِ الذين ءَامنُوا اتَّقوا ربَّكُم﴾ يريد جعفرَ بن أبي طالب والذين خرجوا معه إلى الحبشة. ونكتة الكناية هنا إلقاء الإِشارة إليهم بلطف وتأنيس دون صريح الأمر لما في مفارقة الأوطان من الغمّ على النفس، وأما الآية التي في سورة النساء فإنها حكاية توبيخ الملائكة لمن لم يهاجروا.

﴿أَلَمْ تَرَ أَنَّ اللَّهَ أَنزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَسَلَكَهُ يَنَابِيعَ فِي الْأَرْضِ ثُمَّ يُخْرِجُ بِهِ زَرْعاً مُّخْتَلِفاً أَلْوَانُهُ ثُمَّ يَهِيجُ فَتَرَاهُ مُصْفَرّاً ثُمَّ يَجْعَلُهُ حُطَاماً إِنَّ فِي ذَلِكَ لَذِكْرَى لِأُولِي الْأَلْبَابِ ﴿٢١﴾﴾

أنزل الله الماء من السماء فأودعه في باطن الأرض في ينابيع هي بمثابة مخازن في الأرض خلقها الله لحفظ الماء العذب.

هذا الماء به تُسقى الأرض فيخرج منها زرع مختلف الألوان متعدد الطعم، ثم يهيج الزرع؛ أي ييبس عند كماله؛ فيصفرّ ويتكسر.

إنها الرحلة العظيمة للماء، يتنزل من السماء طاهراً نظيفاً، ليسكن باطن الأرض ضمن مستودعات حافظة له، ثم يخرج من الأرض ليقوم بوظائف أخرى.

ذكر القرطبي: الينبوع عين الماء والجمع الينابيع ... ثم يُخرج به: أي: بذلك الماء الخارج من ينابيع الأرض زرعاً هو للجنس؛ أي: زروعاً شتى لها ألوان مختلفة، حمرة وصفرة وزرقة وخضرة ونوراً ... ثم يهيج؛ أي: ييبس؛ فتراه؛ أي: بعد خضرته، مصفراً: أرض هائجة يبس بقلها أو اِصفرّ ... ثم يجعله حُطاماً؛ أي: فتاتاً مكسراً، من تحطم العود إذا تفتت من اليبس، والمعنى أن من قَدِر على هذا قَدِر على الإعادة ... وقيل: هو مثل

ضربه الله للدنيا؛ أي: كما يتغير النبت الأخضر فيصفر كذلك الدنيا بعد بهجتها.

ذكر الطنطاوي: المقصود من هذه الآية الكريمة، التحذير من الانهماك في الحياة الدنيا ومتعها، حيث شبهها سبحانه في سرعة زوالها وقرب اضمحلالها بالزرع الذي يبدو مخضراً وناضراً؛ ثم يعقب ذلك الجفاف والذبول والاضمحلال.

لِيُكَفِّرَ اللَّهُ عَنْهُمْ أَسْوَأَ الَّذِي عَمِلُوا وَيَجْزِيَهُمْ أَجْرَهُم بِأَحْسَنِ الَّذِي كَانُوا يَعْمَلُونَ ﴿٣٥﴾

تحكي هذه الآية صفات المتقين؛ بأنهم صادقين؛ وبأنهم محسنين، وهي تمثل حالة اجتماع التعظيم والتصغير في آن.

ذكر ابن عاشور: وقوله تعالى: ﴿لِيُكَفِّرَ الله عنهُم أسْوَأَ الَّذي عَمِلوا﴾ اللام للتعليل وهي تتعلق بفعل محذوف دلَّ عليه قوله: ﴿لهم ما يشاءون عند ربهم﴾، والتقدير: وَعَدَهم الله بذلك والتزمَ لهم ذلك ليكفِّر عنهم أسوأ الذي عملوا. والمعنى: أن الله وعدهم وعداً مطلقاً ليُكفَّر عنهم أسوأ ما عملوه، أي ما وعدهم بذلك الجزاء إلا لأنهُ أراد أن يُكفر عنهم سيئات

ما عملوا. والمقصود من هذا الخبر إعلامهم به؛ ليطمئنوا من عدم مؤاخذتهم على ما فَرَطَ منهم من الشرك وأحواله ...

وإذا كَفَّر عنهم أسوأَ الذي عملوا؛ كفَّر عنهم ما دونه من سيِّءِ أعمالهم بدلالة الفَحوى، فأفاد أنه يُكفر عنهم جميع ما عمِلوا من سيئات ...

وإذا كان الجزاء على العمل الأحسن بها، هو الوعد، كما في قوله تعالى: ﴿لهم ما يشاءون عند ربهم﴾؛ فدلَّ على أنهم يُجازَون على ما هو دون الأحسن من محاسن أعمالهم، بدلالة إيذان وصف «الأحسن» بأن علّة الجزاء هي: الأحسنية، وهي تتضمن أنّ لمعنى الحُسن تأثيراً في الجزاء؛ فإذا كان جزاء أحسن أعمالهم أَنَّ لهم ما يشاءون عند ربهم كان جزاء ما هو دون الأحسن من أعمالهم جزاء دون ذلك؛ بأن يُجَازَوا بزيادة وتنفيل على ما استحقوه على أحسن أعمالهم بزيادة تَنعم أو كرامة أو نحو ذلك.

ذكر الطنطاوي: عاملهم بالفضل ولم يعاملهم بالعدل، ونُقل عن الزمخشري في الكشاف ما معناه أنها: مسألة تفضيل.

وتشير كتب التفسير إلى أن المقصود بأسوأ الأعمال ما كان منهم قبل إسلامهم من الكفر والشرك، وتكفير الشرك لا يعني تكفير ما دونه من الذنوب حيث إنها خاضعة للمشيئة، إما يُعذبهم وإما يغفر لهم.

غير أن الزمخشري لم يتطرق لمسألة الشرك الأكبر، ولفت الانتباه لمعنى مختلف عما ذكره غيره من المفسرين، فالأسوأ لم يكن باعتبار الذنب ذاته؛ بل باعتبار نظرتهم هم للذنب، فما اقترفوه من الذنوب لم يخرج عن دائرة الزلات والهفوات والصغائر واللمم، لكنهم لاستعظامهم المعصية (الصغيرة) كانوا يرونها بمنزلة الكبائر والمرتبة الأسوأ من الذنوب، وتقع على قلوبهم هذا الوقع الكبير، وأما الحَسَن فلم يكن أعمالاً تطوعية استثنائية، وإنما أعمالاً حسنة عادية ارتقت بالنية الحسنة، وعظمت حتى صارت في مرتبة (الأحسن والأميز).

تتألف هذه الآية من مقطعين: ففي هذه الآية وعدٌ للمتقين بأن الله سيُكفر عنهم أسوأ ما عملوه، وأنه سيجزيهم أحسن ما كانوا يعملون.

وهذه المسألة هي مسألة تعظيم للأجر بطريقة مركبة؛ باجتماع – حالة AND – للتعظيم والتصغير معاً من طرفين. كما يظهر الشكل التالي:

وعادة لا تجمع حالتا التعظيم والتصغير في البرمجة الخطية Linear Programming؛ إلا بحالة التقاطع بينهما؛ أي (حالة OR)؛ حيث:

$$MIN(\dots)\ .OR.\ MAX(\dots) \Rightarrow .True.$$

وقد برز مؤخراً الجمع بين الحالتين بطريقة الاجتماع (حالة AND) لحل مسائل المحافظ الاستثمارية، وتسمى هذه الطريقة بالطريقة التوفيقية لأنها

تقدم حلاً واقعياً بشكل أمثلي؛ بهدف تحقيق أفضل المصالح كما ذكرنا آنفاً؛ كالسعي لتعظيم ربحية المحفظة الاستثمارية وخفض تكاليف مخاطرها بنفس الوقت. وتكون صيغتها بجمع حالة التعظيم مع نفي حالة التصغير وصولاً لحل المسألة:

$$.NOT.\ MIN(...)\ .AND.\ MAX(...) \Rightarrow MAX(...)$$

وتتلخص مراحلها بالآتي:

- **الطرف الأول**: حذف الأسوأ بوصفه سالباً من الأسفل.
- **الطرف الثاني**: تعظيم الأحسن بوصفه موجباً من الأعلى.
- **النتيجة**: تعظيم الأجر بوصفها مسألة ربح، وهي انزياح نحو الأعلى.

أما الآية الكريمة فقد جمعت أنموذجاً جديداً من البرمجة الخطية، عكست تفضيلاً مؤداه حالة تعظيم مطلق، يمكن تمثيله كمسألة على الشكل الآتي:

$$MIN(...)\ .AND.\ MAX(...) \Rightarrow MAX(...)$$

فحالتا التعظيم والتصغير يجمعهما حالة اجتماع؛ أي (حالة AND)، وهذه الحالة مؤداها حالة تعظيم لأنها صَغَّرت الجزء السالب وعَظَّمت الجزء الموجب.

ولبيان فضل الله تعالى، فإن المسألة ليست مسألة تعظيم وحسب بل فيها المزيد، فبالعودة إلى ما ذكره ابن عاشور في تفسيره:

- وإذا كَفَّر عنهم أسوأَ الذي عملوا كفَّر عنهم ما دونه من سيِّء أعمالهم بدلالة الفَحوى، فأفاد أنه يكفر عنهم جميع ما عمِلوا من سيئات.
- وإذا كان الجزاء على العمل الأحسن؛ فدل على أنهم يُجازَون على ما هو دون الأحسن من محاسن أعمالهم.

فإن التعظيم ليس بأخذ أكبر قيمة، كما أن التصغير ليس بحذف أكبر خسارة وحسب؛ بل إن كرم الله تعالى أنه عاملهم بالفضل، ولم يعاملهم بالعدل؛ حسبما ذكره الطنطاوي في تفسيره. وعليه فكل الجزء السالب (أي السيئات) صار موجباً (أي حسنات)؛ ثم أضيف للحسنات الموجودة، وأَخذ الكل حُكم أحسنها وأعظمها.

وهذا منهج في الشريعة الإسلامية، للأدلة التالية:

- قوله تعالى في سورة هود: وَأَقِمِ الصَّلَاةَ طَرَفَيِ النَّهَارِ وَزُلَفًا مِّنَ اللَّيْلِ ۚ إِنَّ الْحَسَنَاتِ يُذْهِبْنَ السَّيِّئَاتِ ۚ ذَٰلِكَ ذِكْرَىٰ لِلذَّاكِرِينَ ﴿١١٤﴾.
- قوله تعالى في سورة الفرقان: إِلَّا مَن تَابَ وَآمَنَ وَعَمِلَ عَمَلاً صَالِحًا فَأُولَـٰئِكَ يُبَدِّلُ اللَّهُ سَيِّئَاتِهِمْ حَسَنَاتٍ ۗ وَكَانَ اللَّهُ غَفُورًا رَّحِيمًا ﴿٧٠﴾.

– قول رسول الهدى صلى الله عليه وسلم: اتَّقِ اللَّهَ حيثما كنتَ وأتبِعِ السَّيِّئةَ الحسنةَ تمْحُها وخالِقِ النَّاسَ بخُلقٍ حَسنٍ[1].

وعليه؛ يمكن تصوير عائد الأجر حسب هذا المفهوم بشكل بياني باختفاء الجزء السالب تماماً؛ ليقع التابع ضمن المجال الموجب فقط، وهو مجال الحسنات دون السيئات مع اعتبار أحسنها، وذلك على النحو المبين في الرسم التالي:

فتعالى الله جباراً قديراً، الذي وهب عباده الأحسن ولم يحاسبهم على عملهم؛ بل جازاهم بأحسنه إن شاء ذلك[2].

[1] الترغيب والترهيب، حديث صحيح.
[2] للمزيد يراجع كتابنا فقه المعاملات الرياضي، نموذج التفضيل الرياضي في كتاب الله تعالى.

فَإِذَا مَسَّ الْإِنسَانَ ضُرٌّ دَعَانَا ثُمَّ إِذَا خَوَّلْنَاهُ نِعْمَةً مِّنَّا قَالَ إِنَّمَا أُوتِيتُهُ عَلَىٰ عِلْمٍ ۚ بَلْ هِيَ فِتْنَةٌ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لَا يَعْلَمُونَ ﴿٤٩﴾ قَدْ قَالَهَا الَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ فَمَا أَغْنَىٰ عَنْهُم مَّا كَانُوا يَكْسِبُونَ ﴿٥٠﴾

يدعي الإِنسان الظلوم أنه أُعطي النعم بقدراته واجتهاده في الأخذ بالأسباب التي توصل إلى الغنى والجاه. وهذا ما قاله من سبقه، وحقيقة الأمر أن ذلك من الله تعالى ويجب ردّ الفضل إليه وشكره على نعمائه، فهذه فتنة يجب ألا يقع فيها الإِنسان؛ حيث لم يُسعف من سبقه ما كسبه عندما ردّ الفضل لنفسه ولجهده من دون المولى عزّ وجلّ. وقد مرّ عدة أمثلة؛ منها ما ذُكر عن قارون.

ذكر الطنطاوي: قد قال هذه الكلمة الدالة على الجحود والغرور، بعض الأقوام الذين سبقوا قومك. والذين يشبهونهم في البطر والكنود، فكانت نتيجة ذلك أن أخذهم الله تعالى أخذ عزيز مقتدر، ولم ينفعهم شيئاً مما جمعوه من حطام الدنيا، وما اكتسبوه من متاعها.

أَوَلَمْ يَعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ يَبْسُطُ الرِّزْقَ لِمَن يَشَاءُ وَيَقْدِرُ ۚ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَاتٍ لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ ﴿٥٢﴾

أفلا يعلم هذا الإِنسان بأن الله هو من يبسط الرزق للناس ويُوسِع على من يشاء ويقدر على من يشاء، وما ذلك إلا آيات لمن يؤمن بالله تعالى.

ذكر السعدي: ولما ذكر أنهم اغتروا بالمال، وزعموا – بجهلهم – أنه يدل على حسن حال صاحبه، أخبرهم تعالى، أن رزقه، لا يدل على ذلك، وأنه ﴿ يَبْسُطُ الرِّزْقَ لِمَنْ يَشَاءُ ﴾ من عباده؛ سواء أكان صالحاً أم طالحاً ﴿ وَيَقْدِرُ ﴾ الرزق؛ أي: يضيّقه على من يشاء، صالحاً أو طالحاً، فرزقه مشترك بين البرية، والإيمان والعمل الصالح يخص به خير البرية. ﴿إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ ﴾؛ أي: بسط الرزق وقبضه، لعلمهم أن مرجع ذلك، عائد إلى الحكمة والرحمة، وأنه أعلم بحال عبيده، فقد يضيّق عليهم الرزق لطفاً بهم، لأنه لو بسطه لبغوا في الأرض، فيكون تعالى مراعياً في ذلك صلاح دينهم الذي هو مادة سعادتهم وفلاحهم.

تفسير سورة غافر

رقم السورة: ٤٠ وهي مكية وعدد آياتها: ٨٥.

ذكر الطنطاوي: المتدبر في سورة «غافر» يراها قد أقامت أنصع الأدلة وأقواها على وحدانية الله تعالى وقدرته، كما يراها قد ساقت ألواناً من التسلية للرسول صلّى الله عليه وسلم عما لحقه من قومه، تارة عن طريق قصص الأنبياء السابقين مع أقوامهم، وتارة عن طريق التصريح بأن العاقبة ستكون له ولأتباعه.

كما يراها قد فصّلت الحديث عن تكريم الله تعالى لعباده المؤمنين، تارة عن طريق استغفار الملائكة لهم، وتضرعهم إلى خالقهم أن يبعد الذين آمنوا عن عذاب الجحيم. وتارة عن طريق وعدهم بإجابة دعائهم. كما يرها قد اهتمت بالحديث عن مصارع الغابرين، بأسلوب يغرس الخوف في القلوب، ويبعث على التأمل والتدبر.

كما يراها قبل كل ذلك وبعد كل ذلك لها أسلوبها البليغ المؤثر في إحقاق الحق وإبطال الباطل، وفي تثبيت المؤمن وزلزلة الكافر، وفي تعليم الدعاة كيف يخاطبون غيرهم بأسلوب مؤثر حكيم، نراه متمثلا في تلك

النصائح الغالية التي وجهها مؤمن آل فرعون إلى قومه، والتي حكاها القرآن.

مَا يُجَادِلُ فِي آيَاتِ اللَّهِ إِلَّا الَّذِينَ كَفَرُوا فَلَا يَغْرُرْكَ تَقَلُّبُهُمْ فِي الْبِلَادِ ﴿٤﴾

ظهور بعض الناس أو بعض الأمم ممن يجادل في آيات الله ليس عبرة بأنهم الأفضل أو الأحسن، فلا يصح النظر إليهم على أنهم أمثولة؛ فلا يُغترّ بهم لحسن حالهم؛ فالدنيا ليست الفيصل في ذلك، والله تعالى يعطي الدنيا للجميع، وما ذلك إلا من باب الفتنة لمن أعطاه، أو لمن يرقبه.

ذكر الطبري: يقول تعالى ذكره: ما يخاصم في حجج الله وأدلته على وحدانيته بالإنكار لها، إلا الذين جحدوا توحيده.

وقوله: ﴿فَلا يَغْرُرْكَ تَقَلُّبُهُمْ فِي الْبِلادِ﴾ يقول جلّ ثناؤه: فلا يخدعك يا محمد تصرفهم في البلاد وبقاؤهم ومكثهم فيها، مع كفرهم بربهم، فتحسب أنهم إنما أُمهلوا وتقلبوا، فتصرّفوا في البلاد مع كفرهم بالله، ولم يُعاجَلوا بالنقمة والعذاب على كفرهم لأنهم على شيء من الحق فإنّا لم نمهلهم لذلك، ولكن ليبلغ الكتاب أجله، ولتحقّ عليهم كلمة العذاب، عذاب ربك.

كما حدثنا بشر، قال: ثنا يزيد، قال: ثنا سعيد، عن قتادة ﴿فَلا يَغْرُرْكَ تَقَلُّبُهُمْ فِي الْبِلادِ﴾ أسفارهم فيها، ومجيئهم وذهابهم.

هُوَ الَّذِي يُرِيكُمْ آيَاتِهِ وَيُنَزِّلُ لَكُم مِّنَ السَّمَاءِ رِزْقاً وَمَا يَتَذَكَّرُ إِلَّا مَن يُنِيبُ ﴿١٣﴾

الله هو القادر على أن ينزل من السماء المطر الذي به يُرزق الناس ويعيشون هم وأنعامهم.

ذكر الطبري: يقول تعالى ذكره: الذي يريكم أيها الناس حججه وأدلته على وحدانيته وربوبيته ﴿وَيُنزلُ لَكُمْ مِنَ السَّمَاءِ رِزْقًا﴾، يقول يُنزل لكم من أرزاقكم من السماء بإدرار الغيث الذي يخرج به أقواتكم من الأرض، وغذاء أنعامكم عليكم.

ذكر الطنطاوي: أطلق سبحانه على المطر رزقاً؛ لأنه سبب فيه.

أَوَلَمْ يَسِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَيَنظُرُوا كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الَّذِينَ كَانُوا مِن قَبْلِهِمْ كَانُوا هُمْ أَشَدَّ مِنْهُمْ قُوَّةً وَآثَاراً فِي الْأَرْضِ فَأَخَذَهُمُ اللَّهُ بِذُنُوبِهِمْ وَمَا كَانَ لَهُم مِّنَ اللَّهِ مِن وَاقٍ ﴿٢١﴾

إن من الأمم التي أُهلكت عبر العصور؛ فيها من هم أشدُّ قوة مادياً ومعنوياً ممن جاء بعدهم وتركوا آثاراً تدل على ذلك. لقد أخذهم الله بذنوبهم ولم تقيهم شدتهم ولا آثارهم من عذاب الله.

اللَّهُ الَّذِي جَعَلَ لَكُمُ الْأَرْضَ قَرَارًا وَالسَّمَاءَ بِنَاءً وَصَوَّرَكُمْ فَأَحْسَنَ صُوَرَكُمْ وَرَزَقَكُم مِّنَ الطَّيِّبَاتِ ۚ ذَٰلِكُمُ اللَّهُ رَبُّكُمْ ۖ فَتَبَارَكَ اللَّهُ رَبُّ الْعَالَمِينَ ﴿٦٤﴾

جعل الله الأرض للاستقرار مجهزة لسكنى الناس، وجعل السماء غطاء وبناء لها. وقد أحسن الله تعالى صور الناس، ورزقهم من الطيبات التي يتلذذون بها؛ أفلا يكونوا له شاكرين؟

فتبارك الله رب العالمين الذي جهز لخلقه اقتصادهم وبيئته الحاضنة تجهيزاً كاملاً لا يغيره إلا فسادهم فيه.

اللَّهُ الَّذِي جَعَلَ لَكُمُ الْأَنْعَامَ لِتَرْكَبُوا مِنْهَا وَمِنْهَا تَأْكُلُونَ ﴿٧٩﴾

سخّر الله الأنعام للناس ليركبوها ويستفيدون من لحمها طعاماً ومن جلدها ووبرها وصوفها أثاثاً ولباساً.

وَلَكُمْ فِيهَا مَنَافِعُ وَلِتَبْلُغُوا عَلَيْهَا حَاجَةً فِي صُدُورِكُمْ وَعَلَيْهَا وَعَلَى الْفُلْكِ تُحْمَلُونَ ﴿٨٠﴾

وجعل فيها منافع كثيرة لهم من ذلك: يقضوا عليها حاجاتهم، ووسائل نقلهم؛ كما هو حال السفن التي تنقلهم وتنقل بضائعهم وحاجاتهم وأموالهم من مكان لآخر بتعب وجهد أقل مما لو لم تكن موجودة.

تفسير سورة فصلت

رقم السورة: ٤١ وهي مكية وعدد آياتها: ٥٤.

ذكر الطنطاوي: السورة اهتمت بإقامة الأدلة على وحدانية الله تعالى وقدرته، وبأن هذا القرآن من عند الله تعالى، وبأن الرسول صلّى الله عليه وسلم صادق فيما يبلغه عن ربه، وبأن يوم القيامة حق لا ريب فيه.

كما اهتمت بالحديث عن مصارع الغابرين الذين استحبوا العمى على الهدى وببيان أحوالهم يوم القيامة؛ وببشارة الذين آمنوا وعملوا الصالحات، وأحسنوا القول والدعوة إلى الله بأحسن البشارات وأفضلها.

﴿الَّذِينَ لَا يُؤْتُونَ الزَّكَاةَ وَهُم بِالْآخِرَةِ هُمْ كَافِرُونَ ۝٧﴾

وصفٌ للكافرين الذين لا يُؤتون الزكاة – أو الصدقات عموماً – ولا يُخرجونها لمستحقيها ولا يطهرون أنفسهم بأدائها، وهم بالآخرة وما فيها كافرون.

ذكر ابن كثير: الذين لا يؤتون الزكاة، قال ابن عباس: الذين لا يشهدون "أن لا إله إلا الله" وهي زكاة الأنفس، وقال قتادة: لا يُقرون بالزكاة أنها واجبة، وقال الضحاك ومقاتل: لا يتصدقون ولا ينفقون في الطاعة. قرعهم بالشح الذي يأنف منه الفضلاء، وفيه دلالة على أن الكافر يُعذب

بكفره مع منع وجوب الزكاة عليه. وقال الفراء وغيره: كان المشركون ينفقون النفقات، ويسقون الحجيج ويطعمونهم؛ فحرّموا ذلك على من آمن بمحمد صلى الله عليه وسلم؛ فنزلت فيهم هذه الآية.

ذكر الطنطاوي: قد استدل بعض علماء الأصول بهذه الآية الكريمة على أن الكفار مخاطبون بفروع الشريعة، لأنه تعالى صرّح فى هذه الآية الكريمة؛ بأنهم مشركون، وأنهم كافرون بالآخرة، وقد توعدهم سبحانه بالويل على كفرهم بالآخرة، وعدم إيتائهم الزكاة، سواء أقلنا إن الزكاة في الآية هى الزكاة المال المعروفة أو زكاة الأبدان عن طريق فعل الطاعات، واجتناب المعاصي.

قُلْ أَئِنَّكُمْ لَتَكْفُرُونَ بِالَّذِي خَلَقَ الْأَرْضَ فِي يَوْمَيْنِ وَتَجْعَلُونَ لَهُ أَندَادًا ذَٰلِكَ رَبُّ الْعَالَمِينَ (٩) وَجَعَلَ فِيهَا رَوَاسِيَ مِن فَوْقِهَا وَبَارَكَ فِيهَا وَقَدَّرَ فِيهَا أَقْوَاتَهَا فِي أَرْبَعَةِ أَيَّامٍ سَوَاءً لِّلسَّائِلِينَ (١٠)

تُخاطب الآية الكريمة الكافرين المنكرين بمن خلق الأرض في يومين وجعلوا له شركاء.

فلماذا تخبرنا هذه الآية بأنه تعالى قد خلق الأرض في يومين؟ وقد ذُكر في غير آية أنه يقول للشيء كن فيكون! ذلك إنما ليُعلّم الله الناس التأني وإدارة أمورهم بعناية؛ وهذا تخطيط إداري شملته عبارة التقدير.

وقد جعل الله تعالى الجبال الرواسي فوقها قشرتها، وبارك فيها.

ثم قدّر تعالى في الأرض أقواتها في أربعة أيام سواء للسائلين، والسواء تتضمن حاجاتهم حسب تقديره وحكمته، ويشمل ذلك كفايتهم.

بذلك يكون التقدير بمعنى الموازنة، التي تُعدُّ تقديرياً قبل بدء التنفيذ وهي الأسلوب العلمي والعملي لإدارة الأعمال؛ وقد قدّر الله حاجات البشر ممن سيكونون على الأرض من بداية الخلق حتى قيام الساعة، ليستطيعوا العيش دون نقص إلا من فساد يُفسدونه. وهذا شأن الربوبية، فهو تعالى خلق الخلق وأمّن لهم سبل العيش بحكمة بالغة.

ذكر القرطبي: معنى قدَّر فيها أقواتها؛ أي: أرزاق أهلها وما يصلح لمعايشهم من التجارات والأشجار والمنافع في كل بلدة ما لم يجعله في الأخرى ليعيش بعضهم من بعض بالتجارة والأسفار من بلد إلى بلد.

ذكر ابن كثير: هذا المكان فيه تفصيل لقوله تعالى: ﴿خلق السموات والأرض في ستة أيام﴾ الأعراف: ٥٤؛ ففصّل هاهنا ما يختص بالأرض مما اختص بالسماء، فذكر أنه خلق الأرض أولاً؛ لأنها كالأساس، والأصل أن

يبدأ بالأساس، ثم بعده بالسقف، كما قال: ﴿هو الذي خلق لكم ما في الأرض جميعاً ثم استوى إلى السماء فسواهن سبع سموات﴾ البقرة: ٢٩.

ذكر الطنطاوي: قال سعيد بن جبير رضي الله عنه: إن الله تعالى قادر على أن يخلق هذا الكون كله فى لحظة، ولكنه خلق السموات والأرض في ستة أيام، ليُعلّم خلقه التثبت والتأني فى الأمور.

وذكر أيضاً: ما رواه عبد الله بن عباس رضي الله عنهما: أنَّ اليهودَ أتت النَّبيَّ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم فسألته عن خلقِ السَّماواتِ والأرضِ؛ فقال: خلق اللهُ الأرضَ يومَ الأحدِ والإثنين، وخلق الجبالَ يومَ الثُّلاثاءِ وما فيهنَّ من منافعَ، وخلق يومَ الأربعاءِ الشَّجرَ والماءَ والمدائنَ والعمرانَ والخرابَ، فهذه أربعةٌ، ثمَّ قال: قُلْ أَئِنَّكُمْ لَتَكْفُرُونَ بِالَّذِي خَلَقَ الْأَرْضَ فِي يَوْمَيْنِ وَتَجْعَلُونَ لَهُ أَنْدَادًا ذَلِكَ رَبُّ الْعَالَمِينَ ﴿ ٩ ﴾ وَجَعَلَ فِيهَا رَوَاسِيَ مِنْ فَوْقِهَا وَبَارَكَ فِيهَا وَقَدَّرَ فِيهَا أَقْوَاتَهَا فِي أَرْبَعَةِ أَيَّامٍ سَوَاءً لِلسَّائِلِينَ ﴿ ١٠ ﴾؛ وذلك لمن سأل. قال: وخلق يومَ الخميسِ السَّماءَ، وخلق يومَ الجمعةِ النُّجومَ والشَّمسَ والقمرَ والملائكةَ، إلى ثلاثِ ساعاتٍ بقيت منه، فخلق في أوَّلِ ساعةٍ من هذه الثَّلاثِ السَّاعاتِ الآجالَ من يحيا ومن يموتُ، وفي الثَّانيةِ ألقَى الآفةَ على كلِّ شيءٍ ممَّا ينتفعُ به النَّاسُ، وفي الثَّالثةِ آدمَ

وأسكنه الجنَّةَ، وأمر إبليسَ بالسُّجودِ له وأخرجه منها في آخرِ ساعةٍ، ثمَّ قالت اليهودُ: ثمَّ ماذا يا محمَّدُ؟ قال: ثمَّ استوَى على العرشِ، قالوا: قد أصبتَ لو أتممتَ، قالوا: ثمَّ استراح، فغضِب النَّبيُّ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم غضبًا شديداً، فنزل: وَلَقَدْ خَلَقْنَا السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا فِي سِتَّةِ أَيَّامٍ وَمَا مَسَّنَا مِنْ لُغُوبٍ ﴿٣٨﴾ فَاصْبِرْ عَلَى مَا يَقُولُونَ.

فَقَضَاهُنَّ سَبْعَ سَمَاوَاتٍ فِي يَوْمَيْنِ وَأَوْحَى فِي كُلِّ سَمَاءٍ أَمْرَهَا وَزَيَّنَّا السَّمَاءَ الدُّنْيَا بِمَصَابِيحَ وَحِفْظًا ذَلِكَ تَقْدِيرُ الْعَزِيزِ الْعَلِيمِ ﴿١٢﴾

كما خلق السماوات السبع في يومين وأوحى في كل سماء أمرها وزيّن السماء الدنيا بنجوم؛ كالمصابيح التي تنير الأرض ويستدل الناس بها، وتُزيّنها، وجعل هذه السماء الدنيا حافظة للأرض ولجوّها وما فيها، وذلك كله من تقدير العزيز العليم.

فَأَمَّا عَادٌ فَاسْتَكْبَرُوا فِي الْأَرْضِ بِغَيْرِ الْحَقِّ وَقَالُوا مَنْ أَشَدُّ مِنَّا قُوَّةً أَوَلَمْ يَرَوْا أَنَّ اللَّهَ الَّذِي خَلَقَهُمْ هُوَ أَشَدُّ مِنْهُمْ قُوَّةً وَكَانُوا بِآيَاتِنَا يَجْحَدُونَ ﴿١٥﴾ فَأَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ رِيحًا صَرْصَرًا فِي أَيَّامٍ نَّحِسَاتٍ

لِّنُذِيقَهُمْ عَذَابَ الْخِزْيِ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا ۖ وَلَعَذَابُ الْآخِرَةِ أَخْزَىٰ ۖ وَهُمْ لَا يُنصَرُونَ (١٦)

ها هم قوم عاد الذين اعتزوا بقوتهم وشدتها، استكبروا ناسين أن الذي خلقهم هو الذي أمدهم بالقوة؛ فجحدوا آيات الله؛ فكان مصيرهم العذاب بالريح القوية الشديدة ذات الصوت المرعب.

وهكذا عاقبهم الله بأحد جنوده الأشداء.

ذكر ابن كثير: فبارزوا الجبار بالعداوة، وجحدوا بآياته وعصوا رسوله، فلهذا قال: ﴿ فأرسلنا عليهم ريحا صرصرا ﴾ قال بعضهم: وهي الشديدة الهبوب. وقيل: الباردة. وقيل: هي التي لها صوت.

والحق أنها متصفة بجميع ذلك، فإنها كانت ريحاً شديدة قوية؛ لتكون عقوبتهم من جنس ما اغتروا به من قواهم.

وَأَمَّا ثَمُودُ فَهَدَيْنَاهُمْ فَاسْتَحَبُّوا الْعَمَىٰ عَلَى الْهُدَىٰ فَأَخَذَتْهُمْ صَاعِقَةُ الْعَذَابِ الْهُونِ بِمَا كَانُوا يَكْسِبُونَ (١٧)

أما ثمود فأخذتهم صاعقة العذاب بما كانوا يكسبون؛ فقد استحبوا الضلال والعمى.

﴿فَلَنُذِيقَنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا عَذَابًا شَدِيدًا وَلَنَجْزِيَنَّهُمْ أَسْوَأَ الَّذِي كَانُوا يَعْمَلُونَ ﴿٢٧﴾﴾

تمثل هذه الآية الكريم حالة تعظيم للأسوأ، يمكن تمثيلها كمعادلة والتي سيُجزاها الكفار نتيجة فِعالهم؛ كالتالي[١]:

[الجزاء الأسوأ] = [عمل سيء١، عمل سيء٢، عمل سيء ن] MIN

ذكر ابن عاشور: وأسوأ: اسم تفضيل مسلوب المفاضلة، وإنما أريد به السّيء، فصِيغ بصيغة التفضيل للمبالغة في سوئه. وإضافتُه إلى ﴿الذي كانُوا يعمَلُونَ﴾ من إضافة البعض إلى الكل وليس من إضافة اسم التفضيل إلى المفضل عليه.

﴿وَمِنْ آيَاتِهِ أَنَّكَ تَرَى الْأَرْضَ خَاشِعَةً فَإِذَا أَنْزَلْنَا عَلَيْهَا الْمَاءَ اهْتَزَّتْ وَرَبَتْ ۚ إِنَّ الَّذِي أَحْيَاهَا لَمُحْيِي الْمَوْتَىٰ ۚ إِنَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ ﴿٣٩﴾﴾

إن من آيات الله كون الأرض لا نبات فيها، فإذا أنزل الله عليها الماء تجدها تتحرك بنبات ينمو منها.

[١] للمزيد يراجع كتابنا فقه المعاملات الرياضي، نموذج التفضيل في كتاب الله تعالى.

إن مُحيي هذه الأرض الميتة الذي بث فيها الحياة هو رب العالمين الذي سيُحيي الموتى، وهو على كل شيء قدير.

ذكر الطنطاوي: وخاشِعَةً؛ أي، يابسة جدبة، خشعت الأرض، إذا أجدبت لعدم نزول المطر عليها، وقوله: ﴿اهْتَزَّتْ﴾؛ أي: تحركت بالنبات قبل بروزه منها وبعد ظهوره على سطحها، ﴿ورَبَتْ﴾؛ أي: انتفخت وعلت، لأن النبات إذا قارب الظهور ترى الأرض، ارتفعت له، ثم تشققت عنه. يُقال: ربا الشيء إذا زاد وعلا وارتفع، ومنه الربوة للمكان المرتفع من الأرض.

تفسير سورة الشورى

رقم السورة: ٤٢ وهي مكية وعدد آياتها: ٥٣.

ذكر الطنطاوي: السورة زاخرة بالحديث عن الأدلة على وحدانية الله تعالى وقدرته، وعلى صدق الرسول صلّى الله عليه وسلّم فيما يبلغه عن ربه، وعلى أن هذا القرآن من عند الله تعالى.

كما نراها زاخرة أيضاً بالحديث عن نعم الله على عباده، وعن حسن عاقبة المؤمنين، وسوء عاقبة المكذبين وعن مشاهد يوم القيامة وما فيه من أهوال.

وعن شبهات المشركين والرد عليها بما يدحضها.

فَاطِرُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ جَعَلَ لَكُم مِّنْ أَنفُسِكُمْ أَزْوَاجًا وَمِنَ الْأَنْعَامِ أَزْوَاجًا يَذْرَؤُكُمْ فِيهِ لَيْسَ كَمِثْلِهِ شَيْءٌ وَهُوَ السَّمِيعُ الْبَصِيرُ ﴿١١﴾

الله خالق السماوات والأرض، جاعل الناس والأنعام أزواجاً؛ مما يعني توالدها بالتزاوج فيضمن تناسلها وتكاثرها واستمرارها.

وعليه فإن الناس وهي الأصول البشرية تنمو بطريقة التزاوج حسب سنن الله تعالى، كما أن الأصول المادية من الأنعام تتناسل وتتكاثر بالتزاوج أيضاً.

والتزاوج هي الطريقة التي شرعها الله للناس، وجعل غيرها محرماً كالزنى؛ كقوله تعالى: وَلاَ تَقْرَبُوا الزِّنَا إِنَّهُ كَانَ فَاحِشَةً وَسَاءَ سَبِيلاً ﴿ ٣٢ ﴾ الإسراء، كما حرّم إتيان الذكران؛ كقوله تعالى على لسان لوط عليه السلام مخاطباً قومه: أَتَأْتُونَ الذُّكْرَانَ مِنَ الْعَالَمِينَ ﴿ ١٦٥ ﴾ الشعراء. إن التكاثر من خلال سنة الزواج مؤداه قيام الأسرة، وهي الخلية الأولى في بناء المجتمعات، وبالتالي إيجاد الموارد البشرية المتآلفة المتحابة، قال الله تعالى: وَاللَّهُ جَعَلَ لَكُم مِّنْ أَنفُسِكُمْ أَزْوَاجًا وَجَعَلَ لَكُم مِّنْ أَزْوَاجِكُم بَنِينَ وَحَفَدَةً وَرَزَقَكُم مِّنَ الطَّيِّبَاتِ أَفَبِالْبَاطِلِ يُؤْمِنُونَ وَبِنِعْمَتِ اللَّهِ هُمْ يَكْفُرُونَ ﴿ ٧٢ ﴾ النحل.

وقد ذكرت غير آية طرق إخراج النبات والشجر وما ينجم عنها من ثمرات ومنافع، وهذا كله من الأصول المادية التي يتملكها ويسيطر عليها الإنسان.

ذكر ابن عاشور: الذرءُ: بث الخلق وتكثيره؛ ففيه معنى توالي الطبقات على مرّ الزمان إذ لا منفعة للنّاس من أزواج الأنعام باعتبارها أزواجاً سوى ما يحصل من نسلها.

وذكر أيضاً: اعلم أن هذه الآية نفت أن يكون شيء من الموجودات مَثَلاً لله تعالى. والمَثَل يُحمل عند إطلاقه على أكمل أفراده، قال فخر الدّين:

المثلان: هما اللذان يقوم كل واحد منهما مقام الآخر في حقيقته وماهيته؛ فلا يسمّى مَثَلاً حقاً إلا المماثل في الحقيقة والماهية وأجزائها ولوازمها دون العوارض، فالآية نفت أن يكون شيء من الموجودات مماثلاً لله تعالى في صفات ذاته؛ لأن ذات الله تعالى لا يماثلها ذواتُ المخلوقات، ويلزم من ذلك أن كل ما ثبت للمخلوقات في محسوس ذواتها فهو منتفٍ عن ذات الله تعالى. وبذلك كانت هذه الآية أصلاً في تنزيه الله تعالى عن الجوارح والحواسّ والأعضاء عند أهل التأويل والذين أثبتوا لله تعالى ما ورد في القرآن مما نسميه بالمتشابه فإنما أثبتوه مع التنزيه عن ظاهره إذ لا خلاف في إعمال قوله: ﴿ليس كمثله شيء﴾ وأنه لا شبيه له ولا نظير له.

ذكر الطنطاوي: ﴿فاطِرُ السَّماواتِ وَالأَرْضِ﴾؛ أي هو خالقهما وموجدهما على غير مثال سابق، من فطر الشيء إذا ابتدعه واخترعه دون أن يسبق إلى ذلك.

لَهُۥ مَقَالِيدُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِۖ يَبۡسُطُ ٱلرِّزۡقَ لِمَن يَشَآءُ وَيَقۡدِرُۚ إِنَّهُۥ بِكُلِّ شَيۡءٍ عَلِيمٞ ﴿١٢﴾

لله مقاليد السماوات والأرض ومفاتيحها، وهذا تحكم مطلق كفيل بكون الله تعالى هو باسط الرزق لمن يشاء ومُقدره، وهذا من علمه الواسع لكل شيء.

ذكر الطبري: له مفاتيح خزائن السموات والأرض وبيده مغاليق الخير والشر ومفاتيحها، فما يفتح من رحمة فلا ممسك لها، وما يمسك فلا مرسل له من بعده.

ذكر القرطبي: الذي يملك المفاتيح يملك الخزائن، يُقال للمفتاح: إقليد، وجمعه على غير قياس.

ذكر السعدي: ﴿يَبْسُطُ الرِّزْقَ لِمَنْ يَشَاءُ﴾؛ أي: يوسعه ويعطيه من أصناف الرزق ما شاء، ﴿وَيَقْدِرُ﴾؛ أي: يُضيّق على من يشاء، حتى يكون بقدر حاجته، لا يزيد عنها، وكل هذا تابع لعلمه وحكمته، فلهذا قال: ﴿إِنَّهُ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ﴾؛ فيَعلم أحوال عباده؛ فيُعطي كلا ما يليق بحكمته وتقتضيه مشيئته.

ٱللَّهُ لَطِيفُۢ بِعِبَادِهِۦ يَرۡزُقُ مَن يَشَآءُۖ وَهُوَ ٱلۡقَوِيُّ ٱلۡعَزِيزُ ١٩

من لطف الله تعالى رزقه لعباده لمن يشاء منهم؛ فهو ذو القوة، وهو العزيز.

ذكر القرطبي: قال جعفر بن محمد بن علي بن الحسين: يلطف بهم في الرزق من وجهين: أحدهما: أنه جعل رزقك من الطيبات. والثاني: أنه لم يدفعه إليك مرة واحدة فتبذره.

ذكر ابن عاشور: والمشيئة: مشيئة تقدير الرّزق لكل أحد من العباد ليكون عموم اللطف للعباد باقياً، فلا يكون قوله: ﴿من يشاء﴾ في معنى التكرير، إذ يصير هكذا يرزق من يشاء من عباده الملطوفِ بجميعهم، وما الرزق إلا من اللطف، فيصيرُ بعضَ المعنى المفاد، فلا جرم تعينّ أن المشيئة هنا مصروفة لمشيئة تقدير الرزق بمقاديره.

وَلَوْ بَسَطَ ٱللَّهُ ٱلرِّزْقَ لِعِبَادِهِۦ لَبَغَوْا۟ فِى ٱلْأَرْضِ وَلَٰكِن يُنَزِّلُ بِقَدَرٍ مَّا يَشَآءُ ۚ إِنَّهُۥ بِعِبَادِهِۦ خَبِيرٌۢ بَصِيرٌ ﴿٢٧﴾

إن تقدير الله تعالى في توزيعه للرزق بين العباد فيه الخير لهم؛ فمن الناس من يبغي إن استغنى، ومنهم من لا يُصلحه إلا الغنى، وهذا من تقدير الخبير البصير بعباده.

ذكر ابن عاشور: الغيث سبب رزق عظيم، وهو ما ينزله الله بقدر، هوَ أعلم به، وفيه تذكير بهذه النعمة العظيمة على الناس التي منها معظم رزقهم الحقيقي لهم ولأنعامهم. وخصّها بالذكر دون غيرها من النعم

الدنيوية لأنها نعمة لا يختلف الناس فيها لأنها أصل دوام الحياة بإيجاد الغذاء الصالح للناس والدواب.

﴿وَهُوَ الَّذِي يُنَزِّلُ الْغَيْثَ مِن بَعْدِ مَا قَنَطُوا وَيَنشُرُ رَحْمَتَهُ ۚ وَهُوَ الْوَلِيُّ الْحَمِيدُ ﴿٢٨﴾﴾

إن تقدير الله تعالى في توزيعه لنزول المطر هو لخير عباده، وليس الأمر تبعاً لمن آيس من نزول المطر؛ لكن بتنزيل المطر تنتشر رحمة الله وينتشر الرزق بين الخلائق؛ لذلك هذا من ولي التدبير، وهو الحميد، وليس تبعاً لأهواء ومزاجات البشر كالآيسين مثلاً.

﴿وَمِنْ آيَاتِهِ خَلْقُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَمَا بَثَّ فِيهِمَا مِن دَابَّةٍ ۚ وَهُوَ عَلَىٰ جَمْعِهِمْ إِذَا يَشَاءُ قَدِيرٌ ﴿٢٩﴾﴾

ذكر القرطبي:

قيل: لو جعلناهم سواء في المال لما انقاد بعضهم لبعض، ولتعطلت الصنائع.

وقيل: أراد بالرزق المطر الذي هو سبب الرزق، أي: لو أدام المطر لتشاغلوا به عن الدعاء، فيقبض تارة ليتضرعوا ويبسط أخرى ليشكروا.

وقيل: كانوا إذا أخصبوا أغار بعضهم على بعض، فلا يبعد حمل البغي على هذا.

الزمخشري: لبغوا من البغي وهو الظلم؛ أي: لبغى هذا على ذاك وذاك على هذا؛ لأن الغنى مبطرة مأشرة، وكفى بقارون عبرة. ومنه قوله عليه السلام: أخوف ما أخاف على أمتي زهرة الدنيا وكثرتها.

وذكر أيضاً: قال علماؤنا: أفعال الرب سبحانه لا تخلو عن مصالح وإن لم يجب على الله الاستصلاح، فقد يعلم من حال عبد أنه لو بسط عليه قاده ذلك إلى الفساد فيزوي عنه الدنيا، مصلحة له؛ فليس ضيق الرزق هواناً ولا سعة الرزق فضيلة، وقد أعطى أقواماً مع علمه أنهم يستعملونه في الفساد، ولو فعل بهم خلاف ما فعل لكانوا أقرب إلى الصلاح. والأمر على الجملة مفوض إلى مشيئته، ولا يمكن التزام مذهب الاستصلاح في كل فعل من أفعال الله تعالى.

ذكر ابن عاشور: والدابة: ما يدُبّ على الأرض، أي يمشي فيشمل الطير لأن الطير يمشي إذا نزل وهو مما أريد في قوله هنا: ﴿فيهما﴾؛ أي في الأرض وفي السماء؛ أي بعض ما يُسمى بالسماء وهو الجو، وهو ما يلوح للناظر مثل قبة زرقاء على الأرض في النهار، قال تعالى: ﴿ألم يروا إلى الطير مسخرات في جوّ السماء﴾ النحل: ٧٩؛ فإطلاق الدابّة على الطير

باعتبار أن الطير يدبّ على الأرض كثيراً لالتقاط الحب وغيرِ ذلك. وأمّا الموجودات التي في السموات العُلى من الملائكة والأرواح فلا يطلق عليها اسم دابّة. ويجوز أن تكون في بعض السماوات موجودات تدبّ فيها؛ فإن الكواكب من السماوات. والعلماء يترددون في إثبات سكان في الكواكب، وجوّز بعض العلماء المتأخرين أن في كوكب المريخ سكاناً، وقال تعالى: ﴿ويخلق ما لا تعلمون﴾ النحل: ٨، على أنه قد يكون المراد من الظرفية في قوله: ﴿فيهما﴾ ظرفية المجموع لا الجميع، أي ما ﴿بَثَّ﴾ في مجموع الأرض والسماء من دابّة، فالدابّة إنما هي على الأرض، ولما ذُكرت الأرض والسماء مقترنتين، وجاء ذكر الدواب جُعلت الدواب مظروفة فيهما لأن الأرض محوطة بالسماوات ومتخيّلة منها كالمظروف في ظرفه، والمظروفُ في ظرف مظروف في ظرف مظروفه؛ كما قال تعالى: ﴿مرَج البحرين يلتقيان﴾ الرحمن: ١٩؛ ثم قال: ﴿يخرج منهما اللؤلؤ والمرجان﴾ الرحمن: ٢٢، واللؤلؤ والمرجان يخرجان من أحد البحرين وهو البحر الملح لا من البحر العذب.

وَمِنْ آيَاتِهِ الْجَوَارِ فِي الْبَحْرِ كَالْأَعْلَامِ ﴿٣٢﴾

إن من آيات الله جريان السفن في البحر بقوة الريح فترى أشرعتها مشرعة كالأعلام.

ذكر القرطبي: قوله تعالى: ومن آياته الجواري في البحر كالأعلام؛ أي ومن علاماته الدالة على قدرته السفن الجارية في البحر كأنها من عظمها أعلام. والأعلام: الجبال، وواحد الجواري جارية، قال الله تعالى: إنا لما طغى الماء حملناكم في الجارية. سميت جارية لأنها تجري في الماء. والجارية: هي المرأة الشابة، سميت بذلك لأنها يجري فيها ماء الشباب. وقال مجاهد: الأعلام القصور، وأحدها علم، ذكره الثعلبي. وذكر الماوردي عنه أنها الجبال. وقال الخليل: كل شيء مرتفع عند العرب فهو علم.

إِن يَشَأْ يُسْكِنِ الرِّيحَ فَيَظْلَلْنَ رَوَاكِدَ عَلَىٰ ظَهْرِهِۦٓ ۚ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَآيَٰتٍ لِّكُلِّ صَبَّارٍ شَكُورٍ ﴿٣٣﴾

إن من آيات الله الريح، فإن يشأ الله أسكنها ومنعها من الحركة، فتظل السفن راكدة في الماء في مكانها بلا حركة. وهذا يدلُّ على أنها مصدر طاقة عظيم.

ذكر الطنطاوي: قال صاحب الكشاف: ﴿يوبقهن﴾ يُهلكهن. والمعنى: أنه إن يشأ يبتلي المسافرين في البحر بإحدى بليّتين: إما أن يسكن الريح فيركد الجواري على ظهر البحر، ويمنعهن من الجري، وإما أن يرسل الريح عاصفة فيهلكن إغراقاً بسبب ما كسبوا من الذنوب ﴿وَيَعْفُ عَنْ كَثِيرٍ﴾ منها.

وَالَّذِينَ اسْتَجَابُوا لِرَبِّهِمْ وَأَقَامُوا الصَّلَاةَ وَأَمْرُهُمْ شُورَى بَيْنَهُمْ وَمِمَّا رَزَقْنَاهُمْ يُنفِقُونَ (٣٨)

إن عباد الله هم الذين يستجيبون لأوامر الله تعالى، ويقيمون الصلاة وهذه عبادة بدنية أمر الله بها، ويتشاورون في أمورهم، وهذه تفيدُ في حسن إدارة أمور الناس فيما بينهم وبما هو أفضل، وقد أمر الله بها في غير موضع أيضاً، وينفقون مما رزقهم الله تعالى وهذه عبادة مالية وبها تتحقق المصالح الاقتصادية بين الناس فتقوم الحياة بينهم بعيش رغيد.

تفسير سورة الزخرف

رقم السورة: ٤٣ وهي مكية وعدد آياتها: ٨٩.

ذكر الطنطاوي: السورة الكريمة تهتم اهتماماً واضحاً بالحديث عن العقبات التي وضعها المشركون في طريق الدعوة الإسلامية، وكيف أن الله تعالى قد أعطى نبيه صلّى الله عليه وسلّم السلاح الذي يهدم به هذه العقبات. كما اهتمت ببيان مظاهر قدرة الله تعالى ونعمه على خلقه، وببيان جانب من قصص بعض الأنبياء. كإبراهيم وموسى وعيسى عليهم السلام لتسليته صلّى الله عليه وسلّم عما لحقه من أذى المشركين، كما اهتمت بالمقارنة بين عاقبة الأخيار والأشرار، وبإقامة البراهين الساطعة على وحدانية الله عز وجل إلى غير ذلك من المقاصد التي لا مجال لتفصيل الحديث عنها في تلك المقدمة.

الَّذِي جَعَلَ لَكُمُ الْأَرْضَ مَهْداً وَجَعَلَ لَكُمْ فِيهَا سُبُلاً لَعَلَّكُمْ تَهْتَدُونَ ﴿١٠﴾

جعل الله الأرض ممهدة ليسهل عيش الإنسان عليها، وجعل فيها طرقاً يسلكها الإنسان ويسير عليها ليسهل انتقاله وتنقله.

ذكر الطبري: كي تهتدوا بتلك السبل إلى حيث أردتم من البلدان والقرى والأمصار، لولا ذلك لم تطيقوا براح أفنيتكم ودوركم، ولكنها نعمة أنعم بها عليكم.

وَالَّذِي نَزَّلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً بِقَدَرٍ فَأَنْشَرْنَا بِهِ بَلْدَةً مَيْتًا كَذَلِكَ تُخْرَجُونَ (١١)

أنزل الله الماء من السماء بالقدر الذي قدره بحكمته ليكون نافعاً، والتقدير بمعنى المضبوط اللازم فلا يكون مؤذياً وكل حسب حاجته حسب حكمته جلّ وعلا؛ فأحيا به الأرض الميتة، وهذا تشبيه لكيفية خروج الناس من قبورهم للحشر.

ذكر القرطبي: قال ابن عباس: لا كما أنزل على قوم نوح بغير قدر حتى أغرقهم، بل هو بقدر لا طوفان مغرق ولا قاصر عن الحاجة، حتى يكون معاشا لكم ولأنعامكم.

وَالَّذِي خَلَقَ الْأَزْوَاجَ كُلَّهَا وَجَعَلَ لَكُمْ مِنَ الْفُلْكِ وَالْأَنْعَامِ مَا تَرْكَبُونَ (١٢)

خلق الله الأزواج التي تتوالد بما تتناسله وتتكاثر به؛ فكانت الموارد البشرية والموارد المادية، وجعل للناس الأنعام كوسائل لنقلهم براً والسفن لنقلهم بحراً.

لِتَسْتَوُوا عَلَىٰ ظُهُورِهِۦ ثُمَّ تَذْكُرُوا نِعْمَةَ رَبِّكُمْ إِذَا اسْتَوَيْتُمْ عَلَيْهِ وَتَقُولُوا سُبْحَانَ الَّذِي سَخَّرَ لَنَا هَٰذَا وَمَا كُنَّا لَهُۥ مُقْرِنِينَ ﴿١٣﴾

وسخر ذلك للناس بتطويعها لهم ليركبوا ظهورها التي جعلها مستوية تصلح لذلك الاستخدام؛ ثم طلب منهم الدعاء بعد استوائهم عليه بالقول: ﴿سبحان الذي سخر لنا هذا وكنا له مقرنين﴾، كشكر له سبحانه وتعالى.

ذكر القرطبي: ما رواه أبو هريرة في الحديث الصحيح: بينَما رجلٌ راكبٌ بَقرةً، إذ قالَت: لم أُخلَق لِهَذا، إنَّما خُلِقتُ للحَرثِ، فقالَ رسولُ اللَّهِ صلَّى اللَّهُ عليهِ وسلَّمَ: آمنتُ بذلِكَ أنا وأبو بَكْرٍ وعمرُ قالَ أبو سلَمةَ: وما هُما في القومِ يومئذٍ.

ذكر ابن عاشور: التسخير: التذييل والتطويع. وتسخير الله الدواب هو خلقه إيّاها قابلة للترويض فاهمة لمراد الرّاكب، وتسخير الفلك حاصل بمجموع خلق البحر صالحاً لسبح السفن على مائه، وخلق الرياح تهبّ

فتدفع السفن على الماء، وخلق حيلة الإنسان لصنع الفلك، ورصد مهابّ الرياح، ووضع القلوع والمجاذيف، ولولا ذلك لكانت قوة الإنسان دون أن تبلغ استخدام هذه الأشياء القوية.

ذكر الطنطاوي: الاستواء: الاستعلاء على الشيء، والتمكن منه؛ أي: سخر لكم من السفن والأنعام ما تركبونه، ولتستعلوا على ظهوره استعلاء المالك على مملوكه.

أَهُمْ يَقْسِمُونَ رَحْمَتَ رَبِّكَ نَحْنُ قَسَمْنَا بَيْنَهُم مَّعِيشَتَهُمْ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَرَفَعْنَا بَعْضَهُمْ فَوْقَ بَعْضٍ دَرَجَاتٍ لِّيَتَّخِذَ بَعْضُهُم بَعْضاً سُخْرِيّاً وَرَحْمَتُ رَبِّكَ خَيْرٌ مِّمَّا يَجْمَعُونَ ﴿٣٢﴾

إذا كان رزق العباد ومعايشهم بيد الله تعالى؛ فكيف يظنون أنهم يتحكمون بآيات الله ورحمته؟

لقد جعل الله الناس بعضهم لبعض سخرياً، وهذا التمايز بالدرجات هو ابتلاء لهم. وتحتاج عمارة الكون هكذا تمايز في التفويض والصلاحيات الإدارية.

ذكر القرطبي: ورفعنا بعضهم فوق بعض درجات أي فاضلنا بينهم فمن فاضل ومفضول ورئيس ومرءوس، قاله مقاتل.

وقيل: بالحرية والرق، فبعضهم مالك وبعضهم مملوك.

وقيل: بالغنى والفقر، فبعضهم غني وبعضهم فقير،

وقيل: بالأمر بالمعروف والنهي عن المنكر.

ذكر ابن عاشور: يجوز أن يكون المعنى ليتعمل بعضهم بعضاً في شؤون حياتهم فإِن الإِنسان مدني، أي محتاج إلى إعانة بعضه بعضاً، وعليه فسّر الزمخشري وابن عطية وقاله السُّدي وقتادة والضحاك وابن زيد، فلام ﴿ليتخذ﴾ لام التعليل تعليلاً لفعل ﴿قسمنا﴾، أي قسمنا بينهم معيشتهم، أي أسبابَ معيشتهم ليستعين بعضهم ببعض فيتعارفوا ويتجمعوا لأجل حاجة بعضهم إلى بعض فتتكون من ذلك القبائل والمدن.

ذكر الطنطاوي: فعلنا ذلك ليستخدم بعضهم بعضا في حوائجهم، ويعاون بعضهم بعضاً في مصالحهم، وبذلك تنتظم الحياة، وينهض العمران. ويعم الخير بين الناس، ويصل كل واحد إلى مطلوبه على حسب ما قدر الله تعالى له من رزق واستعداد.

ولو أنا تركنا أمر تقسيم الأرزاق إليهم لتهارجوا وتقاتلوا، وعم الخراب في الأرض، لأن كل واحد منهم يريد أن يأخذ ما ليس من حقه، لأن الحرص والطمع من طبيعته.

فَلَوْلَا أُلْقِيَ عَلَيْهِ أَسْوِرَةٌ مِّن ذَهَبٍ أَوْ جَاءَ مَعَهُ الْمَلَائِكَةُ مُقْتَرِنِينَ ﴿٥٣﴾

فرعون كغيره من المتكبرين، يعتقدون أن الرسول يجب أن يكون له الكنوز والأموال وأن تمشي معه الملائكة، بينما النبي والرسول عبد من عباد الله هو رجل من الناس أوحى الله إليه كما جاء في غير آية.

ذكر القرطبي: قال مجاهد: كانوا إذا سوروا رجلاً سوروه بسوارين وطوقوه بطوق ذهب علامة لسيادته، فقال فرعون: هلا ألقى رب موسى عليه أساورة من ذهب إن كان صادقاً! أو جاء معه الملائكة مقترنين يعني متتابعين، في قول قتادة. مجاهد: يمشون معاً. ابن عباس: يعاونونه على من خالفه، والمعنى: هلا ضم إليه الملائكة التي يزعم أنها عند ربه حتى يتكثر بهم ويصرفهم على أمره ونهيه، فيكون ذلك أهيب في القلوب.

تفسير سورة الدخان

رقم السورة: ٤٤ وهي مكية وعدد آياتها: ٥٩.

ذكر الطنطاوي: السورة تثني على القرآن بألوان متعددة من الثناء، وتبشر المتقين ببشارات متنوعة، وتطوف بالنفس الإنسانية في عوالم شتى، لتهديها إلى الصراط المستقيم، ولترشدها إلى طريق الحق واليقين.

﴿كَمْ تَرَكُوا مِن جَنَّاتٍ وَعُيُونٍ ﴿٢٥﴾ وَزُرُوعٍ وَمَقَامٍ كَرِيمٍ ﴿٢٦﴾ وَنَعْمَةٍ كَانُوا فِيهَا فَاكِهِينَ ﴿٢٧﴾ كَذَٰلِكَ ۖ وَأَوْرَثْنَاهَا قَوْمًا آخَرِينَ ﴿٢٨﴾﴾

إن الكفار الذين أُخذوا بالعذاب، تركوا وراءهم الجنات والعيون والزروع والشجر والمتاع الدنيوي وكل مقام كريم بين قومهم، فما نفعهم ذلك.

وأورث الله كل هذه النعم قوماً آخرين، وهذه سنة من سنة الله تعالى في هذه الأرض.

تفسير سورة الجاثية

رقم السورة: ٤٥ وهي مكية وعدد آياتها: ٣٧.

ذكر الطنطاوي: المتدبر في هذه السورة الكريمة، يراها تدعو الناس إلى التفكر فيما اشتمل عليه هذا الكون من آيات دالة على وحدانية الله تعالى وكمال قدرته، كما أنه يراها تحكي بشيء من التفصيل أقوال المشركين وترد عليها، وتبين سوء عاقبتهم كما يراها تسوق ألواناً من نِعم الله على خلقه، وتدعو المؤمنين إلى التمسك بكتاب ربهم، وتبشرهم بأنهم متى فعلوا ذلك ظفروا برضوان الله تعالى وثوابه. فأما الذين آمنوا وعملوا الصالحات فيدخلهم ربهم في رحمته، ذلك هو الفوز المبين.

كما يراها تهتم بتفصيل الحديث عن أهوال يوم القيامة، لكي يفيء الناس إلى رشدهم، ويستعدوا لاستقبال هذا اليوم بالإيمان والعمل الصالح.

وَفِي خَلْقِكُمْ وَمَا يَبُثُّ مِن دَابَّةٍ آيَاتٌ لِّقَوْمٍ يُوقِنُونَ ﴿٤﴾

إن في خلق الإنسان وكل ما يدب على هذه الأرض وما فيها من منافع لآيات لقوم يوقنون.

ذكر ابن عاشور: عبر بالمضارع في ﴿يبث﴾ ليفيد تجدد البث وتكرره باعتبار اختلاف أجناس الدواب وأنواعها وأصنافها.

وَاخْتِلَافِ اللَّيْلِ وَالنَّهَارِ وَمَا أَنزَلَ اللَّهُ مِنَ السَّمَاءِ مِن رِّزْقٍ فَأَحْيَا بِهِ الْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا وَتَصْرِيفِ الرِّيَاحِ آيَاتٌ لِّقَوْمٍ يَعْقِلُونَ ﴿٥﴾

إن في اختلاف الليل والنهار وما أنزل الله من السماء من ماء جعله سبباً لأرزاقهم بعد إحياء الأرض الميتة بيباسها، وتصريف الرياح مصدر الطاقة للإنسان، آيات لقوم يعقلون، أي يفكرون بعقولهم ويتدبرون ما وراء ذلك من قدرة وحكمة بالغة.

اللَّهُ الَّذِي سَخَّرَ لَكُمُ الْبَحْرَ لِتَجْرِيَ الْفُلْكُ فِيهِ بِأَمْرِهِ وَلِتَبْتَغُوا مِن فَضْلِهِ وَلَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ ﴿١٢﴾

خلق الله البحر الذي فيه منافع كثيرة وجعل السفن تجري فيه بأمره، وفي ذلك مهنٌ كثيرةٌ وأعمالٌ شتى ينتفع بها الناس، ويبتغون من فضل الله تعالى، ويتوجب عليهم شكره وحمده.

وَسَخَّرَ لَكُم مَّا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ جَمِيعًا مِّنْهُ ۚ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَاتٍ لِّقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ ﴿١٣﴾

وسخر للناس ما في السماوات والأرض جميعاً، ومازال الناس يكتشفون الأشعة تحت الحمراء وفوق الحمراء والبنفسجية وما في الضوء من قدرات

وما في الهواء من آيات وما للنجوم من وظائف وكذلك القمر والشمس وغير ذلك كثير، كل ذلك مُسخر للإنسان، وذلك لا يكون إلا بسلطان العلم.

وَلَقَدْ آتَيْنَا بَنِي إِسْرَائِيلَ الْكِتَابَ وَالْحُكْمَ وَالنُّبُوَّةَ وَرَزَقْنَاهُم مِّنَ الطَّيِّبَاتِ وَفَضَّلْنَاهُمْ عَلَى الْعَالَمِينَ ﴿١٦﴾

رزق الله تعالى بني إسرائيل من طيبات ما خلق من مأكل ومشرب ولباس وأنزل عليهم المن والسلوى كما جاء في غير آية، وفضلهم على العالمين.

ذكر الطنطاوي: العبرة التي نستخلصها من هذه الآية وأمثالها: أن الله تعالى فضل بنى إسرائيل على غيرهم من الأمم السابقة على الأمة الإسلامية، ومنحهم الكثير من النعم ولكنهم لم يقابلوا ذلك بالشكر؛ فسلب الله عنهم ما حباهم به من نعم. ووصفهم في كتابه بنقض العهد، وقسوة القلب.

وهذا مصير كل أمة بدلت نعمة الله كفراً، لأن الميزان عند الله للتقوى والفعل الصالح، وليس للجنس أو اللون أو النسب.

وَقَالُوا مَا هِيَ إِلَّا حَيَاتُنَا الدُّنْيَا نَمُوتُ وَنَحْيَا وَمَا يُهْلِكُنَا إِلَّا الدَّهْرُ ۚ وَمَا لَهُم بِذَٰلِكَ مِنْ عِلْمٍ ۖ إِنْ هُمْ إِلَّا يَظُنُّونَ ﴿٢٤﴾

يعتقد الكافرون ومن في حكمهم أن الحياة هي الحياة الدنيا فقط؛ لذلك يكسبون منها ما يستطيعون؛ لأن فيها لذاتهم وما يُفرحهم فيها؛ فإن فنوا؛ فإنما لانتهاء أجلهم، وهؤلاء هم الدهريون حيث لا يعتقدون أن وراء هذه الحياة حياة، وأن دهرهم الذي يعيشونه إن انقضى؛ انقضى كل شيء. وهذا ظنٌ مورثٌ للوهم.

هَذَا كِتَابُنَا يَنطِقُ عَلَيْكُم بِالْحَقِّ إِنَّا كُنَّا نَسْتَنسِخُ مَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ ٢٩

أعمال الناس تُكتب، وفي هذا التسجيل؛ موضوعية، والنسخ على نسخ هو رقابة مستندية تحقق ضبطاً في النظام الداخلي؛ مما يفيد الدقة ومحاسبة المسؤولية وشدة الرقابة.

ذكر ابن عاشور: والنسخ هنا: الكتابة، وإسناد فعل الاستنتاج إلى ضمير الله على هذا إسناد مجازي لأن الله أمر الحفظة بكتابة الأعمال.

ذكر البغوي: وقيل: ﴿نستنسخ﴾ أي نأخذ نسخة. وقال الضحاك: نستنسخ أي نثبت. وقال السدي: نكتب. وقال الحسن: نحفظ.

تفسير سورة الأحقاف

رقم السورة: ٤٦ وهي مكية وعدد آياتها: ٣٥.

ذكر الطنطاوي: المتأمل في سورة «الأحقاف» يراها، قد أقامت الأدلة على وحدانية الله تعالى، وعلى كمال قدرته. وعلى صدق الرسول صلّى الله عليه وسلّم فيما يُبلغه عن ربه، وعلى أن هذا القرآن من عند الله، وعلى أن يوم القيامة حق.

أقامت الأدلة على كل ذلك، بأبلغ الأساليب وأحكمها، ومن ذلك أنها ساقت ألواناً من مظاهر قدرة الله تعالى في خلقه، كما ذكرت شهادة شاهد من بنى إسرائيل على أن الإسلام هو الدين الحق، كما طوفت بالناس في أعماق التاريخ لتطلعهم على مصارع الغابرين، الذين أعرضوا عن دعوة الحق، كما عقدت عدة مقارنات بين مصير الأخيار ومصير الأشرار.

وبذلك تكون السورة قد ساقت من الأدلة ما فيه الكفاية والإقناع لأولي الألباب، على أن الرسول صلّى الله عليه وسلّم صادق فيما يبلغه عن ربه.

فَلَمَّا رَأَوْهُ عَارِضًا مُّسْتَقْبِلَ أَوْدِيَتِهِمْ قَالُوا هَٰذَا عَارِضٌ مُّمْطِرُنَا ۚ بَلْ
هُوَ مَا اسْتَعْجَلْتُم بِهِ ۖ رِيحٌ فِيهَا عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴿٢٤﴾ تُدَمِّرُ كُلَّ شَيْءٍ بِأَمْرِ

رَبِّهَا فَأَصْبَحُوا لَا يُرَى إِلَّا مَسَاكِنُهُمْ كَذَٰلِكَ نَجْزِي الْقَوْمَ الْمُجْرِمِينَ ﴿٢٥﴾

رأى قوم عاد – الذي سكنوا الأحقاف أي المنازل كثيفة الرمل وهي تقع في أرض اليمن – السحاب مقبل عليهم فاستبشروا به، وما عرفوا أنه العذاب آتيهم من ربهم الذي كفروا به، فكانت ريحاً عظيمة أخذتهم بعذاب أليم. دمرت كل ما أتت عليه فما بقي من أثر لهم إلا مساكنهم. ذكر القرطبي: قال الفراء: لا يُرى الناس لأنهم كانوا تحت الرمل، وإنما تُرى مساكنهم لأنها قائمة. كذلك نجزي القوم المجرمين أي مثل هذه العقوبة نعاقب بها المشركين.

وَلَقَدْ مَكَّنَّاهُمْ فِيمَا إِن مَّكَّنَّاكُمْ فِيهِ وَجَعَلْنَا لَهُمْ سَمْعًا وَأَبْصَارًا وَأَفْئِدَةً فَمَا أَغْنَىٰ عَنْهُمْ سَمْعُهُمْ وَلَا أَبْصَارُهُمْ وَلَا أَفْئِدَتُهُم مِّن شَيْءٍ إِذْ كَانُوا يَجْحَدُونَ بِآيَاتِ اللَّهِ وَحَاقَ بِهِم مَّا كَانُوا بِهِ يَسْتَهْزِئُونَ ﴿٢٦﴾

لقد مكنهم الله في الأرض التي عاشوا فيها فأكلوا وشربوا من طيباتها وكان لهم من الأموال والأولاد الكثير، لكنهم لما بغوا لم يُغن عنهم ذلك شيئاً من عذاب الله وعقابه لهم.

ذكر الطنطاوي: لكن هؤلاء الطغاة السابقين لما لم يشكروا الله تعالى على نعمه كانت عاقبتهم الهلاك.

وَلَقَدْ أَهْلَكْنَا مَا حَوْلَكُم مِّنَ الْقُرَى وَصَرَّفْنَا الْآيَاتِ لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ (٢٧)

ضرب الله أمثلة لأقوام عاشوا حول بلاد العرب كعاد وثمود حيث سمعوا بقصصهم، وذلك ليعتبروا ويعودوا عن كفرهم وتكذيبهم.

ذكر القرطبي: ولقد أهلكنا ما حولكم من القرى يريد: حِجر ثمود وقرى لوط ونحوهما مما كان يجاور بلاد الحجاز، وكانت أخبارهم متواترة عندهم. وصرفنا الآيات يعني الحجج والدلالات وأنواع البينات والعظات، أي: بيناها لأهل تلك القرى؛ لعلهم يرجعون فلم يرجعوا.

تفسير سورة محمد

رقم السورة: ٤٧ وهي مدنية وعدد آياتها: ٣٨.

ذكر الطنطاوي: المتدبر في هذه السورة الكريمة يراها تهتم بقضايا من أهمها ما يأتي:

(أ) تشجيع المؤمنين على الجهاد في سبيل الله تعالى: وعلى ضرب رقاب الكافرين، وأخذهم أسرى، وكسر شوكتهم، وإذلال نفوسهم. كل ذلك بأسلوب قد اشتمل على أسمى ألوان التحضيض على القتال.

(ب) بيان سوء عاقبة الكافرين في الدنيا والآخرة، ودعوتهم إلى الدخول في الدين الحق، وإبراز الأسباب التي حملتهم على الجحود والعناد.

(ج) كشفها عن أحوال المنافقين وأوصافهم بصورة تميزهم عن المؤمنين وتدعو كل عاقل إلى احتقارهم ونبذهم. بسبب خداعهم وكذبهم، وجبنهم واستهزائهم بتعاليم الإسلام.

ولقد توعدهم الله تعالى بأشد ألوان العذاب.

إِنَّمَا الْحَيَاةُ الدُّنْيَا لَعِبٌ وَلَهْوٌ ۚ وَإِن تُؤْمِنُوا وَتَتَّقُوا يُؤْتِكُمْ أُجُورَكُمْ وَلَا يَسْأَلْكُمْ أَمْوَالَكُمْ ﴿٣٦﴾

هذه هي حقيقة الحياة: لعب ولهو، وما يجب أن تكونوا عليه؛ هو أن تؤمنوا وتتقوا الله ليؤتكم أجوركم، والله لا يريد إتلاف أموالكم أو أن تَخسروها.

إن دور أموال الزكاة في الاقتصاد الكلي تبين أنها تعين في تحريك دورة الاقتصاد فلا تجعله يتوقف، مما يجعل النفع يرتد على المجتمع وأسواقه.

ذكر ابن كثير: لا يسألكم الله ورسوله أموالكم كلها في الصدقات، إنما يسألانكم غيضاً من فيض، ربع العشر فطيبوا بها نفساً.

ذكر ابن عاشور: أنه لا يطالبكم بإِعطاء مال لذاته فإِنه غني عنكم وإنما يأمركم بإِنفاق المال لصالحكم.

إِن يَسْأَلْكُمُوهَا فَيُحْفِكُمْ تَبْخَلُوا وَيُخْرِجْ أَضْغَانَكُمْ ﴿٣٧﴾

لا يكلفكم الله إخراج جميع أموالكم، لأنه إن فعل فستبخلون بها، وبذلك يُظهر كراهيتكم لهذا التكليف، فالإنسان يحب المال حباً جماً كما جاء في غير آية.

ذكر القرطبي: قال قتادة: قد علم الله أن في سؤال المال خروج الأضغان.

ذكر الطنطاوي: إن يكلفكم بإِخراج جميع أموالكم، ويبالغ في طلب ذلك منكم، تبخلوا بها فلا تعطوها، وبذلك ﴿يُخْرِجْ أَضْغَانَكُمْ﴾؛ أي:

يُظهر أحقادكم وكراهيتكم لهذا التكليف، لأن حبكم الجم للمال يجعلكم تكرهون كل تشريع يأمركم بإخراج جميع أموالكم.

هَا أَنتُمْ هَؤُلَاءِ تُدْعَوْنَ لِتُنفِقُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ فَمِنكُم مَّن يَبْخَلُ ۖ وَمَن يَبْخَلْ فَإِنَّمَا يَبْخَلُ عَن نَّفْسِهِ ۚ وَاللَّهُ الْغَنِيُّ وَأَنتُمُ الْفُقَرَاءُ ۚ وَإِن تَتَوَلَّوْا يَسْتَبْدِلْ قَوْمًا غَيْرَكُمْ ثُمَّ لَا يَكُونُوا أَمْثَالَكُم (٣٨)

إذا دعاكم الله للإنفاق في سبيله فمنكم من يبخل، وأولئك إنما يبخلون على أنفسهم؛ لأن الله غني عن العالمين؛ فأنتم أيها الناس الفقراء إلى الله وهو الرازق الحقيقي لكم؛ فإن توليتم ولم تطيعوه؛ فإنه يستبدلكم ويأت بقوم ليسوا مُكذبين ومُنكرين كما أنتم.

ذكر القرطبي: ها أنتم هؤلاء تدعون؛ أي ها أنتم هؤلاء أيها المؤمنون تُدعون لتنفقوا في سبيل الله أي في الجهاد وطريق الخير؛ فمنكم من يبخل، ومن يبخل؛ فإنما يبخل عن نفسه؛ أي على نفسه، أي: يمنعها الأجر والثواب، والله الغني؛ أي إنه ليس بمحتاج إلى أموالكم، وأنتم الفقراء إليها.

تفسير سورة الفتح

رقم السورة: ٤٨ وهي مدنية وعدد آياتها: ٢٩ .

ذكر الطنطاوي: يبدو لنا أن المراد بالفتح هنا صلح الحديبية لوجود الآثار الصحيحة التي تشهد لذلك، ولأن هذا الصلح قد ترتب عليه من المنافع للدعوة الإسلامية ما يجعله من أعظم الفتوح، إن لم يكن أعظمها.

وَمَغَانِمَ كَثِيرَةً يَأْخُذُونَهَا وَكَانَ اللَّهُ عَزِيزاً حَكِيماً ﴿١٩﴾ وَعَدَكُمُ اللَّهُ مَغَانِمَ كَثِيرَةً تَأْخُذُونَهَا فَعَجَّلَ لَكُمْ هَذِهِ وَكَفَّ أَيْدِيَ النَّاسِ عَنكُمْ وَلِتَكُونَ آيَةً لِّلْمُؤْمِنِينَ وَيَهْدِيَكُمْ صِرَاطاً مُّسْتَقِيماً ﴿٢٠﴾

غنم المسلمون مغانم بعد عودتهم من صلح الحديبية، وطلب المخلفون أن يأخذوا منها، لكنهم بما أنهم عصوا الله؛ فليس لهم فيها شيء؛ فالغنائم لمن قاتل وحارب، وليس للقاعدين منها شيء؛ فكيف بمن تخلّف وهو قادر على القتال؟ وقد وعدهم الله غنائم في المستقبل، وفعلاً غنموا من فارس والروم ومن غيرهم.

تفسير سورة الحجرات

رقم السورة: ٤٩ وهي مدنية وعدد آياتها: ١٨.

ذكر الطنطاوي: السورة الكريمة قد رسمت للمؤمنين طريق الحياة السعيدة، حيث عرفتهم بما يجب عليهم نحو خالقهم سبحانه وبما يجب عليهم نحو نبيهم صلّى الله عليه وسلّم وبما يجب عليهم نحو أنفسهم، وربما يجب عليهم نحو إخوانهم في العقيدة، وبما يجب عليهم نحو أفراد المجتمع الإسلامي بصفة عامة.

إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ الَّذِينَ آمَنُوا بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ ثُمَّ لَمْ يَرْتَابُوا وَجَاهَدُوا بِأَمْوَالِهِمْ وَأَنفُسِهِمْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ ۚ أُولَٰئِكَ هُمُ الصَّادِقُونَ ﴿١٥﴾

إن من صفات المؤمنين أنهم يبذلون أموالهم في سبيل الله، يُنفقونها إعلاء لكلمة الله. وقد قدم الله المال على الأنفس لما لها من أثر في نفوس الناس، وقد جاءت أكثر من آية بتقديم المال عن البنين.

ذكر الطنطاوي: قال الآلوسي: تقديم الأموال على الأنفس من باب الترقي من الأدنى إلى الأعلى. ويجوز بأن يُقال: قدم الأموال لحرص الكثيرين عليها، حتى إنهم يُهلكون أنفسهم بسببها.

تفسير سورة ق

رقم السورة: ٥٠ وهي مكية وعدد آياتها: ٤٥.

ذكر الطنطاوي: تطوف بنا السورة الكريمة في أعماق هذا الكون، وفي أعماق النفس الإنسانية، منذ ولادتها، إلى بعثها، إلى حسابها، إلى جزائها. وذلك كله بأسلوب مؤثر بديع، يشهد بأن هذا القرآن من عند الله، ولو كان من عند غير الله لوجدوا فيه اختلافاً كثيراً.

أَفَلَمْ يَنظُرُوا إِلَى السَّمَاءِ فَوْقَهُمْ كَيْفَ بَنَيْنَاهَا وَزَيَّنَّاهَا وَمَا لَهَا مِن فُرُوجٍ ﴿٦﴾

بنى الله تعالى السماء، والنجوم تزينها، ومن قدرته تعالى أن هذه المساحات الهائلة ليس فيها أي شق أو فتحة.

ولا يتصور قيام الحياة في الأرض دون السماء، كما أن كثيراً من صناعات البشر وتجاراتهم ستنعدم إذا لم تتم الاستفادة من وجود السماء، كالاتصالات، والطيران، والأقمار الصناعية، وغير ذلك كثير.

وَالْأَرْضَ مَدَدْنَاهَا وَأَلْقَيْنَا فِيهَا رَوَاسِيَ وَأَنبَتْنَا فِيهَا مِن كُلِّ زَوْجٍ بَهِيجٍ ﴿٧﴾

خلق الله تعالى الأرض وجعل فيها الجبال رواسي تثبت قشرتها ومن عليها، وأنبت في الأرض من كل نبات وشجر وزوج مما يبعث البهجة والسرور في النفوس لتكون الحياة في هذه الأرض ممتعة طيبة.

ولا يتصور قيام الحياة في الأرض لولا الجبال التي عليها، ولا دون النبات والزرع الذي تُنبته بأمر ربها؛ ففيه طعام البشر وحيواناتهم التي هي أيضاً مما يأكلوه ويستفيدوا منه أثاثاً ومتاعاً ووسائل نقل وغير ذلك.

وَنَزَّلْنَا مِنَ السَّمَاءِ مَاءً مُّبَارَكًا فَأَنبَتْنَا بِهِ جَنَّاتٍ وَحَبَّ الْحَصِيدِ ﴿٩﴾

أنزل الله تعالى من السماء الماء المبارك الذي فيه الحياة؛ فقد جاء في غير آية أن الله جعل من الماء كل شيء حي.

ولا يُتصور قيام الحياة دون الماء فبه يُسقى البشر والشجر والنبات والحيوان؛ فتكون الجنات، ويكون الحب الذي يحصده الناس؛ فيكون لهم طعاماً، يأكلون منه ويدخرون منه ويزرعون منه.

تشير هذه الآية للحصاد الذي يأتي بعد الزرع والسقي، وهذه مهن يمتهنها كثير من البشر.

ذكر الطنطاوي: وَحَبَّ الْحَصِيدِ؛ أي: وحب النبات الذي من شأنه أن يحصد عند استوائه كالقمح والشعير وما يشبههما من الزروع.

﴿وَالنَّخْلَ بَاسِقَاتٍ لَّهَا طَلْعٌ نَّضِيدٌ ﴿١٠﴾﴾

ومن الزرع: النخيل الباسق نحو السماء، وثماره ذات الغذاء الكامل الذي يبدو كالطلع، ويبدو متراكباً مُنضداً بطريقة فائقة الجمال، ويَحفظ بعضه بعضاً.

﴿رِّزْقًا لِّلْعِبَادِ وَأَحْيَيْنَا بِهِ بَلْدَةً مَّيْتًا كَذَلِكَ الْخُرُوجُ ﴿١١﴾﴾

كل ذلك جعله الله تعالى رزقاً لعباده، وبوجود ما سبق من: ماء وزرع وحياة؛ تحيا به البلدان، وفي هذا تذكرة للناس ببعثهم وخروجهم ثانية بعد الموت ليوم الحساب.

ذكر الطنطاوي: ﴿وَأَحْيَيْنا بِهِ بَلْدَةً مَيْتاً﴾؛ أي: وأحيينا بذلك الماء الذي أنزلناه بلدة كانت مجدبة، وأرضا كانت خالية من النبات والزروع، وتذكير مَيْتاً لكون البلدة بمعنى المكان.

﴿مَّا يَلْفِظُ مِن قَوْلٍ إِلَّا لَدَيْهِ رَقِيبٌ عَتِيدٌ ﴿١٨﴾﴾

إن للإنسان رقباء يسجلون عليه كل (ما يفعله ويقوله) بدقة وتفصيل، ليكون هذا السجل هو دليل حسابه، وهذه موضوعية يعلمنا الله إياها في ضبط الحسابات وتسجيلها بدقة.

تفسير سورة الذاريات

رقم السورة: ٥١ وهي مكية وعدد آياتها: ٦٠.

ذكر الطنطاوي: المتدبر في هذه السورة الكريمة، يراها كغيرها من السور المكية قد ركزت حديثها على إقامة الأدلة على أن العبادة لا تكون إلا لله الواحد القهار، وعلى أن البعث حق، والجزاء حق، وعلى أن سنة الله تعالى قد اقتضت أن يجعل العاقبة الطيبة لأنبيائه وأتباعهم، والعاقبة السيئة للمكذبين لرسلهم، وعلى أن الوظيفة التي من أجلها خَلق الله تعالى الجن والإنس، إنما هي عبادته وطاعته.

وَالذَّارِيَاتِ ذَرْوًا (١)

أقسم الله تعالى بالريح وهي مصدر طاقة لأشياء كثيرة في هذا الكون كما هو حال الشمس، وكما هو حال النفط والغاز المستخرج من باطن الأرض، فهي تذرو الأشياء؛ فتسوقها، وتحركها، وتنقلها من مكانها.

فحركة السفن في البحر وحركة أمواجه التي تسببها الريح الخفيفة تحقق النقل والحركة، فإذا كانت عنيفة سببت الأعاصير والكوارث، وهي عبد من عباد الله تعالى، وقد ذكرت غير آية أن الله سخرها لنبيه سليمان عليه السلام فتحكم بها شهراً غدواً، وشهراً رواحاً، وهذا فضل يعطيه الله لمن

يشاء. كما أرسلها على قوم عاد ووصفها الله تعالى في غير آية بأنها ريح عقيم؛ أي لا خير فيها.

فَالْحَامِلَاتِ وِقْرًا ﴿٢﴾

يقسم الله تعالى بالسحب التي تحمل المطر الثقيل، تحركها الرياح فتسير بها من مكان إلى آخر حسب مشيئة الله وتقديره.

فَالْجَارِيَاتِ يُسْرًا ﴿٣﴾

يقسم الله تعالى بالنجوم التي تزين السماء وتنيرها فتهدي الناس في البر والبحر فيضبطون اتجاهات حركتهم على أساسها.

وَفِي أَمْوَالِهِمْ حَقٌّ لِّلسَّائِلِ وَالْمَحْرُومِ ﴿١٩﴾

هذه بعض صفات المتقين، الذي يجعلون في أموالهم حق ونصيب للسائل الفقير المحتاج وللمسكين المحروم الذي لا يسأل.

وَفِي السَّمَاءِ رِزْقُكُمْ وَمَا تُوعَدُونَ ﴿٢٢﴾

أيها الناس إن رزقكم مقدور في السماء، وقد ذكرت غير آية دورة الماء الذي ينزل من السماء ليحيي الله بها الأرض؛ فتُخرج للناس ولأنعامهم الطعام والغذاء، كما أنهم يُسقون من الماء، وبه؛ أي بالماء يُرزقون.

﴿فَرَاغَ إِلَىٰ أَهْلِهِۦ فَجَآءَ بِعِجْلٍ سَمِينٍ ٢٦ فَقَرَّبَهُۥٓ إِلَيْهِمْ قَالَ أَلَا تَأْكُلُونَ ٢٧﴾

ذهب إبراهيم عليه السلام لأهله لتحضير الضيافة لزواره وجاءهم بعجل سمين، وقدمه إليهم ودعاهم للأكل.

يستدل من ذلك على اقتصاد الضيافة وتقديم الطعام للضيف وإكرامه.

﴿وَٱلسَّمَآءَ بَنَيْنَٰهَا بِأَيْي۟دٍ وَإِنَّا لَمُوسِعُونَ ٤٧﴾

تفيد هذه الآية الكريمة بقدرة الله تعالى التي لا حدود الله؛ فمع عظمة ما خلقه كالسماء وغيرها؛ فهو رب العالمين الذي يُوسع فيما يخلق ما يشاء.

﴿وَٱلْأَرْضَ فَرَشْنَٰهَا فَنِعْمَ ٱلْمَٰهِدُونَ ٤٨﴾

جعل الله الأرض كالفراش؛ ليتمكن منها الخلق جميعهم، كبناء المساكن، ولغرسها، وزرعها، وحرثها، وسلوك طُرقها للوصول لمقاصدهم.

﴿وَمِن كُلِّ شَيْءٍ خَلَقْنَا زَوْجَيْنِ لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ﴾ (٤٩)

لقد خلق الله تعالى الخلق شفعاً؛ أي أزواجاً ذكوراً وإناثاً لتتكاثر وتتزايد.

﴿مَا أُرِيدُ مِنْهُم مِّن رِّزْقٍ وَمَا أُرِيدُ أَن يُطْعِمُونِ﴾ (٥٧)

الله تعالى غني، ليس له حاجة لأن يرزقه أحد فهو الرازق لا غيره، وليس بحاجة لأن يطعمه أحد فهو الغني عن العالمين وهو من يُطعِم ولا يُطعَم.

﴿إِنَّ اللَّهَ هُوَ الرَّزَّاقُ ذُو الْقُوَّةِ الْمَتِينُ﴾ (٥٨)

إن الله تعالى هو الرزاق، وهو ذو القوة، وهو المتين، فالرزق يحتاج القوة وهي موجودة عند الله تعالى دون غيره، والرزق يحتاج متانة في خلقه وتدبيره، وهذه صفة موجودة عند الله تعالى دون غيره، فتبارك الله أحسن الخالقين.

تفسير سورة الطور

رقم السورة: ٥٢ وهي مكية وعدد آياتها: ٤٩ .

ذكر الطنطاوي: تفتتح سورة «الطور» بقسم من الله تعالى ببعض مخلوقاته على أن البعث حق، وعلى أن الجزاء حق، وعلى أن كل ذلك كائن يوم تبدل الأرض غير الأرض والسموات.

وكعادة القرآن الكريم في المقارنة بين الأخيار والأشرار، يأتي الحديث عن حسن عاقبة المؤمنين، بعد الحديث عن سوء عاقبة المكذبين.

ثم تنتقل السورة الكريمة إلى الحديث عن مفتريات المشركين وأكاذيبهم، فتحكيها بأمانة. وتقذف بالحق الذي أوحاه سبحانه إلى نبيه صلى الله عليه وسلم فإذا بتلك المفتريات والأكاذيب زاهقة وباطلة، وتسوق ذلك بأسلوب ساحر خلاب.

ثم تختتم السورة الكريمة بما يسلي النبي صلى الله عليه وسلم وبما يرسم له العلاج الشافي.

وَالَّذِينَ آمَنُوا وَاتَّبَعَتْهُمْ ذُرِّيَّتُهُم بِإِيمَانٍ أَلْحَقْنَا بِهِمْ ذُرِّيَّتَهُمْ وَمَا أَلَتْنَاهُم مِّنْ عَمَلِهِم مِّن شَيْءٍ ۚ كُلُّ امْرِئٍ بِمَا كَسَبَ رَهِينٌ ﴿٢١﴾

كل امرئ بما كسب رهين، وما كسبه مسجل عليه في رقٍ سيُنشر للملأ ليكون الحساب عادلاً ظاهراً دون بخس أو إنقاص. واستقلالية الحساب تدلّ على الموضوعية، فلا يتأثر حساب أي امرئ بغيره.

ذكر السعدي: مرتهن بعمله، فلا تزر وازرة وزر أخرى، ولا يحمل على أحد ذنب أحد.

أَمْ تَسْأَلُهُمْ أَجْرًا فَهُم مِّن مَّغْرَمٍ مُّثْقَلُونَ ﴿٤٠﴾

يسأل الله نبيه صلى الله عليه وسلم وهو أعلم: هل سألتهم أجراً على دعوتك لهم؟ فهم مثقلون من الدَين غارمون به.

ذكر القرطبي: فهم من مغرم مثقلون؛ أي فهم من المغرم الذي تطلبهم به مثقلون مجهدون لما كلفتهم به.

تفسير سورة النجم

رقم السورة: ٥٣ وهي مكية وعدد آياتها: ٦٢.

ذكر الطنطاوي: المتأمل في هذه السورة الكريمة يراها بجانب إقامتها الأدلة الساطعة على وحدانية الله تعالى وعلى صدق النبي صلى الله عليه وسلم فيما يُبلغه عن ربه يراها بجانب ذلك قد ساقت ما ساقت من براهين واضحة، ومن توجيهات حكيمة؛ بأسلوب بليغ أخاذ، له لفظه المنتقى، ومعناه السديد، وتراكيبه الموزونة وزناً بديعاً؛ مما يَشهد بأن هذا القرآن من عند الله، ولو كان من عند غير الله لوجدوا فيه اختلافا كثيراً.

أَلَّا تَزِرُ وَازِرَةٌ وِزْرَ أُخْرَىٰ ﴿٣٨﴾ وَأَن لَّيْسَ لِلْإِنسَانِ إِلَّا مَا سَعَىٰ ﴿٣٩﴾

تؤكد هذه الآية الكريمة استقلالية الحساب فكل إنسان حسابه دون غيره، ولا أحد يزر عن غيره سوء عمله؛ فلكل إنسان عمله الذي كسبه في هذه الحياة، وعليه حسابه.

وَأَنَّهُ هُوَ أَغْنَىٰ وَأَقْنَىٰ ﴿٤٨﴾

الله الذي أغنى عباده بخلق البيئة اللازمة لكسب معاشهم وهيأ لهم ما يقومون به حرفهم ومهنهم. حققت هذه المكاسب لهم دخولاً وفرت لهم بعض المال.

بعدها صار الناس قادرين على الاقتناء والتملك؛ فاكتنزوا بتملك الأصول المادية؛ من ذهب وفضة ومساكن وأراضي وأثاث وحيوانات ومصانع وغيره مما يمكن تملكه.

وقد نظر الفقهاء لأصول القنية؛ أي الأصول الثابتة، التي اقتنيت للتملك والاحتفاظ بها، وفرقوها عن عروض التجارة؛ أي الأصول المتداولة، التي تباع وتشرى بقصد التربح.

ذكر البغوي: أعطى القنية وأصول الأموال وما يدخرونه بعد الكفاية.

وقال الضحاك: أغنى بالذهب والفضة وصنوف الأموال، وأقنى بالإبل والبقر والغنم.

ذكر السعدي: أغنى العباد بتيسير أمر معاشهم من التجارات وأنواع المكاسب، من الحرف وغيرها.

ذكر الطنطاوي: أَقْنى من القنية بمعنى الادخار للشيء، والمحافظة عليه.

تفسير سورة القمر

رقم السورة: ٥٤ وهي مكية وعدد آياتها: ٥٥.

ذكر الطنطاوي: المتدبر في السورة الكريمة يراها قد اهتمت بالحديث عن أهوال يوم القيامة، وعن تعنت المشركين وعنادهم، وعن سنن الله تعالى في خلقه، التي من أبرز مظاهرها: نصر المؤمنين، وخذلان الكافرين.

إِنَّا أَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ صَيْحَةً وَاحِدَةً فَكَانُوا كَهَشِيمِ الْمُحْتَظِرِ ﴿٣١﴾

شبههم الله تعالى بالشجر اليابس المتكسر المهشم الذي يكون المادة التي تُصنع منها حظائر الحيوانات ومسكناً لهم، كالقش المكدس، وكالأعواد التي توضع تحت أرجل الحيوانات.

لذلك لما أرسل الله عليهم العذاب بالصيحة، صاروا كالهشيم المحتظر.

وتدل هذه الآية الكريمة على مهنة الحظائر وكيفية صنعها وترتيبها.

ذكر ابن كثير: قال ابن زيد: كانت العرب يجعلون حظاراً على الإبل والمواشي من يبيس الشوك، فهو المراد من قوله: ﴿كهشيم المحتظر﴾.

إِنَّا كُلَّ شَيْءٍ خَلَقْنَاهُ بِقَدَرٍ ﴿٤٩﴾

خلق الله كل شيء في هذا الكون بتقدير قدَّره سبحانه وتعالى، والتقدير هو بمعنى الدقة حيث حكمة الله بالعلم قد سبقت كل شيء.

ويستفاد من هذه الآية الكريمة أهمية التقدير كتخطيط الأعمال ليكون الأداء صحيحاً دون أي اضطراب يشوبه.

ذكر البغوي: ﴿إنا كل شيء خلقناه بقدر﴾؛ أي: ما خلقناه فمقدور ومكتوب في اللوح المحفوظ، قال الحسن: قدَّر الله لكل شيء من خلقه قَدَرَه الذي ينبغي له.

تفسير سورة الرحمن

رقم السورة: ٥٥ وهي مدنية وعدد آياتها: ٧٨.

ذكر الطنطاوي: السورة الكريمة تطوف بنا في آفاق هذا الكون، فتحكي لنا من بين ما تحكي جانباً من مظاهر قدرة الله تعالى ونعمه على خلقه وتقول في أعقاب كل نعمة: ﴿فَبِأَيِّ آلاءِ رَبِّكُما تُكَذِّبانِ﴾، وتتكرر هذه الآية فيها إحدى وثلاثين مرة، لتذكير الجن والإنس بهذه النعم كي يشكروا الله تعالى عليها شكراً جزيلاً.

الرَّحْمَٰنُ ﴿١﴾ عَلَّمَ الْقُرْآنَ ﴿٢﴾ خَلَقَ الْإِنسَانَ ﴿٣﴾ عَلَّمَهُ الْبَيَانَ ﴿٤﴾

الله تعالى واسع الرحمة والفضل، هو من علّم الإنسان القرآن الكريم، وبيّنه وأوضحه له، وهو الذي خلق الإنسان، وعلمه البيان من الكلام والنطق. لذلك فإن أساس العلم مصدره الله تعالى.

ولولا ذلك البيان لتعذر على الإنسان أن يحيا حياته، وأن يتعاون مع غيره في القيام بأعباء هذه الحياة، وأن يعمرها بناء وزراعة وما إلى ذلك.

ذكر ابن عاشور: فيه الإشارة إلى أن نعمة البيان أجلُّ النعم على الإنسان، فعدّ نعمة التكاليف الدينية وفيه تنويه بالعلوم الزائدة في بيان الإنسان وهي خصائص اللغة وآدابها.

﴿الشَّمْسُ وَالْقَمَرُ بِحُسْبَانٍ ۝٥﴾

هذان الفلكان المهمان في حياة الناس واقتصادهم والمرتبط سلوكهم بهما إنما يتحركان بحساب دقيق مرسوم من خالقهما. وفيهما إشارة للتوقيتين الشمسي والقمري حيث لا غنى للناس ولا لحياتهم عنهما.

ذكر ابن عاشور: الباء للملابسة وهي ظرف مستقر هو خبر عن الشمس والقمر، والتقدير: كائنان بحسبان، أي بملابسة حسبان، أي لحساب الناس مواقع سيرهما.

﴿وَالسَّمَاءَ رَفَعَهَا وَوَضَعَ الْمِيزَانَ ۝٧﴾

الله الذي رفع السماء بلا عمد وبلا فجوات فيها، قد وضع الميزان، الذي هو كل أداة عدل تُقاس بها الأشياء من وزن وكيل، وبه يكون التقدير المحاسبي، وما تخلص إليه المحاسبة من ميزانية هو ميزان للحقوق بين الناس وبين الشركاء.

ذكر الطنطاوي: الميزان: يطلق على الآلة التي يزن الناس بها ما يريدون وزنه من الأشياء المختلفة. والمراد به هنا: وجوب التزام العدل في الأحكام، وشاع إطلاق الميزان على العدل في الأحكام، لأن كليهما تُضبط به الأحكام، وتنال الحقوق.

﴿أَلَّا تَطْغَوْا فِي الْمِيزَانِ ۝٨ وَأَقِيمُوا الْوَزْنَ بِالْقِسْطِ وَلَا تُخْسِرُوا الْمِيزَانَ ۝٩﴾

يجب على الناس ألا تحيد عن العدل فلا تطغى في الميزان لطرف دون آخر؛ بل أن يقيموا الوزن الصحيح بالعدل، فلا يُخسروا الميزان بإِنقاصه فذلك إنما جور وظلم منهي عنه.

ذكر ابن عاشور: الطغيان: دحض الحق عمداً واحتقاراً لأصحابه، فمعنى الطغيان في العدل الاستخفاف بإِضاعته وضعف الوازع عن الظلم. ومعنى الطغيان في وزن المقدرات تطفيفه.

وذكر أيضاً: فلما كان التطفيف سنة من سنن المشركين تصدت للآية للتنبيه عليه، ويجيء على الاعتبارين تفسير قوله: ﴿ولا تخسروا الميزان﴾ فإِن حُمل الميزان فيه على معنى العدل كان المعنى النهي عن التهاون بالعدل لغفلة أو تسامح بعد أن نهى عن الطغيان فيه، ويكون إظهار لفظ الميزان في مقام ضميره تنبيهاً على شدة عناية الله بالعدل، وإنْ حُمل فيه على آلة الوزن كان المعنى النهي عن غبن الناس في الوزن لهم كما قال تعالى في سورة المطففين: ﴿وإذا كالوهم أو وزنوهم يخسرون﴾، والإِخسار: جعل الغير خاسراً والخسارة النقص.

فعلى حمل الميزان على معنى العدل يكون الإِخسار جعل صاحب الحق خاسراً مغبوناً؛ ويكون الميزان منصوباً على نزع الخافض، وعلى حمل الميزان على معنى آلة الوزن يكون الإِخسار بمعنى النقص، أي لا تجعلوا الميزان ناقصاً كما قال تعالى: ﴿ولا تنقصوا المكيال والميزان﴾ هود: ٨٤، وقد علمت هذا النظم البديع في الآية الصالح لهذه المحامل.

وَالْأَرْضَ وَضَعَهَا لِلْأَنَامِ ﴿١٠﴾

ومن فضله تعالى أن جعل الأرض مُناسبةً لحياة الناس، تمهيداً وتثبيتاً وتدبيراً.

ذكر ابن عاشور: أي جعلها تحت أقدامهم وجُنوبهم لتمكينهم من الانتفاع بها بجميع ما لهم فيها من منافع ومعالجات ... وسياق الآية يرجح أن المراد به الإنسان، لأنه في مقام الامتنان والاعتناء بالبشر.

فِيهَا فَاكِهَةٌ وَالنَّخْلُ ذَاتُ الْأَكْمَامِ ﴿١١﴾

جعل الله في الأرض طعاماً للناس؛ فخص الفاكهة أولاً لما لها من لذة ومنافع، ثم ذكر النخيل لما فيه من غذاء كامل، وهي قوت يؤكل وقابل للادخار، ليتزود منه الناس في حلّهم وترحالهم.

ذكر ابن عاشور: عطف على الفاكهة النخل وهو شجر التمر، وهو أهم شجر الفاكهة عند العرب الذين نزل القرآن فيهم، وهو يثمر أصنافاً من الفاكهة من رُطب وبُسر ومن تمر وهو فاكهة وقوتٌ.

ووصف النخل بـ﴿ ذات الأكمام ﴾ وصف للتحسين فهو اعتبار بأطوار ثمر النخل، وامتنان بجماله وحسنه كقوله تعالى: ﴿ ولكم فيها جمال حين تريحون وحين تسرحون ﴾ النحل: ٦؛ فامتنّ بمنافعها وبحسن منظرها.

و﴿ الأكمام ﴾: جمع كِمّ بكسر الكاف وهو وعاء ثمر النخلة ويقال له: الكُفُرَّى، فليست الأكمام مما ينتفع به فتعيّن أن ذكرها مع النخل للتحسين.

وَالْحَبُّ ذُو الْعَصْفِ وَالرَّيْحَانُ ﴿١٢﴾

وجعل الحب الذي يكون على ساق الزرع، ثم يُدرس ويُداس فيكون طعاماً لحيواناتهم، والحب هو قوت الناس يشمل أغلب طعام الإنسان من برٍّ وأرز وشعير وذرة، الخ، كما جعل لهم نباتات عطرة الريح تطيب النفوس وتسر الأرواح.

ذكر ابن عاشور: ﴿والحب ذو العصف﴾: هو الحب الذي لنباته سنابل ولها ورق وقصب فيصير تبناً، وذلك الورق والقصب هو العصف، أي الذي تعصفه الرياح وهذا وصف لحبّ الشعير والحنطة وبهما قوام حياة معظم الناس وكذلك ما أشبههما من نحو السلت والأرُز.

وسمي العصف عصفاً لأن الرياح تعصفه، أي تحركه ووصفُ الحب بأنه ﴿ذو العصف﴾ للتحسين وللتذكير بمنة جمال الزرع حين ظهوره في سنبله في حقوله نظير وصف النخل بذات الأكمام ولأن في الموصوف ووصفه أقوات البشر وحيوانهم.

و ﴿الريحانُ﴾: ما له رائحة ذكية من الأزهار والحشائش وهو فَعْلان من الرائحة، وإنما سمي به ما له رائحة طيبة. وهذا اعتبار وامتنان بالنبات المودعة فيه الأطياب مثل الورد والياسمين وما يُسمى بالريحان الأخضر.

مَرَجَ الْبَحْرَيْنِ يَلْتَقِيَانِ ﴿١٩﴾ بَيْنَهُمَا بَرْزَخٌ لَّا يَبْغِيَانِ ﴿٢٠﴾

يلتقي البحر العذب أي النهر بالبحر المالح فيصب فيه دون أن يختلطان لأنه المدبر عز وجل قد جعل بينهما حاجزاً لا يبغي أحدهما على الآخر إلا بما قدره الله تعالى لهما.

وبذلك جعل الله للناس مخازن للماء العذب ومخازن للماء المالح لضرورة حياتهم وحسن سيرها. كما جعل فيهما غذاء وطعاماً لهم، فضلا عن منافع النقل والانتقال، وما يستخرجونه منهما وغير ذلك كثير. وعلّم الناس الهندسة الكونية فبناء هذا الحاجز فيه ما يُعجز المهندسين بصنوفهم وعديدهم، ويُقدم لهم أنموذجاً هندسياً فريداً.

يَخْرُجُ مِنْهُمَا اللُّؤْلُؤُ وَالْمَرْجَانُ ﴿٢٢﴾

يستخرج الإنسان منهما اللؤلؤ والمرجان وفي هذا إشارة لمهنة الغوص والصيد وصناعة هذه الأحجار الكريمة وتجارتها.

ذكر الطبري: (ثنا) سمعت الضحاك يقول في قوله: ﴿ اللُّؤْلُؤُ وَالْمَرْجَانُ ﴾، أما المرجان: فاللؤلؤ الصغار، وأما اللؤلؤ: فما عظُم منه.

ذكر القرطبي: قال ابن مسعود وأبو مالك: المرجان الخرز الأحمر.

ذكر ابن كثير: لما كان اتخاذ هذه الحلية نعمة على أهل الأرض، امتن بها عليهم فقال: ﴿ فبأي آلاء ربكما تكذبان ﴾.

ذكر الطنطاوي: ﴿ واللُّؤْلُؤُ ﴾ في أصله حيوان، وهو أعجب ما في البحار، فهو يهبط إلى الأعماق، وهو داخل صدفة جيرية تقيه من الأخطار.. ويفرز مادة لزجة تتجمد مكونة «اللؤلؤ». والمرجان أيضا حيوان يعيش في

البحار. ويُكوِّن جزرا مرجانية ذات ألوان مختلفة: صفراء برتقالية، أو حمراء قرنفلية، أو زرقاء زمردية.

ومن اللؤلؤ والمرجان تُتخذ الحليّ الغالية الثمن، العالية القيمة، التي تتحلى بها النساء، ولهذين العنصرين تجارات حول العالم فضلاً عن كونهما أساس صناعة الزينة والحليّ.

وَلَهُ الْجَوَارِ الْمُنشَآتُ فِي الْبَحْرِ كَالْأَعْلَامِ ﴿٢٤﴾

سخر الله تعالى هذه البحار لتقلّ وتحمل السفن فهي تزخر فيها وكأنها الأعلام بسواريها التي تُعينها على الحركة والتوجه بقوة الرياح.

ذكر ابن عاشور: ووصفت الجَوَارِي بأنها كالأعلام، أي الجبال وصفاً يفيد تعظيم شأنها في صنعها المقتضي بداعة إلهام عقول البشر لصنعها، والمقتضى عظم المِنّة بها لأن السفن العظيمة أمكن لحمل العدد الكثير من الناس والمتاع.

يَا مَعْشَرَ الْجِنِّ وَالْإِنسِ إِنِ اسْتَطَعْتُمْ أَن تَنفُذُوا مِنْ أَقْطَارِ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ فَانفُذُوا ۚ لَا تَنفُذُونَ إِلَّا بِسُلْطَانٍ ﴿٣٣﴾

خطاب إلى جميع الخلق من الإنس والجن بأن النفاذ إلى السماوات وداخل الأرض ممكن بسلطان، أي بوسيلة إن استطعتم لها سبيلاً، وهذه إشارة

واضحة لدور العلم في بلوغ أماكن لم يكن يتصورها الإنسان في مراحله عبر الأزمان. وقد تمكن الناس من بعضها في هذه الأيام بوسائل مناسبة اخترعوها وصنعوها.

ذكر الطبري: معنى ذلك: إلا بحجة وبيّنة، لأن ذلك هو معنى السلطان في كلام العرب.

ذكر ابن عاشور: هذا إعلان لهم بأنهم في قبضة الله تعالى لا يجدون منجىً منها.

تفسير سورة الواقعة

رقم السورة: ٥٦ وهي مكية وعدد آياتها: ٩٦.

ذكر الطنطاوي: السورة الكريمة ساقت بأسلوب بليغ مؤثر، ما يحمل الناس على حُسن الاستعداد ليوم القيامة، عن طريق الإيمان العميق، والعمل الصالح، وما يبين لهم عن طريق المشاهدة مظاهر قدرة الله تعالى ووحدانيته، وما يكشف لهم النقاب عن أقسام الناس في يوم الحساب، وعن عاقبة كل قسم، وعن الأسباب التي وصلت بكل قسم منهم إلى ما وصل إليه من جنة أو نار.

نَحۡنُ خَلَقۡنَٰكُمۡ فَلَوۡلَا تُصَدِّقُونَ ﴿٥٧﴾ أَفَرَءَيۡتُم مَّا تُمۡنُونَ ﴿٥٨﴾ ءَأَنتُمۡ تَخۡلُقُونَهُۥٓ أَمۡ نَحۡنُ ٱلۡخَٰلِقُونَ ﴿٥٩﴾ نَحۡنُ قَدَّرۡنَا بَيۡنَكُمُ ٱلۡمَوۡتَ وَمَا نَحۡنُ بِمَسۡبُوقِينَ ﴿٦٠﴾

تذكر هذه الآيات الكريمة كيفية خلق الموارد البشرية التي هي عماد الحياة وعماد كل اقتصاد، فالمنيّ الذي يخرج من الرجل هو من خلق الله، وهو ما يكون في الأنثى ليكون حملاً يكون بعده مولوداً، ثم إن الله تعالى هو من يُقدِّر حياة البشر ويُقدِّر موتهم.

فالإنسان ليس له سوى أن يقضي شهوته ليُقدّر الله له النسل.

وقد أوضحت غير آية ضوابط النكاح والتزاوج لضمان حفظ السلالات بين البشر.

وأوضحت آيات أخرى ضوابط حل أي نزاع بين الأزواج وطرق حله.

وكذلك أوضحت آيات أخرى كيف توزع الأموال التي يتركها المورث من أفراد تلك السلالات والأسر لمن بعده؟.

وكذلك أوضحت غير آيات طرق عقاب الزناة ممن يقضون شهواتهم بعيداً عن حصن الأسرة، وكذلك ممن يأتون الذكران دون ما شرعه الله تعالى للتزاوج.

فسبحان الله الذي أحسن صنع كل شيء؛ فهو المالك المتصرف في ملكه، والإنسان بسلالاته مما ملكه سبحانه وتعالى.

أَفَرَأَيْتُم مَّا تَحْرُثُونَ ﴿٦٣﴾ أَأَنتُمْ تَزْرَعُونَهُ أَمْ نَحْنُ الزَّارِعُونَ ﴿٦٤﴾ لَوْ
نَشَاءُ لَجَعَلْنَاهُ حُطَامًا فَظَلْتُمْ تَفَكَّهُونَ ﴿٦٥﴾ إِنَّا لَمُغْرَمُونَ ﴿٦٦﴾ بَلْ
نَحْنُ مَحْرُومُونَ ﴿٦٧﴾

ثم تذكر الآيات التالية خلق الزرع الذي فيه اقتصاد الناس وطعامهم وغذاءهم وتجارتهم وصناعتهم، وهو من الضروريات لعيشهم في هذه الأرض.

فالسؤال الموجه للمنكرين من البشر، هل رأيتم الحرث الذي تحرثونه؟ هل أنتم من زرعه أم أن الله الخالق هو الذي زرعه؟

فالإنسان ليس له سوى وضع البذار في الأرض، فلا البذار من صنعه، ولا الأرض من صنعه، ولا الماء من صنعه؛ ثم لو شاء الله لحطم هذا الزرع فيكون غير نافع، فتصبحون نادمين على ما أنفقتم عليه وما بذلتم من جهد فيه، فتكونون غير مسرورين، وغارقين في الدَين لخسارتكم، ومحرومين من ذاك الزرع.

والغُرم سببه الخسارة الكائنة بسبب الإنفاق الذي لم يُحقق منه إيراداً يغطيه أو يزيد عنه ليتولد الربح والمغنم.

﴿أَفَرَأَيْتُمُ الْمَاءَ الَّذِي تَشْرَبُونَ ﴿٦٨﴾ أَأَنتُمْ أَنزَلْتُمُوهُ مِنَ الْمُزْنِ أَمْ نَحْنُ الْمُنزِلُونَ ﴿٦٩﴾ لَوْ نَشَاءُ جَعَلْنَاهُ أُجَاجًا فَلَوْلَا تَشْكُرُونَ ﴿٧٠﴾﴾

ثم تذكر الآيات التالية خلق الماء، الذي فيه شرب الناس وسقيا حيواناتهم ونباتاتهم، وتجارتهم وصناعتهم، وهو من الضروريات لعيشهم في هذه الأرض.

فالسؤال الموجه للمنكرين من البشر، هل رأيتم الماء الذي تشربونه؟ هل أنتم أنزلتموه من السحاب أم أن الله الخالق هو الذي أنزله؟ فلو شاء الله

تعالى لجعله مالح الطعم؛ فعندئذ تفقدون كل سبيل من سبل الحياة، أفلا تشكرون الله؟

﴿أَفَرَأَيْتُمُ النَّارَ الَّتِي تُورُونَ (٧١) أَأَنْتُمْ أَنْشَأْتُمْ شَجَرَتَهَا أَمْ نَحْنُ الْمُنْشِئُونَ (٧٢) نَحْنُ جَعَلْنَاهَا تَذْكِرَةً وَمَتَاعًا لِلْمُقْوِينَ (٧٣)﴾

ثم تذكر الآيات التالية خلق النار الذي فيه اقتصاد الناس وطاقتهم وتجارتهم وصناعتهم، وهو من الضروريات لعيشهم في هذه الأرض.

فالسؤال الموجه للمنكرين من البشر، هل أنتم الذين تشعلون النار؟ هل أنتم من أنشأها من الشجر الأخضر أم أن الله الخالق هو الذي أنشأها؟ لقد جعلها الله تعالى ذكرى لمن اعتبر من عذاب نار جهنم.

وقد جعلها متاعاً لمن ينتفع بها يتقوون بها، فيطبخون طعامهم وشرابهم وتكون لهم طاقة تدفئة، وطاقة لمصانعهم وأعمالهم.

ذكر ابن عاشور: إن النار متاع للمسافرين يستضيئون بها في مناخهم ويصطلون بها في البَرد ويراها السائر ليلاً في القفر فيهتدي إلى مكان النُّزَّل فيأوي إليهم، ومتاع للجائعين يطبخون بها طعامهم في الحضر والسفر.

﴿وَتَجْعَلُونَ رِزْقَكُمْ أَنَّكُمْ تُكَذِّبُونَ (٨٢)﴾

تقابلون نِعَم الله بما رزقكم بكفركم، فتردون الأمور لغير الله تعالى.

ذكر الطبري: تجعلون شكر الله على رزقه إياكم التكذيب، وذلك كقول القائل الآخر: جعلت إحساني إليك إساءة منك إليّ، بمعنى: جعلت شكر إحساني، أو ثواب إحساني إليك إساءة منك إليّ.

ذكر ابن عاشور: أي تخافون أنكم إن صدّقتم بالقرآن ومنعتم ضعفاءكم عن الكفر يفوت عليكم من كسبكم ما تربحونه بسببهم فتجعلون رزقكم أنكم تكذّبون الرسول.

تفسير سورة الحديد

رقم السورة: ٥٧ وهي مدنية وعدد آياتها: ٢٩.

ذكر الطنطاوي: السورة الكريمة يغلب عليها طابع القرآن المدني، الذي يتحدث عن الجهاد في سبيل الله، وعن الإنفاق من أجل إعلاء كلمته، وعن سوء مصير المنافقين، وعن إرشاد المؤمنين إلى كيفية إقامة الدولة القوية العادلة، وهذا لا يمنع من أن يكون من بين آياتها ما هو مكي، متى ثبت ذلك عن طريق النقل الصحيح.

آمِنُوا بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ وَأَنفِقُوا مِمَّا جَعَلَكُم مُّسْتَخْلَفِينَ فِيهِ ۖ فَالَّذِينَ آمَنُوا مِنكُمْ وَأَنفَقُوا لَهُمْ أَجْرٌ كَبِيرٌ ﴿٧﴾

يأمر الله تعالى عباده بالإيمان به وبرسوله، وأن ينفقوا مما رزقهم منه وجعلهم فيه مستخلفين؛ فالإنسان خليفة الله في الأرض مأمور بإعمارها كما أمر الله تعالى، ووعد الله المؤمنين المنفقين بالأجر الكبير.

وفي هذه الآية الكريمة دلالة على أهمية الإنفاق في سبيل الله فهو الشكل التطبيقي للإيمان بالله وهو عمل مبرور وضروري لقيام الحياة.

ذكر الطنطاوي: أي: آمنوا أيها الناس بالله تعالى وبرسوله صلى الله عليه وسلم إيماناً حقاً، وإن من مقتضيات هذا الإيمان، أن تنفقوا من أموالكم

في وجوه الخير، فإن هذه الأموال هي عارية في أيديكم، فقد ورثتموها من غيركم، وغيركم سيرثها عنكم، وهي في جميع الأحوال مُلك لله تعالى وحده على الحقيقة.

﴿وَمَا لَكُمْ أَلَّا تُنفِقُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَلِلَّهِ مِيرَاثُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ ۚ لَا يَسْتَوِي مِنكُم مَّنْ أَنفَقَ مِن قَبْلِ الْفَتْحِ وَقَاتَلَ ۚ أُولَٰئِكَ أَعْظَمُ دَرَجَةً مِّنَ الَّذِينَ أَنفَقُوا مِن بَعْدُ وَقَاتَلُوا ۚ وَكُلًّا وَعَدَ اللَّهُ الْحُسْنَىٰ ۚ وَاللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرٌ ﴿١٠﴾﴾

تسأل هذه الآية الكريمة الناس كيف لا تنفقون في سبيل الله، وهو الوراث لكل شيء بما فيها الأموال التي أحجمتم عن إنفاقها وبخلتم ببذلها. وتعطي الآية الكريمة فضلاً لمن أنفق قبل الفتح وقاتل، حيث كانت المخاطر أكبر ممن أنفق بعد الفتح وقاتل؛ فمن أنفق بعد الفتح قد رأى الأمور تتجه نحو الاستقرار، ولكلا الفريقين وعد بالحسنى من الله؛ فهو الخبير بما يفعل الناس.

والفتح هو صلح الحديبية.

ذكر القرطبي: يقول تعالى ذكره: وما لكم أيها الناس أن لا تنفقوا مما رزقكم الله في سبيل الله، وإلى الله صائرٌ أموالكم إن لم تنفقوها في

حياتكم في سبيل الله، لأن له ميراث السموات والأرض، وإنما حثهم جلّ ثناؤه بذلك على حظهم، فقال لهم: أنفقوا أموالكم في سبيل الله، ليكون ذلكم لكم ذخراً عند الله من قبل أن تموتوا، فلا تقدروا على ذلك، وتصير الأموال ميراثاً لمن له السموات والأرض.

﴿مَّن ذَا الَّذِي يُقْرِضُ اللَّهَ قَرْضاً حَسَناً فَيُضَاعِفَهُ لَهُ وَلَهُ أَجْرٌ كَرِيمٌ ﴿١١﴾﴾

ما أنفقتموه هو بمثابة قرض لله تعالى، وبما أن القرض مردود، فإن الله سيجعله مردوداً أضعافاً مضاعفة لصاحب القرض، وله فوق ذلك الأجر الكريم الذي يُكرم به.

وحقيقة أن الأمر أن القرض يكون لمن هو محتاج إليه وعنده مشكلة في السيولة لتغطية ضرورياته أو حاجياته، فيستعين بذلك مؤقتاً ريثما يجبر فاقته، وما نقصه من أموال، ثم عندما يتعافى وضعه ويتحسن دخله وتفيض سيولته، وجب عليه ردُّ القرض لمن استقرضه منه.

ذكر الطبري: يقول تعالى ذكره: من هذا الذي ينفق في سبيل الله في الدنيا، محتسباً في نفقته، مبتغياً ما عند الله، وذلك هو القرض الحسن.

ذكر القرطبي: وسمي قرضاً، لأن القرض أخرج لاسترداد البدل؛ أي: من ذا الذي ينفق في سبيل الله حتى يبدله الله بالأضعاف الكثيرة. قال

الكلبي: قرضاً؛ أي: صدقة حسناً؛ أي: محتسباً من قلبه بلا مَنٍّ ولا أذى.

ذكر الطنطاوي: والقرض الحسن: هو الإنفاق من المال الحلال، مع صدق النية، دون رياء أو سمعة، أو منّ أو أذى مع تحري أوسط الأموال.

ذكر ابن عاشور: إن مثل المنفق في سبيل الله؛ كمثل من يُقرض الله، ومَثَلُ الله تعالى في جزائه؛ كمثل المستسلف مع من أحسن قرضه وأحسن في دفعه إليه.

إِنَّ الْمُصَّدِّقِينَ وَالْمُصَّدِّقَاتِ وَأَقْرَضُوا اللَّهَ قَرْضًا حَسَنًا يُضَاعَفُ لَهُمْ وَلَهُمْ أَجْرٌ كَرِيمٌ ﴿١٨﴾

إن الذين أكثروا من الصدقات من ذكر وأنثى مقرضينه لله تعالى قرضاً حسناً سيضاعفه الله ويثمره لهم وسيكون لهم أجر كريم.

وهذه دعوة لتحريك السيولة بين أفراد المجتمع سواء أكانوا أغنياء أم فقراء، وذلك بين من ملك فائضها ومن عنده عجز بها، مما يُبقي الدورة الاقتصادية في حال سليم؛ فيعود على الجميع (المقرض والمقترض) بالخير والنفع الدنيوي، فضلاً عن الأجر من الله تعالى في الحياة الآخرة.

﴿اعْلَمُوا أَنَّمَا الْحَيَاةُ الدُّنْيَا لَعِبٌ وَلَهْوٌ وَزِينَةٌ وَتَفَاخُرٌ بَيْنَكُمْ وَتَكَاثُرٌ فِي الْأَمْوَالِ وَالْأَوْلَادِ كَمَثَلِ غَيْثٍ أَعْجَبَ الْكُفَّارَ نَبَاتُهُ ثُمَّ يَهِيجُ فَتَرَاهُ مُصْفَرًّا ثُمَّ يَكُونُ حُطَامًا وَفِي الْآخِرَةِ عَذَابٌ شَدِيدٌ وَمَغْفِرَةٌ مِنَ اللَّهِ وَرِضْوَانٌ وَمَا الْحَيَاةُ الدُّنْيَا إِلَّا مَتَاعُ الْغُرُورِ ﴿٢٠﴾﴾

تخبر هذه الآية الناس عن حقيقة الدنيا، فهي دار لعب ولهو وزينة وتفاخر، وفيها يُكاثِر الناس أموالهم ويُضاعفوها، كما يتكاثرون بالأولاد؛ فيُعجبون بالدنيا ويركنون لها لما فيها من سرور وأشياء جميلة فتُلهيهم عن ذكر الله تعالى.

وهذا الإعجاب أشبه بمن أُعجب بمطر أصاب نباتاً فنما وأثمر ثم صار ذا بهجة؛ فاصفرّ؛ ثم صار حطاماً مكسراً لا نفع فيه.

كذلك هي الحياة الدنيا متاع يُغرّ من أُعجب به.

ذكر ابن عاشور: إن الله أقام نظام أحوال الناس في الحياة الدنيا على حكمة أن تكون الحياة وسيلة لبلوغ النفوس إلى ما هيّأها الله له من العروج إلى سمو المَلَكِيَّة كما دل عليه قوله: ﴿إني جاعل في الأرض خليفة﴾ البقرة: ٣٠، فكان نظام هذه الحياة على أن تجري أمور الناس فيها على حسب تعاليم الهدى للفوز بالحياة الأبدية في النعيم الحق بعد الممات والبعث،

فإذا الناسُ قد حرفوها عن مهيعها، وقد تضمن ذلك قوله تعالى: ﴿ من عمل صالحاً من ذكر أو أنثى وهو مؤمن فلنحيينه حياة طيبة ولنجزينهم أجرهم بأحسن ما كانوا يعملون ﴾ النحل: ٩٧.

ٱلَّذِينَ يَبۡخَلُونَ وَيَأۡمُرُونَ ٱلنَّاسَ بِٱلۡبُخۡلِۗ وَمَن يَتَوَلَّ فَإِنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلۡغَنِيُّ ٱلۡحَمِيدُ ﴿٢٤﴾

إن البخلاء ومن يأمرون الناس بالبخل عملهم مذموم، والله عنهم غني حميد. والبخل مؤداه وقف حركة الأسواق وتباطؤ دورة الاقتصاد بشكل كبير؛ إذا تحول لسلوك عام وكلي؛ مما يقضي على أي نمو ممكن فيه.

ذكر الطنطاوي: فكأنه تعالى يقول: والله لا يحب الذين يبخلون بما أعطاهم من فضله، بخلاً يجعلهم لا ينفقون شيئاً منه في وجوه الخير، لأن حبهم لأموالهم جعلهم يمسكونها ويشحون بها شحا شديداً، ولا يكتفون بذلك، بل يأمرون غيرهم بالبخل والشح.

لَقَدۡ أَرۡسَلۡنَا رُسُلَنَا بِٱلۡبَيِّنَٰتِ وَأَنزَلۡنَا مَعَهُمُ ٱلۡكِتَٰبَ وَٱلۡمِيزَانَ لِيَقُومَ ٱلنَّاسُ بِٱلۡقِسۡطِۖ وَأَنزَلۡنَا ٱلۡحَدِيدَ فِيهِ بَأۡسٞ شَدِيدٞ وَمَنَٰفِعُ لِلنَّاسِ وَلِيَعۡلَمَ ٱللَّهُ مَن يَنصُرُهُۥ وَرُسُلَهُۥ بِٱلۡغَيۡبِۚ إِنَّ ٱللَّهَ قَوِيٌّ عَزِيزٞ ﴿٢٥﴾

أرسل الله تعالى رسلاً مُؤيدين بسائر الكتب ليبيّنوا للناس الحق المبين، وعرّفهم بالعدل الذي هو ميزان القسط. كما أنزل الله تعالى إلى هذه الأرض مادة معدن الحديد لما فيه من قوة شديدة، ولما فيه نفع كثير للناس من صناعة وتجارة وعمارة.

يستفاد من الآية الكريمة أن من ضرورات إقامة العدل القوة والبأس؛ أي بأس الإدارة وقوة الإرادة، وقد فهم عمر رضي الله عنه ذلك حين قال: يزع الله بالسلطان ما لا يزع بالقرآن. والحديد رمز القوة وعادة ما يكون تحت سلطة السلطان وقدرته.

ذكر السعدي: ﴿وَأَنْزَلْنَا الْحَدِيدَ فِيهِ بَأْسٌ شَدِيدٌ﴾ من آلات الحرب، كالسلاح والدروع وغير ذلك. ﴿وَمَنَافِعُ لِلنَّاسِ﴾ وهو ما يشاهد من نفعه في أنواع الصناعات والحرف، والأواني وآلات الحرث، حتى إنه قلَّ أن يوجد شيء إلا وهو يحتاج إلى الحديد.

ذكر الطنطاوي: أوجدنا الحديد، وأنعمنا به عليكم، ليكون قوة شديدة لكم في الدفاع عن أنفسكم، وفي تأديب أعدائكم، وليكون كذلك مصدر منفعة لكم في مصالحكم وفي شئون حياتكم.

تفسير سورة المجادلة

رقم السورة: ٥٨ وهي مدنية وعدد آياتها: ٢٢.

ذكر الطنطاوي: المتأمل في سورة المجادلة، يراها قد بيّنت حكم الظهار، وأبطلت ما كان شائعاً من أن الرجل إذا ظاهر من زوجته لا تحلُّ له.

وساقت جانباً من فضل الله تعالى على عباده، حيث أجاب دعاء امرأة قد اشتكت إليه، وقضى في مساءلتها قبل أن تقوم من مكانها، وهي بجانب النبي صلى الله عليه وسلم تجادله في شأن زوجها.

كما يراها قد كشفت القناع عن المنافقين، وفضحتهم على أقوالهم الباطلة، وأفعالهم الذميمة، وموالاتهم لأعداء الله ورسوله.

كما يراها قد ساقت ألواناً متعددة من الآداب التي يجب على المؤمنين أن يتحلوا بها، وبشرتهم برضا الله تعالى عنهم، متى أخلصوا له سبحانه العبادة والطاعة.

وَالَّذِينَ يُظَاهِرُونَ مِن نِّسَائِهِمْ ثُمَّ يَعُودُونَ لِمَا قَالُوا فَتَحْرِيرُ رَقَبَةٍ مِّن قَبْلِ أَن يَتَمَاسَّا ذَٰلِكُمْ تُوعَظُونَ بِهِ وَاللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرٌ ﴿٣﴾

تحرير الرقبة كفارة المخطئ وهي عقوبة مالية ذات أثر اجتماعي، ففي ذلك سبيل لتحرير الناس من العبودية، وطالما أن الناس تخطئ فالكفارة قائمة.

﴿فَمَن لَّمْ يَجِدْ فَصِيَامُ شَهْرَيْنِ مُتَتَابِعَيْنِ مِن قَبْلِ أَن يَتَمَاسَّا ۖ فَمَن لَّمْ يَسْتَطِعْ فَإِطْعَامُ سِتِّينَ مِسْكِينًا ۚ ذَٰلِكَ لِتُؤْمِنُوا بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ ۚ وَتِلْكَ حُدُودُ اللَّهِ ۗ وَلِلْكَافِرِينَ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴿٤﴾﴾

فإن لم يجد رقبة يُحررها؛ فتكون العقوبة جسدية بصيام شهرين متتابعين؛ فمن لم يستطع فالعقوبة مادية فقط بإطعام ستين مسكيناً.

وهذا إنفاق مؤداه رفع الفقر عن الناس بإطعامهم.

﴿يَوْمَ يَبْعَثُهُمُ اللَّهُ جَمِيعًا فَيُنَبِّئُهُم بِمَا عَمِلُوا ۚ أَحْصَاهُ اللَّهُ وَنَسُوهُ ۚ وَاللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ شَهِيدٌ ﴿٦﴾﴾

الإحصاء مرحلة مهمة تكون بعد العدّ حيث تشمل المعلومة قيمة أكبر.

﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِذَا نَاجَيْتُمُ الرَّسُولَ فَقَدِّمُوا بَيْنَ يَدَيْ نَجْوَاكُمْ صَدَقَةً ۚ ذَٰلِكَ خَيْرٌ لَّكُمْ وَأَطْهَرُ ۚ فَإِن لَّمْ تَجِدُوا فَإِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿١٢﴾﴾

يأمر الله تعالى المؤمنين بالصدقة كلما ناجوا رسوله محمد صلى الله عليه وسلم تعظيماً له، وذلك خير لهم وأطهر، يُكثر خيرهم وأجرهم، فإن لم يجدوا صدقة، عفا الله عنهم.

ذكر ابن عاشور: الأظهر أن هذه الصدقة شرعت بعد الزكاة فتكون لحكمة إغناء الفقراء يوماً فيوماً لأن الزكاة تدفع في رؤوس السنين وفي مُعيَّن الفصول، فلعل ما يصل إلى الفقراء منها يستنفدونه قبل حلول وقت الزكاة القابلة.

أَأَشْفَقْتُمْ أَن تُقَدِّمُوا بَيْنَ يَدَيْ نَجْوَاكُمْ صَدَقَاتٍ ۚ فَإِذْ لَمْ تَفْعَلُوا وَتَابَ اللَّهُ عَلَيْكُمْ فَأَقِيمُوا الصَّلَاةَ وَآتُوا الزَّكَاةَ وَأَطِيعُوا اللَّهَ وَرَسُولَهُ ۚ وَاللَّهُ خَبِيرٌ بِمَا تَعْمَلُونَ ﴿١٣﴾

ثم رفع الله عن المؤمنين مشقة الصدقات عند كل مناجاة، ولم يؤاخذهم بترك الصدقة بين يدي المناجاة، وبقي التعظيم للرسول والاحترام، وأبقى عليهم إقامة الصلاة كطاعة جسدية وإيتاء الزكاة كطاعة مالية وفي ذلك طاعة الله ورسوله. وهذه الآية نَسَخت الآية التي سبقتها.

ويستفاد من هذه الآية الكريمة ضرورة تغيير بعض الأحكام التي يضعها الولاة على الناس إن رأوا فيها مشقة عليهم، فالأصل الاستطاعة والقدرة.

ذكر القرطبي: أأشفقتم استفهام معناه التقرير. قال ابن عباس: أأشفقتم أي: أبخلتم بالصدقة، وقيل: خفتم، والإشفاق الخوف من المكروه.

﴿لَّن تُغْنِيَ عَنْهُمْ أَمْوَالُهُمْ وَلَا أَوْلَادُهُم مِّنَ اللَّهِ شَيْئًا ۚ أُولَٰئِكَ أَصْحَابُ النَّارِ ۖ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ ﴿١٧﴾﴾

أولئك الذين تولوا عن الإيمان بالله لن تغني عنهم أموالهم ولا أولادهم شيئاً من العذاب.

ذكر ابن عاشور: كان المنافقون من أهل الثراء بالمدينة، وكان ثراؤهم من أسباب إعراضهم عن قبول الإِسلام لأنهم كانوا أهل سيادة فلم يرضوا أن يصيروا في طبقة عموم الناس. وكان عبد الله بنُ أُبيّ ابن سلول مهيّأً لأن يُملِّكوه على المدينة قبيل إسلام الأنصار، فكانوا يفخرون على المسلمين بوفرة الأموال وكثرة العشائر وذلك في السنة الأولى من الهجرة، ومن ذلك قول عبدِ الله بن أُبيّ ابن سلول: ﴿لئن رجعنا إلى المدينة ليُخرجن الأعزّ منها الأذل﴾، يريد بالأعزّ فريقه، وبالأذلّ فريق المسلمين؛ فآذنهم الله بأن أموالهم وأولادهم لا تغني عنهم مما توعدهم الله به من المذلة في الدنيا والعذاب في الآخرة.

ذكر الطنطاوي: إن هؤلاء المنافقين المتفاخرين بأموالهم وأولادهم، لن تغني عنهم أموالهم ولا أولادهم شيئاً من الغناء؛ أي الغنى.

تفسير سورة الحشر

رقم السورة: ٥٩ وهي مدنية وعدد آياتها: ٢٤.

ذكر الطنطاوي: مما تحدثت عنه السورة: تقسيم أموال بني النضير، وعن حكمة الله تعالى في إرشاده النبي صلى الله عليه وسلم إلى هذا التقسيم.

﴿وَمَا أَفَاءَ اللَّهُ عَلَىٰ رَسُولِهِ مِنْهُمْ فَمَا أَوْجَفْتُمْ عَلَيْهِ مِنْ خَيْلٍ وَلَا رِكَابٍ وَلَٰكِنَّ اللَّهَ يُسَلِّطُ رُسُلَهُ عَلَىٰ مَنْ يَشَاءُ ۚ وَاللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ ﴿٦﴾﴾

الفيء هو ما أُخذ من مال الكفار بحق بغير قتال، كالمال الذي تركه يهود بني النضير وهربوا خوفاً من المسلمين. وهو مصدر من مصادر تمويل بيت مال المسلمين.

ذكر الطنطاوي: والمراد به هنا معناه الشرعي: وهو ما حصل عليه المؤمنون من أموال أعدائهم بدون قتال، كأن يكون هذا المال عن طريق الصلح، كما فعل بنو النضير، فقد صالحوا المؤمنين على الخروج من المدينة، على أن يكون لكل ثلاثة منهم حمل بعير – سوى السلاح – وأن يتركوا بقية أموالهم للمسلمين.

ذكر ابن عاشور: قال أبو بكر ابن العربي: لا خلاف بين العلماء أن الآية الأولى خاصة لرسول الله صلى الله عليه وسلم أي هذه الآية الأولى من

الآيتين المذكورتين في هذه السورة خاصة بأموال بني النضير، وعلى أنها خاصة لرسول الله صلى الله عليه وسلم يضعها حيث يشاء.

وبذلك قال عمر بن الخطاب بمحضر عثمان، وعبد الرحمن بن عوف، والزبير، وسعد، وهو قول مالك فيما روَى عنه ابن القاسم وابن وهب.

قال: كانت أموال بني النضير صافية لرسول الله صلى الله عليه وسلم واتفقوا على أن النبي صلى الله عليه وسلم لم يخمسها. واختُلف في القياس عليها كل مال لم يوجف عليه.

قال ابن عطية: قال بعض العلماء وكذلك كل ما فتح الله على الأئمة مما لم يوجف عليه فهو لهم خاصة. وسيأتي تفسير ذلك في الآية بعدها.

مَّا أَفَاءَ اللَّهُ عَلَىٰ رَسُولِهِ مِنْ أَهْلِ الْقُرَىٰ فَلِلَّهِ وَلِلرَّسُولِ وَلِذِي الْقُرْبَىٰ وَالْيَتَامَىٰ وَالْمَسَاكِينِ وَابْنِ السَّبِيلِ كَيْ لَا يَكُونَ دُولَةً بَيْنَ الْأَغْنِيَاءِ مِنكُمْ ۚ وَمَا آتَاكُمُ الرَّسُولُ فَخُذُوهُ وَمَا نَهَاكُمْ عَنْهُ فَانتَهُوا ۚ وَاتَّقُوا اللَّهَ ۖ إِنَّ اللَّهَ شَدِيدُ الْعِقَابِ ﴿٧﴾

ذكر القرطبي: قال ابن عباس: هي قريظة والنضير، وهما بالمدينة وفدك، وهي على ثلاثة أيام من المدينة وخيبر. وقرى عرينة وينبع جعلها الله

لرسوله. وبين أن في ذلك المال الذي خصه بالرسول عليه السلام سهمان لغير الرسول نظراً منه لعباده.

وقد تكلم العلماء في هذه الآية والتي قبلها، هل معناهما واحد أو مختلف، والآية التي في الأنفال؛ فقال قوم من العلماء: إن قوله تعالى: ﴿ما أفاء الله على رسوله من أهل القرى﴾ منسوخ بما في سورة الأنفال من كون الخُمس لمن سمي له، والأخماس الأربعة لمن قاتل. وكان في أول الإِسلام تقسم الغنيمة على هذه الأصناف ولا يكون لمن قاتل عليها شيء. وهذا قول يزيد بن رومان وقتادة وغيرهما. ونحوه عن مالك.

وقال قوم: إنما غُنِم بصلح من غير إيجاف خيل ولا ركاب؛ فيكون لمن سمى الله تعالى فيه فيئاً والأولى للنبي صلى الله عليه وسلم خاصة، إذا أخذ منه حاجته كان الباقي في مصالح المسلمين.

وقال معمر: الأولى للنبي صلى الله عليه وسلم، والثانية هي الجزية والخراج للأصناف المذكورة فيه. والثالثة الغنيمة في سورة الأنفال للغانمين.

وقال قوم منهم الشافعي: إن معنى الآيتين واحد؛ أي ما حصل من أموال الكفار بغير قتال قسم على خمسة أسهم؛ أربعة منها للنبي صلى الله عليه وسلم. وكان الخمس الباقي على خمسة أسهم: سهم لرسول الله صلى الله عليه وسلم أيضا وسهم لذوي القربى – وهم بنو هاشم وبنو المطلب –

لأنهم مُنعوا الصدقة؛ فجُعل لهم حق في الفيء، وسهم لليتامى، وسهم للمساكين، وسهم لابن السبيل. وأما بعد وفاة رسول الله صلى الله عليه وسلم، فالذي كان من الفيء لرسول الله صلى الله عليه وسلم يصرف عند الشافعي في قول إلى المجاهدين المترصدين للقتال في الثغور؛ لأنهم القائمون مقام الرسول عليه الصلاة والسلام. وفي قول آخر له: يصرف إلى مصالح المسلمين من سد الثغور وحفر الأنهار وبناء القناطر؛ يقدم الأهم فالأهم، وهذا في أربعة أخماس الفيء. فأما السهم الذي كان له من خمس الفيء والغنيمة فهو لمصالح المسلمين بعد موته صلى الله عليه وسلم بلا خلاف؛ كما قال عليه الصلاة والسلام: "ليس لي من غنائمكم إلا الخمس، والخمس مردود فيكم". وقد مضى القول فيه في سورة "الأنفال".

وكذلك ما خلفه من المال غير موروث، بل هو صدقة يصرف عنه إلى مصالح المسلمين؛ كما قال عليه السلام: "إنا لا نورث، ما تركناه صدقة". وقيل: كان مال الفيء لنبيه صلى الله عليه وسلم، لقوله تعالى: ﴿ما أفاء الله على رسوله﴾؛ فأضافه إليه؛ غير أنه كان لا يتأثل مالا، إنما كان يأخذ بقدر حاجة عياله ويصرف الباقي في مصالح المسلمين.

قال القاضي أبو بكر بن العربي: لا إشكال أنها ثلاثة معان في ثلاث آيات:

أما الآية الأولى فهي قوله: ﴿هو الذي أخرج الذين كفروا من أهل الكتاب من ديارهم لأول الحشر﴾؛ ثم قال تعالى: ﴿وما أفاء الله على رسوله منهم﴾؛ يعني من أهل الكتاب معطوفا عليهم. فما أوجفتم عليه من خيل ولا ركاب يريد كما بينا؛ فلا حق لكم فيه، ولذلك قال عمر: إنها كانت خالصة لرسول الله صلى الله عليه وسلم، يعني بني النضير وما كان مثلها. فهذه آية واحدة ومعنى متحد.

الآية الثانية: قوله تعالى: ﴿ما أفاء الله على رسوله من أهل القرى فلله وللرسول﴾، وهذا كلام مبتدأ غير الأول لمستحق غير الأول.

وسمى الآية الثالثة آية الغنيمة، ولا شك في أنه معنى آخر باستحقاق ثان لمستحق آخر، بيد أن الآية الأولى والثانية اشتركتا في أن كل واحدة منهما تضمنت شيئاً أفاءه الله على رسوله، واقتضت الآية الأولى أنه حاصل بغير قتال، واقتضت آية الأنفال أنه حاصل بقتال، وعنيت الآية الثالثة وهي قوله تعالى: ﴿ما أفاء الله على رسوله من أهل القرى﴾ عن ذكر حصوله بقتال أو بغير قتال؛ فنشأ الخلاف من هاهنا، فمن طائفة قالت: هي ملحقة بالأولى، وهو مال الصلح كله ونحوه. ومن طائفة قالت: هي

ملحقة بالثانية وهي آية الأنفال. والذين قالوا إنها ملحقة بآية الأنفال اختلفوا؛ هل هي منسوخة كما تقدم أو مُحكمة؟ وإلحاقها بشهادة الله بالتي قبلها أولى؛ لأن فيه تجديد فائدة ومعنى. ومعلوم أن حمل الحرف من الآية فضلا عن الآية على فائدة متجددة أولى من حمله على فائدة معادة.

وروى ابن وهب عن مالك في قوله تعالى: ﴿فما أوجفتم عليه من خيل ولا ركاب﴾ بني النضير، لم يكن فيها خمس ولم يوجف عليها بخيل ولا ركاب. كانت صافية لرسول الله صلى الله عليه وسلم، فقسمها بين المهاجرين وثلاثة من الأنصار؛ حسب ما تقدم. وقوله: ﴿ما أفاء الله على رسوله من أهل القرى﴾ هي قريظة، وكانت قريظة والخندق في يوم واحد. قال ابن العربي: قول مالك إن الآية الثانية في بني قريظة، إشارة إلى أن معناها يعود إلى آية الأنفال، ويلحقها النسخ. وهذا أقوى من القول بالإِحكام. ونحن لا نختار إلا ما قسمنا وبيّنا أن الآية الثانية لها معنى مجدد حسب ما دللنا عليه.

قلت: ما اختاره حسن. وقد قيل إن سورة "الحشر" نزلت بعد الأنفال، فمن المحال أن ينسخ المتقدم المتأخر. وقال ابن أبي نجيح: المال ثلاثة:

مغنم، أو فيء، أو صدقة، وليس منه درهم إلا وقد بين الله موضعه. وهذا أشبه.

الأموال التي للأئمة والولاة فيها مدخل ثلاثة أضرب:

- ما أخذ من المسلمين على طريق التطهير لهم؛ كالصدقات والزكوات.
- والثاني: الغنائم؛ وهو ما يحصل في أيدي المسلمين من أموال الكافرين بالحرب والقهر والغلبة.
- والثالث: الفيء، وهو ما رجع للمسلمين من أموال الكفار عفوا صفوا من غير قتال ولا إيجاف؛ كالصلح والجزية والخراج والعشور المأخوذة من تجار الكفار. ومثله أن يهرب المشركون ويتركوا أموالهم، أو يموت أحد منهم في دار الإسلام ولا وارث له.

فأما الصدقة فمصرفها الفقراء والمساكين والعاملين عليها؛ حسب ما ذكره الله تعالى، وقد مضى في "براءة". وأما الغنائم فكانت في صدر الإسلام للنبي صلى الله عليه وسلم يصنع فيها ما شاء؛ كما قال في سورة "الأنفال": ﴿قل الأنفال لله والرسول﴾؛ ثم نُسخ بقوله تعالى: ﴿واعلموا أنما غنمتم من شيء﴾ الآية. وقد مضى في الأنفال بيانه. فأما الفيء فقسمته وقسمة الخُمس سواء. والأمر عند مالك فيهما إلى الإمام، فإن رأى حبسهما لنوازل تنزل بالمسلمين فعل، وإن رأى قسمتهما أو قسمة

أحدهما قسمه كله بين الناس، وسوى فيه بين عربيهم ومولاهم. ويبدأ بالفقراء من رجال ونساء حتى يغنوا، ويعطوا ذوو القربى من رسول الله صلى الله عليه وسلم من الفيء سهمهم على ما يراه الإمام، وليس له حد معلوم. واختلف في إعطاء الغني منهم؛ فأكثر الناس على إعطائه لأنه حق لهم. وقال مالك: لا يُعطى منه غير فقرائهم، لأنه جُعل لهم عوضاً من الصدقة. وقال الشافعي: أيما حصل من أموال الكفار من غير قتال كان يقسم في عهد النبي صلى الله عليه وسلم على خمسة وعشرين سهماً: عشرون للنبي صلى الله عليه وسلم يفعل فيها ما يشاء، والخمس يقسم على ما يقسم عليه خمس الغنيمة. قال أبو جعفر أحمد بن الداودي: وهذا قول ما سبقه به أحد علمناه، بل كان ذلك خالصا له؛ كما ثبت في الصحيح عن عمر مبيناً للآية. ولو كان هذا لكان قوله: خالصة لك من دون المؤمنين يدل على أنه يجوز الموهوبة لغيره، وأن قوله: خالصة يوم القيامة يجوز أن يشركهم فيها غيرهم. وقد مضى قول الشافعي مستوعباً في ذلك والحمد لله. ومذهب الشافعي رضي الله عنه: أن سبيل خمس الفيء سبيل خمس الغنيمة، وأن أربعة أخماسه كانت للنبي صلى الله عليه وسلم، وهي بعده لمصالح المسلمين. وله قول آخر: أنها بعده للمرصدين أنفسهم للقتال بعده خاصة؛ كما تقدم.

قال علماؤنا: ويقسم كل مال في البلد الذي جُبي فيه، ولا ينقل عن ذلك البلد الذي جُبي فيه حتى يَغنوا، ثم ينقل إلى الأقرب من غيرهم، إلا أن ينزل بغير البلد الذي جبي فيه فاقة شديدة، فينتقل ذلك إلى أهل الفاقة حيث كانوا، كما فعل عمر بن الخطاب رضي الله عنه في أعوام الرمادة، وكانت خمسة أعوام أو ستة. وقد قيل عامين، وقيل: عام فيه اشتد الطاعون مع الجوع. وإن لم يكن ما وصفنا، ورأى الإمام إيقاف الفيء أوقفه لنوائب المسلمين، ويعطي منه المنفوس ويبدأ بمن أبوه فقير. والفيء حلال للأغنياء. ويسوي بين الناس فيه إلا أنه يؤثر أهل الحاجة والفاقة. والتفضيل فيه إنما يكون على قدر الحاجة. ويعطى منه الغرماء ما يؤدون به ديونهم. ويعطي منه الجائزة والصلة إن كان ذلك أهلا، ويرزق القضاة والحكام ومن فيه منفعة للمسلمين. وأولاهم بتوفر الحظ منهم أعظمهم للمسلمين نفعا. ومن أخذ من الفيء شيئا في الديوان كان عليه أن يغزو إذا غزى.

قوله تعالى: ﴿كي لا يكون دولة﴾ قراءة العامة يكون بالياء: دولة بالنصب، أي كي لا يكون الفيء دولة، وقرأ أبو جعفر والأعرج وهشام – عن ابن عامر – وأبو حيوة "تكون" بتاء "دولة" بالرفع، أي كي لا تقع دولة؛ فكان تامة. و"دولة" رفع على اسم كان ولا خبر له. ويجوز أن

تكون ناقصة وخبرها بين الأغنياء منكم وإذا كانت تامة فقوله: بين الأغنياء منكم متعلق بـ "دولة" على معنى: تداول بين الأغنياء منكم. ويجوز أن يكون بين الأغنياء منكم وصفا لـ "دولة" . وقراءة العامة دولة بضم الدال. وقرأها السلمي وأبو حيوة بالنصب. قال عيسى بن عمر ويونس والأصمعي: هما لغتان بمعنى واحد. وقال أبو عمرو بن العلاء: الدولة (بالفتح) الظفر في الحرب وغيره، وهي المصدر. وبالضم اسم الشيء الذي يتداول من الأموال. وكذا قال أبو عبيدة: الدولة اسم الشيء الذي يتداول. والدولة الفعل. ومعنى الآية: فعلنا ذلك في هذا الفيء، كي لا تقسمه الرؤساء والأغنياء والأقوياء بينهم دون الفقراء والضعفاء، لأن أهل الجاهلية كانوا إذا غنموا أخذ الرئيس ربعها لنفسه، وهو المرباع. ثم يصطفي منها أيضا بعد المرباع ما شاء؛ وفيها قال شاعرهم: لك المرباع منها والصفايا. يقول: كي لا يُعمل فيه كما كان يُعمل في الجاهلية. فجعل الله هذا لرسوله صلى الله عليه وسلم؛ يقسمه في المواضع التي أمر بها ليس فيها خُمس، فإذا جاء خُمس وقع بين المسلمين جميعاً.

قوله تعالى: ﴿وما آتاكم الرسول فخذوه وما نهاكم عنه فانتهوا﴾؛ أي ما أعطاكم من مال الغنيمة فخذوه، وما نهاكم عنه من الأخذ والغلول فانتهوا؛ قاله الحسن وغيره. السدي: ما أعطاكم من مال الفيء فاقبلوه،

وما منعكم منه فلا تطلبوه. وقال ابن جريج: ما آتاكم من طاعتي فافعلوه، وما نهاكم عنه من معصيتي فاجتنبوه. الماوردي: وقيل إنه محمول على العموم في جميع أوامره ونواهيه؛ لا يأمر إلا بصلاح ولا ينهى إلا عن فساد.

قلت: هذا هو معنى القول الذي قبله. فهي ثلاثة أقوال.

قال المهدوي: قوله تعالى: ﴿وما آتاكم الرسول فخذوه وما نهاكم عنه فانتهوا﴾، هذا يوجب أن كل ما أمر به النبي صلى الله عليه وسلم أمر من الله تعالى. والآية وإن كانت في الغنائم فجميع أوامره صلى الله عليه وسلم ونواهيه دخل فيها. وقال الحكم بن عمير – وكانت له صحبة – قال النبي صلى الله عليه وسلم: "إن هذا القرآن صعب مستصعب عسير على من تركه، يسير على من اتبعه وطلبه، وحديثي صعب مستصعب وهو الحكم، فمن استمسك بحديثي وحفظه نجا مع القرآن، ومن تهاون بالقرآن وحديثي خسر الدنيا والآخرة. وأمرتم أن تأخذوا بقولي وتكتنفوا أمري وتتبعوا سنتي، فمن رضي بقولي فقد رضي بالقرآن، ومن استهزأ بقولي فقد استهزأ بالقرآن"، قال الله تعالى: ﴿وما آتاكم الرسول فخذوه وما نهاكم عنه فانتهوا﴾.

قال عبد الرحمن بن زيد: لقي ابن مسعود رجلاً مُحرماً وعليه ثيابه؛ فقال له: انزع عنك هذا. فقال الرجل: أتقرأ علي بهذا آية من كتاب الله تعالى ؟ قال: نعم، ﴿وما آتاكم الرسول فخذوه وما نهاكم عنه فانتهوا﴾. وقال عبد الله بن محمد بن هارون الفريابي: سمعت الشافعي رضي الله عنه يقول: سلوني عما شئتم أخبركم من كتاب الله تعالى وسنة نبيكم صلى الله عليه وسلم؛ قال: فقلت له: ما تقول – أصلحك الله – في المُحرِم يقتل الزنبور؟ قال: فقال: بسم الله الرحمن الرحيم، قال الله تعالى: ﴿وما آتاكم الرسول فخذوه وما نهاكم عنه فانتهوا﴾، وحدثنا سفيان بن عيينة عن عبد الملك بن عمير عن ربعي بن حراش عن حذيفة بن اليمان قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: "اقتدوا باللذين من بعدي أبي بكر وعمر". حدثنا سفيان بن عيينة عن مسعر بن كدام عن قيس بن مسلم عن طارق بن شهاب عن عمر بن الخطاب رضي الله عنه: أنه أمر بقتل الزنبور. قال علماؤنا: وهذا جواب في نهاية الحُسن، أفتى بجواز قتل الزنبور في الإحرام، وبين أنه يقتدي فيه بعمر، وأن النبي صلى الله عليه وسلم أمر بالاقتداء به، وأن الله سبحانه أمر بقبول ما يقوله النبي صلى الله عليه وسلم؛ فجواز قتله مستنبط من الكتاب والسنة. وقد مضى هذا المعنى من قول عكرمة حين سئل عن أمهات الأولاد فقال: هن أحرار في

سورة "النساء" عند قوله تعالى: ﴿أطيعوا الله وأطيعوا الرسول وأولي الأمر منكم﴾. وفي صحيح مسلم وغيره عن علقمة عن ابن مسعود قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: "لعن الله الواشمات والمستوشمات، والمتنمصات، والمتفلجات للحسن المغيرات خلق الله". فبلغ ذلك امرأة من بني أسد يقال لها أم يعقوب؛ فجاءت فقالت: بلغني أنك لعنت كيت وكيت! فقال: وما لي لا ألعن من لعن رسول الله صلى الله عليه وسلم وهو في كتاب الله! فقالت: لقد قرأت ما بين اللوحين فما وجدت فيه ما تقول. فقال: لئن كنت قرأتيه لقد وجدتيه! أما قرأت: ﴿وما آتاكم الرسول فخذوه وما نهاكم عنه فانتهوا﴾، قالت: بلى. قال: فإنه قد نهى عنه (الحديث).

ذكر ابن عاشور: جمهور العلماء جعلوا هذه الآية ابتداء كلام، أي على الاستئناف الابتدائي، وأنها قُصد منها حكم غير الحكم الذي تضمنته الآية التي قبلها.

ومن هؤلاء مالك وهو قول الحنفية فجعلوا مضمون الآية التي قبلها أموالَ بني النضير خاصة، وجعلوا الآية الثانية هذه إخباراً عن حكم الأَفيَاء التي حصلت عند فتح قرىً أخرى بعد غزوة بني النضير. مثل قريظة سنة خمس، وفَدكٍ سنة سبع، ونحوهما فعيّنته هذه الآية للأصناف المذكورة

فيها، ولا حق في ذلك لأهل الجيش أيضاً وهذا الذي يجري على وفاق كلام عمر بن الخطاب في قضائه بين العباس وعلي فيما بأيديهما من أموال بني النضير على احتمال فيه، وهو الذي يقتضيه تغيير أسلوب التعْبير بقوله هنا: ﴿ما أفاء الله على رسوله من أهل القرى﴾ بعد أن قال في التي قبلها ﴿وما أفاء الله على رسوله منهم﴾ الحشر: ٦؛ فإِن ضمير ﴿منهم﴾ راجع لـ ﴿الذين كفروا من أهل الكتاب﴾ الحشر: ٢، وهم بنو النضير لا محالة. وعلى هذا القول يجوز أن تكون هذه الآية نزلت عقب الآية الأولى، ويجوز أن تكون نزلت بعد مدة؛ فإِن فتح القُرى وقع بعد فتح النضير بنحو سنتين.

ومن العلماء من جعل هذه الآية كلمة وبياناً للآية التي قبلها، أي بياناً للإِجمال الواقع في قوله تعالى: ﴿فما أوجفتم عليه من خيل﴾ الحشر: ٦، لأن الآية التي قبلها اقتصرت على الإِعلام بأن أهل الجيْش لا حقّ لهم فيه، ولم تبين مستحقَّه وأشعر قولُه: ﴿ولكن الله يسلط رسله على من يشاء﴾ الحشر: ٦، أنه مَالٌ لله تعالى يضعه حيث شاء على يد رسوله صلى الله عليه وسلم؛ فقد بينّ الله له مستحقّيه من غير أهل الجيش.

فموقع هذه الآية من التي قبلها موقع عطف البيان. ولذلك فصلت.

وممن قال بهذا الشافعيّ وعليه جرى تفسير صاحب الكشاف. ومقتضى هذا أن تكون أموال بني النضير مما يُخَمّس ولم يرو أحد أن رسول الله صلى الله عليه وسلم خمّسها بل ثبت ضدُّه، وعلى هذا يكون حكم أموال بني النضير حكماً خاصاً، أو تكون هذه الآية ناسخة للآية التي قبلها إن كانت نزلت بعدها بمدة.

قال ابن الفرس: ﴿ما أفاء الله على رسوله من أهل القرى﴾، وهذه الآية من المُشْكِلات إذا نُظرت مع الآية التي قبلها ومع آية الغنيمة من سورة الأنفال. ولا خلاف في أن قوله تعالى: ﴿وما أفاء الله على رسوله منهم﴾ الحشر: ٦؛ إنما نزلت فيما صار لرسول الله صلى الله عليه وسلم من أموال الكفار بغير إيجاف، وبذلك فسّرها عُمر ولم يخالفه أحد.

وأما آية الأنفال فلا خلاف أنها نزلت فيما صار من أموال الكفار بإيجاف، وأما الآية الثانية من الحشر فاختلف أهل العلم فيها فمنهم من أضافها إلى التي قبلها، ومنهم من أضافها إلى آية الأنفال وأنهما نزلتا بحكمين مختلفين في الغنيمة الموجف عليها، وأن آية الأنفال نسخت آية الحشر.

ومنهم من قال: إنها نزلت في معنى ثالث غير المعنيين المذكورين في الآيتين: واختلف الذاهبون إلى هذا: فقيل نزلت في خراج الأرض والجزية دون بقية الأموال، وقيل نزلت في حكم الأرض خاصة دون سائر أموال

الكفار (فتكون تخصيصاً لآية الأنفال) وإلى هذا ذهب مالك. والآية عند أهل هذه المقالة غير منسوخة. ومنهم من ذهب إلى تخيير الإمام.

والتعريف في قوله تعالى: ﴿من أهل القرى﴾ تعريف العهد وهي قرى معروفة عُدّت منها: قريظة، وفَدَك، وقرى عُرينة، واليُنْبُع، ووادي القُرى، والصفراء، فتحت في عهد النبي صلى الله عليه وسلم واختلف الناس في فتحها أكان عنوة أو صلحاً أو فَيئاً. والأكثر على أن فَدَك كانت مثل النضير.

ولا يختص جعله للرسول بخصوص ذات الرسول صلى الله عليه وسلم بل مثله فيه أيمة المسلمين.

وتقييد الفيء بفيء القرى جَرى على الغالب لأن الغالب أن لا تفتح إلا القرى لأن أهلها يحاصَرون فيستسلمون ويعطُون بأيديهم إذا اشتد عليهم الحصار، فأما النازلون بالبوادي فلا يُغلبون إلا بعد إيجاف وقتال فليس لقيد ﴿من أهل القرى﴾ مفهوم عندنا، وقد اختلف الفقهاء في حكم الفيء الذي يحصل للمسلمين بدون إيجاف. فمذهب مالك أنه لا يخمَّس وإنما تخمس الغنائم وهي ما غنمه المسلمون بإيجاف وقتال.

وذهب أبو حنيفة إلى التفصيل بين الأموال غير الأرضين وبين الأرضين. فأما غير الأرضين فهو مخمّس، وأما الأرضون فالخيار فيها للإمام بما يراه

أصلح إن شاء قسّمها وخمس أهلها فهم أرقاء، وإن شاء تركها على ملك أهلها وجعل خراجاً عليها وعلى أنفسهم.

وذهب الشافعي إلى أن جميع أموال الحرب مخمّسة وحمل حكم هاته الآية على حكم آية سورة الأنفال بالتخصيص أو بالنسخ.

وهذه الآية اقتضت أن صنفاً مما أفاء الله على المسلمين لم يجعل الله فيه نصيباً للغزاة وبذلك تحصل معارضة بين مقتضاها وبين قصر آية الأنفال التي لم تجعل لمن ذكروا في هذه الآية إلا الخُمس؛ فقال جمعٌ من العلماء: إن آية الأنفال نسخت حكم هذه الآية. وقال جمع: هذه الآية نسخت آيةَ الأنفال.

وقال قتادة: كانت الغنائم في صدر الإِسلام لهؤلاء الأصناف الخمسة ثم نسخ ذلك بآية الأنفال، وبذلك قال زيد بن رومان: قال القرطبي ونحوه عن مالك؛ على أن سورة الأنفال سابقة في النزول على سورة الحشر لأن الأنفال نزلت في غنائم بدر وسورة الحشر نزلت بعدها بسنتين.

إلا أن يقول قائل: إن آية الأنفال نزلت بعد آية الحشر تجديداً لما شرعه الله من التخميس في غنائم بدر، أي فتكون آية الحشر ناسخة لما فعله رسول الله صلى الله عليه وسلم في قسمة مغانم بدر، ثم نسخت آية الأنفال آية الحشر؛ فيكون إلحاقها بسورة الأنفال بتوقيف من النبي صلى الله عليه

وسلم، وقال القرطبي: قيل إن سورة الحشر نزلت بعد الأنفال، واتفقوا على أن تخميس الغنائم هو الذي استقر عليه العمل، أي بفعل النبي صلى الله عليه وسلم وبالإِجماع.

وليس يبعد عندي أن تكون القرى التي عنتها آية الحشر فتحت بحالة مترددة بين مجرد الفيء وبين الغنيمة، فشُرع لها حكم خاص بها، وإذ قد كانت حالتها غير منضبطة تعذر أن نقيس عليها ونُسخ حكمها واستقرّ الأمر على انحصار الفتوح في حالتين: حالة الفيء المجرد وما ليس مجردَ فيء. وسقط حكم آية الحشر بالنسخ أو بالإِجماع. والإِجماع على مخالفة حكم النص يعتبر ناسخاً لأنه يتضمن ناسخاً. وعن معمر أنه قال: بلغني أن هذه الآية أي آية ﴿ما أفاء الله على رسوله من أهل القرى﴾ نزلت في أرض الخراج والجزْية.

ومن العلماء من حملها على أرض الكفار إذا أُخذت عنوة مثل سواد العراق دون ما كان من أموالهم غير أرض. كل ذلك من الحيرة في الجمع بين هذه الآية وآية سورة الأنفال مع أنها متقدمة على هذه مع ما روي عن عمر في قضية حكمه بين العباس وعلي، ومع ما فعله عُمر في سواد العراق، وقد عرفت موقع كل. وستعرف وجه ما فعله عمر في سواد العراق عند الكلام على قوله تعالى: ﴿والذين جاؤوا من بعدهم﴾ الحشر: ١٠.

ومن العلماء من جعل محمل هذه الآية على الغنائم كلها بناء على تفسيرهم الفيء بما يرادف الغنيمة. وزعموا أنها منسوخة بآية الأنفال.

وتقدم ما هو المراد من ذكر اسم الله تعالى في عداد من لهم المغانم والفيءُ والأصناف المذكورة في هذه الآية تقدم بيانها في سورة الأنفال.

و ﴿كي لا يكون دولة﴾ الخ تعليل لما اقتضاه لام التمليك من جعله ملكاً لأصناف كثيرة الأفراد، أي جعلناه مقسوماً على هؤلاء لأجل أن لا يكون الفيء دُولة بين الأغنياء من المسلمين؛ أي: لئلا يتداوله الأغنياء ولا ينال أهلَ الحاجة نصيباً منه.

والمقصود من ذلك؛ إبطال ما كان معتاداً في العرب قبل الإِسلام من استئثار قائد الجيش بأمور من المغانم وهي: المرباع، والصفايا، وما صالح عليه عدوّه دون قتال، والنشيطة، والفضول.

فالمرباع: ربُع المغانم كان يستأثر به قائد الجيش.

والصفايا: النفيس من المغانم الذي لا نظير له فتتعذر قسمته، كان يستأثر به قائد الجيش، وأما حُكمه فهو ما أعطاه العدوُّ من المال إذا نزلوا على حكم أمير الجيش.

والنشيطة: ما يصيبه الجيش في طريقه من مال عدوّهم قبل أن يصلوا إلى موضع القتال.

والفُضُول: ما يبْقى بعد قسمة المغانم مما لا يقبل القسمة على رؤوس الغُزاة مثل بعيرٍ وفرس.

وقد أبطل الإِسلام ذلك كله فجعل الفيء مصروفاً إلى ستة مصارف راجعة فوائدها إلى عموم المسلمين لسدّ حاجاتهم العامة والخاصة، فإن ما هو لله وللرسول صلى الله عليه وسلم إنما يجعله الله لما يأمر به رسوله صلى الله عليه وسلم وجعل الخمس من المغانم كذلك لتلك المصارف.

وقد بدا من هذا التعليل أن من مقاصد الشريعة: أن يكون المال دُولة بين الأمة الإِسلامية على نظام محكم في انتقاله من كل مال لم يسبق عليه ملك لأحد، مثل: المَوات، والفيء، واللقطات، والركاز، أو كان جزءاً معيناً مثل: الزكاة، والكفارات، وتخميس المغانم، والخراج، والمواريث، وعقود المعاملات التي بين جانبي مال وعمل مثل: القراض، والمغارسة، والمساقاة، وفي الأموال التي يظفر بها الظافر بدون عمل وسعي مثل: الفيء، والرّكاز، وما ألقاه البحر، وقد بينت ذلك في الكتاب الذي سميتُه «مقاصد الشريعة الإِسلامية».

والدُولة بضم الدال: ما يتداوله المتداولون. والتداول: التعاقب في التصرف في شيء. وخصها الاستعمال بتداول الأموال.

ذكر الطنطاوي: قسمة الفيء:

١ . خُمس لله ولرسوله؛ يُصرف في مصالح المسلمين العامة،

٢ . خُمس لذوي القربى؛ وهم بنو هاشم وبنو المطلب، حيث كانوا يسوى للذكرهم كما للإنثى وإنما دخل بنو المطلب في خمس الخمس، مع بني هاشم، ولم يدخل بقية بني عبد مناف، لأنهم شاركوا بني هاشم في دخولهم الشعب، حين تعاقدت قريش على هجرهم وعداوتهم فنصروا رسول الله صلى الله عليه وسلم، بخلاف غيرهم، ولهذا قال النبي صلى الله عليه وسلم، في بني عبد المطلب: "إنهم لم يفارقوني في جاهلية ولا إسلام".

٣ . خُمس لفقراء اليتامى.

٤ . خُمس للمساكين.

٥ . خُمس لأبناء السبيل، وهم الغرباء المنقطع بهم في غير أوطانهم.

إن تجزئة الفيء هي لمنع حصر المال وتجمعه في يد فئة دون أخرى من فئات المجتمع؛ حتى لا يغنوا على حساب غيرهم، ويزدادوا قوة على حساب الفقراء.

روى أسلم مولى عمر بن الخطاب بإسناد حسن: عن عُمرَ رضِيَ اللَّهُ عنهُ يقولُ اجتمِعُوا لِهذا المالِ فانظُروا لِمَنْ ترونَهُ ثُم قال لهمْ إنِّي أمرتُكمْ أنْ تجتمِعوا لِهذا المالِ فتنظُروا لِمَنْ ترونَهُ وإنِّي قدْ قرأتُ آياتٍ من كتابِ اللَّهِ

سمعتُ اللهَ يقولُ: ﴿ما أفَاءَ اللَّهُ عَلَى رَسُولِهِ من أهْلِ الْقُرَى فَلِلَّهِ ولِلرَّسُولِ ولِذِي الْقُرْبَى والْيَتَامَى والْمَسَاكِينِ وابْنِ السَّبِيلِ كَيْ لا يَكُونَ دُولَةً بَينْ الأَغْنياءِ مِنْكُمْ ومَا آتَاكُمُ الرَّسُولُ فَخُذُوهُ ومَا نَهاكُمْ عَنْهُ فَانْتَهُوا واتَّقُوا اللَّهَ إنَّ اللَّهَ شَدِيدُ الْعِقَابِ لِلْفُقَرَاءِ الْمُهَاجِرِينَ الَّذِينَ أُخْرِجُوا من دِيَارِهِمْ وأَمْوَالِهِمْ يَبْتَغُونَ فَضْلاً من اللَّهِ ورِضْوَاناً ويَنْصُرُونَ اللَّهَ ورَسُولَهُ أُولَئِكَ هُمُ الصَّادِقُونَ﴾،

واللهِ ما هوَ لهؤلاءِ وحدَهمْ، ﴿والَّذِينَ تَبَوَّءُوا الدَّارَ والإِيمَانَ من قَبْلِهِمْ يُحِبُّونَ مَنْ هَاجَرَ إِلَيْهِمْ ولاَ يَجِدُونَ في صُدُورِهِمْ حَاجَةً مِمَّا أُوتُوا ويُؤْثِرُونَ عَلَى أنْفُسِهِمْ﴾، الآيةُ،

واللهِ ما هوَ لهؤلاءِ وحدَهمْ، ﴿والَّذِينَ جَاءُوا من بَعْدِهِمْ﴾، الآيةُ،

واللهِ ما من أحدٍ من المسلمينَ إلَّا ولهُ حقٌّ في هذا المالِ أُعطِيَ مِنه أوْ مُنِعَ حتى راعٍ بِعدَنَ.

أي أن عمراً رأى أن هذا المال للمهاجرين وللأنصار ولجميع المسلمين ممن جاء بعدهم.

لِلْفُقَرَاءِ الْمُهَاجِرِينَ الَّذِينَ أُخْرِجُوا مِن دِيَارِهِمْ وَأَمْوَالِهِمْ يَبْتَغُونَ فَضْلاً مِّنَ اللَّهِ وَرِضْوَاناً وَيَنصُرُونَ اللَّهَ وَرَسُولَهُ أُولَئِكَ هُمُ الصَّادِقُونَ ﴿٨﴾

خُص الفقراء المهاجرون بأموال الفيء لأنهم تركوا أموالهم وهاجروا فراراً بدينهم ليبتغوا فضل الله ورضوانه ولنصرة رسوله صلى الله عليه وسلم.

ذكر البغوي: قال قتادة: هؤلاء المهاجرون الذين تركوا الديار والأموال والعشائر وخرجوا حباً لله ولرسوله واختاروا الإسلام على ما كانوا فيه من شدة حتى ذكر لنا أن الرجل كان يعصب الحجر على بطنه ليقيم به صلبه من الجوع وكان الرجل يتخذ الحفيرة في الشتاء ما له دثار غيرها.

أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ نَافَقُوا يَقُولُونَ لِإِخْوَانِهِمُ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ لَئِنْ أُخْرِجْتُمْ لَنَخْرُجَنَّ مَعَكُمْ وَلَا نُطِيعُ فِيكُمْ أَحَدًا أَبَدًا وَإِنْ قُوتِلْتُمْ لَنَنْصُرَنَّكُمْ وَاللَّهُ يَشْهَدُ إِنَّهُمْ لَكَاذِبُونَ ﴿١١﴾

ذكر الطبري: يقول تعالى ذكره لنبيه محمد صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّم: ألم تنظر بعين قلبك يا محمد، فترى إلى الذين نافقوا وهم فيما ذُكر عبد الله بن أُبي ابن سلول، ووديعة ومالك، ابنا نوفل، وسُوَيد وداعس، بَعَثوا إلى بني النضير حين نزل بهم رسول الله صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّم للحرب أن اثبتُوا

وتمنَّعوا، فإنا لن نسلمكم، وإن قوتلتم قاتلنا معكم، وإن خرجتم، خرجنا معكم، فتربصوا لذلك من نصرهم، فلم يفعلوا، وقذف الله في قلوبهم الرعب، فسألوا رسول الله صَلَّى الله عَلَيْهِ وَسَلَّم أن يجليهم، ويكفّ عن دمائهم على أن لهم ما حملت الإبل من أموالهم إلا الحلقة.

تفسير سورة الممتحنة

رقم السورة: ٦٠ وهي مدنية وعدد آياتها: ١٣.

تعويض نفقات المَهر لمن ارتدت زوجه.

ذكر الطنطاوي: ساقت للمؤمنين ألوانا من التربية التي تغرس العقيدة السليمة في قلوبهم، وتجعلهم يضحون من أجلها بكل شيء، ويقدمونها في تصرفاتهم على محبة الآباء والأبناء والعشيرة والأموال، وتكشف لهم عن سوء نيات الكافرين نحوهم، وعن حرصهم على إنزال الضرر بهم.

كما ضربت لهم الأمثال بإبراهيم عليه السلام لكي يقتدوا به في قوة إيمانه، وفي إخلاصه لدينه.

كما بينت لهم من يجوز لهم مودتهم من الكافرين، ومن لا يجوز لهم ذلك منهم. ثم ختمت ببيان بعض الأحكام التي تتعلق بالنساء المؤمنات المتزوجات من الكافرين، وبالنساء اللائي جئن إلى الرسول صلى الله عليه وسلم لكي يبايعنه على الإيمان والطاعة.

يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِذَا جَاءَكُمُ الْمُؤْمِنَاتُ مُهَاجِرَاتٍ فَامْتَحِنُوهُنَّ ۖ اللَّهُ أَعْلَمُ بِإِيمَانِهِنَّ ۖ فَإِنْ عَلِمْتُمُوهُنَّ مُؤْمِنَاتٍ فَلَا تَرْجِعُوهُنَّ إِلَى الْكُفَّارِ ۖ لَا هُنَّ حِلٌّ لَّهُمْ وَلَا هُمْ يَحِلُّونَ لَهُنَّ ۖ وَآتُوهُم مَّا أَنفَقُوا ۚ وَلَا

جُنَاحَ عَلَيْكُمْ أَن تَنكِحُوهُنَّ إِذَا آتَيْتُمُوهُنَّ أُجُورَهُنَّ ۚ وَلَا تُمْسِكُوا بِعِصَمِ الْكَوَافِرِ وَاسْأَلُوا مَا أَنفَقْتُمْ وَلْيَسْأَلُوا مَا أَنفَقُوا ۚ ذَٰلِكُمْ حُكْمُ اللَّهِ ۖ يَحْكُمُ بَيْنَكُمْ ۚ وَاللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ ﴿١٠﴾

بيّنت هذه الآية الكريمة ضوابط رد نفقات ومهور النساء اللاتي تلجأ للمسلمين هرباً من دار الحرب، وخاصة إثر فترة الهجرة. ومن تلك الضوابط:

١- رد المال الذي أنفقه الكافر على زوجه التي أسلمت. وهناك من قال لا يُدفع ذلك إلا إذا طالب الزوج الكافر.

٢- الزواج منهن إذا أسلمن بعد قضاء عدتهن وآتيتموهن مهورهن.

٥- من ذهب من المسلمات مرتدات إلى الكفار من أهل العهد، يقال للكفار: هاتوا مهرها. ويقال للمسلمين إذا جاءت واحدة من الكافرات مسلمة مهاجرة ردوا إلى الكفار مهرها. كان ذلك عدلاً، وهذا حكم يخص ذلك الزمان في تلك النازلة خاصة.

ولولي الأمر أن يدفع عمن لا يستطيع ذلك من بيت المال، وقال مقاتل: يرد المهر الذي يتزوجها من المسلمين، فإن لم يتزوجها من المسلمين أحد فليس لزوجها الكافر شيء.

ذكر القرطبي: اقتضى ذلك مهاجرة المسلمين عن بلاد الشرك إلى بلاد الإسلام ...

وذكر أيضاً: قوله تعالى: ﴿وآتوهم ما أنفقوا﴾، أمر الله تعالى إذا أمسكت المرأة المسلمة أن يرد على زوجها ما أنفق وذلك من الوفاء بالعهد، لأنه لما منع من أهله بحرمة الإسلام، أمر برد المال إليه حتى لا يقع عليهم خسران من الوجهين: الزوجة والمال.

وذكر أيضاً: أمر الله تعالى برد مثل ما أنفقوا إلى الأزواج، وأن المخاطب بهذا الإمام، ينفذ مما بين يديه من بيت المال الذي لا يتعين له مصرف. وقال مقاتل: يرد المهر الذي يتزوجها من المسلمين، فإن لم يتزوجها من المسلمين أحد فليس لزوجها الكافر شيء. وقال قتادة: الحكم في رد الصداق إنما هو في نساء أهل العهد؛ فأما من لا عهد بينه وبين المسلمين فلا يرد إليهم الصداق.

وذكر أيضاً: قوله تعالى: ﴿إذا آتيتموهن أجورهن﴾ أباح نكاحها بشرط المهر؛ لأن الإسلام فرق بينها وبين زوجها الكافر.

وذكر أيضاً: قوله تعالى: ﴿واسألوا ما أنفقتم وليسألوا ما أنفقوا﴾؛ قال المفسرون: كان من ذهب من المسلمات مرتدات إلى الكفار من أهل العهد يقال للكفار: هاتوا مهرها. ويُقال للمسلمين إذا جاء أحد من الكافرات

مسلمة مهاجرة: ردوا إلى الكفار مهرها. وكان ذلك نَصفاً وعدلاً بين الحالتين. وكان هذا حكم الله مخصوصاً بذلك الزمان في تلك النازلة خاصة بإِجماع الأمة؛ قاله ابن العربي.

وَإِن فَاتَكُمْ شَيْءٌ مِّنْ أَزْوَاجِكُمْ إِلَى الْكُفَّارِ فَعَاقَبْتُمْ فَآتُوا الَّذِينَ ذَهَبَتْ أَزْوَاجُهُم مِّثْلَ مَا أَنفَقُوا ۚ وَاتَّقُوا اللَّهَ الَّذِي أَنتُم بِهِ مُؤْمِنُونَ ﴿١١﴾

يُدفع للزوج المهر الذي أنفقه على زوجه ثم خسره بسبب ارتدادها من مال الفيء، وهناك من قال: من مال الغنائم، حيث اُستدل من عبارة فعاقبتم غزوتم وغنتم.

ذكر الطنطاوي: يكون المعنى: وإن تفلتت وفرّت امرأة من أزواجكم – أيها المؤمنون – إلى الكفار، وامتنعوا عن دفع مهرها لكم؛ ﴿فَعاقَبْتُمْ﴾؛ أي: فغزوتم أنتم بعد ذلك هؤلاء الكافرين وانتصرتم عليهم وظفرتم بمغانم منهم.

﴿فَآتُوا الَّذِينَ ذَهَبَتْ أَزْواجُهُمْ﴾؛ منكم إلى الكفار من هذه المغانم ﴿مِثْلَ ما أَنْفَقُوا﴾؛ أي: مثل المهور التي أنفقوها على زوجاتهم اللائي فررن إلى المشركين.

تفسير سورة الصف

رقم السورة: ٦١ وهي مدنية وعدد آياتها: ١٣.

ذكر الطنطاوي: السورة الكريمة تفتتح بتنزيه الله تعالى عن كل نقص، وتنهى عن أن تكون الأقوال مخالفة للأفعال، وتبشر الذين يُجاهدون في سبيل الله تعالى بمحبته ورضوانه، وتذم الذين آذوا رسل الله تعالى وأنكروا نبوتهم بعد أن جاءوهم بالبينات، وترشد إلى التجارة الرابحة التي توصل إلى الفوز العظيم.

﴿كَبُرَ مَقْتاً عِندَ اللَّهِ أَن تَقُولُوا مَا لَا تَفْعَلُونَ ۝٣﴾

يستفاد من هذه الآية الكريمة أن التنفيذ ينبغي ألا يخالف التخطيط وعلى كل شخص أو إدارة أن تُلزم نفسها بما خططته.

﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا هَلْ أَدُلُّكُمْ عَلَى تِجَارَةٍ تُنجِيكُم مِّنْ عَذَابٍ أَلِيمٍ ۝١٠ تُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ وَتُجَاهِدُونَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ بِأَمْوَالِكُمْ وَأَنفُسِكُمْ ذَلِكُمْ خَيْرٌ لَّكُمْ إِن كُنتُمْ تَعْلَمُونَ ۝١١﴾

يدلّ الله المؤمنين إلى التجارة الرابحة، وهي الإِيمان بالله ورسوله اعتقاداً، ثم المجاهدة في سبيله فعلاً بالأموال والأنفس، وهذا ما فيه خيرهم.

ذكر ابن عاشور: أُطلق على العمل الصالح لفظُ التجارة على سبيل الاستعارة لمشابهة العمل الصالح التجارةَ في طلب النفع من ذلك العمل ومزاولته والكدُّ فيه ... ووصفُ التجارة بأنها تُنجي من عذاب أليم: تجريد للاستعارة لقصد الصراحة بهذه الفائدة لأهميتها وليس الإِنجاء من العذاب من شأن التجارة؛ فهو من مناسبات المعنى الحقيقي للعمل الصالح.

تفسير سورة الجمعة

رقم السورة: ٦٢ وهي مدنية وعدد آياتها: ١١.

ذكر الطنطاوي: اشتملت السورة الكريمة، على الثناء على الله عز وجل، وعلى مظاهر نعمه على عباده، حيث أرسل فيهم رسولاً كريماً، ليزكيهم ويعلمهم الكتاب والحكمة.

كما اشتملت على توبيخ اليهود وذمهم، لعدم عملهم بالكتاب الذي أنزله سبحانه لهدايتهم وإصلاح حالهم.

كما اشتملت على دعوة المؤمنين، إلى المحافظة على صلاة الجمعة، وعلى المبادرة إليها دون أن يشغلهم عنها شاغل.

يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِذَا نُودِيَ لِلصَّلَاةِ مِن يَوْمِ الْجُمُعَةِ فَاسْعَوْا إِلَىٰ ذِكْرِ اللَّهِ وَذَرُوا الْبَيْعَ ۚ ذَٰلِكُمْ خَيْرٌ لَّكُمْ إِن كُنتُمْ تَعْلَمُونَ ﴿٩﴾

يأمر الله تعالى المؤمنين بترك البيع في يوم الجمعة وقت الصلاة الجمعة.

والبيع من التجارة، وقد وُجه الأمر للباعة لأنهم إن التزموا التزم المشترون حُكماً.

ذكر القرطبي: قوله تعالى: ﴿وذروا البيع﴾ منع الله عز وجل منه عند صلاة الجمعة، وحرمه في وقتها على من كان مخاطباً بفرضها. والبيع لا

يخلو عن شراء فاكتفى بذكر أحدهما، ... وخص البيع لأنه أكثر ما يشتغل به أصحاب الأسواق. ومن لا يجب عليه حضور الجمعة فلا ينهى عن البيع والشراء.

وفي وقت التحريم قولان: إنه من بعد الزوال إلى الفراغ منها، قاله: الضحاك والحسن وعطاء. الثاني: من وقت أذان الخطبة إلى وقت الصلاة، قاله الشافعي. ومذهب مالك أن يترك البيع إذا نودي للصلاة، ويفسخ عنده ما وقع من ذلك من البيع في ذلك الوقت. ولا يفسخ العتق والنكاح والطلاق وغيره، إذ ليس من عادة الناس الاشتغال به كاشتغالهم بالبيع. قالوا: وكذلك الشركة والهبة والصدقة نادر لا يفسخ.

ابن العربي: والصحيح فسخ الجميع، لأن البيع إنما منع منه للاشتغال به. فكل أمر يشغل عن الجمعة من العقود كلها فهو حرام شرعا مفسوخ ردعاً.

قال المهدوي: ورأى بعض العلماء البيع في الوقت المذكور جائزاً، وتأول النهي عنه ندباً، واستدل بقوله تعالى: ذلكم خير لكم.

قلت: وهذا مذهب الشافعي؛ فإن البيع ينعقد عنده ولا يفسخ.

وقال الزمخشري في تفسيره: إن عامة العلماء على أن ذلك لا يؤدي فساد البيع. قالوا: لأن البيع لم يُحرّم لعينه، ولكن لما فيه من الذهول عن

الواجب؛ فهو كالصلاة في الأرض المغصوبة والثوب المغصوب، والوضوء بماء مغصوب. وعن بعض الناس أنه فاسد.

ذكر ابن كثير: وقوله: ﴿ وذروا البيع ﴾ أي: اسعوا إلى ذكر الله واتركوا البيع إذا نودي للصلاة: ولهذا اتفق العلماء رضي الله عنهم على تحريم البيع بعد النداء الثاني. واختلفوا: هل يصح إذا تعاطاه متعاطٍ أم لا؟ على قولين، وظاهر الآية عدم الصحة كما هو مقرر في موضعه.

وقوله: ﴿ ذلكم خير لكم إن كنتم تعلمون ﴾ أي: ترككم البيع وإقبالكم إلى ذكر الله وإلى الصلاة خير لكم، أي: في الدنيا والآخرة إن كنتم تعلمون.

ذكر الطنطاوي: والمراد من البيع هنا: المعاملة بجميع أنواعها، فهو يعم البيع والشراء وسائر أنواع المعاملات.

فَإِذَا قُضِيَتِ الصَّلَاةُ فَانتَشِرُوا فِي الْأَرْضِ وَابْتَغُوا مِن فَضْلِ اللَّهِ وَاذْكُرُوا اللَّهَ كَثِيرًا لَّعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ ﴿١٠﴾

فإذا قضيت الصلاة فلا شيء يمنع من سعيهم وابتغائهم العمل والتجارة، للتكسب والتربح.

ذكر القرطبي: قوله تعالى: فإِذا قضيت الصلاة فانتشروا في الأرض وابتغوا من فضل الله واذكروا الله كثيرا لعلكم تفلحون، قوله تعالى: ﴿ فإِذا قضيت الصلاة فانتشروا في الأرض ﴾ هذا أمر إباحة؛ كقوله تعالى: ﴿ وإذا حللتم فاصطادوا ﴾. يقول: ﴿ إذا فرغتم من الصلاة فانتشروا في الأرض ﴾ للتجارة والتصرف في حوائجكم.

ذكر ابن كثير: وقوله: ﴿ إذا قضيت الصلاة ﴾؛ أي: فرغ منها، ﴿ فانتشروا في الأرض وابتغوا من فضل الله ﴾ لما حجر عليهم في التصرف بعد النداء وأمرهم بالاجتماع، أذن لهم بعد الفراغ في الانتشار في الأرض والابتغاء من فضل الله.

وَإِذَا رَأَوْا تِجَارَةً أَوْ لَهْوًا انفَضُّوا إِلَيْهَا وَتَرَكُوكَ قَائِمًا ۚ قُلْ مَا عِندَ اللَّهِ خَيْرٌ مِّنَ اللَّهْوِ وَمِنَ التِّجَارَةِ ۚ وَاللَّهُ خَيْرُ الرَّازِقِينَ (١١)

انفض أناس من صلاة الجمعة ورسول الله صلى الله عليه وسلم يخطب فيهم عند وصول قوافل التجارة فعاتبهم الله تعالى على فعلهم.

كان الناس في المدينة قد أصابهم الجوع والغلاء، مما يوضح أن التضخم كان موجوداً في حينه بسبب ضعف الإنتاج.

ذكر الطنطاوي: وفي رواية أن الذين بقوا في المسجد كانوا أربعين، وأن العير كانت لعبد الرحمن بن عوف، وكان قد أصاب أهل المدينة جوع وغلاء سعر.

تفسير سورة المنافقون

رقم السورة: ٦٣ وهي مدنية وعدد آياتها: ١١ .

سورة تتكلم السورة عن حصار اقتصادي بغية إخراج المؤمنين بالله وقهرهم وتهجيرهم .

ذكر الطنطاوي: سميت هذه السورة بسورة «المنافقون»، لأنها فضحتهم، ووصفتهم بما هم أهله من صفات ذميمة، ومن طباع قبيحة، ومن مسالك سيئة ... ويكاد حديثها يكون مقصوراً عليهم، وعلى أكاذيبهم ودسائسهم .

هُمُ الَّذِينَ يَقُولُونَ لَا تُنفِقُوا عَلَىٰ مَنْ عِندَ رَسُولِ اللَّهِ حَتَّىٰ يَنفَضُّوا ۗ وَلِلَّهِ خَزَائِنُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَلَٰكِنَّ الْمُنَافِقِينَ لَا يَفْقَهُونَ ﴿٧﴾

ظن المنافقون أن أموالهم هي التي تعين المسلمين على اجتماعهم لمّا رأوا اجتماعهم مع رسول الله صلى الله عليه وسلم، فقرروا ألا ينفقوا على من عند رسول الله صلى الله عليه وسلم ليضغطوا عليهم فيتفرقوا. وقد نسوا أن خزائن السماوات والأرض هي ملك الله وبتصرفه فهو الرزاق وليس غيره يؤتي رزقه من يشاء ويقدره على من يشاء .

ذكر الطنطاوي: إن هؤلاء المنافقين لن يغفر الله تعالى لهم، لأنهم فسقوا عن أمره، ومن مظاهر فسوقهم وفجورهم، أنهم أيّدوا زعيمهم في النفاق، عند ما قال لهم: لا تنفقوا على من عند رسول الله من فقراء المهاجرين، ولا تقدموا لأحد منهم عوناً أو مساعدة، حتى ينفضوا من حوله.

وقوله سبحانه: ﴿ وَلِلَّهِ خَزَائِنُ السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضِ وَلَكِنَّ الْمُنَافِقِينَ لا يَفْقَهُونَ ﴾؛ الخزائن: جمع خزينة، وهي ما يخزن فيها المال والطعام وما يشبههما، والمراد بها أرزاق العباد التي يمنحها الله تعالى لعباده.

أى: ولله تعالى وحده لا لأحد غيره، ملك أرزاق العباد جميعاً؛ فيعطي من يشاء، ويمنع من يشاء، ولكن المنافقين لا يفقهون ذلك ولا يدركونه، لجهلهم بقدرة الله تعالى، ولاستيلاء الجحود والضلال على نفوسهم.

يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تُلْهِكُمْ أَمْوَالُكُمْ وَلَا أَوْلَادُكُمْ عَن ذِكْرِ اللَّهِ ۚ وَمَن يَفْعَلْ ذَٰلِكَ فَأُولَٰئِكَ هُمُ الْخَاسِرُونَ ﴿٩﴾

يأمر الله المؤمنين أن لا تكون أموالهم وأولادهم لاهية لهم عن ذكر الله، وإلا فسيخسرون.

ذكر الطبري: يقول تعالى ذكره: وأنفقوا أيها المؤمنون بالله ورسوله من الأموال التي رزقناكم من قبل أن يأتي أحدكم الموت؛ فيقول إذا نزل به

الموت: يا ربّ هلا أخرتني فتُمْهِل لي في الأجل إلى أجل قريب. فأصدّق يقول: فأزكي مالي ﴿وَأَكُنْ مِنَ الصَّالِحِينَ﴾ يقول: وأعمل بطاعتك، وأؤدّي فرائضك.

﴿وَأَنفِقُوا مِن مَّا رَزَقْنَاكُم مِّن قَبْلِ أَن يَأْتِيَ أَحَدَكُمُ الْمَوْتُ فَيَقُولَ رَبِّ لَوْلَا أَخَّرْتَنِي إِلَىٰ أَجَلٍ قَرِيبٍ فَأَصَّدَّقَ وَأَكُن مِّنَ الصَّالِحِينَ ﴿١٠﴾ وَلَن يُؤَخِّرَ اللَّهُ نَفْسًا إِذَا جَاءَ أَجَلُهَا ۚ وَاللَّهُ خَبِيرٌ بِمَا تَعْمَلُونَ ﴿١١﴾﴾

إن الإنفاق في سبيل الله من العبادة، وهو عبادة مالية؛ فمن ملك المال؛ فليسارع بالإنفاق قبل أن يأتيه موت يمنعه من ذلك، فيكن من النادمين لأنه لم يكن من المتصدقين ولم يكن بذلك من الصالحين.

فمن كتب عليه الموت لن يتأخر عليه موعده.

ذكر القرطبي: قوله تعالى: ﴿وأنفقوا مما رزقناكم من قبل أن يأتي أحدكم الموت﴾ يدلُّ على وجوب تعجيل أداء الزكاة، ولا يجوز تأخيرها أصلاً. وكذلك سائر العبادات إذا تعين وقتها.

ذكر ابن كثير: روى الضحاك، وعطية عن ابن عباس قال: ما من أحد يموت وكان له مال لم يؤد زكاته وأطاق الحج فلم يحج إلا سأل الرجعة عند الموت.

ذكر الطنطاوي: المعنى: يا من آمنتم بالله حق الإِيمان، لا تشغلكم أموالكم ولا أولادكم عن طاعة الله تعالى بل داوموا عليها كل المداومة، وأنفقوا بسخاءِ وسماحة نفس مما أعطيناكم من أرزاق كثيرة، ومن نِعم لا تحصى، وليكن إنفاقكم من قبل أن تنزل بأحدكم أمارات الموت وعلاماته.

وحينئذ يقول أحدكم يا رب، هلا أخرت وفاتي إلى وقت قريب من الزمان لكي أتدارك ما فاتني من تقصير، ولكي أتصدق بالكثير من مالي، وأكون من عبادك الصالحين.

وقال سبحانه: ﴿مِمَّا رَزَقْنَاكُمْ﴾ فأسند الرزق إليه، لكي يكون أدعى إلى الامتثال والاستجابة، لأنه سبحانه مع أن الأرزاق جميعها منه، إلا أنه؛ فضلاً منه وكرماً؛ اكتفى منهم بإِنفاق جزء من تلك الأرزاق.

وقدم سبحانه المفعول وهو ﴿أحدكم﴾ على الفاعل وهو ﴿الموت﴾، للاهتمام بالمفعول، وللإِشعار بأن الموت نازل بكل إنسان لا محالة.

والتعبير بقوله: ﴿لَوْلا أَخَّرْتَنِي إِلى أَجَلٍ قَرِيبٍ﴾؛ يُشعر بأن القائل قد قال ذلك زيادة في تأميل الاستجابة؛ فكأنه يقول: يا رب ألتمس منك أن تؤخر أجلي إلى وقت قريب لا إلى وقت بعيد لكي أتدارك ما فاتني في هذا الوقت القريب الذي هو منتهى سؤالي، وغاية أملي.

تفسير سورة التغابن

رقم السورة: ٦٤ وهي مدنية وعدد آياتها: ١٨ .

ذكر الطنطاوي: السورة الكريمة من أهم مقاصدها: تنزيه الله تعالى عن الشريك أو الولد، وبيان ألوان من مظاهر قدرته ومننه على خلقه، والرد على المشركين الذين زعموا أنهم لن يُبعثوا، والمقارنة بين حسن عاقبة الأخيار وسوء عاقبة الأشرار، وبيان أن كل شيء يقع في هذا الكون هو بقضاء الله وقدره. وتحريض المؤمنين على تقوى الله تعالى وعلى إيثار ما عنده على كل شيء من شهوات هذه الدنيا.

إِنَّمَا أَمْوَٰلُكُمْ وَأَوْلَٰدُكُمْ فِتْنَةٌ وَٱللَّهُ عِندَهُۥٓ أَجْرٌ عَظِيمٌ ﴿١٥﴾

يخبر الله الناس بأن أموالهم التي رزقهم إياها وأولادهم الذين رزقهم إياهم إنما هم فتنة لهم، والله عنده أجر عظيم، فلا يضيعوا حياتهم بهذه المتع ناسين ذكر الله تعالى والإنابة إليه.

ذكر القرطبي: أي بلاء واختبار يحملكم على كسب المحرم ومنع حق الله تعالى فلا تطيعوهم في معصية الله.

ذكر البغوي: ﴿إنما أموالكم وأولادكم فتنة﴾؛ بلاء واختبار وشغل عن الآخرة يقع بسببها الإنسان في العظائم ومنع الحق وتناول الحرام.

﴿فَاتَّقُوا اللَّهَ مَا اسْتَطَعْتُمْ وَاسْمَعُوا وَأَطِيعُوا وَأَنفِقُوا خَيْرًا لِّأَنفُسِكُمْ ۗ وَمَن يُوقَ شُحَّ نَفْسِهِ فَأُولَٰئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ ﴿١٦﴾﴾

يطلب الله من عباده أن يتقوه ما استطاعوا إلى ذلك سبيلاً، وعليهم السمع والطاعة والإنفاق في سبيله ليبعُدوا أنفسهم عن البخل ليكونوا عباداً مفلحين.

ذكر السعدي: يأمر تعالى بتقواه، التي هي امتثال أوامره واجتناب نواهيه، ويقيد ذلك بالاستطاعة والقدرة.

فهذه الآية، تدل على أن كل واجب عجز عنه العبد، أنه يسقط عنه، وأنه إذا قدر على بعض المأمور، وعجز عن بعضه، فإنه يأتي بما يقدر عليه، ويسقط عنه ما يعجز عنه، كما قال النبي صلى الله عليه وسلم: "إذا أمرتكم بأمر فأتوا منه ما استطعتم".

ويدخل تحت هذه القاعدة الشرعية من الفروع، ما لا يدخل تحت الحصر، وقوله:

﴿وَاسْمَعُوا﴾؛ أي: اسمعوا ما يعظكم الله به، وما يشرعه لكم من الأحكام، واعلموا ذلك وانقادوا له،

﴿وَأَطِيعُوا﴾ الله ورسوله في جميع أموركم،

﴿ وَأَنْفِقُوا ﴾ من النفقات الشرعية الواجبة والمستحبة، يكن ذلك الفعل منكم خيراً لكم في الدنيا والآخرة، فإن الخير كله في امتثال أوامر الله تعالى وقبول نصائحه، والانقياد لشرعه، والشر كله، في مخالفة ذلك.

ولكن ثم آفة تمنع كثيراً من الناس، من النفقة المأمور بها، وهو الشح المجبولة عليه أكثر النفوس، فإنها تشح بالمال، وتحب وجوده، وتكره خروجه من اليد غاية الكراهة.

فمن وقاه الله شرَّ شح نفسه بأن سمحت نفسه بالإنفاق النافع لها ﴿ فَأُولَئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ ﴾ لأنهم أدركوا المطلوب، ونجوا من المرهوب، بل لعل ذلك، شامل لكل ما أمر به العبد، ونهي عنه، فإنه إن كانت نفسه شحيحة. لا تنقاد لما أمرت به، ولا تخرج ما قبلها، لم يفلح، بل خسر الدنيا والآخرة، وإن كانت نفسه نفساً سمحة، مطمئنة، منشرحة لشرع الله، طالبة لمرضاة، فإنها ليس بينها وبين فعل ما كُلّفت به إلا العلم به، ووصول معرفته إليها، والبصيرة بأنه مُرضٍ لله تعالى، وبذلك تفلح وتنجح وتفوز كل الفوز.

إِن تُقْرِضُوا اللَّهَ قَرْضاً حَسَناً يُضَاعِفْهُ لَكُمْ وَيَغْفِرْ لَكُمْ وَاللَّهُ شَكُورٌ حَلِيمٌ ﴿١٧﴾

الإنفاق في سبيل الله هو بمثابة قرض لله تعالى، وسيرده لكم أضعافاً مضاعفة، وسيغفر لكم، وهو شاكر لفعلكم؛ لأنكم فعلتم ذلك لأجله تعالى وهو الحليم.

ذكر القرطبي: ﴿إِنْ تُقْرِضُوا اللَّهَ﴾؛ بالصدقة والنفقة في سبيل الله. قال الحسن: كل ما في القرآن من القرض الحسن فهو التطوع. وقيل: هو العمل الصالح من الصدقة وغيرها محتسباً صادقاً.

وذكر أيضاً: القرض: اسم لكل ما يلتمس عليه الجزاء وأقرض فلان فلاناً أي أعطاه ما يتجازاه.

وذكر أيضاً: ويجوز أن يرد أفضل مما يستلف إذا لم يشترط ذلك عليه؛ لأن ذلك من باب المعروف؛ استدلالاً بحديث أبي هريرة في البكر: ﴿إن خياركم أحسنكم قضاء﴾ رواه الأئمة: البخاري ومسلم وغيرهما. فأثنى صلى الله عليه وسلم على من أحسن القضاء، وأطلق ذلك ولم يقيده بصفة.

وكذلك قضى هو صلى الله عليه وسلم في البكر وهو الفتي المختار من الإبل جملا خياراً رباعياً، والخيار: المختار، والرباعي هو الذي دخل في السنة الرابعة؛ لأنه يلقي فيها رباعيته وهي التي تلي الثنايا وهي أربع

رباعيات – مخففة الباء – وهذا الحديث دليل على جواز قرض الحيوان، وهو مذهب الجمهور، ومنع من ذلك أبو حنيفة وقد تقدم.

ولا يجوز أن يهدي من استقرض هدية للمقرض، ولا يحل للمقرض قبولها إلا أن يكون عادتهما ذلك؛ بهذا جاءت السنة: خرّج ابن ماجه حدثنا هشام بن عمار قال: حدثنا إسماعيل بن عياش حدثنا عتبة بن حميد الضبي عن يحيى بن أبي إسحاق الهنائي قال: سألت أنس بن مالك عن الرجل منا يقرض أخاه المال فيهدي إليه؟ قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: إذا أقرض أحدكم أخاه قرضاً فأهدى له أو حمله على دابته فلا يقبلها ولا يركبها إلا أن يكون جرى بينه وبينه قبله ذلك.

القرض يكون من المال وقد بيّنا حكمه ويكون من العرض؛ وفي الحديث عن النبي صلى الله عليه وسلم: أيعجز أحدكم أن يكون كأبي ضمضم كان إذا خرج من بيته قال اللهم إني قد تصدقت بعرضي على عبادك.

وروي عن ابن عمر: أقرض من عرضك ليوم فقرك؛ يعني من سبك فلا تأخذ منه حقاً ولا تقم عليه حداً حتى تأتي يوم القيامة موفر الأجر.

وقال أبو حنيفة: لا يجوز التصدق بالعرض لأنه حق الله تعالى، وروي عن مالك.

تفسير سورة الطلاق

رقم السورة: ٦٥ وهي مدنية وعدد آياتها: ١٢.

ذكر الطنطاوي: معظم آيات السورة يدور حول تحديد أحكام الطلاق، وما يترتب عليه من أحكام العدة، والإرضاع، والإنفاق، والسكن، والإشهاد على الطلاق، وعلى المراجعة.

وَيَرْزُقْهُ مِنْ حَيْثُ لَا يَحْتَسِبُ وَمَن يَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ فَهُوَ حَسْبُهُ إِنَّ اللَّهَ بَالِغُ أَمْرِهِ قَدْ جَعَلَ اللَّهُ لِكُلِّ شَيْءٍ قَدْرًا ﴿٣﴾

من يطبق شرع الله؛ فإن الله سيعوضه وسيرزقه من حيث لا يحتسب، ومنهم المُطلّق لزوجه الذي ألزم نفسه ما أمر الله به كسداد مهر زوجه. وأمره مَقضيٌ لا محالة، وقد جعل الله لكل شيء قَدراً من حيث الوقت والكمية؛ لا يتخلف ذلك عما قدره سبحانه وتعالى.

ذكر ابن عاشور: والقَدْر: مصدر قَدَره المتعدي إلى مفعول بتخفيف الدال الذي معناه وَضع فيه بمقدار كمية ذاتيةً أو معنوية تُجعل على حسب ما يتحمله المفعول. فقَدر كلّ مفعولٍ لفعل قَدَرَ ما تتحمله طاقته واستطاعتُه من أعمال، أو تتحمله مساحته من أشياء أو يتحمله وَعْيه لما يَكُدُّ به ذهنه من مدارك وأفهام. ومن فروع هذا المعنى ما في قوله تعالى: ﴿لا

يكلف الله نفساً إلا وسعها﴾ البقرة: ٢٨٦، وقوله هنا: ﴿لا يكلف الله نفساً إلا ما آتاها﴾ الطلاق: ٧.

ومن جزئيات معنى القَدْر ما يسمى التقدير: مصدر قَدَّر المضاعف إذا جَعَل شيئاً أو أشياء على مقدار معين مناسب لما جُعل لأجله كقوله تعالى: ﴿وَقَدِّرْ فِي السَّرْدِ﴾ في سورة سبأ.

ذكر الطنطاوي: من يفوض أمره إلى الله تعالى ويتوكل عليه وحده، فهو سبحانه كافيه في جميع أموره، لأنه سبحانه يبلغ ما يريده، ولا يفوته مراد، ولا يعجزه شيء، ولا يحول دون أمره حائل، ومن مظاهر حكمه في خلقه، أنه عزّ وجلّ قد جعل لكل شيء تقديراً قبل وجوده، وعلم علماً تاماً مقاديرها وأوقاتها وأحوالها.

أَسْكِنُوهُنَّ مِنْ حَيْثُ سَكَنتُم مِّن وُجْدِكُمْ وَلَا تُضَارُّوهُنَّ لِتُضَيِّقُوا عَلَيْهِنَّ ۚ وَإِن كُنَّ أُولَاتِ حَمْلٍ فَأَنفِقُوا عَلَيْهِنَّ حَتَّىٰ يَضَعْنَ حَمْلَهُنَّ ۚ فَإِنْ أَرْضَعْنَ لَكُمْ فَآتُوهُنَّ أُجُورَهُنَّ ۖ وَأْتَمِرُوا بَيْنَكُم بِمَعْرُوفٍ ۖ وَإِن تَعَاسَرْتُمْ فَسَتُرْضِعُ لَهُ أُخْرَىٰ ﴿٦﴾

المطلقة لا تُخرج من بيت زوجها، تسكن حيث يسكن مثله مثلها، ولا يجوز التضييق عليها لإحداث الضرر بها؛ فإن كُنَّ أولات حمل فعلى

الرجال الإنفاق عليهن حتى يضعن حملهنّ؛ فإن أرضعن أولادكم فآتوهن أجورهن أجرة مثل مرضعة أخرى، ولتكن العلاقة بينكم بالمعروف؛ فإن تعسّر ذلك ولم تتوافقوا عليه فلا مانع أن ترضع أخرى غير الأم الوالدة على نفقة الوالد.

لِيُنفِقْ ذُو سَعَةٍ مِّن سَعَتِهِ ۖ وَمَن قُدِرَ عَلَيْهِ رِزْقُهُ فَلْيُنفِقْ مِمَّا آتَاهُ اللَّهُ ۚ لَا يُكَلِّفُ اللَّهُ نَفْسًا إِلَّا مَا آتَاهَا ۚ سَيَجْعَلُ اللَّهُ بَعْدَ عُسْرٍ يُسْرًا ﴿٧﴾

الإنفاق نسبي؛ فكلٌ ينفق حسب دخله ولا يكون الإنفاق بالتساوي، فمن كان رزقه ضعيفاً ينفق مما آتاه الله ولا يُكلف ما لا يطيق، ويعدُ الله من أعسرت حاله باليسر وسيرفع عنه المشقة.

ذكر الطنطاوي: أي: على كل من أعطاه الله تعالى سعة وبسطة في المال والرزق، أن ينفق مما أعطاه الله تعالى وأن لا يبخل، فإن البخل صفة قبيحة، ولا سيما في الأغنياء.

فعليكم أيها الآباء أن تعطوا بسخاء كل من يستحقون العطاء، وعلى رأسهم الأمهات لأولادكم، اللائي يقمن بإرضاعهم بعد مفارقتكم لهن، وأن لا تبخلوا عليهن في أجرة الرضاع، أو في النفقة على الأولاد.

ثم قال تعالى: ﴿وَمَنْ قُدِرَ عَلَيْهِ رِزْقُهُ فَلْيُنْفِقْ مِمَّا آتاهُ اللَّهُ﴾؛ أي: ومن كان رزقه ضيقاً وليس واسعاً؛ فلينفق على قدر ماله ورزقه وطاقته، مما آتاه الله تعالى من رزق.

وقوله: ﴿لا يُكَلِّفُ اللَّهُ نَفْساً إِلَّا ما آتاها﴾؛ تعليل لما قبله؛ أي: فلينفق كل إنسان على نفسه وعلى زوجه، وعلى أولاده، وعلى أقاربه، وعلى غيرهم. على حسب حاله، فإن كان موسراً أنفق على حسب يسره، وإن كان معسراً أنفق على حسب عسره؛ لأن الله تعالى لا يكلف نفساً إلا بقدر ما أعطاها من طاقة أو رزق.

وَكَأَيِّن مِّن قَرْيَةٍ عَتَتْ عَنْ أَمْرِ رَبِّهَا وَرُسُلِهِ فَحَاسَبْنَاهَا حِسَاباً شَدِيداً وَعَذَّبْنَاهَا عَذَاباً نُّكْراً ﴿٨﴾ فَذَاقَتْ وَبَالَ أَمْرِهَا وَكَانَ عَاقِبَةُ أَمْرِهَا خُسْراً ﴿٩﴾ أَعَدَّ اللَّهُ لَهُمْ عَذَاباً شَدِيداً فَاتَّقُوا اللَّهَ يَا أُولِي الْأَلْبَابِ الَّذِينَ آمَنُوا قَدْ أَنزَلَ اللَّهُ إِلَيْكُمْ ذِكْراً ﴿١٠﴾

يُذكّر الله الناس بما حصل لأسلافهم الذين عتوا عن أمر ربهم؛ ليتعظوا ويعتبروا؛ حتى لايصيبهم ما أصابهم، وهذا تهديد ووعيد لمن أدركه القول.

تفسير سورة التحريم

رقم السورة: ٦٦ وهي مدنية وعدد آياتها: ١٢.

ذكر الطنطاوي: السورة الكريمة في مطلعها تحكي جانباً مما دار بين النبي صلى الله عليه وسلم وبين بعض زوجاته فتعرض صفحة من حياته صلى الله عليه وسلم في بيته، ومن عتاب الله تعالى له ومن فضله عليه، ودفاعه عنه.

ثم وجهت نداء إلى المؤمنين أمرتهم فيه بأن يداوموا على العمل الصالح الذي ينجيهم من عذاب الله تعالى وحرضتهم على التسلح بالتوبة النصوح لأنها على رأس الأسباب التي تؤدي إلى تكفير سيئاتهم.

ثم ختمت السورة الكريمة بضرب مثلين أحدهما للذين آمنوا، ويتمثل في امرأة فرعون وفي مريم ابنة عمران، والآخر للذين كفروا ويتمثل في امرأة نوح وامرأة لوط عليهما السلام والغرض من ذلك العظة والاعتبار.

﴿قَدْ فَرَضَ اللَّهُ لَكُمْ تَحِلَّةَ أَيْمَانِكُمْ ۚ وَاللَّهُ مَوْلَاكُمْ ۖ وَهُوَ الْعَلِيمُ الْحَكِيمُ ۝٢﴾

فرض الله تعالى على عباده كفارة اليمين إذا حنثوا بها . وقد جاء في غير آية أن الكفارة تكون بإِطعام عشرة مساكين أو كسوتهم أو تحرير رقبة أو صيام ثلاثة أيام .

فهي كفارة مالية تتلخص بإِطعام وكسوة مساكين، أو تحرير رقبة، وإلا فهي عقوبة جسدية تتمثل بصيام عدة أيام .

تدفع الكفارات المالية للفقراء مما يحسن حالهم ويعينهم على سد بعض حاجاتهم .

تفسير سورة الملك

رقم السورة: ٦٧ وهي مكية وعدد آياتها: ٣٠.

ذكر الطنطاوي: السورة الكريمة زاخرة بالحديث عن أدلة وحدانية الله تعالى وقدرته وعن مظاهر فضله ورحمته بعباده، وعن بديع خلقه في هذا الكون، وعن أحوال الكافرين، وأحوال المؤمنين يوم القيامة، وعن وجوب التأمل والتدبر في ملكوت السموات والأرض؛ وعن الحجج الباهرة التي لقنها سبحانه لنبيه صلى الله عليه وسلم لكي يقذف بها في وجوه المبطلين.

﴿الَّذِي خَلَقَ سَبْعَ سَمَاوَاتٍ طِبَاقًا مَّا تَرَىٰ فِي خَلْقِ الرَّحْمَٰنِ مِن تَفَاوُتٍ فَارْجِعِ الْبَصَرَ هَلْ تَرَىٰ مِن فُطُورٍ ﴿٣﴾﴾

تفيد هذه الآية بنمطية التصنيع فالسماوات كأنها بعضها البعض لا تفاوت فيها، وهكذا يكون التصنيع النمطي متشابه متطابق تماماً.

وقد كانت الصناعة قديماً غير نمطية لأنها كانت يدوية؛ كصناعة أواني الفخار مثلاً، لذلك تكلم الفقهاء في المعدود في الربا، بينما مع تقدم الصناعة صارت الصناعة نمطية الإنتاج ومنتجاتها متطابقة وصار المعدود مما يدخله الربا إلا إن كانت يدوية.

ذكر الطنطاوي: طباقاً صفة لسبع سموات، وهي مصدر طابق مطابقة وطباقاً، ... أي: هو سبحانه لا غيره الذي أوجد وخلق على غير مثال سابق سبع سموات متطابقة؛ أي: بعضها فوق بعض، بطريقة متقنة محكمة، لا يقدر على خلقها بتلك الطريقة إلا هو، ولا يعلم كنه تكوينها وهيئاتها أحد سواه عز وجل.

هُوَ الَّذِي جَعَلَ لَكُمُ الْأَرْضَ ذَلُولاً فَامْشُوا فِي مَنَاكِبِهَا وَكُلُوا مِن رِّزْقِهِ وَإِلَيْهِ النُّشُورُ ﴿١٥﴾

ذلل الله الأرض للناس وجعلها قابلة للمشي والحركة والعيش فيها، فيا أيها الناس امشوا فيها طلباً للرزق، وكلوا مما رزقكم الله فيها، ولا تنسوا بأن العودة ستكون إليه تعالى ليجازيكم أعمالكم.

أَمَّنْ هَذَا الَّذِي يَرْزُقُكُمْ إِنْ أَمْسَكَ رِزْقَهُ بَل لَّجُّوا فِي عُتُوٍّ وَنُفُورٍ ﴿٢١﴾

لو أمسك الله عنكم رزقه، فمن ذا الذي سيرسله لكم؟ لكن الكافرين مستمرين في قسوتهم ونفورهم عن الحق.

قُلْ هُوَ الَّذِي ذَرَأَكُمْ فِي الْأَرْضِ وَإِلَيْهِ تُحْشَرُونَ ﴿٢٤﴾

الله تعالى هو الذي بثكم في الأرض وأسكنكم في أرجاءها، ثم بعد ذلك يحشركم ليوم القيامة.

﴿قُلْ أَرَأَيْتُمْ إِنْ أَصْبَحَ مَاؤُكُمْ غَوْرًا فَمَن يَأْتِيكُم بِمَاءٍ مَّعِينٍ﴾ (٣٠)

قل انظروا ماذا يحصل لكم إن غار الماء الذي رزقكم الله إياه؛ فهو شربكم وسُقيا أنعامكم وزرعكم؟

تفسير سورة القلم

رقم السورة: ٦٨ وهي مكية وعدد آياتها: ٥٢ .

ذكر الطنطاوي: الذي يتدبر هذه السورة الكريمة، يراها قد اشتملت على مقاصد من أبرزها:

تحدى المشركين بهذا القرآن الكريم، والثناء على النبي صلى الله عليه وسلم بأفضل أنواع الثناء.

التسلية الجميلة له صلى الله عليه وسلم عما أصابه من أعدائه.

نهيه صلى الله عليه وسلم عن مهادنة المشركين أو ملاينتهم أو موافقتهم على مقترحاتهم الماكرة.

ثم نراها تضرب الأمثال لأهل مكة، لعلهم يتعظون ويعتبرون، ويتركون الجحود والبطر.

ثم نرى من مقاصدها كذلك: المقارنة بين عاقبة الأخيار والأشرار، ليهلك من هلك عن بيّنة، ويحيا من حي عن بيّنة.

تسفيه أفكار المشركين وعقولهم، بأسلوب مؤثر خلاب، وتهديدهم بأقصى ألوان التهديد. ثم تختتم بتكرار التسلية للرسول صلى الله عليه وسلم وبأمره بالصبر على أذى أعدائه.

﴿نٓۚ وَٱلۡقَلَمِ وَمَا يَسۡطُرُونَ ١﴾

تشير الآية الكريمة إلى صناعة الكتابة؛ فأدواتها المحبرة والقلم والسطر؛ أي الكتابة.

ذكر السعدي: يقسم تعالى بالقلم، وهو اسم جنس شامل للأقلام، التي تكتب بها أنواع العلوم، ويُسطّر بها المنثور والمنظوم.

﴿أَن كَانَ ذَا مَالٖ وَبَنِينَ ١٤﴾

نهى الله أن أن يُتَّبع الرجل لأجل كثرة ماله وولده، فهذه لا تغني من الله تعالى شيئاً؛ فمعايير التفاضل هي الإيمان بالله وتقواه كما جاء في غير آية وليس متاع الدنيا من مال وبنين وزينة.

ذكر السعدي: أي: لأجل كثرة ماله وولده، طغى واستكبر عن الحق.

﴿إِنَّا بَلَوۡنَٰهُمۡ كَمَا بَلَوۡنَآ أَصۡحَٰبَ ٱلۡجَنَّةِ إِذۡ أَقۡسَمُواْ لَيَصۡرِمُنَّهَا
مُصۡبِحِينَ ١٧ وَلَا يَسۡتَثۡنُونَ ١٨ فَطَافَ عَلَيۡهَا طَآئِفٞ مِّن رَّبِّكَ وَهُمۡ
نَآئِمُونَ ١٩ فَأَصۡبَحَتۡ كَٱلصَّرِيمِ ٢٠ فَتَنَادَوۡاْ مُصۡبِحِينَ ٢١ أَنِ
ٱغۡدُواْ عَلَىٰ حَرۡثِكُمۡ إِن كُنتُمۡ صَٰرِمِينَ ٢٢ فَٱنطَلَقُواْ وَهُمۡ
يَتَخَٰفَتُونَ ٢٣ أَن لَّا يَدۡخُلَنَّهَا ٱلۡيَوۡمَ عَلَيۡكُم مِّسۡكِينٞ ٢٤﴾

وَغَدَوْا عَلَىٰ حَرْدٍ قَادِرِينَ ﴿٢٥﴾ فَلَمَّا رَأَوْهَا قَالُوا إِنَّا لَضَالُّونَ ﴿٢٦﴾
بَلْ نَحْنُ مَحْرُومُونَ ﴿٢٧﴾ قَالَ أَوْسَطُهُمْ أَلَمْ أَقُل لَّكُمْ لَوْلَا تُسَبِّحُونَ
﴿٢٨﴾ قَالُوا سُبْحَانَ رَبِّنَا إِنَّا كُنَّا ظَالِمِينَ ﴿٢٩﴾

مثال ذلك؛ روت الآيات الكريمة قصة أصحاب الجنة الذين اغتروا حين آتت جنتهم ثمارها وأينعت أشجارها، وآن وقت صرامها، وأنها في أيديهم فلا شيء يمنعهم منها؛ فأقسموا أنهم سيصرموها جميعها في الصباح؛ فجاءها العذاب ليلا فأتلفها جميعها؛ فصارت كليل أسود.

اجتمعوا في الصباح لينفذوا ما اتفقوا عليه؛ فانطلقوا وهم يتخافتون بصوت لا يسمعه أحد، واتفقوا ألا يدخل عليهم فقير أو مسكين من شدة بخلهم؛ فبدا لهم أنهم قادرين على حرث نتاج جنتهم؛ فلما وصلوا إليها ظنوا أنهم تائهين عنها، حيث إنهم لم يعرفوها؛ فعادت لهم عقولهم ليستوعبوا أمرهم، وعلموا أنهم حُرموا النعم بما بيتوه من نيّة ظالمة، ومن غفلتهم عن أن الله يراهم ويسمعهم.

قال لهم أوسطهم مذكراً ألم أقل لكم لولا تسبحون الله وتنزهونه؛ فقالوا: سبحان ربنا إنا كنا ظالمين، فقد فهموا الدرس واعتبروا مما حاق بهم من عقوبة.

أَمْ تَسْأَلُهُمْ أَجْرًا فَهُم مِّن مَّغْرَمٍ مُّثْقَلُونَ (٤٦)

هل سألهم رسول الله صلى الله عليه وسلم أجراً لقاء دعوتهم إلى الإيمان؟ أم أن كاهلهم مثقل بالديون؟

ذكر الطبري: يقول تعالى ذكره لنبيه محمد صلى الله عليه وسلم: أتسأل يا محمد هؤلاء المشركين بالله على ما أتيتهم به من النصيحة، ودعوتهم إليه من الحقّ، ثوابا وجزاء ﴿فَهُمْ مِنْ مَغْرَمٍ مُثْقَلُونَ﴾؛ يعني: من غُرم ذلك الأجر مثقلون، قد أثقلهم القيام بأدائه، فتحاموا لذلك قبول نصيحتك، وتجنبوا لعِظم ما أصابهن من ثقل الغُرم الذي سألتهم على ذلك الدخول في الذي دعوتهم إليه من الدين.

تفسير سورة المعارج

رقم السورة: ٧٠ وهي مكية وعدد آياتها: ٤٤.

ذكر الطنطاوي: المتدبر في هذه السورة الكريمة، يرى أن على رأس القضايا التي اهتمت بالحديث عنها: التذكير بيوم القيامة، وبأهواله وشدائده، وببيان ما فيه من حساب، وجزاء، وثواب وعقاب.

تَعْرُجُ الْمَلَائِكَةُ وَالرُّوحُ إِلَيْهِ فِي يَوْمٍ كَانَ مِقْدَارُهُ خَمْسِينَ أَلْفَ سَنَةٍ ﴿٤﴾

تشير الآية الكريمة لنظام عدّ لم يألفه البشر؛ فأنظمة العدّ المعروفة هي العشري وما تبعه من أنظمة عدّ أخرى؛ أما ما ذكرته الآية الكريمة فنظام عدّ أساسه الخمسين ألفاً.

وَالَّذِينَ فِي أَمْوَالِهِمْ حَقٌّ مَّعْلُومٌ ﴿٢٤﴾ لِّلسَّائِلِ وَالْمَحْرُومِ ﴿٢٥﴾

إن من صفات المصلين أن في أموالهم حق معلوم للفقراء والمساكين.

وَالَّذِينَ هُمْ لِأَمَانَاتِهِمْ وَعَهْدِهِمْ رَاعُونَ ﴿٣٢﴾

ومن صفاتهم أيضاً حفظهم للعهد وللأمانة.

تفسير سورة نوح

رقم السورة: ٧١ وهي مكية وعدد آياتها: ٢٨.

ذكر الطنطاوي: الآية الكريمة صريحة في أن ما أصاب قوم نوح من عذاب أليم، كان بسبب إصرارهم على كفرهم، وعدم استماعهم إلى إنذاره لهم.

فَقُلْتُ اسْتَغْفِرُوا رَبَّكُمْ إِنَّهُ كَانَ غَفَّاراً ﴿١٠﴾ يُرْسِلِ السَّمَاءَ
عَلَيْكُم مِّدْرَاراً ﴿١١﴾ وَيُمْدِدْكُم بِأَمْوَالٍ وَبَنِينَ وَيَجْعَل لَّكُمْ
جَنَّاتٍ وَيَجْعَل لَّكُمْ أَنْهَاراً ﴿١٢﴾

أخبر نوح عليه السلام قومه، وهذا لكل قوم، أن الاستغفار مدعاة لرضا الرب فـ:

- يرسل السماء على المستغفرين لتمدهم بأمطارها الغزيرة، والماء هو أساس الحياة وقوامها.
- يمدُّ المستغفرين بأموال وبنين وهذا مما دأبت الآيات على بيانه بشكل متتابع؛ لأنه متاع الإنسان المحبب في هذه الدنيا على التسلسل؛ أي المال ثم البنين.
- يجعل للمستغفرين الجنات.

– يجعل للمستغفرين الأنهار.

أَلَمْ تَرَوْا كَيْفَ خَلَقَ اللَّهُ سَبْعَ سَمَاوَاتٍ طِبَاقاً (١٥) وَجَعَلَ الْقَمَرَ فِيهِنَّ
نُوراً وَجَعَلَ الشَّمْسَ سِرَاجاً (١٦) وَاللَّهُ أَنبَتَكُم مِّنَ الْأَرْضِ نَبَاتاً
(١٧) ثُمَّ يُعِيدُكُمْ فِيهَا وَيُخْرِجُكُمْ إِخْرَاجاً (١٨) وَاللَّهُ جَعَلَ
لَكُمُ الْأَرْضَ بِسَاطاً (١٩) لِّتَسْلُكُوا مِنْهَا سُبُلاً فِجَاجاً (٢٠)

يخاطب نوح عليه السلام قومه يحاججهم:

خلق الله تعالى السماوات السبع فوق بعضها البعض طبقات، وجعل فيهن القمر لينير ليلكم، والشمس تضيء كالسراج لتزودكم بالدفء والطاقة، وأنبت لكم من الأرض النبات الذي فيه طعامكم وطعام حيواناتكم وفيه تجاراتكم وصناعاتكم، ومدّ لكم الأرض كالبساط الذي يُمشى عليه، وتسلكوا فيها السبل والطرق الممهدة والواسعة.

وهذه كلها من نعماء الله على هذاالإنسان ليتمكن من المعيشة على هذه الأرض، ليقيم عمرانها ويعيش فيها سعيداً.

تفسير سورة الجن

رقم السورة: ٧٢ وهي مكية وعدد آياتها: ٢٨.

ذكر الطنطاوي: المتدبر لهذه السورة الكريمة، يراها قد أعطتنا صورة واضحة عن عالم الجن، فهي تحكى أنهم أعجبوا بالقرآن الكريم، وأن منهم الصالح ومنهم غير الصالح، وأنهم لا يعلمون الغيب، وأنهم أهل للثواب والعقاب، وأنهم لا يملكون النفع لأحد، وأنهم خاضعون لقضاء الله تعالى فيهم.

كما أن هذه السورة قد ساقت لنا ألوانا من سنن الله التي لا تتخلف، والتي منها: أن الذين يستقيمون على طريقه يحيون حياة طيبة في الدنيا والآخرة.

كما أنها لقنت النبي صلى الله عليه وسلم الإجابات التي يرد بها على شبهات المشركين وأكاذيبهم، وساقت له ما يسليه عن سفاهاتهم، وما يشرح صدره، ويعينه على تبليغ رسالة ربه.

وَأَن لَّوِ ٱسْتَقَٰمُوا۟ عَلَى ٱلطَّرِيقَةِ لَأَسْقَيْنَٰهُم مَّآءً غَدَقًا ﴿١٦﴾

إن من يستقم على شرع الله؛ سيسقيه الله الماء الهني العذب، والماء هو أساس الحياة وما فيها من رزق وغيره.

ذكر الطبري: يقول تعالى ذكره: وأن لو استقام هؤلاء القاسطون على طريقة الحقّ والاستقامة ﴿لأَسْقَيْنَاهُمْ مَاءً غَدَقًا﴾، يقول: لوسّعنا عليهم في الرزق، وبسطناهم في الدنيا ﴿لِنَفْتِنَهُمْ فِيهِ﴾ يقول: لنختبرهم فيه.

ذكر الطنطاوي: أي: ولو أن هؤلاء العادلين عن طريق الحق إلى طريق الباطل استقاموا على الطريقة المثلى، التي هي طريق الإسلام، والتزموا بما جاءهم به النبي صلى الله عليه وسلم من عند ربه. لو أنهم فعلوا ذلك، لفتحنا عليهم أبواب الرزق، ولأعطيناهم من بركاتنا وخيراتنا الكثير، وخص الماء الغدق بالذكر، لأنه أصل المعاش والسعة.

عَالِمُ الْغَيْبِ فَلَا يُظْهِرُ عَلَى غَيْبِهِ أَحَداً (٢٦) إِلَّا مَنِ ارْتَضَى مِن رَّسُولٍ
فَإِنَّهُ يَسْلُكُ مِن بَيْنِ يَدَيْهِ وَمِنْ خَلْفِهِ رَصَداً (٢٧) لِّيَعْلَمَ أَن قَدْ أَبْلَغُوا
رِسَالَاتِ رَبِّهِمْ وَأَحَاطَ بِمَا لَدَيْهِمْ وَأَحْصَى كُلَّ شَيْءٍ عَدَداً (٢٨)

إن الله هو مالك كل شيء وهو عالم بكل شيء، وقد أبقى علم الغيب عنده، يُطلع عليه من شاء من رسول، ولا يترك من أطلعه دون رقابة شديدة رغم علو قدره ومكانته، فإنه جلّ في علاه يجعل له من يرقبه من بين يديه ومن خلفه. وذلك ليعلم – وهو العالم بكل شيء دون الحاجة لمثل أولئك الرصد –، لكنه جل شأنه يُعلِّم عباده بأن الأشياء المهمة تحتاج

عناية خاصة وأن الحاكم والراعي مسؤول عن رعيته وعليه تتبع التنفيذ ليكون سليماً بأحسن حال، وأنه محيط بكل ما يفعلونه، بل هو سبحانه وتعالى يَعدُّ على رسله كل شيء يفعلونه ويحصيه لهم؛ فاستخدام علم الإِحصاء وتوظيفه في العمل أمر لابد منه لاتخاذ القرارات الصحيحة.

تفسير سورة المزمل

رقم السورة: ٧٣ وهي مكية وعدد آياتها: ٢٠.

ذكر الطنطاوي: السورة الكريمة زاخرة بالحديث الذي يدخل التسلية والصبر على قلب النبي صلى الله عليه وسلم، ويُعلي من شأن القرآن الكريم، ويرشد المؤمنين إلى ما يسعدهم ويصلح بالهم، ويهدد الكافرين بسوء المصير إذا ما استمروا في طغيانهم، ويذكّر الناس بأهوال يوم القيامة.

إِنَّ رَبَّكَ يَعْلَمُ أَنَّكَ تَقُومُ أَدْنَىٰ مِن ثُلُثَيِ اللَّيْلِ وَنِصْفَهُ وَثُلُثَهُ وَطَائِفَةٌ مِّنَ الَّذِينَ مَعَكَ ۚ وَاللَّهُ يُقَدِّرُ اللَّيْلَ وَالنَّهَارَ ۚ عَلِمَ أَن لَّن تُحْصُوهُ فَتَابَ عَلَيْكُمْ ۖ فَاقْرَءُوا مَا تَيَسَّرَ مِنَ الْقُرْآنِ ۚ عَلِمَ أَن سَيَكُونُ مِنكُم مَّرْضَىٰ ۙ وَآخَرُونَ يَضْرِبُونَ فِي الْأَرْضِ يَبْتَغُونَ مِن فَضْلِ اللَّهِ ۙ وَآخَرُونَ يُقَاتِلُونَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ ۖ فَاقْرَءُوا مَا تَيَسَّرَ مِنْهُ ۚ وَأَقِيمُوا الصَّلَاةَ وَآتُوا الزَّكَاةَ وَأَقْرِضُوا اللَّهَ قَرْضًا حَسَنًا ۚ وَمَا تُقَدِّمُوا لِأَنفُسِكُم مِّنْ خَيْرٍ تَجِدُوهُ عِندَ اللَّهِ هُوَ خَيْرًا وَأَعْظَمَ أَجْرًا ۚ وَاسْتَغْفِرُوا اللَّهَ ۖ إِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ (٢٠)

إنه الله واسع العلم محيط بكل شيء يعلم أن رسوله صلى الله عليه وسلم وطائفة ممن معه يقومون الليل لعبادته جلّ وعلا.

إن الله هو من يُقدِّر الليل والنهار، وهذا من لطف الله تعالى ودقة صنعه حيث إن هذا الاختلاف يكون خلال العام، وبحسب الموقع من الكرة الأرضية بحساب دقيق.

هو يعلم أن الإِنسان لن يقوى على إحصائه فكان سبحانه تواباً رحيماً بعباده.

فطلب من عباده أن يقرؤوا القرآن ما استطاعوا لذلك وهذا من رحمته وقد أوضح الله تعالى بعض أسباب انشغال الناس؛ فمنهم المرضى، ومنهم من يعمل ويسعى على عمله ويختلف ذلك باختلاف طبيعة العمل، وآخرون منشغلون في القتال في سبيل الله تعالى.

لذلك ليقرأ كل منهم ما تيسر له من القرآن، وليقم الصلاة، وليؤت زكاة ماله، وليقرض الله قرضاً حسناً، ويكون ذلك بما أنفقه صدقة وزكاة أو بإِقراض المال للناس قرضاً حسناً دون زيادة، لأن كل ما يُقدمه الإِنسان في هذه الحياة إنما يقدمه لنفسه فينفعها ذلك بالأجر العظيم.

وقد أمر الله عباده بأن يستغفروه لأنه الغفار الرحيم.

تفسير سورة المدثر

رقم السورة: ٧٤ وهي مكية وعدد آياتها: ٥٦.

ذكر الطنطاوي: من أهم مقاصد السورة تكريم النبي صلى الله عليه وسلم، وأمره بتبليغ ما أوحاه الله تعالى إليه إلى الناس، وتسليته عما أصابه من أذى، وتهديد أعدائه بأشد ألوان العقاب، وبيان حسن عاقبة المؤمنين، وسوء عاقبة المكذبين، والرد عليهم بما يبطل دعاواهم.

وَلَا تَمْنُن تَسْتَكْثِرُ ﴿٦﴾

يخاطب الله تعالى رسوله الكريم عليه الصلاة والسلام، وهذا موجه لجميع الناس، فمِن أدب العطاء والتصدق بالخير، ألا يُلحق الإِنسان عمله بالمنة لمن تصدق عليه؛ فيكون هذا مدعاة لأن يُكثر الله عليه ويبارك له فيما فعل؛ فالأجر الحقيقي هو من الله تعالى.

ذكر القرطبي: قول ابن عباس: لا تعط لتأخذ أكثر مما أعطيت من المال، يقال: مننت فلانا كذا أي أعطيته، ويقال للعطية المنة، فكأنه أمر بأن تكون عطاياه لله، لا لارتقاب ثواب من الخلق عليها ... وقد يكون المنُّ بمعنى التعداد على المنعم عليه بالنعم، فيرجع إلى القول الثاني، ويعضده قوله تعالى: لا تبطلوا صدقاتكم بالمن والأذى.

تفسير سورة الإنسان

رقم السورة: ٧٦ وهي مدنية وعدد آياتها: ٣١.

ذكر الطنطاوي: من مقاصد السورة تذكير الإنسان بنعم الله تعالى عليه، حيث خلقه سبحانه من نطفة أمشاج، وجعله سميعاً بصيراً، وهداه السبيل. وأعد له ما أعد من النعيم الدائم العظيم، متى أطاعه واتقاه.

كما أن من مقاصدها إنذار الكافرين بسوء العاقبة إذا ما استمروا على كفرهم. وإثبات أن هذا القرآن من عند الله تعالى، وأمر الرسول صلى الله عليه وسلم وأمته بالصبر والإكثار من ذكر الله تعالى بكرة وأصيلاً.

﴿وَيُطْعِمُونَ الطَّعَامَ عَلَىٰ حُبِّهِ مِسْكِينًا وَيَتِيمًا وَأَسِيرًا ﴿٨﴾ إِنَّمَا نُطْعِمُكُمْ لِوَجْهِ اللَّهِ لَا نُرِيدُ مِنكُمْ جَزَاءً وَلَا شُكُورًا ﴿٩﴾﴾

إن من صفات الأبرار الذين يُجزون الجزاء الأوفى أنهم يُطعمون الطعام للمساكين واليتامى وللأسير حباً بالله دون أجر منتظر لقاء ذلك.

﴿إِنَّ هَٰؤُلَاءِ يُحِبُّونَ الْعَاجِلَةَ وَيَذَرُونَ وَرَاءَهُمْ يَوْمًا ثَقِيلًا ﴿٢٧﴾﴾

إن المكذبين يحبون الحياة الدنيا ويركنون إليها تاركين الحياة الآخرة غير مصدقين بها وقد ذكرتهم غير آية بالدهريين، وهذا تخطيط غير محمود

حيث لا توازن فيه؛ فالمخاطر التي يُعرِض عنها أولئك تستحق التوقف عندها؛ فالعذاب شديد وفيه الخلود الذي لا خروج منه. لذلك سماه الله تعالى باليوم الثقيل وهو يوم القيامة حيث يتبين الإنسان فيه مصيره الخالد.

تفسير سورة المرسلات

رقم السورة: ٧٧ وهي مدنية وعدد آياتها: ٥٠ .

ذكر الطنطاوي: السورة زاخرة بالحديث عن أهوال يوم القيامة، وعن أحوال المكذبين في هذا اليوم، وعن مظاهر قدرة الله تعالى، وعن حُسن عاقبة المتقين.

أَلَمْ نَخْلُقكُّم مِّن مَّاءٍ مَّهِينٍ (٢٠) فَجَعَلْنَاهُ فِي قَرَارٍ مَّكِينٍ (٢١) إِلَىٰ قَدَرٍ مَّعْلُومٍ (٢٢) فَقَدَرْنَا فَنِعْمَ الْقَادِرُونَ (٢٣)

يُذكّر الله تعالى الإنسان بسيرة خلقه ومراحلها، فالله قدّر له حياته، والتقدير تخطيط دقيق؛ لذلك حمد الله نفسه بالقول فنعم القادرون من حيث قدرته وتقديره المحكم جلّ شأنه.

أَلَمْ نَجْعَلِ الْأَرْضَ كِفَاتًا (٢٥) أَحْيَاءً وَأَمْوَاتًا (٢٦) وَجَعَلْنَا فِيهَا رَوَاسِيَ شَامِخَاتٍ وَأَسْقَيْنَاكُم مَّاءً فُرَاتًا (٢٧)

يُذكّر الله الإنسان بما خَلقه له؛ فقد جعل له الأرض سُكنى في حياته وفي مماته، وجعل فيها الجبال المرتفعة وسقاه فيها الماء العذب الفرات.

تفسير سورة النبأ

رقم السورة: ٧٨ وهي مكية وعدد آياتها: ٤٠ .

ذكر الطنطاوي: هذه السورة من مقاصدها توبيخ المشركين على خوضهم في القرآن الكريم بدون علم، وتهديدهم بسوء المصير إذا ما استمروا في طغيانهم، وإقامة الأدلة المتنوعة على وحدانية الله تعالى وعلى مظاهر قدرته، وبيان ما أعده سبحانه للكافرين من عقاب، وما أعده للمتقين من ثواب، وإنذار للناس بوجوب تقديم العمل الصالح من قبل أن يأتي يوم القيامة، الذي لا ينفع فيه الندم على ما فات .

أَلَمْ نَجْعَلِ الْأَرْضَ مِهَاداً ﴿٦﴾ وَالْجِبَالَ أَوْتَاداً ﴿٧﴾ وَخَلَقْنَاكُمْ
أَزْوَاجاً ﴿٨﴾ وَجَعَلْنَا نَوْمَكُمْ سُبَاتاً ﴿٩﴾ وَجَعَلْنَا اللَّيْلَ لِبَاساً
﴿١٠﴾ وَجَعَلْنَا النَّهَارَ مَعَاشاً ﴿١١﴾ وَبَنَيْنَا فَوْقَكُمْ سَبْعاً شِدَاداً ﴿١٢﴾
وَجَعَلْنَا سِرَاجاً وَهَّاجاً ﴿١٣﴾ وَأَنزَلْنَا مِنَ الْمُعْصِرَاتِ مَاءً ثَجَّاجاً
﴿١٤﴾ لِّنُخْرِجَ بِهِ حَبّاً وَنَبَاتاً ﴿١٥﴾ وَجَنَّاتٍ أَلْفَافاً ﴿١٦﴾

مهد الله الأرض للإنسان ليعيش فيها متمكناً.

وجعل الجبال ماسكة لها كيلا تضطرب .

وجعل الناس زوجين زوجين ليتكاثروا ويتوالدوا.

وجعل النوم راحة لهم، والليل لباساً لا حركة فيه.

وجعل النهار للمعاش والعمل والحركة.

وبنى سبع سماوات شديدة القوة متماسكة البناء؛ هي سقف للأرض، فيها منافع كثيرة للإنسان.

جعل فيها الشمس تنير الدنيا وتبعث فيها الحرارة والدفء ومصدراً للطاقة.

وأنزل من السحاب الماء الكثير.

فأخرج به الحب والنبات الذي منه تأكلون كما تأكل منه أنعامكم التي فيها منافع كثيرة لكم.

وجعل فيها الجنات المعروشات، التي تضفي الجمال على الأرض وتبعث الحيوية وتعطيكم ما طاب من الفواكه اللذيذة وغيرها من الثمرات.

وَكُلَّ شَيْءٍ أَحْصَيْنَاهُ كِتَابًا ﴿٢٩﴾

لقد أحصى الله تعالى كل شيء مسجلاً في كتاب يخصه، وهذا يدل على أهمية علم الإحصاء ودلالاته، وأنه علم يُكتب مسطوراً في الكتب والسجلات فلا يحفظ غيباً.

تفسير سورة النازعات

رقم السورة: ٧٩ وهي مكية وعدد آياتها: ٤٦ .

أَأَنتُمْ أَشَدُّ خَلْقًا أَمِ السَّمَاءُ ۚ بَنَاهَا ﴿٢٧﴾ رَفَعَ سَمْكَهَا فَسَوَّاهَا ﴿٢٨﴾
وَأَغْطَشَ لَيْلَهَا وَأَخْرَجَ ضُحَاهَا ﴿٢٩﴾

يسأل الله تعالى الإنسان وهو أعلم، هل خَلقُكم أعظم أم خلق السماء؟ جعلها عالية سميكة خالية من أي عيب فسواها بهذا الجمال؛ جعل ليلها مظلما، ونهارها مضيئاً.

وَالْأَرْضَ بَعْدَ ذَٰلِكَ دَحَاهَا ﴿٣٠﴾ أَخْرَجَ مِنْهَا مَاءَهَا وَمَرْعَاهَا ﴿٣١﴾
وَالْجِبَالَ أَرْسَاهَا ﴿٣٢﴾ مَتَاعًا لَّكُمْ وَلِأَنْعَامِكُمْ ﴿٣٣﴾

ثم الأرض دحاها ومهدها وبسطها للعيش فيها.

أخرج منها الماء الذي منه الشراب، وبه أخرج المرعى الذي فيه الطعام.

وأرسى فيها الجبال الشاهقات.

كل ذلك متاعاً لكم أي تتمتعون به لحين من الزمن أنتم وأنعامكم.

تفسير سورة عبس

رقم السورة: ٨٠ وهي مكية وعدد آياتها: ٤٢.

فَلْيَنظُرِ الْإِنسَانُ إِلَىٰ طَعَامِهِ ﴿٢٤﴾ أَنَّا صَبَبْنَا الْمَاءَ صَبًّا ﴿٢٥﴾ ثُمَّ شَقَقْنَا الْأَرْضَ شَقًّا ﴿٢٦﴾ فَأَنبَتْنَا فِيهَا حَبًّا ﴿٢٧﴾ وَعِنَبًا وَقَضْبًا ﴿٢٨﴾ وَزَيْتُونًا وَنَخْلًا ﴿٢٩﴾ وَحَدَائِقَ غُلْبًا ﴿٣٠﴾ وَفَاكِهَةً وَأَبًّا ﴿٣١﴾ مَّتَاعًا لَّكُمْ وَلِأَنْعَامِكُمْ ﴿٣٢﴾

يطلب الله تعالى من الإنسان أن يتفكر بالنظر لطعامه، فقد أنزل الله تعالى الماء من السماء فانشقت الأرض الصلبة؛ ليخرج منها نبات على شكل حبٍّ مختلف الأصناف، وعنباً وقضباً مما يؤكل أخضراً كالخيار وما شابهه وكل ذلك مختلف اللون والطعم، وزيتوناً ونخلاً، وحدائق وبساتين ملأى بالشجر وبالزروع والفواكه، وكذلك طعام الأنعام من العشب والكلأ.

كل ذلك متاع لكم ولأنعامكم تتمتعون فيه لحين من الدهر، وتستفيدون منه، وتنتفعون به بأشكال عديدة.

تفسير سورة المطففين

رقم السورة: ٨٣ وهي مكية وعدد آياتها: ٣٦.

﴿وَيْلٌ لِّلْمُطَفِّفِينَ ۝١﴾

يهدد الله تعالى الذين يطففون المكيال والميزان ويتلاعبون بحسابات الناس وحقوقهم ظلماً وعدواناً بالويل وهو وادٍ في جهنم.

﴿الَّذِينَ إِذَا اكْتَالُوا عَلَى النَّاسِ يَسْتَوْفُونَ ۝٢﴾

فهم إذا اكتالوا على الناس أخذوا ما لا يستحقون زيادة عن حقهم المفترض.

﴿وَإِذَا كَالُوهُمْ أَو وَّزَنُوهُمْ يُخْسِرُونَ ۝٣﴾

أما إذا كالوهم أو وزنوهم فتراهم يُقللون ويُنقصون ويبخسون وهذا سرقة لحقوق الغير.

﴿كَلَّا ۖ بَلْ ۜ رَانَ عَلَىٰ قُلُوبِهِم مَّا كَانُوا يَكْسِبُونَ ۝١٤﴾

إن الكسب الحرام وفعل الآثام مؤداه اسوداد القلب وعدم تمييزه للحق من الباطل؛ مما يجعل صاحبه غارقاً في المعاصي دون حرج أو ندم.

﴿كِتَابٌ مَّرْقُومٌ ﴿٢٠﴾ يَشْهَدُهُ الْمُقَرَّبُونَ ﴿٢١﴾﴾

إن الموضوعية موجودة في كل نواحي هذه الشريعة، فالكتاب الذي هو سجل أعمال الناس ليحاسبوا به، ويكون عليهم شهيداً؛ هو كتاب مرقوم؛ أي متسلسل الأرقام. عليه شهود من المقربين أي من الملائكة المقربين، وهذا لمزيد من الموضوعية والاستقلالية والحياد.

﴿خِتَامُهُ مِسْكٌ ۚ وَفِي ذَٰلِكَ فَلْيَتَنَافَسِ الْمُتَنَافِسُونَ ﴿٢٦﴾﴾

ترسي هذه الآية الكريمة مفهوماً غير مألوف للبشر في التنافس، فالمنافسة تكون بالأعمال الصالحة المقربة لفاعلها من الله تعالى، وليس في غير ذلك من الماديات.

تفسير سورة الأعلى

رقم السورة: ٨٧ وهي مكية وعدد آياتها: ١٩.

﴿وَالَّذِي أَخْرَجَ الْمَرْعَىٰ ﴿٤﴾ فَجَعَلَهُ غُثَاءً أَحْوَىٰ ﴿٥﴾﴾

الله تعالى هو من أخرج المرعى للأنعام تأكله وتتعيش عليه ليستفيد منه ومنها الإنسان.

وجعله حطاماً مكسراً؛ ليسهل على الحيوانات أكله.

تفسير سورة الغاشية

رقم السورة: ٨٨ وهي مكية وعدد آياتها: ٢٦.

أَفَلَا يَنظُرُونَ إِلَى الْإِبِلِ كَيْفَ خُلِقَتْ ﴿١٧﴾

إن في خلق الإبل لآيات، طلب الله من الإنسان التفكر بخلقها؛ بالنظر إليها لما تقدمه له من منافع.

وَإِلَى السَّمَاءِ كَيْفَ رُفِعَتْ ﴿١٨﴾ وَإِلَى الْجِبَالِ كَيْفَ نُصِبَتْ ﴿١٩﴾ وَإِلَى الْأَرْضِ كَيْفَ سُطِحَتْ ﴿٢٠﴾

وأن ينظر للسماء كيف رفعت دون عمد؟

وإلى الجبال كيف نصبت؟

وإلى الأرض كيف سطحت؟

وهذه هي البيئة التي جهزها الله تعالى لعيش الإنسان فيها.

تفسير سورة الفجر

رقم السورة: ٨٩ وهي مكية وعدد آياتها: ٣٠.

فَأَمَّا الْإِنسَانُ إِذَا مَا ابْتَلَاهُ رَبُّهُ فَأَكْرَمَهُ وَنَعَّمَهُ فَيَقُولُ رَبِّي أَكْرَمَنِ ﴿١٥﴾
وَأَمَّا إِذَا مَا ابْتَلَاهُ فَقَدَرَ عَلَيْهِ رِزْقَهُ فَيَقُولُ رَبِّي أَهَانَنِ ﴿١٦﴾

يقول الإنسان عن ربه إذا ما ابتلاه بالإكرام أن ربه أكرمه، لكنه إذا أُبتلي بغير ذلك بأن قَدَرَ عليه شيئاً من متاع الدنيا؛ فيسارع للقول: بأن ربه أهانه، وهذا غير لائق بحق الله تعالى.

كَلَّا ۖ بَل لَّا تُكْرِمُونَ الْيَتِيمَ ﴿٢٧﴾

إن الله لا يُهين عبده إذا قدّر عليه رزقه، فرِزْق الله ليس في الدنيا وحسب، وهذا الابتلاء امتحان ليرى هل يشكره أم يكفره؟

لكنكم أنتم من تهينون الفقراء من اليتامى رغم عجزهم وحاجتهم فلا تعطونهم مما رزقكم الله إياه.

وَلَا تَحَاضُّونَ عَلَىٰ طَعَامِ الْمِسْكِينِ ﴿٢٨﴾

وأنتم لا تحضون بعضكم بعضاً على بذل الطعام لمحتاجيه من الفقراء المساكين.

وَتَأْكُلُونَ التُّرَاثَ أَكْلاً لَّمّاً ﴿٢٩﴾

تأكلون المال الذي ترثونه أكلاً لا تفرقون فيه بين حلال وحرام، آخذين حقوقكم وحقوق غيركم من الضعفاء.

وَتُحِبُّونَ الْمَالَ حُبّاً جَمّاً ﴿٣٠﴾

وإنكم تحبون المال الذي تجمعونه بشتى الطرق حباً يصل حد الشراهة والطمع؛ فلا تفرقون بين حرامه وحلاله.

تفسير سورة البلد

رقم السورة: ٩٠ وهي مكية وعدد آياتها: ٢٠.

لَقَدْ خَلَقْنَا الْإِنسَانَ فِي كَبَدٍ ﴿٤﴾

هذه هي حقيقة الدنيا، فالله تعالى الخالق يُخبر بأنه خلق الإنسان في هذه الحياة في تعب ومشقة، لأنها حياة اختباره وامتحانه.

أَيَحْسَبُ أَن لَّن يَقْدِرَ عَلَيْهِ أَحَدٌ ﴿٥﴾ يَقُولُ أَهْلَكْتُ مَالًا لُّبَدًا ﴿٦﴾
أَيَحْسَبُ أَن لَّمْ يَرَهُ أَحَدٌ ﴿٧﴾ أَلَمْ نَجْعَل لَّهُ عَيْنَيْنِ ﴿٨﴾ وَلِسَانًا
وَشَفَتَيْنِ ﴿٩﴾

فهل يظن هذا الإنسان أنه حرٌ فيما يفعل ولن يقدر عليه أحد لظنه أنه قوي شديد؟

ثم تراه يقول: كم أهلكت من الأموال الكثيرة متفاخراً متبختراً.

هل يظن أن لا أحداً يرقبه أو يراه؟

أليس له عينين يرى بهما؟

أليس له لساناً وشفتين ينطق بهما؟

﴿فَلَا اقْتَحَمَ الْعَقَبَةَ ۝١١﴾

العقبة استعارة قصد منها مجاهدة النفس على بذل المال والخير في الصعاب والأوقات الصعبة؛ وكأن الإنسان يُجاهد السير في طريق وعر.

﴿فَكُّ رَقَبَةٍ ۝١٣﴾

من ذلك عتق رقبة إنسان أصابه الرق.

﴿أَوْ إِطْعَامٌ فِي يَوْمٍ ذِي مَسْغَبَةٍ ۝١٤﴾

ومن ذلك إطعام الطعام وقت الشدائد والمجاعات لمحتاجيه.

﴿يَتِيمًا ذَا مَقْرَبَةٍ ۝١٥﴾

لليتامى المقربين؛ أي ذوي القربى.

﴿أَوْ مِسْكِينًا ذَا مَتْرَبَةٍ ۝١٦﴾

أو لمسكين شديد الفقر.

﴿ثُمَّ كَانَ مِنَ الَّذِينَ آمَنُوا وَتَوَاصَوْا بِالصَّبْرِ وَتَوَاصَوْا بِالْمَرْحَمَةِ ۝١٧ أُولَٰئِكَ أَصْحَابُ الْمَيْمَنَةِ ۝١٨﴾

فإن كان فاعل ما سبق بيانه من المؤمنين المتواصين بالصبر وبالرحمة فإنهم هم أصحاب الميمنة ممن سينجون يوم القيامة.

تفسير سورة الليل

رقم السورة: ٩٢ وهي مكية وعدد آياتها: ٢١ .

إِنَّ سَعْيَكُمْ لَشَتَّىٰ ﴿٤﴾

إن أعمالكم في هذه الدنيا فيها التنوع وفيها الشتات .

فَأَمَّا مَنْ أَعْطَىٰ وَاتَّقَىٰ ﴿٥﴾ وَصَدَّقَ بِالْحُسْنَىٰ ﴿٦﴾ فَسَنُيَسِّرُهُ لِلْيُسْرَىٰ ﴿٧﴾

فمن أنفق منكم في وجوه الخير واتقى الله العظيم، وآمن بالله تعالى، فسييسر الله حاله وأحواله من الشتات إلى الهدى والقوام الصحيح .

وَأَمَّا مَنْ بَخِلَ وَاسْتَغْنَىٰ ﴿٨﴾ وَكَذَّبَ بِالْحُسْنَىٰ ﴿٩﴾ فَسَنُيَسِّرُهُ لِلْعُسْرَىٰ ﴿١٠﴾ وَمَا يُغْنِي عَنْهُ مَالُهُ إِذَا تَرَدَّىٰ ﴿١١﴾

أما من بخل ولم ينفق في وجوه الخير، ثم كذب بالحسنى مما جاء من عند الله، فسييسر الله حاله وأحواله إلى العسر ليزداد شتاته شتاتاً، ولن يُغني عنه ماله الذي بخل به عنه بعد موته بل سيكون عليه وبالاً .

وَسَيُجَنَّبُهَا الْأَتْقَى ﴿١٧﴾ الَّذِي يُؤْتِي مَالَهُ يَتَزَكَّىٰ ﴿١٨﴾

وسيجنب النار من آتى من ماله؛ زكاته وصدقاته.

تفسير سورة الضحى

رقم السورة: ٩٣ وهي مكية وعدد آياتها: ١١.

سورة مكارم الأخلاق، فيها العطف على اليتيم، والإحسان إلى السائل، وعدم كتمان نعم الله تعالى.

﴿أَلَمْ يَجِدْكَ يَتِيمًا فَآوَىٰ ﴿٦﴾﴾

لقد منّ الله تعالى على رسوله الكريم صلى الله عليه وسلم بأن كان يتيماً فآواه وسخر له من يكفله.

﴿وَوَجَدَكَ عَائِلًا فَأَغْنَىٰ ﴿٨﴾﴾

ووجده صلى الله عليه وسلم فقيراً فأغناه بالمال وأغناه عن الاحتياج للناس.

﴿فَأَمَّا الْيَتِيمَ فَلَا تَقْهَرْ ﴿٩﴾﴾

لذلك لا تذل اليتيم ولا تقهره بل أكرِمه؛ كما أكرمك الله تعالى.

﴿وَأَمَّا السَّائِلَ فَلَا تَنْهَرْ ﴿١٠﴾﴾

ولا تنهر السائل الذي يسأل الناس من فقره وسوء حاله ليساعدوه.

وَأَمَّا بِنِعْمَةِ رَبِّكَ فَحَدِّثْ ﴿١١﴾

واشكر الله على نعمائه، وحدّث الناس بها لبيان فضل الله تعالى.

تفسير سورة التين

رقم السورة: ٩٥ وهي مكية وعدد آياتها: ٨.

وَالتِّينِ وَالزَّيْتُونِ ﴿١﴾

أقسم الله تعالى بهاتين الشجرتين؛ لكثرة منافعها وطيب ثمرهما.

تفسير سورة العلق

رقم السورة: ٩٦ وهي مكية وعدد آياتها: ١٩.

﴿الَّذِي عَلَّمَ بِالْقَلَمِ ﴿٤﴾﴾

ذكر الله العلم، وإحدى أدواته، وهي القلم تشريفاً له.

﴿عَلَّمَ الْإِنسَانَ مَا لَمْ يَعْلَمْ ﴿٥﴾﴾

توحي هذه الآية الكريمة بأن باب العلم مفتوح لا يُغلقه أحد، وأن الإنسان سيكتشف كثيراً مما لا يعلمه من سبقه، وسيكون ذلك بسلطان العلم.

﴿كَلَّا إِنَّ الْإِنسَانَ لَيَطْغَى ﴿٦﴾ أَن رَّآهُ اسْتَغْنَى ﴿٧﴾﴾

لكن هذا الإنسان سرعان ما يطغى ويتجبر؛ إن استغنى بما لديه من قوة ومال.

تفسير سورة البينة

رقم السورة: ٩٨ وهي مدنية وعدد آياتها: ٨.

وَمَا أُمِرُوا إِلَّا لِيَعْبُدُوا اللَّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ الدِّينَ حُنَفَاءَ وَيُقِيمُوا الصَّلَاةَ وَيُؤْتُوا الزَّكَاةَ ۚ وَذَٰلِكَ دِينُ الْقَيِّمَةِ ﴿٥﴾

أُمِر الناس أن يعبدوا الله تعالى وحده دون غيره ودون إشراك أحد معه بإخلاص وهذا إيمان به تعالى، وأن يقيموا الصلاة وهذه عبادة بدنية، ويؤتوا الزكاة وهذه عبادة مالية، وذلك هو الدين القيّم المستقيم.

تفسير سورة الزلزلة

رقم السورة: ٩٩ وهي مدنية وعدد آياتها: ٨.

فَمَن يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ خَيْرًا يَرَهُ ﴿٧﴾ وَمَن يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ شَرًّا يَرَهُ ﴿٨﴾

تفيد هذه الآية الكريمة بشدة الحساب فالمثقال وهو القدر اليسير من الخير أو من الشر؛ فإن الله سيحاسب صاحبه على عمله.

تفسير سورة الهمزة

رقم السورة: ١٠٤ وهي مكية وعدد آياتها: ٩.

الَّذِي جَمَعَ مَالًا وَعَدَّدَهُ ﴿٢﴾

إن الذي يَعيب الناس ويَطعنهم، ليس همه إلا جمع المال وعدّه، لا رغبة في إنفاقه في طرق الخير.

يَحْسَبُ أَنَّ مَالَهُ أَخْلَدَهُ ﴿٣﴾

يَظن أن ماله سيُخلده في هذه الدنيا.

تفسير سورة قريش

رقم السورة: ١٠٤ وهي مكية وعدد آياتها: ٤.

لِإِيلَافِ قُرَيْشٍ (١) إِيلَافِهِمْ رِحْلَةَ الشِّتَاءِ وَالصَّيْفِ (٢)

ذكر الله تعالى رحلتي قريش صيفاً إلى الشام وشتاء إلى اليمن وهذا النشاط المنتظم والترتيب هو رزق من الله تعالى لهم.

الَّذِي أَطْعَمَهُم مِّن جُوعٍ وَآمَنَهُم مِّنْ خَوْفٍ (٤)

فقد سد عنهم حاجة الجوع مما يكسبوه من تجارتهم وهي حاجة ضرورية، كما سد عنهم حاجة الخوف بأن جعل طريقهم آمنا في رحلتيهم وهي حاجة ضرورية أيضاً.

ولا تقوم التجارة إلا بأمن طريقها، كما لا تقوم حياة إلا بسد حاجتي الجوع والخوف.

تفسير سورة الماعون

رقم السورة: ١٠٧ وهي مكية وعدد آياتها: ٧.

فَذَٰلِكَ الَّذِي يَدُعُّ الْيَتِيمَ ﴿٢﴾

من يدفع اليتيم ويحقره، هو مكذب بيوم الدين.

وَلَا يَحُضُّ عَلَىٰ طَعَامِ الْمِسْكِينِ ﴿٣﴾

ومن لا يحض على طعام المسكين، هو مكذب بيوم الدين.

وَيَمْنَعُونَ الْمَاعُونَ ﴿٧﴾

هم يمنعون فعل الخير من إعارة أو ما شابهها من فعل للمعروف.

تفسير سورة المسد

رقم السورة: ١٠٧ وهي مكية وعدد آياتها: ٧.

مَا أَغْنَىٰ عَنْهُ مَالُهُۥ وَمَا كَسَبَ ﴿٢﴾

أبو لهب الذي نزلت به سورة تتلى إلى يوم القيامة:

كان غنياً مترفاً،

كان يؤذي رسول الله صلى الله عليه وسلم،

كان يؤذي المؤمنين به صلى الله عليه وسلم،

لن يُغني عنه ماله، ولا أي كسب كسبه.

وهذا بيان للدور السلبي للمال حيث يصبح وبالاً على صاحبه على الرغم من كونه نعمة أنعمها الله على من يرزقه إياه.

الخاتمة

الحمد لله الذي بنعمته تتم الصالحات، والصلاة والسلام على سيد الخلق محمداً، وبعد .

لقد سطَّرتُ النظرات الاقتصادية في تفسير الآي القرآنية في جزئه الأول: التفسير التحليلي، بفضل من الله تعالى . هو حلم طال ترقبه؛ عهد نذرت إنجازه منذ عشرين عاماً عندما صدني أحد دكاترتي في الجامعة – كما ذكرت في المقدمة –، وطالما خشيت أن لا أنجح فيه، أو أن يسبقني الموت دونه .

لقد أوضحت في هذا البحث أن آيات الله تعالى قد فَصَّلت في الاقتصاد تفصيلاً كبيراً، واستعنت بتفاسير عديدة لإِثبات وجهة نظري، واستنبطت ما فيها من إشارات اقتصادية مؤيدة لما ذهبت إليه، كما أخذت من تلك التفاسير الإشارات والأحكام الاقتصادية لبيان مدى بُعد نظر أولئك المفسرين فيما ذهبت إليه؛ فالآيات التي تناولها البحث تجاوزت الألف وثمانية وثمانون آية، من قرأ شروحها تباعاً سيجد نفسه أمام كتاب في الاقتصاد، كتابٍ يُقنن ويُقعّد، يشرح ويُعلل، فيبدو منهجاً واضحاً سَهلاً .

هو كتاب فيه كل شيء؛ فقد وردت عبارة: ﴿ضرب الله مثلاً﴾ في القرآن الكريم ثماني مرات[1]؛ أربعة منها تُعنى بالاقتصاد وشؤونه.

وسوف يتناول الجزء الثاني من الكتاب النظرات الاقتصادية في تفسير الآي القرآنية؛ التفسير الموضوعي، وسيبدو فيه البنيان الاقتصادي بكامل أركانه: التقوى والرضوان والخير؛ مطابقاً لقول الإله جلّ في علاه: ﴿أَفَمَنْ أَسَّسَ بُنْيَانَهُ عَلَى تَقْوَى مِنَ اللَّهِ وَرِضْوَانٍ خَيْرٌ أَم مَّنْ أَسَّسَ بُنْيَانَهُ عَلَى شَفَا جُرُفٍ هَارٍ فَانْهَارَ بِهِ فِي نَارِ جَهَنَّمَ وَاللَّهُ لاَ يَهْدِي الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ﴾ التوبة: ١٠٩.

---

[1] ورود ﴿ضرب الله مثلاً﴾ في القرآن الكريم:
١. إِنَّ اللَّهَ لَا يَسْتَحْيِي أَن يَضْرِبَ مَثَلًا مَّا بَعُوضَةً فَمَا فَوْقَهَا فَأَمَّا الَّذِينَ آمَنُوا فَيَعْلَمُونَ أَنَّهُ الْحَقُّ مِن رَّبِّهِمْ وَأَمَّا الَّذِينَ كَفَرُوا فَيَقُولُونَ مَاذَا أَرَادَ اللَّهُ بِهَذَا مَثَلًا يُضِلُّ بِهِ كَثِيرًا وَيَهْدِي بِهِ كَثِيرًا وَمَا يُضِلُّ بِهِ إِلَّا الْفَاسِقِينَ ﴿البقرة: ٢٦﴾
٢. أَلَمْ تَرَ كَيْفَ ضَرَبَ اللَّهُ مَثَلًا كَلِمَةً طَيِّبَةً كَشَجَرَةٍ طَيِّبَةٍ أَصْلُهَا ثَابِتٌ وَفَرْعُهَا فِي السَّمَاءِ ﴿ابراهيم: ٢٤﴾
٣. ضَرَبَ اللَّهُ مَثَلًا عَبْدًا مَّمْلُوكًا لَّا يَقْدِرُ عَلَى شَيْءٍ وَمَن رَّزَقْنَاهُ مِنَّا رِزْقًا حَسَنًا فَهُوَ يُنفِقُ مِنْهُ سِرًّا وَجَهْرًا هَلْ يَسْتَوُونَ الْحَمْدُ لِلَّهِ بَلْ أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْلَمُونَ ﴿النحل: ٧٥﴾
٤. وَضَرَبَ اللَّهُ مَثَلًا رَّجُلَيْنِ أَحَدُهُمَا أَبْكَمُ لَا يَقْدِرُ عَلَى شَيْءٍ وَهُوَ كَلٌّ عَلَى مَوْلَاهُ أَيْنَمَا يُوَجِّههُّ لَا يَأْتِ بِخَيْرٍ هَلْ يَسْتَوِي هُوَ وَمَن يَأْمُرُ بِالْعَدْلِ وَهُوَ عَلَى صِرَاطٍ مُّسْتَقِيمٍ ﴿النحل: ٧٦﴾
٥. وَضَرَبَ اللَّهُ مَثَلًا قَرْيَةً كَانَتْ آمِنَةً مُّطْمَئِنَّةً يَأْتِيهَا رِزْقُهَا رَغَدًا مِّن كُلِّ مَكَانٍ فَكَفَرَتْ بِأَنْعُمِ اللَّهِ فَأَذَاقَهَا اللَّهُ لِبَاسَ الْجُوعِ وَالْخَوْفِ بِمَا كَانُوا يَصْنَعُونَ ﴿النحل: ١١٢﴾
٦. ضَرَبَ اللَّهُ مَثَلًا رَّجُلًا فِيهِ شُرَكَاءُ مُتَشَاكِسُونَ وَرَجُلًا سَلَمًا لِّرَجُلٍ هَلْ يَسْتَوِيَانِ مَثَلًا الْحَمْدُ لِلَّهِ بَلْ أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْلَمُونَ ﴿الزمر: ٢٩﴾
٧. ضَرَبَ اللَّهُ مَثَلًا لِّلَّذِينَ كَفَرُوا امْرَأَتَ نُوحٍ وَامْرَأَتَ لُوطٍ كَانَتَا تَحْتَ عَبْدَيْنِ مِنْ عِبَادِنَا صَالِحَيْنِ فَخَانَتَاهُمَا فَلَمْ يُغْنِيَا عَنْهُمَا مِنَ اللَّهِ شَيْئًا وَقِيلَ ادْخُلَا النَّارَ مَعَ الدَّاخِلِينَ ﴿التحريم: ١٠﴾
٨. وَضَرَبَ اللَّهُ مَثَلًا لِّلَّذِينَ آمَنُوا امْرَأَتَ فِرْعَوْنَ إِذْ قَالَتْ رَبِّ ابْنِ لِي عِندَكَ بَيْتًا فِي الْجَنَّةِ وَنَجِّنِي مِن فِرْعَوْنَ وَعَمَلِهِ وَنَجِّنِي مِنَ الْقَوْمِ الظَّالِمِينَ ﴿التحريم: ١١﴾

لقد جربت البشرية بشرقها وغربها نُظماً ومذاهب شتى خلال سنيّ عمرها، ولطالما جانب بنيانها الجرف الهار، فهوى فيه ما هوى، ويتهاوى منه ما يتهاوى مترنحاً تعباً؛ فها هي الأزمات لا تفتأ تضرب أركان تلك النظم بشكل متتالي، ويكأن أصحابها بعلومهم العتيدة وصناديدهم يتعلمون بالممارسة؛ فلا يقوموا حتى يقعوا؛ فالبراغماتية والمصالح يحكمان ثوابتها؛ فتبدو رخوةً طريةً؛ بل متقلبةً لا تثبتُ على حال.

ويشمل ذلك المسلمين وغير المسلمين؛ إن خالفوا أوامر ربهم؛ حيث سيتحولون من حياة طيبة رغيدة إلى حياة الجوع والخوف، قال الله تعالى: ﴿ وَضَرَبَ اللَّهُ مَثَلاً قَرْيَةً كَانَتْ آمِنَةً مُّطْمَئِنَّةً يَأْتِيهَا رِزْقُهَا رَغَداً مِّن كُلِّ مَكَانٍ فَكَفَرَتْ بِأَنْعُمِ اللَّهِ فَأَذَاقَهَا اللَّهُ لِبَاسَ الْجُوعِ وَالْخَوْفِ بِمَا كَانُوا يَصْنَعُونَ ﴾ النحل: ١١٢.

أما الأنموذج الذي نحن بصدده، فمصدره قرآن كريم من قول ربٍّ عزيزٍ، قرآن حفظه الله تعالى وتعهد بحفظه من أي تحريف أو تزوير أو تغيير، ضُرب فيه للناس من كل مثل: اجتماعي واقتصادي وسياسي وغيره، قال رب العزة: ﴿ وَلَقَدْ ضَرَبْنَا لِلنَّاسِ فِي هَذَا الْقُرْآنِ مِن كُلِّ مَثَلٍ لَّعَلَّهُمْ يَتَذَكَّرُونَ ﴾ الزمر: ٢٧. تكررت فيه صور تعليم الله تعالى لعباده، وبيانه لهم بما يجب عمله وفعله، كتاب ضم ثوابت لا يحيد عنها المؤمنون به؛

ليعيشوا حياة طيبة في الدنيا والآخرة، تلك الثوابت تراعي مصالحهم عند الضرورة شرط عدم البغي والظلم.

فإن اتبع المسلمون أوامر ربهم؛ فلا خسف ولا غرق ولا عذاب بل حياة طيبة، قال الله تعالى: ﴿فَلَوْلاَ كَانَتْ قَرْيَةٌ آمَنَتْ فَنَفَعَهَا إِيمَانُهَا إِلَّا قَوْمَ يُونُسَ لَمَّا آمَنُوا كَشَفْنَا عَنْهُمْ عَذَابَ الخِزْيِ فِي الحَيَاةِ الدُّنْيَا وَمَتَّعْنَاهُمْ إِلَى حِينٍ﴾ يونس: ٩٨. هذا لأنهم أسسوا بنيانهم على تقوى من الله ورضوان. والاقتصاد أساس من أساسات ذلك البنيان، ويجب على أهل هذا الفن بناء القواعد الاقتصادية الصحيحة التي تحقق البنيان الراسخ.

لقد أوضح كتاب الله تعالى أن كل شيء حيّ قد جُعل من الماء: ﴿وَجَعَلْنَا مِنَ المَاءِ كُلَّ شَيْءٍ حَيٍّ أَفَلاَ يُؤْمِنُونَ﴾ الأنبياء: ٣٠؛ فمن الماء خُلقت الموارد البشرية، ومنه أيضاً خُلقت الموارد المادية، إذاً فالمتحكم في عناصر الاقتصاد هو خالق الماء، ذاك العزيز الذي خزائنه لا تنفد ولا مشكلة اقتصادية عنده لأنه يخلق من العدم، بينما المشكلة كائنة حاصلة عند غيره ممن هم دونه.

فالعزيز خلق كل شيء موزون: ﴿وَالأَرْضَ مَدَدْنَاهَا وَأَلْقَيْنَا فِيهَا رَوَاسِيَ وَأَنبَتْنَا فِيهَا مِن كُلِّ شَيْءٍ مَّوْزُونٍ﴾ الحجر: ١٩، ثم أفسد الإنسان هذا التوازن بقلة حيلته وطمعه وجشعه وجهله أيضاً، ﴿ظَهَرَ الْفَسَادُ فِي الْبَرِّ

وَالْبَحْرِ بِمَا كَسَبَتْ أَيْدِي النَّاسِ لِيُذِيقَهُم بَعْضَ الَّذِي عَمِلُوا لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ﴾ الروم: ٤١، والله تعالى لا يُصلح ما أفسده الناس، بل عليهم فعل ذلك: ﴿إِنَّ اللَّهَ لاَ يُصْلِحُ عَمَلَ الْمُفْسِدِينَ﴾ يونس: ٨١.

لقد ذهب ابن عاشور في تفسيره الإشاري إلى جعل **رزق الله للناس حاجاتهم وما يُشبعها** آية في بيان أنه الإله الواحد الأحد، يقول المولى عزّ وجلّ: ﴿أَمَّن يَبْدَأُ الْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُ وَمَن يَرْزُقُكُم مِّنَ السَّمَاءِ وَالأَرْضِ أَإِلَهٌ مَّعَ اللَّهِ ۚ قُلْ هَاتُوا بُرْهَانَكُمْ إِن كُنتُمْ صَادِقِينَ﴾ النمل: ٦٤.

قال ابن عاشور في تفسيره لهذه الآية: هذا انتقال إلى الاستدلال بتصرف الله تعالى بالحياة الأولى والثانية، وبإعطاء المَدَد لدوام الحياة الأولى مدة مقدرة، وفيه تذكير بنعمة الإيجاد ونعمة الإمدَاد، والاستفهام تقريريٌ لأنهم لا ينكرون أنه يبدأ الخلق وأنه يرزقهم.

وأدمج في خلال الاستفهام قوله: ﴿ثم يعيده﴾؛ لأن تسليم بدئه الخلق يُلجئهم إلى فهم إمكان إعادة الخلق التي أحالوها. ولما كان إعادة الخلق محلّ جدل، وكان إدماجها إيقاظاً وتذكيراً:

أعيد الاستفهام في الجملة التي عُطفت عليه بقوله: ﴿ومن يرزقكم من السماء والأرض﴾؛ ولأن الرزقَ مقارِنٌ لبدء الخلق؛ فلو عُطفَ على إعادة الخلق لتُوهِّم أنه يرزق الخلق بعد الإعادة؛ فيحسبوا أن رزقهم في

الدنيا من نِعم آلهتهم. وهذا مدخل اقتصادي؛ فخلق الحاجات في البشر، ثم خلق الرزق الذي يشبعها، كان أساس قيام أي اقتصاد بغض النظر عن شكله.

وختاماً..

بعد أن ألفت ووضعت أكثر من ٣١ مؤلفاً و٢٠٠ مقالاً بفضل الله تعالى وعونه، وبعد أن بدأت هذا التفسير الاقتصادي؛ جال بي الفكر في قدرة الله تعالى وعظمة تدبيره في قرآنه العظيم، وليس في الأمر مقارنة أو تشابهاً (حاشى لله)، بل هو تدبرٌ وتفكرٌ في عظمة هذا الخالق القادر المقتدر.

لقد تنزلت آيات القرآن عبر ٢٣ سنة بين مكة والمدينة، رافقت أحداثاً يومية عاشها المسلمون في رعاية نبيهم المصطفى صلى الله عليه وسلم؛ نزلت في أماكن عديدة؛ جاءت على مختلف الألسنة؛ منها:

- ما جاء عن قول الله تعالى،
- ومنها ما جاء بلسان نبي من أنبيائه عليهم الصلاة والسلام،
- ومنها ما جاء على لسان ملك من ملائكته عليهم السلام،
- ومنها ما جاء على لسان إبليس،
- ومنها ما جاء على لسان أناس معروفين أو غير معروفين،
- ومنها ما جاء على لسان مخلوقات من غير البشر كالنملة والطير وغيرهما،

- ومنها ما جاء على لسان ما نحسبه جمادات وهم لله عابدون، كما جاء على لسان النار، أو لسان الجنة، وكما جاء على لسان جلود الإنسان وبعض أعضائه التي ستشهد على فعاله، وهذا كله مما سيكون في الحياة الآخرة؛ أي أنها أحداث مستقبلية مما سيقع لاحقاً في علم الله تعالى.

بعد ذلك؛ جُمعت في كتاب الله الكريم دون أدنى لغط أو نقص أو تعارض؛ بل قال الله تعالى في معرض كتابه العزيز: ﴿ ذلك الكتاب لا ريب فيه ﴾، فهل يجرؤ مؤلف أو كاتب أن يدعي مطلع كتابه أن يقول مثل ذلك مدعياً أن ما سيذكره لا ريب فيه؟

لقد سمعنا من عمالقة التأليف كالشافعي قوله للمزني عن كتابه الرسالة بعدما أعاده عليه ثمانين مرة: (**كفى أبى الله أن يكون الكمال لغير كتابه**). كما اعتاد المؤلفون أن يبدؤوا كتبهم ومؤلفاتهم بالقول: (**إن عملي لا يخلو من النقص**)، فهم يمهدون لقرّائهم أن يتجاوزوا عن بعض أخطائهم التي لابد أنهم سيصادفونها.

إن جمع هذه الآيات المختلفة النزول زماناً ومكاناً وما فيه من روايات بألسن كثيرة لعجب؛ بل هو كل العجب والله؛ بل هو مما لا يمكن تصوره أبداً، وليس له وصف سوى أنه (**إعجاز**).

وبعد أن منّ الله علي وضع الجزء الأول من التفسير الاقتصادي، أدركت:

أن مجموع أفهام الرجال المفسرين ممن شُهد لهم بأنهم أهل التفسير عبر مختلف الأزمنة والأمكنة، وبمختلف مناهجهم؛ لم يصلوا لفهم المعاني التي أرادها الله تعالى في قرآنه العزيز. مما يُبقي القرآن الكريم معجزٌ أبد الدهر.

أما أنا العبد لله والفقير لعفوه؛ فقد اجتهدت في هذا البحث وبذلت ما مكنني الله فيه وأعانني عليه، ولكن لا يخلو عمل البشر من شيء من الخطأ أو التقصير حاشى الأنبياء؛ فما كان في عملي من صواب؛ فهو من فضل الله علي وتوفيقه، وما كان من خطأ أو تقصير فهو من نفسي.

أسأل الله العفو والمغفرة وأن يعينني على تدارك التقصير وأن يلهمني الصواب ويرزقني السداد، وأن ألقاه وهو راض عني. والله من وراء القصد.

اللهم تقبل عملي هذا خالصاً لوجهك الكريم، واجعل ثوابه في صحيفة والديّ، وأهلي جميعهم، واجعل العلم وحفظ القرآن الكريم والعمل بهما في ذريتي إلى يوم الدِين.

أما لسان حالي؛ فيقول: لو لم أفعل غير هذا؛ لكفاني

﴿دَعْوَاهُمْ فِيهَا سُبْحَانَكَ اللَّهُمَّ وَتَحِيَّتُهُمْ فِيهَا سَلَامٌ وَآخِرُ دَعْوَاهُمْ أَنِ الْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ﴾ يونس: ١٠

—

وكتبه الفقير إلى الله سامر مظهر قنطقجي

تم في حماة (حماها الله) في ٢٣ ربيع الأول ١٤٣٩ هـ / ١٠ كانون الأول ٢٠١٧ م

لقد أنهيت الكتاب ليلة ١٥-١٢-٢٠١٧ وسجدت لله تعالى سجود شكر دعوته بما فتح الله عليّ؛ ومنها قبول هذا الكتاب لوجهه الكريم.

استيقظت ليلتها على الرؤية التالية:

كنت في دار البريد وأنا أمام الصندوق رقم ٦٠٦ أو ٦٦٠ ثم قلت في نفسي أنا لدي صندوق بريد ورقمه ٧٥؛ إذاً هذه خزانة حفظ (كالتي تؤجرها المصارف) استلمت مفتاحها الذهبي وله ميدالية ذهبية. ثم خرجت من المبنى لأحضر زوجتي لأدلها على الخزانة وأعطيتها مفتاحاً ذهبياً له ميدالية ذهبية أيضاً.

في اليوم التالي تذكرت الرؤية وتذكرت دعاء سجود الشكر لله تعالى؛ فلعل ذلك قبول، وأن الكتاب صار محفوظاً داخل خزانة ذات مفتاح ذهبي وميدالية ذهبية (والله أعلم).

صدر للمؤلف

١) **ترشيد عمليات الصيانة بالأساليب الكمية** – نشر الكتروني. ويتضمن ثلاثة نماذج رياضية فريدة:

– نموذج استبدال التجهيزات (أسلوب البرمجة الديناميكية).

– نموذج تخزين قطع التبديل (أسلوب البرمجة الخطية والبرمجة الديناميكية).

– نموذج قياس الموثوقية.

٢) **دور الحضارة الإسلامية في تطوير الفكر المحاسبي** – نشر الكتروني.

٣) **فقه المحاسبة الإسلامية / الجزء الأول: المنهجية العامة**، نشرته مؤسسة الرسالة ناشرون بدمشق – والآن منشور الكترونيا.

٤) **معجم مصطلحات فقهية عربي / عربي** – نشر الكتروني.

٥) **فقه المحاسبة الإسلامية / الجزء الثاني: المحاسبة الاجتماعية**، نشرته دار النهضة بدمشق – والآن منشور الكترونيا.

٦) **مشكلة البطالة وعلاجها في الفقه الإسلامي**، نشرته مؤسسة الرسالة ناشرون بدمشق – والآن منشور الكترونيا.

٧) **الفروق الجوهرية بين المصارف الإسلامية والمصارف الربوية**، دار شعاع – والآن منشور الكترونيا.

٨) **صناعة التمويل في المصارف والمؤسسات المالية الإسلامية**، دار شعاع. – والآن منشور الكترونيا.

٩) **التأمين الإسلامي التكافلي، أسسه ومحاسبته**، دار شعاع.

١٠) **لغة الإفصاح المالي والمحاسبي XBRL**، دار أبي الفداء للنشر والتوزيع والترجمة – والآن منشور الكترونيا.

١١) **سياستا تحصيل الزكاة وإلغاء الضرائب الماليتين (فقه الاقتصاد المالي)**، دار شعاع – والآن منشور الكترونيا.

١٢) **صندوق القرض الحسن**، دار شعاع – والآن منشور الكترونيا.

١٣) **ضوابط الاقتصاد الإسلامي في معالجة الأزمات المالية العالمية**، نشرته دار النهضة بدمشق – ودار السيد بالمملكة العربية السعودية – ونشرته دار شعاع بحلب (نسخة مزيدة ومنقحة) – والآن منشور الكترونيا.

١٤) **فقه المعاملات الرياضي**، دار أبي الفداء للنشر والتوزيع والترجمة – نشر الكتروني. ويتضمن خمسة نماذج رياضية فريدة:

– النموذج الرياضي للربا.

– النموذج الرياضي للبيوع.

– النموذج الرياضي للغرر.

– النموذج الرياضي للاقتصاد الإسلامي.

– نموذج قياس أداء المعاملات الملية الإسلامية بديلا عن مؤشر اللايبور.

١٥) **فقه الأسواق**، (سلسة فقه المعاملات الإسلامية) مؤسسة الرسالة ناشرون بدمشق – والآن منشورة الكترونيا.

١٦) **فقه الإيراد**، (سلسة فقه المعاملات الإسلامية) مؤسسة الرسالة ناشرون بدمشق – والآن منشورة الكترونيا. والكتاب مترجم للغة الأوردو.

١٧) **فقه التكلفة**، (سلسة فقه المعاملات الإسلامية) مؤسسة الرسالة ناشرون بدمشق – والآن منشورة الكترونيا.

١٨) **فقه الربح**، (سلسة فقه المعاملات الإسلامية) مؤسسة الرسالة ناشرون بدمشق – والآن منشورة الكترونيا.

١٩) **أيهما أصلح في الاستثمار معيار الربح أم معيار الاستثمار؟**، (سلسة فقه المعاملات الإسلامية) مؤسسة الرسالة ناشرون بدمشق – والآن منشورة الكترونيا.

٢٠) **نموذج توزيع أرباح وخسائر شركات المضاربة الإسلامية – نموذج رياضي–**، (سلسة فقه المعاملات الإسلامية) مؤسسة الرسالة ناشرون بدمشق – والآن منشورة الكترونيا. والكتاب مترجم للانكليزية.

٢١) **الفساد، أسبابه ونتائجه والحلول المقترحة للقضاء عليه**، (سلسة فقه المعاملات الإسلامية) مؤسسة الرسالة ناشرون بدمشق – والآن منشورة الكترونيا.

٢٢) **معيار قياس أداء المعاملات المالية الإسلامية (بديلاً عن مؤشر الفائدة)**، (سلسلة فقه المعاملات الإسلامية) مؤسسة الرسالة ناشرون بدمشق – والآن منشورة الكترونيا.

٢٣) **مؤسسات البنية التحتية للصناعة المالية الإسلامية** – نشر الكتروني.

٢٤) **أربعون قاعدة في الاقتصاد لبناء الأمة وإصلاح البلاد قواعد اقتصادية من أحاديث النبي صلى الله عليه وسلم** – نشرته دار الحديث والسيرة النبوية بدمشق – نشر الكتروني، ونشرته هيئة الاعجاز العلمي في القرآن والسنة لشمال المغرب.

٢٥) **البحثُ العلميُّ نظراتٌ في مَنهجِه ورسالتِه** – نشر الكتروني.

٢٦) **فقه الابتكار المالي بين التثبت والتهافت** – نشر الكتروني.

٢٧) **منهج التغيير في كلمات رئيس التحرير** – نشر الكتروني.

٢٨) **نظرات في كتاب لمحة الناظر في مسك الدفاتر** (تأليف مشترك) – نشر الكتروني.

٢٩) **حلو الكلام** – نشر الكتروني.

٣٠) **إضاءات على الهداية الإلهامية في مسك الدفاتر والأعمال التجارية** (تأليف مشترك) – نشر الكتروني.

٣١) **معيار قياس أداء المعاملات المالية الإسلامية، (مقام) بديلا عن مؤشر اللايبور** – نشر الكتروني.

٣٢) **محاسبة التأمين الإسلامي** – نشر الكتروني.

٣٣) **نظرات اقتصادية في تفسير الآي القرآنية – الجزء الأول: التفسير التحليلي** – نشر الكتروني.

إضافة لحوالي ٢٠٠ مقال متخصص.

جميع المؤلفات متاحة على الرابط:

http://kantakji.com/samer-kantakji-books-articles.aspx

KIE Publication

جامعة كاي

جامعة أونلاين مرخصة من التعليم العالي

متخصصة في الاقتصاد الإسلامي وعلومه

https://kie.university